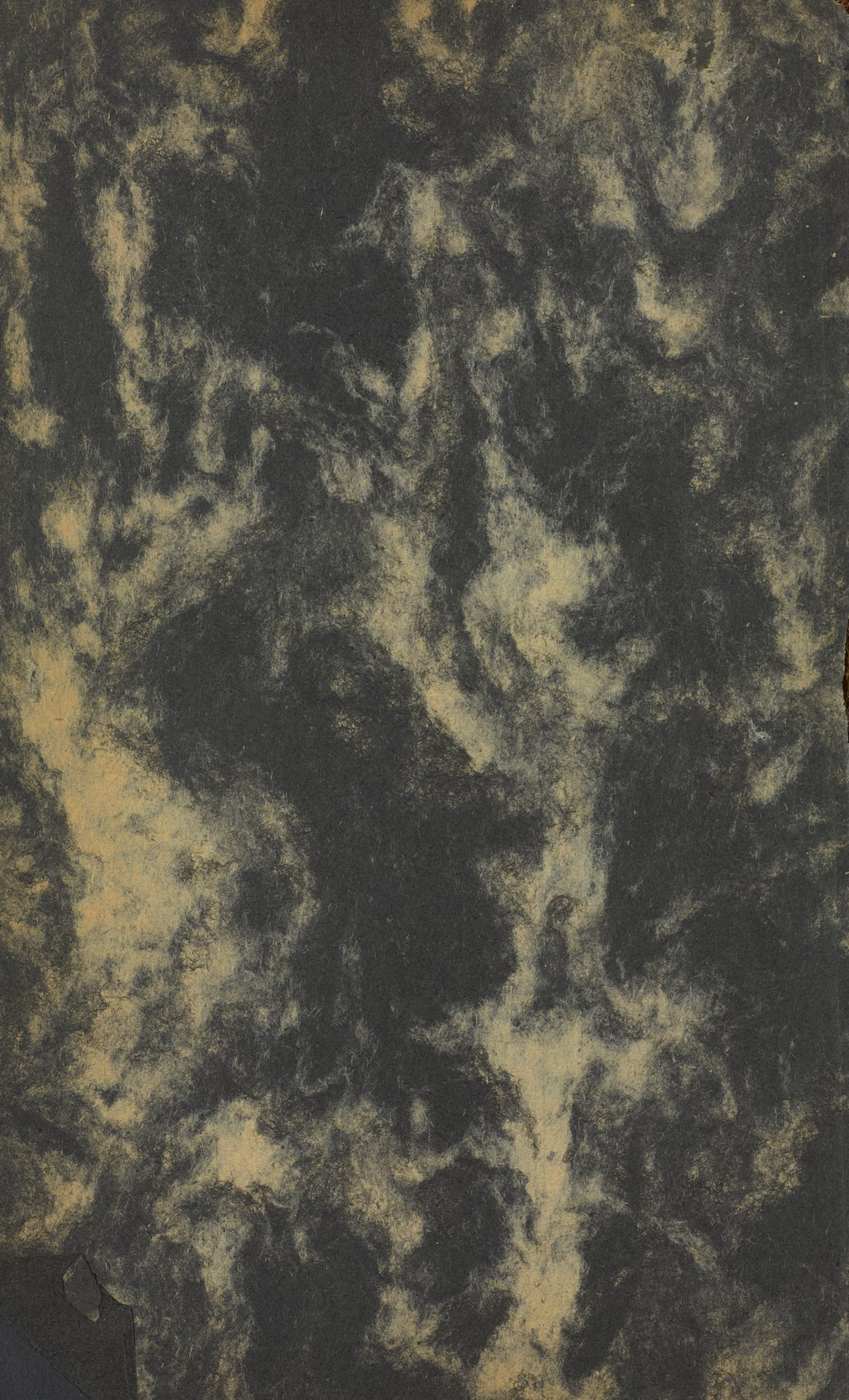
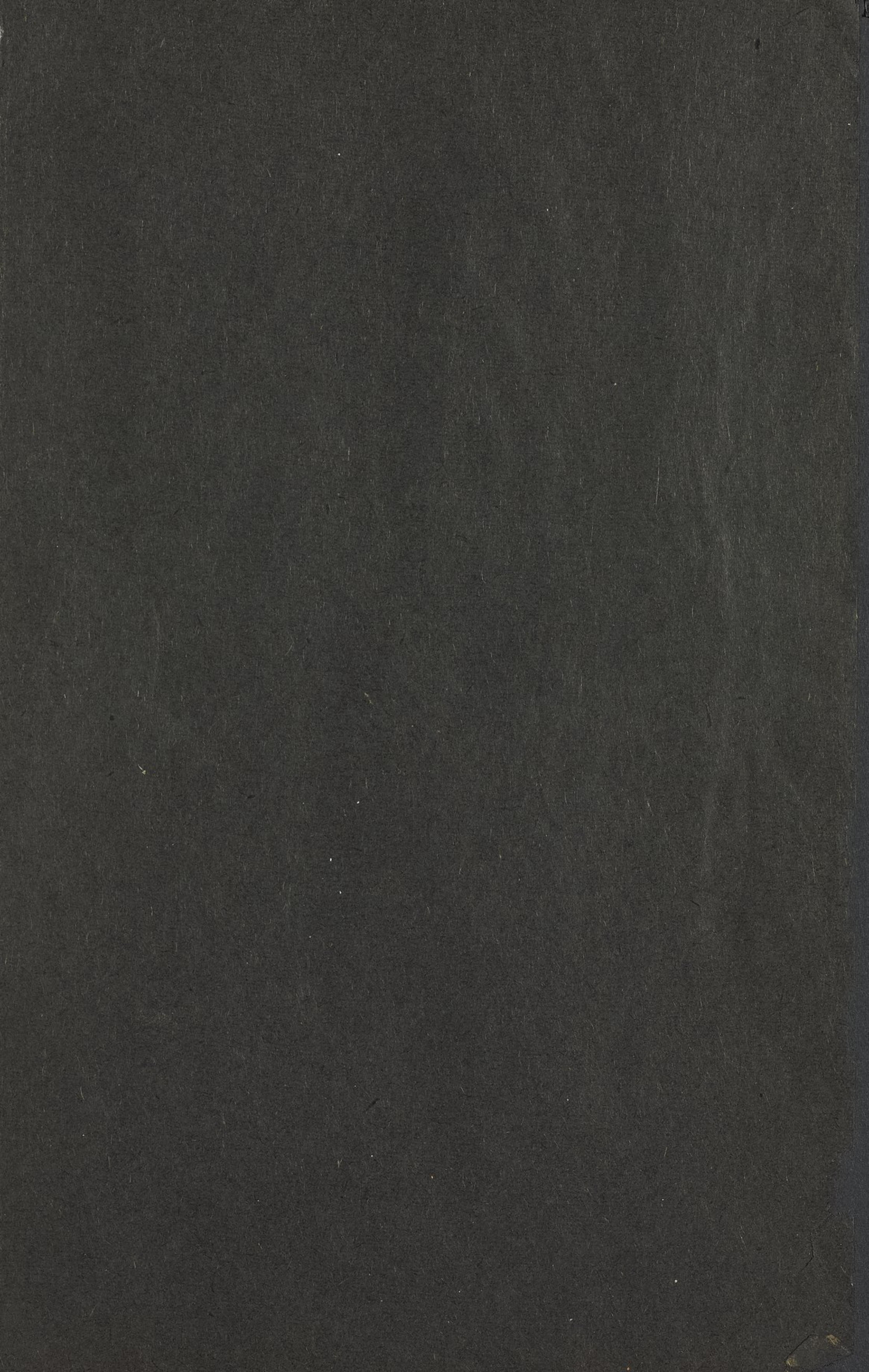






نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقَّرِىّ التِّلْمسانىّ

المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد

الجزء الثانى

الطبعــــة الأولى

فى عام ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

الباب الرابع

فى ذكر قُرْطُبة التى كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ، وجامِعِها الأموِى ذى البدائع الباهية الباهرة ، والإلماع بحَضْرتى الملك الناصرية الزَّهْراء(١) والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من منتزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة ، وما يجر إليه شُجُون الحديث من أمور تقضى بحُسْن إيرادها(٢) القرائح الوقادة والأفكار الماهرة .

وصف قرطبة لابن سعيد

قال ابن سعيد رحمه الله : مملكة قُرْطُبة فى الإقليم الرابع ، و إيالته للشمس ، وفى هذه المملكة معدن الفضة الخالصة فى قرية كَرَتْشَ ، ومعدن الزئبق والزنجفر فى بلد بسطاسة(٣) ، ولأجزائها خواصّ مذكورة فى متفرقاتها ، وأرضها أرض كريمة النبات(٤) ، انتهى .

وقدّم رحمه الله فى المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الأندلس وقال : إنما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس الأول اتخذوها سريراً للسلطنة الأندلس ، ولم يعدلوا عن حضرتها [قرطبة] ، ثم سلاطين بنى أمية وخلفاؤهم ، لم يعدلوا عن هذه المملكة ، وتقلبوا منها فى ثلاثة أقطار(٥) أداروا فيها خلافتهم : قرطبة ، والزهراء ، والزاهرة ، و إنما اتخذوها لهذا الشأن لما رأوها لذلك أهلا ، وقرطبة أعظم علما وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها .

ثم قسم ابن سعيد كتاب « الحلة المذهبة ، فى حِلَى ممالك قُرْطُبة » بالنظر إلى الكُوَر إلى أحَدَ عشر كتابا : الكتاب الأول كتاب « الحلة الذهبية ، فى حِلَى الكورة القرطبية » الكتاب الثانى كتاب « الدرر المصونة ، فى حِلَى كورة

(١) فى ب « بحضرة الملك الناصرية الناصرة ــ إلخ »
(٢) فى ب « تقضى بحسن أدائها » (٣) فى ب « بسطائسه »
(٤) فى ا « وهى أرض كريمة للنبات » (٥) فى ا « ثلاثة أقطاب »

بلكونة » الكتاب الثالث كتاب « محادثة السير ، فى حِلَى كورة القصير »
الكتاب الرابع كتاب « الوَشْى المُصَوَّر ، فى حِلَى كورة المُدَوَّر » الكتاب الخامس
كتاب « نيل المراد ، فى حِلَى كورة مراد » الكتاب السادس كتاب « المُزْنَة ،
فى حِلَى كوره كزنة » الكتاب السابع كتاب « الدر النافق ، فى حلى كورة غافق »
الكتاب الثامن كتاب « النفحة الأرِجَة ، فى حِلَى كورة اسْتِجَة » الكتاب التاسع
كتاب « الكواكب الدرية ، فى حِلَى الكورة القبرية » الكتاب العاشر كتاب
« رقة المحبة ، فى حلى كورة إستبة » الكتاب الحادى عشر كتاب « السَّوْسَانَة ،
فى حِلَى كورة اليسانة » انتهى ، قال رحمه الله تعالى : إن العمارة اتَّصلت فى مبانى
قرطبة والزهراء والزاهرة ، بحيث إنه كان يُمْشَى فيها لضوء السرج الممتدَّة[1] عشرة
أميال حسبما ذكره الشَّقَنْدِى فى رسالته ، ثم قال : ولكل مدينة من مدن قرْطبة
وأعمالها ذكر مختص به ، ثم ذكر المسافات التى بين ممالك قُرْطُبَة المذكورة فقال :
بين المُدَوَّر وقُرْطُبَة ستة عشر ميلا ، و بين قُرْطُبَة ومُرَاد خمسة وعشرون ميلا ،
و بين قُرْطُبَة والقُصَيْر ثمانية عشر ميلا ، و بين قرطبة وغَافِق مرحلتان ، و بين
قرطبة و إسْتبَة ستة وثلاثون ميلا ، و بين قُرْطبة و بَلكُونة مرحلتان ، و بين قُرْطُبة
والْيُسَّانة أربعون ميلا ، و بين قرطبة وقبْرة ثلاثون ميلا ، و بين قرطبة و بَيَّانة
مرحلتان ، و بين قرطبة و إسْتِجة ثلاثون ميلا ، وكورة رُنْدة كانت فى القديم من
عمل قُرْطبة ، ثم صارت من مملكة إشبيلية ، وهى أقرب وأدخل فى المملكة
الإشبيلية ، انتهى .

ثم قسم رحمه الله تعالى كتاب « الحلة الذهبية ، فى حُلى الكورة القرطبية »
إلى خمسة كتب : الكتاب الأول : كتاب « النَّغَم المُطْرِبة ، فى حُلى حضرة قُرْطُبَة »
الكتاب الثانى « كتاب الصَّبيحة الغرّاء ، فى حُلى حضْرة الزهراء » الكتاب الثالث
« كتاب البدائع الباهرة ، فى حُلى حضرة الزاهرة » الكتاب الرابع « كتاب الوَرْدَة ،

(١) فى ا « السرج المتصلة »

فى حلى مدينة شَقَنْده » الكتاب الخامس « الْجُوْعة السَّيِّغة ، فى حلى كورة وَزغة »(١)

وقال رحمه الله تعالى فى كتاب « النغم المطربة ، فى حلى حضرة قرطبة » : إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتها ، وفى اصطلاح الكتاب أن للعَرُوس الكاملةِ الزينة مِنَصّة ، وهى مختصة بما يتعلق بذكر المدينة فى نفسها ، وتاجاً ، وهو مختصّ بالإياله السلطانية ، وسلكا ، وهو مختص بأصحاب(٢) دُرر الكلام من النثار والنظام ، وحُلة ، وهى مختصة بأعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر ، ولا يجب إهمال تراجمهم ، وأهداباً ، وهى مختصة بأصحاب فنون الْهَزْل وما ينحو منحاه ، انتهى .

ثم فصل رحمه الله تعالى ذلك كله بما تعدّدت منه الأجزاء ، وقد لخصت منه هنا بعض ما ذكر ، ثم أردفته بكلام غيره ، فأقول : قال فى كتاب إجار(٣) : إن قرطُبة ــ بالظاء المعجمة ــ ومعناه أُجِر ساكنها ، يعنى عربت بالطاء ، ثم قال : ودَوْرُ مدينة قرطبة ثلاثون ألف ذراع ، انتهى .

مساحة قرطبة

وقال غيره : إن تكسيرها ومساحتها التى دار السور عليها دون الأرباض طولا من القبلة إلى الجوْف ألف وستمائة ذراع ، واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا وفرسخين عرضاً ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون فى الطول ، وفى العرض ستة ، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى المسمى بالوادى الكبير ، وليس فى الأندلس وادٍ يُسمّى باسم عربى غيره ، ولم تزل قُرْطُبة فى الزيادة منذ الفتح الإسلامى إلى سنة أربعمائة ، فانحطت ، واستولى عليها الخرابُ بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدوّ الكافر لها فى ثانى وعشرى شوّال سنه ستمائة وثلاث وعشرين .

---

(١) فى ا « فى حلى قرية وزغة » (٢) فى ا « در الكلام »

(٣) فى بعض النسخ عند ا « أجر » و « أحار » و « رجار »

(٤) فى ا « ثالث عشرى شوال سنة ستمائة وثلاث وثلاثين »

ثم قال هذا القائل : ودَوْرُ قرطبة أعنى المسوّر منها دون الأرباض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ، ودَوْر قصر إمارتها ألف ذراع ومائة ذراع ، انتهى .

أرباض قرطبة

وعدد أرباضها أحد وعشرون ، فى كل رَبَض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ، ولا يحتاجون إلى غيره ، وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية ، فى كل واحدة منبر وفقيه مُقَلِّص(١) تكون الفُتْيَا فى الأحكام والشرائع له ، وكان لا يجعل القالَص عندهم على رأسه إلا مَنْ حفظ الموطّأ ، وقيل : من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وحفظ المدوّنة ، وكان هؤلاء المقلّصون المجاورون لقُرْطُبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ، ويسلمون عليه ، ويطالعونه بأحوال بلدهم . انتهى .

جباية قرطبة

قال : وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبى عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار ، بالإنصاف ، وقد ذكرْنا فى موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا ، فالله أعلم ، وما أحسن قول بعضهم :

دَعْ عنك حَضْرَة بغدادٍ وبَهْجَتها ... ولا تُعَظِّمْ بلاد الفرس والصِّينِ
فما على الأرض قُطْرٌ مِثْلُ قُرْطُبة ... وما مشى فوقها مثلُ ابنِ حَمْدِينِ

وقال بعضهم : قُرْطُبة قاعدة الأندلس ودار الملك التى يُجْبَى لها ثمرات كل جهة وخيراتُ كلِّ ناحية ، وواسطة بين الكُوَر، موفِية على النهر، زاهرة مشرقة ، أحدقت بها المُنَى لحسن مرآها ، وطاب جناها .

ضبط لفظ قرطبة

وفى كتاب «فرحة(٢) الأندلس» لابن غالب : أما قرطبة فإنه اسم ينحو إلى لفظ اليونانيين(٣)، وتأويله القلوب المشككة .

وقال أبو عبيد البكرى : إنها فى لفظ القوط بالظاء المعجمة ، وقال الحِجارى :

---

(١) مقلص : أى لابس القلنسوة ، وأصله مقلس

(٢) فى ا « فرجة الأندلس » .

(٣) فى ب « أما قرطبة فإنها لفظ اليونانيين » .

الضبط فيها بإهمال الطاء وضمها ، وقد يكسرها المشرقيون فى الضبط ، كما يعجمها آخرون . انتهى .

وصف قرطبة لبعض العلماء

وقال بعض العلماء : أما قُرْطُبة فهى قاعدة الأندلس ، وقطبها ، وقطرها الأعظم ، وأم مدائنها ومساكنها ، ومستقرّ الخلفاء ، ودار المملكة فى النصرانية والإسلام ، ومدينة العلم ، ومستقر[١] السنة والجماعة ، نزلها جُمْلة من التابعين وتابعى[٢] التابعين ، ويقال : نزلها بعض [من] الصحابة ، وفيه كلام .

وهى مدينة عظيمة أزلية من بُنْيان الأوائل ، طيبة الماء والهواء ، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب ، وبها المحْرَث العظيمُ الذى ليس له فى بلاد الأندلس نظير[٣] ولا أعظم منه بركة .

وقال الرازى : قرطُبة أم المدائن ، وسُرَّة الأندلس ، وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والإسلام ، ونهرُها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة التى هى إحدى غرائب الأرض فى الصنعة والإحكام ، والجامعُ الذى ليس فى بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه .

وقال بعضهم[٤]: هى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعَة محلّ ، وفُسْحَة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبى بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبى بغداد فهى قريبة من ذلك ولا حقة به ، وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحالّ حسنة ، وفيها كان سلاطينهم قديماً ، ودورُهم داخل سورها المحيط بها ، وأكثر أبواب القصر السلطانى من البلد وجنوب قرطبة على نهرها .

---

(١) فى ا « ومقر السنة والجماعة »

(٢) فى ب ونسخة عند ا « وتابع التابعين »

(٣) فى ا « الذى ليس فى بلاد الأندلس مثله »

(٤) فى أصل ا « وقال ابن حوقل » وفى نسخة عند ا « وقال ابن سعيد »

قال : وقرطبة هذه بائنة عن مساكن أرباضها ظاهرة ودُرْتُ بها فى غير يوم فى قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشياً .

وصف قرطبة للحجارى

وقال [الحجارى] : وكانت قرطبة فى الدولة المرْوَانيه قبةَ الإسلام، ومجتَمع علماء الأنام (١) الأعلام، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت (٢) خلاصة القبائل المعدّية واليمانية ، و إليها كانت الرحلة فى رواية الشعر والشعراء (٣) ، إذ كانت مَرْكز الكرماء ، ومَعْدِن العلماء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويُبَارى فيها أصحابُ الكتب أصحاب الكتائب ، ولم تبرح ساحاتها مَجَرّ عوالى ومجرى سوابق، ومحطّ مَعَالى وحمى حقائق ، وهى من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، والزور من الأسد ، ولها الداخل الفسيح ، والخارجُ الذى يمتّع البصر بامتداده فلا يزال مستريحاً وهو من تردُّد النظر طليح (٤) .

وقال الحجارى : حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة هى كانت [منتهى] الغاية ، ومركز الراية ، وأمَّ القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن [أولى] العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صَوْب العقول ، و بستان ثمر الخواطر ، و بحر دُرر القرائح ، ومن أُفُقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصُنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب فى تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أُفقَهُم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب ، لأنواع العلم والأدب . انتهى

وقال على بن سعيد : أخبرنى والدى أن السلطان الأعظم أبا يعقوب بن عبد المؤمن قال لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد : ما عندك فى قرطبة ؟ قال : فقلت له : ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن

---

(١) فى ا « أعلام الأنام » (٢) فى ا « تمخضت »

(٣) فى ا « رواية الشريعة والشعراء » (٤) طليح : متعب مجهود

ملوك بنى أمية حين اتخذوها حضرةَ ملكهم لعَلَى بصيرة ، الديار الكثيرة المنفسحة والشوارع المتسعة ، والمبانى الضخمة ، والنهر الجارى ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحرَثُ العظيم ، والشّعْراء الكافية[١] ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ماأبقى لى أمير المؤمنين ما أقول .

ثم قال ابن سعيد : ومن كلام والدى فى شأنها : هى من أحسن بلاد الأندلس مبانى ، وأوسعها مسالك ، وأبرعها ظاهراً وباطناً ، وتفضل إشبيلية بسلامتها فى فصل الشتاء من كثرة الطين ، ولأهلها رياسة ووقار ، ولا تزال سِمَةُ العلم متوارثة فيهم ، إلا أن عامتها أكثر الناس فضولا ، وأشدهم تشنيعاً وتشغيباً ، ويضرب بهم المثل مابين أهل الأندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بأمورهم ، حتى إن السيد أبا يحيى بن يعقوب بن أبى عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الجمل إن خففّت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته به صاح ، ماندرى أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه[٢] ، وماسلط الله عليهم حجَّاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندى ولاية ، وإنى إن كُلِّفت العود إليها لقائل : لايلدغ المؤمن من جحر مرتين .

من محاسن قرطبة

قال والدى : ومن محاسنها ظرف اللباس ، والتظاهر بالدين ، والمواظبة على الصلاة ، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم ، وكسر أوانى الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها ، والتستر بأنواع المنكرات ، والتفاخر بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم ، وهى أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذى لاتكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب ، وينتخب فيها ليس إلا لأن

(١) فى ا « والشعرى الكافية » (٢) فى ا « فنتجنبه »

يقال: فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به .

مثل من عناية أهل قرطبة بالكتب

قال الحضرمى : أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب[1] فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح[2] وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلى المنادى بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : ياهذا ، أرِنِي مَنْ يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوى ، قال : فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ! إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ؛ قال : فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى مافيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يَسَع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير ، قال الحضرمى : فأحرجنى[3] ، وحملنى على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لاله أسنان ، وأنا الذى أعلم مافى هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندى قليلا ، وتَحُول قلة مابيدى بينى و بينه .

قال ابن سعيد : وجرت مناظرة بين يدى منصور بنى عبد المؤمن بين الفقيه العالم أبى الوليد بن رُشْد والرئيس أبى بكر بن زُهْر ، فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه : ماأدرى ماتقول ، غيرأنه إذامات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذامات مُطرب بقُرطُبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية .

وصف قصر قرطبة

وسئل ابن بَشْكُوال عن قصر قرطُبة[4] ، فقال : هو قصر أولىّ تداولته ملوك

---

(1) فى نسخه عند ا « أطلب فيه » (2) فى ا « بخط جيد »

(3) فى نسخة عند ا « فأحوجنى » وفى أخرى « فأخرجنى »

(4) فى أصل ا « ولما وصف ابن بشكوال قصر قرطبة قال »

الأمم من لدن عهد موسى النبى صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، وفيه من المبانى الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة مايُعْجِز الوصف ثم ابتدع الخلفاء من بنى مَرْوان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — فى قصرها البدائعَ الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة(١) ، وأجْرَوْا فيه المياه العسذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم(٢) ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنَوات الرَّصاص تؤديها منها إلى المصانع صورٌ مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة .

قال : وفى هذا القصر القِصَابُ العالية السمو ، المنيفة العلو(٣) ، التى لم يرَ الراؤن مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها .

قصور قرطبة

قال : ومن قصوره المشهورة ، و بساتينه المعروفة(٤) : الكامل ، والمجدد ، والحائر ، والروضة ، والزاهر ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيق(٥) ، وقصر السرور ، والتاج ، والبديع .

أبواب قصر قرطبة

قال : ومن أبوابه التى فتحها الله لنصر المظلومين ، وغياث الملهوفين ، والحكم بالحق البابُ الذى عليه السطح المشرف الذى لانظير له فى الدنيا ، وعلى هذا الباب باب حديد ، وفيه حَلَقٌ لاطون(٦) قد أثبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة إنسان فتح فمه ، وهى حلق باب مدينة أرْبُونَة من بلد الإفرنج ، وكان الأمير محمد قد افتتحها ، فجلب حلقها إلى هذا الباب ، وله باب قبلى أيضاً ، وهو المعروف بباب الجنان ، وقُدَّام هذين البابين المذكورين على الرصيف المشرف على النهر الأعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الأمير هشامٌ الرضى يستعمل الحكم فى المظالم فيهما

(١) فى ا « والرياض المونقة » (٢) فى ا « إلى القصر المكرم »
(٣) فى ا « المنيعة العلو » (٤) فى ا « وبساتينه المعمورة »
(٥) فى ب « والرستق » (٦) اللاطون : النحاس الأصفر

ابتغاء ثواب الله الجزيل ، وله باب ثالث يعرف بباب الوادى ، وله باب بشماليّه يعرف بباب قورِيَةَ ، وله باب رابع يدعى بباب الجامع ، وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع على الساباط ، وعدّد أبواباً بعد هذا طمست أيام فتنة المهدى بن عبد الجبار .

أبواب قرطبة

وذكر ابن بشْكُوال رحمه الله أن أبواب قرطبة سبعة أبواب : باب القنطرة إلى جهة القبلة ، ويعرف بباب الوادى ، و بباب الجزيرة الخضراء ، وهو على النهر ، وباب الحديد ، و يعرف بباب سَرَقُسْطَة ، وباب ابن عبد الجبار ، وهو باب طُلَيْطلة ، وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرُّصُف التى تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قَرْمُونة إلى قُرطُبة إلى سَرَقُسْطة إلى طَرَّكُونة إلى أَرْبُونة مارّة فى الأرض الكبيرة ، ثم باب طَلَبِيرة ، وهو أيضاً باب لِيُون ، ثم باب عامر القرشى ، وقدامه المقبرة المنسوبة إليه ، ثم باب الجوز[١] ، ويعرف بباب بَطَلْيَوْس ، ثم باب العطارين ، وهو باب إشبيلية ، انتهى .

أرباض قرطبة وأسماؤها

وذكر أيضاً أن عدد أرباض قُرطُبة عند انتهائها فى التوسُّع[٢] والعمارة أحد وعشرون ربضاً ، منها القبلية بعُدْوَة النهر : ربَض شَقَنْدَة ، وربض مُنْيَة عجب ، وأما الغربية فتسعة : ربض حوانيت الريحان[٣] ، وربض الرقّاقين ، وربض مسجد الكهف ، وربض بلاط مُغيث ، وربض مسجد الشِّفَاء ، وربض حَمَّام الإلْبيرى ، وربض مسجد السُّرور ، وربض مسجد[٤] الرَّوْضة ، وربض السِّجن القديم ، وأما الشماليه فثلاثة : ربض باب اليَهُود ، وربض مسجد أم سلمة ، وربض الرُّصَافة ، وأما الشرقيه فسبعة : ربض شَبْلار[٥] ، وربض قرن برِّيل ، وربض البُرْج ، وربض مُنْية عبدالله ، وربض مُنْية المُغيرة ، وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة .

---

(١) فى ب « باب الحور » (٢) فى ا « فى التوسيع والعمارة »
(٣) فى ب ونسخة عند ا « الريحانى » (٤) فى ا « وربض الروضة »
(٥) فى بعض النسخ عند ا « سلار » و « سيلار »

قال : ووسط هذه الأرباض قصبة قرطبة التى تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأرباض بدون سور(١) ، فلما كانت أيام الفتنة صُنِع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع .

وذكر ابن غالب أنه كان دَوْرُ هذا الحائط أربعة وعشرين ميلا(٢) ، وشَقَنْدَة معدودةٌ فى المدينة لأنها مدينة قديمة كانت مسوّرة .

منتزهات قرطبة

قال ابن سعيد فى «المغرب» : ولنذكر الآن من منتزهات قرطبة ومعاهدها المذكورة فى الألسن نظماً ونثراً ما انتهى إليه الضبط ، من غير تغلغل فى غير المشهور منها والأهمّ ، ونُوشِّى ذلك بجميع ما يحضرنى من مختار النظم فى قرطبة ، وما يحتوى عليه نطاقُها المذكور .

فأوّل ما نذكر من المنتزهات منتزه(٣) الخلفاء المروانية ، وهو قصر الرُّصَافة ، فنقول : كان هذا [القصر] مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية فى أول أيامه لنُزهه ، وسكناه أكثر أوقاته مُنْيَةُ الرُّصافة التى اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب ، فاتخذ بها قصراً حسناً ، ودحا جِناناً واسعة ، ونقل إليها غرائب الغُرُوس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسَفْرٌ رسولاه إلى الشأم من النوى المختارة(٤) والحبوب الغريبة ، حتى نمت بيُمْن الجدّ وحسن التربية فى المدة القريبة أشجارًا مُعْتَمّة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها .

قال : وسماها باسم رُصَافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه ، ولميله(٥) فى اختيار هذه ، وكلفه بها ، وكثرة تردُّده عليها ، وسُكناه أكثر أوقاته بها ـ طار لها الذكر فى أيامه ، واتصل من بعده فى إيثارها .

(١) فى ا « دون السور » (٢) فى نسخة « أربعة عشر ميلا »
(٣) فى ب « منتزهات الخلفاء المروانية » (٤) فى ا « المختار »
(٥) فى ا « وامتثله فى اختيار رصافته هذه »

قال : وكلهم فضَّلها ، وزاد فى عمارتها ، وانبرى وُصَّاف الشعراء لها ، فتنازعوا[١] فى ذلك فيما هو إلى الآن [مشهور] مأثور عنهم ، مستجاد منهم .

الرمان السفرى

وقال ابن سعيد : والرمان السَّفْرى الذى فاض على أرجاء الأندلس ، وصاروا لايفضلون عليه سواه ، أصله من هذه الرُّصافة . وقد ذكر ابن حيّان شأنه ، وأفرد له فَصْلا ، فقال : إنه الموصوف بالفضيلة ، المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ، ورقة العَجْم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة ، وكان رسوله إلى الشأم فى توصيل أخته[٢] منها إلى الأندلس قد جلب طرائف منها من رُمَّان الرصافة المنسوبة إلى هشام ، قال : فعرضه عبدُ الرحمن على خواص رجاله مُباهيا به ، وكان فيمن حضره منهم سفر بن عبيد[٣] الكلاعى من جند الأردُن ، ويقال : هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته ، قال : وهم يحملون الألوية بين يدى الخلفاء من بنى أمية ، فأعطاه من ذلك الرمان جزءا فراقه حُسْنه وخُبْره ، فسار به إلى قرية بكورة رَيَّة ، فعالج عَجْمَه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله[٤] حتى طلع شجراً أثمر وأينع ، فنزع إلى عِرْقه ، وأغرب فى حسنه ، فجاء به عما قليل إلى عبد الرحمن ، فإذا هو أشبه شىء بذلك الرصافى ، فسأله الأمير عنه ، فعرفه وجْهَ حيلته ، فاستبرع استنباطه ، واستنبل همته ، وشكر صنعه[٥] ، وأجزل صلته ، واغترس منه بمُنية الرصافة وبغيرها من جناته ، فانتشر نوعه ، واستوسع الناسُ فى غِراسه ، ولزمه النسب إليه ، فصار يعرف إلى الآن بالرمان السَّفرى .

قال : وقد وصف هذا الرمان أحمد [بن محمد] بن فرح[٦] الشاعر فى أبيات كتب بها إلى بعض مَنْ أهداه له ، فقال :

ولابسَة صَدفاً أحمرا أتتْك وقد مُلِئَتْ جوهرا
كأنك فاتحُ حُقٍّ لطيفٍ تضمَّن مَرجانه الأحمَرا

(١) فى ا « فتناغوا فى ذلك »
(٢) فى نسخة عند ا « أختيه »
(٣) فى ب « سفر بن زيد الكلاعى »
(٤) فى ب « وتنقله »
(٥) فى ا « وشكر تهممه »
(٦) فى ب « محمد بن روح »

حُبُوباً كمثل لِثاتِ الحبيب رضابا إذا شئت أو منظرا
وللسَّفْر تعزى وما سافرت فتشكو النوى أو تقاسى السُّرى
بلى فارقت أيكها ناعماً رطيباً وأغصانها نُضَّرا
وجاءتك مُعْتاضة إذ أتتك بأكرم من عودها عُنْصُرا
بعودٍ ترى فيه ماءَ النّدى ويُورِق من قبل أن يُثْمِرا
هدية مَنْ لو غـدت نفسه هديتـه ظنـه قصَّرا[١]

وقال ابن سعيد : وأخبرنى والدى قال: أخبرنى الوشّاح المبرِّز الحسن أبو الحسن المَرِينى قال : بينما أنا أشرب مع ندمانى بإزاء الرُّصافة ، إذا بإنسان رث الهيئة ، مَجْفُو الطلعة ، قد جاء فجلس معنا ، فقلنا له : ماهذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة[٢]؟ فقال : لاتعجلوا على ، ثم فكر قليلا ورفع رأسه فأنشدنا :

اسْقِنيها إزاءَ قصر الرُّصـافه واعتَبِر فى مآل أمر الخـلافه
وانظر الافقَ كيف بُدّل أرضاً كى يطيل اللبيب فيـه اعترافه
ويَرى أن كل ماهو فيـــه من نعـيم وعز أمرٍ سَخَافه
كل شىء رأيتـه غير شىء ماخـلا لذة الهوى والسُّلافه

قال المرينى : فقبلت رأسه ، وقلت له : بالله من تـكون ؟ فقال : قاسم بن عَبُّود الرياحى ، الذى يزعم الناس أنه موسوس أحمق ، قال: فقلت له : ماهذا شعر أحمق ! وإن العقلاء لتعجز عنـه ، فبالله إلا ماتممت مسرتنا بمؤانستك ومنادمتك ومناشدة[٣] طُرَف أشعارك ، فنادم وأنشد ، وما زلنا معه فى طيبة عيش إلى أن ودعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سكراً ، ويقول : اللهم غَفْراً . انتهى

قال : ومن قصور خارج قرطبة قصر السـيد أبى يحى بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن ، وهو على متن النهر الأعظم ، تحمله أقواس ، وقيـل للسيد : كيف

(١) فى نسخة عند ا « هدية من لو هدى نفسه » وليست بشىء
(٢) فى نسخة عند ا « سابقة معرفة » (٣) فى نسخة « ومناشدتك »

تأنقت فى بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟ فقال : علمت أنهم لا يذكرون واليًا بعد عَزْله ولاله عندهم قدر ؛ لما بقى فى رؤسهم من الخلافة المروانية، فأحببت أن يبقى لى فى بلادهم أثر أذكر به على رغمهم .

قال ابن سعيد : وأخبرنى والدى أن ناهض بن إدريس شاعر وادى آش فى عصره أنشده لنفسه فى هذا القصر :

ألا حبَّذا القصرُ الذى ارتفعت به ... على الماء من تحت الحجارة أقواسُ[1]

هو المصنعُ الأعلى الذى أنِف الثرى ... ورَفَّعَــه عن لثمه المجد والبَاسُ

فأركب متن النهْرِ عزا ورفعــة ... وفى موضع الأقدام لا يوجد الراس

فلا زال معمور الجناب وبابه ... يغص وحَلَّتْ أفقَــهُ الدهْرَ أعراسُ

وقال الفتح فى قلائده ، لما ذكر الوزير ابن عمار : وتنزه بالدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيده بنو أمية بالصُّفَّاح والعَمَد ، وجرى فى إتقانه إلى غير أمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحاته وفناؤه ، واتخذوه ميدان مراحهم ، ومضمار أفراحهم[2] ، وحكوابه قصرهم بالمَشْرِق ، وأطلعوه كالكوكب المُشْرِق ، وأنشد فيه لابن عمّار :

قصر الدمشق بقرطبة

كل قصر بعد الدمشق يُذَمُّ ... فيــه طاب الجنى ولذّ المشمُّ[3]

منظرٌ رائق ، وماء نميــرٌ ... وثرًى عاطــر ، وقصرٌ أشمُّ

بِتُّ فيه والليل والفجر عندى ... عنبرٌ أشهبُ ومسكٌ أحمُّ

وهى منسوبة للحاجب أبى عثمان جعفر بن عثمان المصحفى .

وذكر الحِجَارى فى « المسهب » أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفى ، اجتاز بالمُنْية المصحفية التى كانت لجده أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر ، فاستعبر حين تذكرما آل إليه[4] حال جده مع المنصور بن أبى عامر ، واستيلائه على ملكه وأملاكه ، فقال :

---

(١) فى ب « من تحت الحواجب أقواس » (٢) فى ا « ومضمار انشراحهم »
(٣) فى ا « وفاح المشم » . (٤) فى ا « ما آل به حال جده »

قف قليلا بالمصحفيَّة واندُب مُقـلة أصبحت بلا إنسان

واسـأ لْنها عن جعفر وسطاه ونداه فى سـالف الأزمان

جعفر مثلُ جعفرٍ حكم الدَّهْـرُ عليـه بعُسْرَة وهوَانِ (١)

ولكم حـذّ ر الردى فصممنَا لا أمانٌ لصاحبِ السلطانِ

بَيْنما يَعْتَلى غـدا خافضاً منـه انتسابٌ لكفة الميزان (٢)

ومُنْية الزبير منسوبة إلى الزبير ابن الملثَّم عم(٣) ملك قرطبة .

قال ابن سعيد : أخبرنى والدى عن أبيه قال : خرج معى إلى هذه المُنْية فى زمان فتح النُّوَّار أبو بكر بن بَقِيٍّ الشاعر المشهور ، فجلسنا تحت سطر من أشجار اللَّوز قد نوَّرتْ ، فقال ابن بَقِيّ :

سَطْرٌ من اللوز فى البُسْتان قابَلَنى ما زاد شَىْء على شىء ولا نَقصا

كأنما كل غصن كُمُّ جارية إذا النسيمُ ثنَى أعْطافه رقصا

ثم قال شعراً منه :

عجبت لمن أبْـقَى على خَمْرِدنِّه غداة رأى لوْز الحديقة نوَّرا

ولا أذكر بقية الأبيات ، قال : جدّى ثم اجتمعت به بعد ذلك بغرْناطة ، فذكرته باجتماعه فى مُنْية الزبير ، فتنهد وفكر ساعة وقال : اكتبوا عنى ، فكتبنا :

سقى الله بُسْتَان الزبير ، ودام فى ذَرَاه مَسيلُ النَّهْرما غنَّتِ الْوُرْقُ

فكأن لنا من نعمة فى جنَابه كبَرْتهِ الخضراءِ طالعُهَا طَلْقُ

هو الموضِعُ الزاهِى على كل مَوْضع أما ظِـلُّهُ ضافٍ أما ماؤه دَفْقُ (٤)

أهِيمُ به فى حالة القُرْب والنوى وحُقّ له مِنِّى التذكر والعِشْقُ

ومن ذلك النهر الخفوق فؤاده بقلبِىَ ماغيِّبْت عن وَجْهه خفْقُ

قال : فقلت له : جمع الله بينك وبينه على الحالة التى تشتهى ، قال : ذلك لك ،

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « بعزة وهوان » (٢) فى ب « اكتئاب ككفة الميزان »

(٣) فى ا « الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة » (٤) فى ا « أما ظله صاف »

قلت : وكيف ذلك ؟ قال : تدفع لى هذا السيف الذى تقلدت به أتزوّد به إليه ، وأنفق الباقى فيه على ما تعلم ، قال : فقلت له : هذا السيف شرّفنى به السلطان أبو زكرياء بن غانية ، وما لعطائه سبيل ، ولكن أعطيك قيمته ، فخرج وأتى بشخص يَعْرف قيمة السيوف ، فقدّره وجعل يقول : إنه سيف السلطان ابن غانية ، ليعظم قدره فى عينه فيزيد فى قيمته ، ثم قبض ما قدّر به ، وأنشد ارتجالا :

أطال اللهُ عُمْرَ فتى سعيدٍ ... و بقاه ورقَّتْهُ السعودُ
غدا لى جُوده سبباً لعوْدِى ... إلى وَطَنى فها أنا ذا أعودُ
وألثِمُ كفَّهُ شكراً ويَتْلُو ... طريقى آى نعماه النشيد(١)
حبَانى من ذخائره بسَيْفٍ ... به لم يَبْقَ للأحزان جيدُ

القصر الفارسى

والقصر الفارسى من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة ، وقد ذكره الوزير أبو الوليد ابن زيْدُون فى قصيد ضمنه من منتزهات قرطبة ما تقف عليه ، وكان قد فرّ من قرطبة أيام بنى جَهْوَر(٢) فحضره فى فِراره عيد ذكّره بأعياد وطنه ومعاهده الأنْسِية مع وَلَّادة التى كان يهواها و يتغزل فيها ، فقال :

خليلىّ لافِطْرٌ يسرُّ ولا أَضْحَى ... فماحالُ مَنْ أمسى مشُوقاً كماأَضْحَى

وستأتى هذه القصيدة فى هذا الباب ، كما ستأتى قصيدة أبى القاسم بن هشام القرطبى التى أوّلها :

* يا هبّةً باكرتْ من نحو دارين *(٣)

وفيها كثير من منتزهات قرطبة .

قال ابن سعيد : كان والدى كثيراً ما يأمرنى بقراءتها عليه ، ويقول : والله لقد أنبأت عن فضل لهذا الرجل ، قال : وكان أبو يحيى الحضرمى يحفظها ، ويزين

---

(١) فى أصل ا « آى نعماه التليد »
(٢) فى ا « أمام بنى جهور »
(٣) دارين : بلدة مشهورة بالمسك ، ويقال : مسك دارى .

بها مجالسه ، ويحلف أن لا ينشدها بمحضر جاهل لا يفهم أو حاسد لا ينصف فى الاهتزاز لها ، وإنه لجدير بذلك ، وإنها[١] لمن كنوز الأدب .

مرج الخز

ثم قال : والمرج النّضير المذكور بها هو مَرْج الخز ، أخبرنى والدى أنه حضر فى زمان الصِّبا بهذا المرج على راحة ، ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبى جعفر الوقَّشى والمِسَنُّ ابن دُوَيْدة[٢] المشهور بخفة الروح ، قال : فسبحت أمامنا إوز ، وجعلت تمرح وتنثر ما عليها من الماء فوق المرج ، والمرج قد أحدق به الوادى ، والشمسُ قد مالت عليه للغروب ، فقال لى أبو الحسين : بالله صِفْ يومَنا وحسن هذا المنظر ، فقلت : لا أصفه أو تصفه أنت ، فقال : ولك منى ذلك ، فأفكر كل منا على انفراد بعد ما ذكرنا ما نصف نثراً ، فقال : أبو الحسين الوقَّشِى

لله يوم بِمَرْجِ الخز طاب لنا ... فيه النعيمُ بحيث الروض والنَّهَرُ
وللأوزّ على أرْجائه لعب ... إذا جرتْ بدّدَتْ ما بيننا الدرَرُ
والشمسُ تجنح نحو البين مائلة ... كأن عاشقها فى الغرب ينتظر
والكأسُ جائلة باللبِّ حائرةٌ ... وكلنا غفلاتِ الدهر نبتدر

قال : فقلت :

ألا حبّذا يوم ظفرنا بطيبه ... بأكنافِ مرْج الخزِّ والنهرُ يَبْسِمُ
وقد مَرِحت فيه الإوز ، وأرسلت ... على سُندُسٍ دُرًّا به يَتنَظَّمُ
ومُدَّ به للشمس فهْوَ كأنه ... لثامٌ لها مُلقًى من النّوْر معْصمُ
أدرْنَا عليه أكؤساً بعثتْ به ... من الأنس ميْتاً عاد وهْوَ يُكلِّمُ
غدوْنا إليه صامتين سكينة ... فرُحْنا وكلٌّ بالهوى يترنم

فأظهر كل منا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطاً وتتميا للمسرة ، ثم قلنا للمُسِنّ : ماعندك أنت تعارض[٣] به هاتين القطعتين؟ قال : بهذا ، ورفع رجله وحبَق[٤] حبقة

---

(١) ا « فإنهما من كنوز الأدب » (٢) فى نسخة عند ا « والحسن بن دويدة »
(٣) فى ا « ماعندك أنت بما تعارض به » (٥) حبق : ضرط

فرقعت منها أرجاؤه ، فقال له أبو الحسين : ما هذا يا شيخ السوء ؟ فقال : الطلاقُ يلزمه إن لم تكن أوزن من شعركما ، وأطيب رائحة ، وأغنّ صوتاً ، وأطرب معنى ، فضحكنا منه أشد ضحك ، وجعلنا نهتز غاية الاهتزاز لموقع نادرته ، فقال : والدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر مما طربتم من شعركم .

فحص السرادق

ثم قال ابن سعيد : ومنْ منتزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق ، مقصود للفرجة ، يسرح فيه البصر ، وتبتهج فيه النفس ، أخبرنى والدى عن أخيه أبى جعفر ابن عبد الملك بن سعيد قال : خرجت مع الشريف الأصم القرطبى إلى بسيط الجزيرة الخضراء ــ وقد تدبج بالنوار[1] ــ فلما حركنا حسن المكان ، وتشوقنا إلى الأركان[2] ، قال الشريف : لقد ذكرنى هذا البسيط بسيط فحص السرادق ، فقلت له : فهل ثار فى خاطركم نظم فيه ؟ قال : نعم ، ثم أنشد :

ألا فدعُوا ذكر العُذيْب وبارقٍ ... ولا تسأموا من ذكر فَحْصِ السرادق
مجرُّ ذيول السُّكر من كل مُترف ... ومجرى الكؤس المترعات السّوابق
قصرْتُ عليه اللّحْظ مادُمْت حاضراً ... وفِكرىَ فى غيْبٍ لمرْآه شائق
أيا طيب أيام تقضتّْ بروْضـةٍ ... على لمح غُدْرانٍ وشمّ حدائق
إذا غردتْ فيها حمائمُ دوْحِهـاَ ... تخيلْتها الكُتَّابَ بين المْهَارقِ[3]
وما باختيار الطّرفِ فارقْتُ حُسْنها ... ولكن بكيدٍ من زمانٍ مُنافق

قال أبو جعفر : فلما سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار ، وحركنى ذلك إلى أن قلت فى حَوْز مؤمل سيد منتزهات غرْناطة ، ولم يذكر هنا ما قاله فيه ، وذكره فى موضع آخر لم يحضرنى الآن حتى أورده هنا ، والله أعلم .

منتزه السد

ومن منتزهات قرطبة السدُّ ، قال ابن سعيد : أخبرنى والدى أن الشاعر المبرز أبا شهاب المالقى أنشده لنفسه واصفا يوم راحة بهذا السدّ :

---

(١) فى ا « وقد تدبج بالأنوار » (٢) فى نسخة « إلى الأوطان »

(٣) المهارق : جمع مهرق ، وهو الصحيفة ، معرب .

ويوْم لنا بالسُّدِّ لو رُدَّ عيشه ... بعيشة أيام الزمان رددناه
بكرنا له والشمسُ فى خِدر شرْقها ... إلى أن أجابت إذ دعا الغرب دعواهُ
قطعناه شدواً واغتباقا ونشوة ... ورَجْع َحديثٍ لو رقى الميتَ أحياهُ
على مثله من منزه تبْتغى المنى ... فلله ما أحلى وأبدع مرآه
شدتنا به الأرحا وألقت نثارها ... علينا فأصغينا له وقبلناهُ
لئن بان ؛ إنا بالأنين لفقده ... وبالدمع فى إثر الفراق حكيناه

وأنشدنى والدى موشحة لأبى الحسن الْمَرِينى معاصره وصاحبه يذكر فيها هذا السد ، وهى:

مطلع

فى نغمة العود والسُّلافة ... والروض والنهر والندِيمْ
أطال من لامنى خلافه ... فظلّ فى نصحه مُلِيمْ

دور

دعنى على منهج التصابى ... ما قام لى العذرُ بالشبابْ
ولا تطلْ فى المنى عتابى ... فلست أصْغى إلى عتابْ
لاترجُ ردِّى إلى صواب ... والكأسُ تفترعن حُبابْ(١)
والغُصْنُ يُبْدِى لنا انعطافه ... إذا هفا فوْقه النسيمْ
والرّوْض أهدى لنا قِطَافه ... واختال فى بُرْدهِ الرقِيمْ

دور

يا حبذا عهدىَ القديمْ ... ومن به همتُ مُسْعِدِى
رِيمٌ عن الوصْل لايَرِيمْ ... مُوَلّعٌ بالتودُّدِ
ماتمّ إلا به النعيمْ ... طوعا على رغم حُسَّدِى

---

(١) فى ب « لاترج ردى إلى جواب » وفى أصل ا «لاترج ردى للجواب » وما أثبتناه أليق بالمعنى .

مُعْتدلُ القـــدِّ ذو نَحَافه　　أسْقمنى طَرْفه السـقيمْ
ورام طرْفى به انْتصافه　　فخدّ فى خدهِ الـكليمْ

دور

غَضُّ الصِّبَا عاطرُ المقبَّلْ　　أحْلى من الأمْن والأملْ(١)
ظامى الحْشا مُفعمُ المخاخلْ　　حُلو اللَّمسْى ساحرُ المقلْ(٢)
لـكل من رامه توَصَّـلْ　　لم يخش ردًّا بمـا فعلْ
أشكو فيُبْدى لى اعترافه　　إن حاد عن نهجه القويمْ
لا أعدَمُ الدهر فيـه رافه　　فحق لى فيـــه أن أهيمْ

دور

لله عصرٌ لنـا تقضى　　بالسُّدِّ والمنــبر البهيج
أرى ادِّكارى إليه فرْضا　　وَشوْقه دائمـا يهيـــجْ
فـكم خلعْنا عليـه غمْضَا　　وللصِّــبا مسرح أريجْ
ورِدْ أطال المنى ارتشافه　　حتى انقضى شرْبه الـكريم
لله ما أسْرَع انحرافه　　وهٰـكذا الدهرُ لايديمْ

دور

يامنْ يحثّ المطىّ غربا　　عرِّجْ على حضرةِ الملوك
وانثر بها إن سَفَحْت غَرْبا　　من مدمع عاطل سلوك(٣)
واسمع إلى من أقام صبّا　　واحْكِ صداه لافُضّ فوك
.بَلِّغ سلامى قصر الرصافه　　وذكره عهدى القديمْ
وحىِّ عنِّى دار الخلافهْ　　وقفْ بهـا وقفة الغريمْ

قال ابن سعيد : والمنبر المذكور فى هذه الموشحة من منتزهات قرطبة ، والسُّدُّ

---

(١) فى ب « غصن الصبا » وأثبتنا مافى ا

(٢) فى ا « طاوى الحشا » وفى نسخة « طامى الحشا »

(٣) أصل الغرب ـ بفتح فسكون ـ الدلو العظيمة

هو الأرحا التى ذكرها فى زجله قاسم بن عَبُّود الرياحى ، روَيْتُه عن والدى عن قائله ، وهو :

مطلع

بالله أين نصيب من ليس لى فيه نصيب
محبوبا مخالف ومَعُو رقيب

دور

حين نقصد مكانو يَقُوم فى المقام
ويبخل علينا بردِّ السلام
أدخلت يا قلبى رُوحك فى زحَام
سلامتك عندى هى شىء عجيب
وكيف بالله يَسْلمْ من هو فى لهيب

دور

بالله يا حبيبى أُترك ذا النفار
واعْمد أن نطيب فى هٰذا النهار[1]
واخرج معى للوادى لشرب العُقار
نتمم نهارنا فى لذة وطيب
فى الأرحَا وإلا فى المرج الخصيب

دور

أوْ عند النواعير والروض الشريق
أو قصر الرصافة أو وادى العقيق
رَحِيق والله دونك هُو عندى الحريق[2]

---

(١) فى ا « واعمل أن نطيبو »

(٢) فى ب « حرق والله دونك » وأثبتنا ما فى ا

وفى حُبّك أمسَيْتُ فى أهلى غريبْ
وما الموْتُ عنْدى إلا حين تغيب

دور

اتّكلْ على الله وكن قَطْ جسُورْ
وإن رإيت فُضُولى فقلْ أى تمور
كمش عنّى وجْهَك فإن رآك نَفُورْ
يهرب عنّك خائفْ ويَبْقى مُريب
وامْش أنت مُوَقر كأنك خطيب

دور

ما أعجب حديثى ايش هٰذا الجُنُون
نطلب وندبّرْ أمراً لا يَكُون
وكمْ ذا نُهوّن شيئاً لا يَهُون
وإيش مقْدار ما نصْبرْ لبُعْدِ الحبيبْ
ربِّ اجْمعْنى مَعُو عاجلا قريبْ

نهر قرطبة

قال ابن سعيد : وأما نهر قرطبة فإنه يصغر عن عظمه عند إشبيلية ، بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لا يتأتى مثلها فى نهر إشبيلية ، ومنبعه من جهة شَقُورة[1] يمر النصف منه إلى مُرسيَةَ مشرقا والنصف إلى قُرطبة و إشبيلية مغرباً .

ولما ذكر الرازى قرطبة قال : ونهرها الساكن فى جريه ، اللين فى انصبابه، الذى تؤمن مغبة ضرره فى حمله .

وقال هذا لأنه يعظم عند إشبيلية ، فإذا حان حمله فى أيام الأمطار أشفت إشبيلية على الغرق ، وتوقع أهلها الهلاك .

---

(١) شقورة ـ بفتح الشين وضم القاف مخففة ـ مدينة من مدن شرق الأندلس موقعها فى الشمال من مرسية

قنطرة قرطبة

والقنطرة التى على هذا النهر عند قُرْطبَة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبعة عشرة قوساً ، و بانيها على ما ذكره ابنُ حيّان وغيرُه السّمْح بن مالك الخَوْلانى صاحبُ الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وشيدها بنو أمية بعد ذلك وحسنوها ، قال ابن حيان : وقيل : إنه قد كانت فى هذا المكان قنطرة من بناء الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتى سنة أثّرَتْ فيها الأزمان بمكابدة المدود[1] حتى سقطت حناياها ، ومحيت أعاليها ، و بقيت أرجلها وأسافلها ، وعليها بَنَى السمحُ فى سنة إحدى ومائة ، انتهى .

وقال فى مناهج الفكر : إن قنطرة قُرْطبَة إحدى أعاجيب الدنيا ، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقى ، وطولُها ثمانمائة ذراع[2] ، وعرضها عشرون باعا ، وارتفاعها ستون ذراعا ، وعدد حناياها ثمان عشرة حَنِيّة ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجا[3] ، انتهى .

نشأة قرطبة

رجع إلى قرطبة — ذكر ابن حيان والرازى والحِجَارى أن التنبان[4] — ثانى قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا وصَفّح نهر رومية بالصُّفْر ، فأرخت الروم من ذلك العهد ، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة — أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس ، فبنيت فى مدته قُرْطبَة و إشبيلية ومَاردة وسَرَقُسْطَة ، وانفرد الحِجَارى بأن التنبان[4] المذكور وَجّه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها ، وسماها باسمه ، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك ، وغيرُ الحجارى جعل أسماء هذه المدن مُشْتَقّة مما تقتضيه أوضاعها كما مر ، وذكروا أنه قد تداولت على قرطبة

(١) المدود : جمع مد ، وهو ارتفاع ماء النهر ، ووقع فى ب « بمكابدة المدد » محرفا ، وأثبتنا ما فى أصل ا

(٢) فى ا « ثمانمائة باع » . (٣) فى نسخة عندنا « ستة عشر برجا » .

(٤) فى ا « أكتبيان » وفى نسخة « أكتبنان » وفى أخرى « أكتنيان »

وُلاَة الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصُو بن إسحاق بن إبراهيم ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ! إلى أن انتزعها من أيديهم القُوطُ من ولد يافث المتغلبون على الأندلس ، إلى أن أخذها منهم المسلمون ، ولم تكن فى الجاهلية سريراً لسلطنة الأندلس ، بل كرسيا لخاص مملكتها ، وسعدت فى الإسلام ، فصارت سريرا للسلطنة العظمى الشاملة ، وقطبا للخلافة المروانية ، وصارت إشبيلية وطُلَيْطلة تبعاً لها ، بعد ما كان الأمر بالعكس ، والله يفعل ما يشاء ، بيده الملك والتدبير ، وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا هو العلى الكبير .

وقال صاحب « نَشْق الأزهار » عندما تعرض لذكر قرطبة : هى مدينة مشهورة ، دار خلافة ، وأهلها أعيان ناس فى العلم والفضل ، وبها جامع ليس فى الإسلام مثله ، انتهى .

أسباب دثور قرطبة

ومن الأسباب فى ستاب محاسن قرطبة عَيْث[1] البربر بها فى دخولهم مع سليمان المستعين الأموى حين استولى على قرطبة فى دولته التى افتتحت بالقهر وسفك الدماء ، وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان علىُّ بن حمود من بنى على بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب — رضى الله عنهم أجمعين ! — وجدّه إدريس هرب من هٰرون الرشيد إلى البربر ، فتبربر ولده ، وبنى ابنه إدريس مدينة فاس ، وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم ، ووقف على أن دولة بنى أمية تنقرض بالأندلس على يد علوى أول اسمه عين ، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومَحَوْا كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم على بن حمود ، وبلغ هشاما المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه فدسَّ إليه أن الدولة صائرة إليك ، وقال له : إن خاطرى يحدثنى أن هذا الرجل يقتلنى ، يعنى سليمان ، فإن فعل فخذ بثأرى ، وكان هذا الأمر هو الذى قَوّى نفس ابن حَمُّود على طلب الإمامة ، وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد ، فكان المؤيد أحد مَنْ أخذ بثأره بعد موته ، وتولى بعد ذلك على بن حَمُّود ، وبويع بقرطبة فى قصرها

(١) العيث : مصدر عاث يعيث ، ومعناه أفسد .

فى اليوم الذى قُتل فيه سليمانُ المستعينُ ، وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة ، وأذلّ رؤس البربر ، و برقت للعدل فى أيامه بارقة خُلّب لم تكد تقِدُ حتى خَبَتْ(١) وجلس للمظالم ، وقدمت له جماعة من البربر فى إجرام فضرب رقابهم ، وأهلهم وعشائرهم ينظرون ، وخرج يوما على باب عامر فالتقى فارسا من البربر وأمامه حمل عنب ، فاستوقفه وقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته كما يأخذ الناس ، فأمر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الحمل ، وطيف به فى البلد ، واستمر على هذا مع أهل قرطبة فى أحسن عِشْرة نحو ثمانية أشهر ، حتى بلغه قيام الأندلسيين بالمرتضى المروانى فى شرق الأندلس ، فتغير عما كان عليه ، وعزم على إخلاء قرطبة و إبادة أهلها ، فلا يعود لأعمتهم بها سلطان آخر الدهر ، وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله، وانتزع [الإسلام من](٢) أهل قرطبة ، وهدم المنازل، واستهان بالأكابر ، ووضع المغارم ، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال ، فلما غرموه سرّحهم فلما جىء إليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب ، وتركهم ينزلون إلى منازلهم على أرجلهم ، وكان منهم أبو الحزم الذى ملك قرطبة بعد وصارت دولته بوراثة ولده معدودة فى دول الطوائف ، فانجمعت عن على النفوس ، وتوالى عليه الدعاء ، فقتله صبيان أغمار من صقالبة بنى مروان فى الحمام ، وكان قتله غرة ذى القعدة سنة ثمان وأربعمائة ، وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا فى أماكن يعرفونها، وصح عند الناس موته ، ففرحوا ، وكانت مدته كما مر نحو عامين ، وحققها بعض فقال : أحد وعشرون شهرا وستة أيام .

وكان الناصر على بن حمود — على عُجمته ، وبعده من الفضائل — يصغى إلى الأمداح ، و يثيب عليها ، و يظهر فى ذلك آثار النسب العربى والكرم الهاشمى ، ومن شعرائه المختصين به ابن الخياط القرطبى ، ومن شعره قوله :

---

(١) الخلب — بوزن سكر — البرق لا يكون وراءه مطر ، وتقد : مضارع وقدت النار ، أى اشتعلت ، وخبت : سكنت وانطفأت (٢) لا توجد فى بعض النسخ

راحت تذكّرُ بالنسيم الراحا وَطفَاء تكسر للجُنُوح جَناحا(١)
أخْفى مسالكها الظلامُ فأوقدت من برقها كى تهتدى مصْباحا

وعبادة بن ماء السماء ، وكان معروفا بالتشيع ، وفيه يقول من قصيدة :

أبوكم على كان بالشرق بَدْءَ ما ورثتم ، وذا بالغرب أيضاً سميُّه
فصلوا عليـــه أجمعُون وسلِّمُوا له الأمر إذ ولاه فيكم وَليُّهُ

ومدحه ابنُ دَرّاج القَسْطَلِّيُّ بقوله :

لعلك يا شمسُ عنـد الأصيل شجيت لشجو الغريب الذليل
فـكونى شفيعىَ لابن الشفيع وكونى رسولىَ لابن الرسول

وكان أخوه القاسم بن حمود أكبر منه بعشر سنين ، وأمهما واحدة ، وهى علوية ولما قتل الناصر كان القاسم واليا على إشبيلية ، وكان يحيى بن على واليا على سَبْته ، فاختلف هؤلاء البربر(٢)، فمال أكثرهم إلى القاسم لـكونه غُبن أوّلا ، وقدّم عليه أخوه الأصغر ، وكونه قريبا من قرطبة ، وبينهم وبين يحيى البحر ، فلما وصلت رُسُلهم إلى القاسم لم يظهر فرحا بالإمامة ، وخاف أن تكون حيلة من أخيه عليه ، فتقهقر إلى أن اتضح له الحق ، فركب إلى قرطبة ، وبويع فيها بعد ستة أيام من قتل أخيه ، وأحسن السيرة ، وأحس من البربر الميل إلى يحيى ابن أخيه علىّ صاحب سَبْتة ، فتهالك فى اقتناء السودان ، وابتاع منهم كثيرا ، وقوّدهم على أعماله ، فأنفت البرابر من ذلك ، وانحرفوا عنه .

وفى سنة تسع وأربعمائة قام عليـه بشرق الأندلس المرتضى عبدُ الرحمن من أعقاب الناصر ، لأن أهل الأندلس صعب عليهم ملك بنى حَمُّود العَلَويين بسبب البرابر ، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بنى مروان ، واجتمع له أكثر ملوك الطوائف ، وكان معه حين أقبل لقرطبة مُنْذر التجيبيُّ صاحب سَرَقُسْطة وخَيْرَان العامرى

---

(١) أصل الوطفاء السحابة المسترخية الجوانب من كثرة مائها ، وهى أيضا السحابة الدائمة الهطلان ، والجنوح : الميل ، شبه السحابة بطائر ، وأثبت لها الجناح .

(٢) فى ا « فاختلفت أهواء البربر »

الصَّقْلبى صاحب الْمَرِية ، وانضاف إليهم جمعٌ من الفرنج ، وتأهب القاسم والبرابرة للقائهم ، فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر وخَيْران على المرتضى ، وقالا : أرانا فى الأوّل وجْهاً ليس بالوجه الذى نراه حين اجتمع إليه الجم الغفير(١) ، وهذا ماكر غير صافى النية ، فكتب خيران إلى ابن زِيرِى الصِّنهاجى المتغلب على غَرْناطة ـ وهو داهية البربر ـ وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خَذَّل(٢) عن نصرته الْمَوالىَ العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور ، فأصغى ابن زِيرِى إلى ذلك ، وكتب المرتضى إلى ابن زِيرِى يدعوه لطاعته ، فقلب الكتاب ، وكتب فى ظهره (قل يأَيها الكافرون ـ السورة) فأرسل إليه كتاباً ثانياً يقول فيه : قد جئتك بجميع أبطال الأندلس وبالفرنج ، فماذا تصنع ؟ وختم الكتاب بهذا البيت :

إنْ كنتَ منا أبشر بخير أولا فأيقِنْ بكل شَرٍّ

فأمر الكاتب أن يحوّل الكتاب ويكتب فى ظهره (ألهاكم التكاثر ـ السورة) فازداد حنقه ، وحمله الغيظ إلى أن ترك السير إلى حضرة الإمامة قُرْطبة ، وعدل إلى محاربته ، وهو يرى أنه يَصْطلمه(٣) فى ساعة من نهار ، ودامت الحرب أياماً ، وأرسل ابنُ زِيرِى إلى خَيْران يستنجزه وعده ، فأجابه : إنما توقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو كنا ببواطننا معك ، فأثبت جمعك لنا ، ونحن ننهزم عنه ونَخْذُلُه فى غد .

ولما كان من الغد رأى أعلام خَيْران وأعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولت عنه ، فسُقِطَ فى يد المرتضى ، وثبت حتى كادوا يأخذونه ، واستحرَّ القتل ، وصرع كثير من أصحابه ، فلما خاف القبض عليه ولى ، فوضع عليه خيران عيونا فلحقوه بقرب وادى آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه ، فهجموا عليه ، فقتلوه

(١) الجم الغفير : أراد العدد الكثير من أتباعه

(٢) خذل عن نصرته : أراد أغرى الناس بالتقاعد عنه

(٣) فى ب « وهو يرى أن يصطلمه » ومعنى يصطلمه يستأصله ويبيده

وجاؤا برأسه إلى المَرِية ، وقد حل بها خيران ومنذر ، فتحدث الناس أنهما اصطبحا عليه سروراً بهلاكه .

وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس للبرابرة ، ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به إليهم ، وضرب القاسمُ بن حمود سرادقَ المرتضى على نهر قُرْطُبة ، وغشيه خلق من النظارة وقلوبُهم تتقطع حسرات ، وأنشد عبادة بن ماء السماء قصيدته التى أولها :

لَكَ الخيرُ خَيْرَانٌ مَضَى لسبيله وأصْبَحَ أمرُ الله فى ابن رَسُوله

وتمكنت أمور القاسم (١) ، وولى وعزل ، وقال وفعل ، إلى أن كشف وجهه فى خلع طاعته ابنُ أخيه يحيى بن على ، وكتب من سَبْتة إلى أكابر البرابر بقرطبة : إن عمى أخذ ميراثى من أبى ، ثم إنه قدّمَ فى ولاياتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيدَ والسودان ، وأنا أطلب ميراثى ، وأوليّكم مناصبكم ، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس ، فأجابوه إلى ذلك ، فجمع ماعنده من المراكب وأعانه أخوه إدريس صاحبُ مالَقَة ، فجاز البحر بجمع وافر ، وحصل بمالَقَةَ مع أخيه ، وكتب له خيران صاحبُ المرّية مذكراً بما أسلفه فى إعانة أبيه ، وأكد المودة فقال له أخوه إدريس : إن خيران رجل خداع ، فقال يحيى : ونحن منخدعون فيما لا يضرنا ، ثم إن يحيى أقبل إلى قُرْطُبة واثقاً بأن البرابر معه ، ففر القاسم إلى إشبيلية فى خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة (٢) ٤١٣ ، وحل يحيى بقُرْطُبة ، فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مُسْتَهل جمادى الآخرة ، وكان يحيى من النجباء ، وأمه فاطمية ، وإنما كانت آفته العجب واصطناع السِّفْلة ، واشتط أكابر البرابر عليه ، وطلبوا ماوعدهم من إسقاط مراتب السودان ، فبذل لهم ذلك ، فلم يقنعوا منه ، وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة

---

(١) هكذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « ومشت أمور القاسم »

(٢) فى ا « سنة اثنتى عشرة وأربعمائة »

ويفرغ بيت المال ، وفر السودان إلى عمه بإشبيلية ، ومن البرابر ومن جند الأندلس مَن احتجب عنهم يحيي وتكبر عليهم ، ولم يمل إليه ملوك الطوائف ، وبقي منهم كثير على الخطبة لعمه القاسم ، إلى أن اختلّت الحال بحضرة قرطبة ، وأيقن يحيي أنه متى أقام بها قبض عليه ، وكان قد ولَّى على سَبْتَة أخاه إدريس ، وبلغه أن أهل ما لقَة خاطبوا خَيْران وكاتبوه ، فطمع خيران فيها ، وفرَّ يحيي في خواصه تحت الليل إلى ما لَقَة ، ولما بلغ القاسم فراره ركب من إشبيلية إلى قُرْطبة ، فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة ٤١٣ ، ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة ، ووقع الاختلاف ، وكان هوَى السودان معه ، وهوى كثير من البرابر مع يحيي ، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بنى أمية يشيعون ذكره ولا يظهر ، وكثر الإرجاف بذلك ، ووقع الطلب على بنى أمية فتفرقوا فى البلاد ، ودخلوا فى أغمار الناس ، وأخْفَوْا زيهم ، ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة ، وتكاثر البلديون ، وأخرجوا القاسم وبرابرته فضرب خيمة بغربيها ، وقاتلهم مدّة خمسين يوما قتالا شديداً ، وبنى القرطبيون أبوابَ مدينتهم ، وقاتلوا القاسم من الأسوار إلى أن طال عليهم الحصار ، فهدموا بابا من الأبواب وخرجوا خَرْجَة رجل واحد ، وصبروا[1] ، فمنحهم الله تعالى الظفر ، وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية ، وفر البرابرة إلى يحيي وهو بما لَقَة ، وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤ ، وكان ابنُه محمد بن القاسم والياً على إشبيلية ، وثقته المدبرُ لأمره محمد بن زِيرِى من أكابر البرابرة ، وقاضيها محمد بن عباد[2] ، فعمل القاضى لنفسه ، وهو جد المعتمد بن عباد ، وأطمع ابنَ زِيرِى فى التملك ، فأغلق الأبواب فى وجه مصطنعه

---

(١) فى نسخة عندنا « وكبروا » وفي أخرى « وظفروا » .

(٢) تغلب محمد بن عباد على إشبيلية أيام الفتنة ، وقادها فانقادت له ، وساسها فخضعت ، وكان عالما أديبا ضليعا ذا معرفة ، ومات قريبا من سنة ٤٣٠ .

وحاربه ، فقتل من البرابر والسودان خلق كثير ، وابنُ عباد يضحك على الجميع ، فيئس القاسم ، وقنع أن يُخْرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم ، فأخرجوهم إليه ، فسار بهم إلى شَرِيش . وعندما استقر بها وصل إليه يحيى ابنُ أخيه من مالَقَةَ ومعه جمع عظيم وحاصره فى المدينة عشرين يوما كانت[1] فيها حروب صعاب ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه وإسلام أهل شَرِيشَ له ، وفر سودانه ، وحصل القاسم وابنه فى يد يحيى ، وكان قد أقسم أنه إن حصل فى يده ليقتلنه ، ولا يتركه حتى يلى الإمامة بقرطبة مرة ثالثة ، فرأى التربُّص فى قتله حتى يرى رأيه فيه ، فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالَقَةَ ، وحبسه عنده ، وكان كلما سكر وأراد قتله رغَّبه ندماؤه فى الإبقاء عليه لأنه لا قدرة له على الخلاص ، وكان كلما نام رأى والده عليا فى النوم ينهاه عن قتله ، ويقول له : أخى أكبر منى ، وكان محسنا إلى فى صغرى ومُسلما إلى[2] عند إمارتى ، الله الله فيه ، وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه ، لأنه [قد] كان حبسه فى حصن من حصون مالقة ، فَنُمِيَ إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن فى القيام والعصيان فقال : أو بقى فى رأسه حديث[3] بعد هذا العمر ؟ فقتله سنة ٤٢٧ ، و بقى أهل قرطبة بعد فرار القاسم [عنها] نيفا عن عشرين يَرَوْن رأيهم فيمن يبايعونه بالإمامة .

ولما كان يوم الثلاثاء نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ أُحْضِرَ المستظهر وسليمان ابن المرتضى وأموى آخر معه ، فبايعا المستظهر ، وقبَّلا يده بعد ما كان قد كتب عَقْدُ البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الأماثل ، فبُشِرَ اسمه ، وكتب اسم المستظهر وركب إلى القصر ، وحمل معه ابنى عمه المذكورين فحبسهما ، وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب ، كأبى عامر بن شُهَيد المنهمك[4] فى بطالته ،

(١) فى ب « كان فيها » (٢) فى ب « ومسلماً لى » .

(٣) في ا « أو بقى فى رأسه حدث » .

(٤) فى نسخة عند ا « المنهتك » وفى أخرى « المنتهك » وفى ثالثة « المتمسك » .

وأبى محمد بن حَزْم المشهور بالرد على العلماء فى مقالته ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغَزِل المترف فى حالته ، فأحقد بذلك مشايخ الوزراء(١) والأكابر ، وبادر المستظهر باصطناع البرابر ، وأكرم مثواهم ، وأحسن مأواهم ، واشتغل(٢) مع ابن شُهَيْد وابنى حَزْم بالمباحثة فى الآداب ، ونظم الشعر ، والتمسك بتلك الأهداب ، والناسُ فى ذلك الوقت أجهل ما يكون ، وكان جماعة من أهل الشرّ فى السجون يتعين أن لا يخرج منهم إنسان ، فأخرج منهم شخصا يقال له أبو عمران ، وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم إخراجه ، فأخرجه وخالفه فى ذلك ، ولم يقبل النصيحة ، وفعل ما أداه إلى الفضيحة ، فسعى القوم الذين خرجوا من الحُبُوس على إفساد دولته و إبدال فرحه بالبُؤْس ، لما اشتغل عنهم بالأدباء والشعراء حَسْبما اقتضاه رأيُه المعكوس ، فسَعَوْا فى خلعه مع البرابر ، وقتل فى ذى القعدة من السنة التى بويع فيها ، وصار كأمس الدابر ، بعد سبعة وأربعين يوما من يوم بويع بالخلافة ، وإذا أراد الله أمرا فلا يقدر أحد أن يأتى خلافه ، وعمره ثلاث وعشرون سَنَة كأنها سِنَة(٣) .

ومن شعر المستظهر المذكور ، وهو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة(٤) المشكور :

طال عُمرُ الليل عندى مُذ تولّعْتَ بصدّى
يا غزالاً نقض العهد ولم يوف بوعْدِ
أنسيتَ العهد إذ بتنا على مفرش وَرْدِ
واعتنقنا فى وشاحٍ وانتظمنا نظم عِقد
ونجومُ الليل تَسْرِى ذهباً فى لازَوَرْدِ

وكتب إليه شاعر فى طِرْسٍ مكشوط :

الطِّرْسُ مبشورٌ وفيه بشارَةٌ ببقَا الإمامِ الفاضلِ المستظهِرِ

(١) فى نسخة عند ا « مشايخ العلماء » . (٢) فى نسخة « واستقل » .
(٣) السنة – بكسر السين – أول النوم . (٤) فى ا « فى البلاغة » .

ملك أعاد العيش غضاً ملكه وكذا يكونُ به طوال الأعْصُرِ

فأجزل صلته ، وكتب فى ظهر الورقة :

قبلنا العُذْر فى بَشْرِ الكتاب لما أحْكمتَ فى فصْل الخطاب

وقد قدمنا فى الباب الثالث شيئا من هذه الأخبار ، وما حصل بعد ذلك بقرطبة إلى أن تولى الأمر ابنُ جَهْور فى صورة الوزارة ، ثم ابنه ، إلى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد ، حسبما ذكر فى أخباره .

ثم آل الأمر بعد ذلك كله إلى استيلاء ملوك العُدْوَة من الملثمين والموحِّدين، على قرطبة ، إلى أن تسلمها النصارى ، أعادها الله تعالى للإسلام! كما يذكر فى الباب الثامن .

وقال صاحب « مناهج الفكر » فى ذكر قرطبة ، ما ملخصه : فأما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة ، من البلاد الخطيرة ، فمنها قُرْطُبة ، وكانت مقر الملك ، ودار الإمارة ، وأمَّ ما عداها من البلاد ، منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبدالملك إلى أن خرجت عن أيديهم ،وتنقلت فى أيدى ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبدالرحمن، فبنى فى تجاهها مدينة سماها الزهراء ، يجرى بينهما نهر عظيم ،انتهى.

وصف المباني العظيمة

واعلم أن المبانى دالة على عظيم[١] قدر بانيها ، كما ذكرناه فى كلام الناصر الذى طابت له من الزهراء مجانيها ، ولم يزل البلغاء يصفون المبانى ، بأحسن الألفاظ والمعانى ، ورأينا أن نذكر هنا بعض ذلك ، زيادة فى توسيع[٢] المسالك ، فمن ذلك قول ابن حَمْديس الصقلى يصف دارا[٣] بناها المعتمد على الله :

ويا حَبَّذا دار قَضَى الله أنها يُجَدّد فيها كلُّ عِزٍّ ولا يَبْلَى

مُقدّسَة لو أنَّ مُوسَى كليمَهُ مَشَى قُدُماً فى أرْضِهَا خلع النعْلاَ (٤)

---

(١) فى ب « عظم قدر بانيها » .

(٢) فى ب « توسع المسالك » .

(٣) فى ب ونسخة عند ا « فى دار » .

(٤) يشير إلى قوله تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام (وأن أخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى) .

وما هِيَ إلا خُطَّة الملك الذى يَحُط إليه كلُّ ذى أَمَلٍ رَحْلاَ
إذا فتحت أبوابها خِلْتَ أنها تقولُ بترحيب لداخِلِهاَ أَهْلاَ
وقد نَقَلَتْ صُنَّاعُهاَ من صفاته إليها أفانيناً فأَحْسَنَتِ النَّقْلاَ
فمن صَدْره رحباً ومن نوره سَنًى ومن صيته فرعاً ومن حلمه أصلاَ
فأَعْلَتْ به فى رُتْبَةِ الملك ناديا وَقَلَّ له فوق السّما كين أن يُعْلَى(١)
نسيتُ به إيوانَ كِسْرَى لأننى أراه له مَوْلًى من الحسن لا مِثْلاَ
كأن سليمان بن داود لم تُبِحْ مَخَافته للجْنِّ فى صُنْعه مَهْلاَ
تَرَى الشمسَ فيه ليقةً تستمدها أكفٌّ أقامتْ من تصاويرها شَكْلاً
لها حَرَكَات أودِعت فى سكونها فما تبعت فى نقلهن يَدٌ رِجْلاَ
ولما عَشِينَا من تَوَقّد نورها تخذنا سَنَاه فى نواظرنا كحلا(٢)

وقال من أخرى يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس بِبِجَايَة :

أعْمرْ بقصْرِ الملك ناديك الذى أضْحَى بمَجْدِكَ بَيْتُه مَعْمُورَا
قصرٌ لو أنّكَ قد كَحَلْتَ بنوره أعْمَى لعاد إلى المقام بَصيرَا
واشْتُقَّ من مَعْنَى الجِنان نسيمه فيكاد يُحدِث بالعظام نُشُورَا(٣)
نسِيَ الصبيح مَعَ المليح بذكره وسَمَا ففاقَ خَوَرْنَقاً وسَديرا(٤)
لو أن بالإيوانِ قوبِل حُسْنُه ما كان شيئاً عندهُ مَذْكُورا
أعيَتْ مصانعُهُ على الفُرْسِ الألى رَفَعُوا البنَاء وأحكَمُوا التّدبِيرا
ومضَتْ على الروم الدهورُ وما بَنَوا لملوكهم شَبَهاً له ونَظِيرا
أذكرتَنَا الفِردَوسَ حين أريْتَنا غُرفاً رفعْتَ بناءها وقُصُورا
فالمحسنون تزيّدُوا أعمالَهُمْ ورجَوْا بذلك جنّةً وحريرا

(١) في ا « فأعلت بها » . (٢) في نسخة عند ا « فلما عشينا ».
(٣) فى ا « واشتق من معنى الحياة » و « يحدث للعظام » .
(٤) فى ب ونسخة عند ا « نسى الصبيح مع الفصيح » .

والمذْنِبُون هُدُوا الصِّراط وكفرت ... حسَنَاتُهُمْ لذنوبهم تكفيرا
فَلَكٌ من الأفلاك إلا أنه ... حقَرَ البدور فأطلع المنصورا
أبصرْتُه فرأيتُ أبدع منظر ... ثم انثنيتُ بناظرى محسوراً
فظننتُ أنى حالم فى جنّةٍ ... لما رأيت الملك فيه كبيرا
وإذا الولائدُ فتّحت أبوابهُ ... جعلت ترحّبُ بالعُفاة صريرا
عضَّت على حلقاتهنّ ضراغم ... فَغَرَتْ بها أفواهها تكسيراً (١)
فكأنها لَبَدَتْ لتهصر عندها ... منْ لم يكن بدُخُولها مأمُورا (٢)
تجْرى الخواطِرُ مُطْلقات أعنّةٍ ... فيه فتكبُو عنْ مَدَاه قصُورا
بِمُرَخَّمِ الساحات تحسِبُ أنه ... فرِشَ المها وتوشح الكافورا
ومُحصَّب بالدرِّ تحسبُ تُرْبَهُ ... مسْكا تضوَّع نَشْرُه وعبيرا
تسْتخْلف الأبصار منه إذا أتى ... صُبْحًا على غسق الظلام مُنيرا (٣)

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها المياه ، وتفَنن فذكر أسوداً على حافاتها قاذفة بالمياه أيضاً ، فقال :

وضراغم سكنت عَرِينَ رياسةٍ ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النُّضارُ جسومها ... وأذاب فى أفواهها البلُّورا
أسْدٌ كأنّ سكونها مُتحرِّك ... فى النَّفس لو وجدت هناك مُثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقْعَتْ على أدبارها لتثُورا
وتخالُها والشمسُ تجْلو لَوْنَهَا ... نارًا وألْسُنَهَا اللواحِسَ نورًا
فكأنما سَلّتْ سيوفَ جَدَاول ... ذَابَتْ بلا نار فعُدْنَ غَدِيرًا
وكأنما نَسَجَ النسيمُ لمائه ... دِرْعًا فقدَّر سَرْدَهَا تَقْدِيرًا

---

(١) فى ب « فغرت بها أفواهها تكبيرا » (٢) فى ا « بدخوله مأمورا »
(٣) وقع هذا البيت فى ا هكذا :
يستخلف الإصباح منه إذا انقضى ... صبحاً على عنق الظلام منيرا

وبَدِيعة الثمرات تعبر نحوَها عَيْناىَ بَحْرَ عجائبٍ مَسْجُورَا
شجرية ذهبية نزعَتْ إلى سِحْرٍ يؤثر فى النُّهى تأثِيرَا
قد صُولِجَتْ أغصانُهَا فكأنما قَنَصَتْ بِهِنَّ من الفضاء طُيُورَا(١)
وكأنَّما تأبى لوُقَّعِ طَيرِهَا أن تَسْتَقِلَّ بِنَهْضِهَا وتَطِيرَا(٢)
مِنْ كُلِّ واقعةٍ تَرَى مِنْقَارَهَا ماءً كسَلْسَالِ اللجَيْنِ نَمِيرَا
خرس تعدُّ من الفِصَاحِ فإن شَدَتْ جَعَلَتْ تغرِّدُ بالمياهِ صَفِيرَا
وكأنما فى كل غصنٍ فِضَّة لانَتْ فأرْسِلَ خَيطها مَجْرُورَا
وتُرِيكَ فى الصِّهْرِيجِ مَوْقِعَ قَطْرِهَا فَوْقَ الزبَرْجَدِ لُؤلُؤًا مَنْثُورَا
ضحكت محاسِنُه إليك كأنما جُعِلَتْ لها زُهْرُ النجوم ثُغُورَا
ومُصَفَّح الأبواب تبراً نَظَّرُوا بالنقش فوق شُكُوله تنظِيرا(٣)
تَبْدُو مساميرُ النُّضَارِ كما عَلَتْ تلكَ النهودُ من الحِسَانِ صُدُورَا(٤)
خَلَعَتْ عليه غلائلا ورْسِيَّةً شَمْسٌ تردُّ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرَا
وإذا نَظَرْت إلى غرائب سَقْفِهِ أبْصَرْتَ رَوْضاً فى السَّماء نَضِيرَا
وعجِبْت من خُطَّاف عَسْجَدِهِ التى حَامَتْ لِتَبْنِيَ فى ذُرَاهُ وُكُورَا
وضعت به صُنَّاعُهَا أقلامَهَا فأرتْكَ كل طَرِيدَةٍ تَصْوِيرَا
وكأنما للشمس فيه لِيقَةٌ مَشَقُوا بها التزويق والتَّشْجِيرَا
وكأنما باللازَوَرْدِ مخرَّمٌ بالخط فى وَرَق السماء سُطُورا
وكأنما وَشَّوْا عليه مُلَاءَة تَرَكُوا مكانَ وِشَاحها مَقْصُورَا

ثم مدح المنصور بعد ذلك ، وختم القصيدة بقوله :

---

(١) فى ب ونسخة عند ا «قد صوبحت أغصانها» وفيها «قبضت بهن» .
(٢) فى أصل ا «تأبى لواقع طيرها» (٣) فى ا «بين شكوله تنظيرا» .
(٤) فى ب «تلك النهود من الجنان صدورا»

يامالكَ الأرضِ الذى أضْحَى لَهُ … مَلِكُ السماء على العُدَاة نَصِيرَا
كم من قُصُورٍ للملوكِ تقدَّمَتْ … واسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ التأخِيرَا(١)
فعمرتها وملكت كل رياسة … منها ودمَّرْتَ العِدَا تدميرَا

قلت : لم أر لهذه القصيدة من نظير ، فى معناها اليانع النَّضير ، ولفظها العذب النّمير ، الذى شَمّر فيه قائلها عن ساعد الإجادة أىّ تشمير ، غير أن فيها عندى عيباً واحداً ، وهو ختمها بلفظ التدمير ، وعلى كل حال فالحسن والإحسان ، يُقادان فى أرْسَان ، لعبد الجبار بن حَمْديس المذكور ذى المقاصد الحسان، وخصوصاً فى وصف المبانى والبِرَك ، فما أبقى لسواه فى ذلك حسناً ولا ترَك .

ومن ذلك قولُه فى وصف بركة تجرى إليها المياه من شاذَرْوَان من أفواه طيور وزرافات وأسود ، وكل ذلك فى قصر أطنب فى وصفه فى قصيدة طويلة:

والمــاء مِنْهُ سَبائك من فضَّةٍ … ذابَتْ على دَوْحَات شاذَرْوَانِ(٢)
وكأنما سيف هناك مُشَطَّبٌ … ألقته يوم الحرب كَفُّ جبانِ
كم شاخصٍ فيه يُطِيلُ تَعَجُّباً … من دَوْحَة نبتَتْ من العِقْيَانِ(٣)
عَجَباً لهـا تَسْقِى الرياضَ ينابعاً … نَبَعتْ من الثمرات والأغصان
خُصَّتْ بِطَائِرة على فَنَنٍ لَهَا … حَسُنَتْ فأفرِدَ حُسْنُهَا مِنْ ثَانِي
قُسُّ الطيور الخاشعاتِ بلاغةً … وفصاحــة من مَنْطقٍ و بيَانِ
فإذا أُتيحَ لها الـكلامُ تكلَّمتْ … بخــرير ماء دائِم الهَمَلان
وكأن صانعهَا استبدّ بصَنْعَةٍ … فَخَر الجمــادُ بها على الحَيَوان
أوْفَتْ على حَوْضٍ لها فكأنّها … منها على العَجَب العُجَاب رَوَانِى(٤)
فكأنها ظَنّتْ حلاوة مائها … شَهْدًا فذاقَتْــهُ بكل لسَان

(١) فى ا « واستوجبت لقصورك التأخيرا » .
(٢) فى ا « والماء منه سبائك فضية » (٣) فى نسخة « بنيت من العقيان »
(٤) فى ا « منها إلى العجب العجاب روانى » وروانى: نواظر ، واحدها رانية

وَزَرَافة فى الجوْف من أنبوبِهَا ماء يُريك الجَرْى فى الطَيَران
مَرْكوزة كالرمْح حَيْثُ تَرَى له مِنْ طعنهِ الخلقَ انعطَاف سِنَان(١)
وكأنما ترمى السماء ببُنْدُقٍ مُسْتَنبطٍ من لؤلؤ وجُمَان
لو عاد ذاك الماء نفطاً أحرقت فى الجوِّ منه قميص كل عَنَان
فى بِرْكةٍ قامت على حافاتها أسْدٌ تذلُّ لعزة السلطان
نَزَعت إلى ظُلْم النفوس نفُوسُهَا فلذلك انتزعت من الأبدان
وكأن بَرْدَ الماء منها مُطْفِىء ناراً مُضَرمةً من العدوان
وكأنما الحيّاتُ من أفواهِهَا يطْرَحْنَ أنفسَهُنّ فى الغُدْران
وكأنما الحيتانُ إذ لم تخْشَهَا أخذَت من المنصور عقد أمان

وهاتان القصيدتان لابن حمديس كما فى المناهج مع طولهما تدلان على الإبداع الذى ابتكره، والاختراع الذى ماولج سمع أحدٍ من الفضلاء إلاشكره [لما أسكره].

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى يصف قصراً بمصر يسمى « منزل العز » بناه حسنُ بن على بن تميم بن المعز العُبيدى(٢) :

منزلُ العزِّ كاسمه معْناه لا عَدا العزُّ مَنْ به سمّاه
منزلُ وَدت المنازلُ فى أعلى ذَراه لو صُيِّرت إياه
فأجِلْ فيه لحظ عينيك تبْصِرْ أىَّ حُسْنٍ دون القصورِ حواه
سال فى سقفه النُّضَار ولكن جمدت فى قرارِه الأمْواه
وبأرْجائه مَجَالُ طِرادٍ ليس تنفكُّ من وغًى خَيْلاه
تُبصر الفارس المدجج فيه ليس تَدْمَى من الطعان قناه
وتَرَى النابل المواصل للنزع بعيداً من قِرْنِهِ مَرْماه

(١) كذا فى أصل ا ، ووقع فى ب ونسخة عند ا « من طعنة الحلق »
(٢) هكذا وقع فى جميع أصول هذا الكتاب ، وأمية بن عبد العزيز كان من شعراء على بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب المهدية ببلاد المغرب .

وصفوفاً من الوحوشِ وطيرِ الـــجو كُلٌّ مُسْتحْسنٌ مرْآه
سكَنَاتٍ تخالُهـــا حركاتٍ واختـــلافٌ كأنه إشْباه
كمحيّا الحبيب حرفاً بحرْفٍ ما تعـدَّى صفاتِهِ إذْ حكاه
وَرْدُه وَجنتاه ، نرجسه الفتـــانُ عيْناه ، آسُـــهُ عارضاه
وكأن الكافور والمسك فى الطيـــب وفى اللون صُبـــحه ومساه
منْظر يبعثُ السرور ومرْأًى يذكر المرءَ طيب عصْرِ صباه

وقال أبو الصلت أميـــة الأندلسى المذكور يذكر بناءً بناه على بن تميم بن المعز العُبَيْدِى (1) :

لله مجلسُـــك المنيفُ قبابُهُ بمؤطَّدٍ فوق السِّمَاكِ مؤسَّسِ (2)
مُوفٍ على حُبُكِ المجرّة تَلْتَقِى فيه الجوارى بالجوارى الـكُنَّسِ
تتقابلُ الأنوار من جَنَبَاتِهِ فالليلُ فيـــه كالنهار المشْمِسِ
عَطفَت حَنَاياه دُوَيْنَ سمَائِه عَطْفَ الأهلّةِ والحواجب والْقِسِى
واستشرفتْ عُمُدُ الرخام وظوهِرَت بأجلّ من زهر الربيع وأنْفَسِ
فهواؤه من كلّ قدٍّ أهيفٍ وقَرَارُه من كل خَـدٍّ أمْلَسِ
فلكٌ تحيَّر فيـــه كل منجّمٍ وأقر بالتقصـــير كل مُهَنْدِسِ
فَبَدَا لِلَحْظِ الْعَيْنِ أحْسَنَ منظرٍ وغدا الطيبَ الْعَيْش طيبَ مُعرّسِ (3)
فاطلع به قمراً إذا ما أطلعت شمسُ الخدودِ عليك شمس الا كؤس (4)
فالناس أجْمَعُ دون قَدْرِك رتبـةً والأرض أجمع دون هذا المجلسِ

ويُعْجبنى قول أبى الصلت أمية المذكور يصف حال زيادة النيل ونقصانه :

للهِ مَجْرَى النيل منها إذا الصَّبَا أرتْنَا به من مرِّهَا عَسْكرا مَجْرا (5)

---

(1) كلمة « العبيدى » لاتتفق مع ماذكرناه فى الهامشة ٢ ص ٤٠
(2) فى نسخة عند ا « فوق السماء مؤسس » (3) فى ا « خير معرس » .
(4) فى ا « شمس الخدود عليك شمس الأكوس »
(5) فى ا « مجرى النيل منه » .

إذا زاد يحكى الوردَ لَوْناً و إن صَفا حكى ماءه لَوْناً ولم يحكِهِ مُرّاً (١)

وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذى بظاهر مصر :

يا نُزْهة الرصَد التى قد اشْتملَتْ من كلِّ شىء حلا فى جانب الْوادى
فذاغَدِيرٌ ، وذا روْض، وذاجبل والضبُّ والنُّونُ والملاح والحادى

وهو مأخوذ من قول الأول يصف قصر أنس بالبصرة :

زُرْوادىَ القصر، نعْم القصرُ والوادى لا بد من زَوْرة من غير ميعاد
زُرْهُ فليس له نِدٌّ يشاكِلُه من منزلٍ حاضرٍ إن شئتَ أو بادى
تلقَى به السفنَ والظلمان حاضرةً والضبَّ والنونَ والملاحَ والحادى

وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرَمَيْن :

بعَيْشِك هل أبصرت أحسَن منْظَراً على طول ما عايَنْتَ من هرَمَىْ مِصْر
أنافا بأكناف السَّمَاء ، وأشرفا على الجوِّ إشراف السماكِ على النَّسْر (٢)
وقَدْ وافيا نشزاً من الأرض عالياً كأنهُمَا نَهْدَانِ قاما على صدْرِ

وستأتى ترجمته إن شاء الله تعالى فى الباب الخامس .

من وصف الأنهار والبرك

وعلى ذكر الأنهار والبرك فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوّارات :

غَضِبتْ مجاريها فأظهر غَيْظُهَا ما فى حشَاها من خَفىٍّ مُضْمرِ
وكأن نَبْعَ الماء من جنَبَاتِها والعينُ تَنْظُرُ منه أحْسنَ منظر
قُضُبٌ من البلّورِ أثمر فَرْعُهَا لما انتهت باللؤلؤ المتحدِّر

وقال ابن صارة الأندلسى يصف ماء بالرقة والصفاء [يجرى على الصفا] (٣) :

والنهر قد رَقَّتْ غِلالَةُ خَصره وعليه من صِبْغِ الأصيل طِرازُ

---

(١) فى ا « يحكى الورد غضا » وفى نسخة « ولم يعده نشرا »
(٢) فى ا « أنافا بأعنان السماء » وفى ختامه « إشراف السماك أو النسر »
(٣) سقطت هذه العبارة هنا من ا وأثبتت مع قول ابن حمديس الآتى فى وصف النهر .

تَترقرقُ الأمواج فيـــه كأنهَا ... عُـكَنُ الخصور تهزها الأعجاز

وما أحسن قول بعض الأدباء ولم يحضرنى الآن اسمه :

والنهرُ مكسوٌ غِلالَةَ فضــةٍ ... فإذا جرى سيلاً فثوبَ نُضارِ

و إذا استقام رأيت صفحة مُنْصُلٍ ... وإذا استدار رأيت عطف سِوَارِ

وقال ابن حَمْديس المغربى يصف نهرا بالصفاء(١) :

ومُطّرِدِ الأمواج يصقلُ متنَه ... صباً أعلنت للعين ما فى ضميره

جريح بأطراف الحصى كلما جرى ... عليهـا شكا أوْجاعَهُ بخريرِهِ

وهذا النهج متسع ، ولم نطل السير فى هذه المهامهِ ، وإنمـا ذكرنا بعض كلام المغاربة ليتنبه(٢) به مُنْتَقِصهم من سِنَة أوهامه ، ولأن فى أمرها عبرة لمن عقل، إذا أصدأ مرآة حسنها ولطالما كان لمتنها(٣) صَقل .

وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج فى هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصا ، وهو : ونُلْحق بذكر المنازل التى راق منظرها ، وفاق مخبرها ، وارتفع بناؤها ، واتسع فِناؤها ، طرَفاً من الكلام على ماعفَاه الدهرُ من رسومها ، ومحاه من محاسن صُوَرٍ كانت أرواحاً لجسومها .

وصف الديار الداثرة

وصف أعرابى محلة قومٍ ارتحلوا عنها فقال نثرا : ارتحلت عنها ربَّات الخُدور، وأقامت بها أثافِىُّ القدور(٤) ، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياحُ آثارهم، وذهبت بأبدانهم وأبقت أخبارهم ، والعهدُ قريب ، واللقاء بعيد .

وقال عمر بن أبى ربيعة فأحسن :

يا دارُ أمسَى دارسـاً رسْمُهـا ... وَحْشاً قفاراً ما بهـا آهِـلُ

قد جَرَّتِ الريحُ بهـا ذَيْلَهَا ... واستَنَّ فى أطلالهـا الوَابِلُ

---

(١) هنا ورد فى نسخة عندا عبارة « يجرى على الصفا »

(٢) فى أصل ا « لينتبه به » وما أثبتناه فى ب ونسخة عند ا

(٣) فى ب ونسخة عند ا « لمثلها صقل » (٤) فى نسخة « رواجل القدور »

ومن كلام الفتح بن خاقان ، فى قلائد العقيان ، يذكر آل عبّاد من فصل أكثر فيه التفجّع ، وأطال به التوجّع : والغصون(١) تختال فى أدواحها ، والأزاهر يُحْيي ميتَ الصبابة شَذَا أرواحها ، وأطيارُ الرياض(٢) [قد أشرفت عليهم] كثكالى يَنُحْنَ على خرابها ، وانقراض أتْرَابها ، والوهى بمشيدها لاعِب ، وعلى كل جدار منها غُرَاب ناعِب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، ولطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شَذَاهم وتأرَّجَتْ ، أيام نزلوا خلالها ، وتفَيَّؤا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجَنّاتها ، ونبَّهوا الآمال من سِنَاتِها ، وراعوا الليوث فى آجامِها ، وأخجلوا الغيوثَ عند انسجامها ، فأصبحت ولها [بالتداعى] تلفّع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نُؤى وأحْجَار ، قد هَوَت(٣) قِبَابُهَا ، وهَرِمَ شَبَابُهَا ، وقد يلين الحديد ، ويَبْلَى على طيه الجديد .

وقال أبو صخر القُرْطُبى يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها :

ديار عليها من بَشَاشة أهلها	بقايا تسرُّ النفس أنْساً ومَنْظَرَا
رُبوع كساها المُزْنُ من خِلَع الحَيَا	بُرُودًا وحلاَّها من النَّوْرِ جَوْهَرَا
تسُرُّك طَوْرًا ثم تُشْجيك تارة	فترتاحُ تأنيساً وتَشْجَى تذكرَا

ومن كلام أبى الحسن القاشانى يصف نادىَ رئيسٍ خلا من ازدحام الملا ، وعوّضه الزمانُ من تواصُل أحبابه هَجْواً وقِلا :

قد كان منزله مألفَ الأضياف ، ومأنسَ الأشراف ، ومُنْتَجَعَ الرّكب ، ومَقْصِدَ الوفد ، فاستبدل بالأنس(٤) وحْشة ، وبالضياء ظُلْمة ، واعتاض من تزاحم المواكب ، تلاطُمَ النّوادب ، ومن صَحِيج النداء والصّهيل ، عَجيج البكاء والعويل .

---

(١) في ب « والقصور تختال » محرفا (٢) فى نسخة « وآثار الديار »
(٣) فى ا « وقد وهت قبابها » (٤) فى نسخة « فاستبدل بالأنيس »

ومن رسالة لابن الأثير الجزرى يصف دِمْنَة [دارٍ] لعبت بها أيدى الزمن، وفرقت بين المسكن والسكن : كانت مقاصيرَ جَنّة ، فأصبحت وهى ملاعبُ جِنَّة ، وقد عميت أخبار قُطّانها ، وآثار أوطانها ، حتى شابهت إحداهما فى الخفاء ، الأخرى فى العفاء ، وكنت أظن أنها لا تُسْقَى بعدهم بغَمام ، ولا يُرْفع عنها جِلبابُ ظلام ، غير أن السحاب بَكاهم فأجرى بها هوامِعَ دموعه ، والليل شقّ عليهم جيوبَه فظهر الصباحُ من خلال صُدوعه .

وقد لمح فى بعض كلامه قول الشريف [الرضى] من أبيات يصف فيها ما كان فى الحيرة من منازل النعمان بن المنذر :

مازلْتُ أطَّرِقُ المنازل باللِّوَى ... حتى نزلْتُ منازل النُّعْمان[1]

بالحِيرةِ البيضاء حيث تقابَلَتْ ... شُمّ العِماد عريضة الأعطان[2]

شهِدَتْ بفضل الرّافعينَ قِبابَها ... ويَبِينُ بالبنيانِ فَضْلُ البانى

ماينفعُ الماضينَ أن بقيتْ لهم ... خططٌ مُعَمَّرَةٌ بِعمْرٍ فانى

يقول فيها :

ولقد رأيتُ بديْرِ هندٍ منزلاً ... ألما من الضَّرّاء والحِدْثانِ

يُغْضِى كمستَمِع الهوانِ تغيّبَتْ ... أنصارُهُ وخَلا من الأعْوانِ

بالى المعالم أطرَقَتْ شُرُفاتُهُ ... إطراقَ منجذبِ القرينةِ عانى

أمقاصر الغزلان غيّرَكِ البِلَى ... حتى غدَوْتِ مرابِضَ الغِزْلان

وملاعِبَ الإنس الجميع طوى الرّدَى ... منهُمْ فصِرْتِ ملاعِبَ الجِنّانِ

ومنها :

مِسْكِيّةُ النَّفَحات تحْسَبُ تُرْبَها ... بُرْدَ الخليع معطَّر الأردان

(١) وقع فى ب «مازلت أطرق للمنازل» واخترنا مافى ا لمطابقتها مافى الديوان

(٢) شم : جمع أشم، أو شماء، والأشم : العالى المرتفع . والأعطان : جمع عطن ـ بفتح العين والطاء جميعاً ـ وهو مبرك الإبل عند الحوض ، كنى عن الشرف واليسار .

وكأنما نسىَ التجارُ لَطِيمةً جرَت الرِّياح بها على القِيعَانِ(١)
ماء كجَيْبِ الدِّرع يصْقله الصَّبا ويفِي بدَوْحَتِه النسيم الوانى(٢)
زَفَرَ الزمانُ عليهمُ فتفرقوا وجَلَوْا عن الأقطار والأوطان(٣)

وقال أبو إسحاق الصابى ، وتوارَدَ مع الشريف الرضى فى المعنى والقافية ، يصف قصر رَوْحٍ بالبصرة :

أحْبِبْ إلى بقصر روحٍ منزلا شهدت بَنِيته بفضل البانى
سورٌ علاَ وتمنّعت شُرُفاته فكأن إحداهن هَضْبُ أبَانِ
وكأنما يشكو إلى زُوّارِه بَيْنَ الخليط وفُرْقَةَ الجيران
وكأنّما يُبْدِى لهم من نفسه إطراق محزون الحَشَا حَرّان

ولأحمد بن فرج الإلبيرى من أبيات :

سألتَ بها فما رَدّتْ جَواباً عليك ، وكيف تُخبِرُك الطُّلول ؟
ومِنْ سَفَه سُؤالُكَ رَسْمَ دارٍ مضى لعَفائه زمنٌ طويل
فإن تك أصبحَتْ قَفْراً خَلاَءً لعَيْنِك فى مغانيها هُمُول
فقِدْماً قد نَعِمْتَ قرير عَيْنٍ بها وبرَبْعها الرشأ الكحيل

وقال أبو عبد الله بن الخياط(٤) الأندلسى الأعمى :

لو كنتَ تعلم مابالقلب من نارِ لم توقد النار بالهندىِّ والغَارِ
يادار عُلْوَةَ قد هيّجْتِ لى شجناً وزدتنى حُرَقاً ، حُيِّيت من دار
كم بتُّ فيك على اللذات مُعْتكفاً والليل مُدَّرِعٌ ثوباً من القار
أنه راهبٌ فى المِسح مُلْتَحِفٌ شدَّ المجدُّ له وَسْطاً بزُنَّار
يُدير فيه كؤسَ الراح ذو حَوَرٍ يدير من لحظه ألحاظ سَحّار

(١) اللطيمة : وعاء المسك ، والقيعان : جمع قاع ، وهو الأرض السهلة التى انفرجت عنها الجبال ووقع فى ب ونسخة عند ا « العقيان » .

(٢) فى ب ونسخة عند ا « ويقى بدوحته » .

(٣) فى ا « وجلوا عن الأوطار والأوطان » (٤) كذا ، ولعله « بن الحناط »

ولا مزيد فى التفجع على الديار ، والتوجع للدمن والآثار ، على قول البحترى من قصيدة يرثى بها المتوكل :

محل على القاطول أَخْلَقَ داثِرُهْ ... وعادت صروف الدهر جيشاً تُغاوِرُهْ(١)

كأن الصَّبَا توفى نذوراً إذا انبرت ... تراوحُه أذيالُها وتباكِرُه

ورُبَّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عهْدُه ... ترقُّ حواشيهِ ويُونقُ ناضره

تغيّر حُسْنُ الجعْفرى وأُنْسُه ... وقُوِّض بادى الجعفرىِّ وحاضره

تحمَّلَ عنه ساكنوه فُجاءَة ... فعادت سواء دوره ومقابره(٢)

إذا نحن زُرْناه أجدَّ لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهَجُ زائرُه

ولم أنس وحْش القصر إذ ريع سِرْبُه ... وإذ ذُعِرَت أطلاؤه وجآذِره

وإذ صِيحَ فيه بالرحيل فهُتِّكت ... على عجلٍ أسْتارُه وستائره

وأوحَشَهُ حتى كأن لم يكن به ... أنيسٌ ولم تحْسُنْ لعين مَناظِرُه

كأن لم تَبِتْ فيه الخلافة طَلْقة ... بشاشَتُهَا والمُلْكُ يشْرِقُ زاهرُه

ولم تجمعِ الدُّنيا إليه بهَاءَهَا ... وبَهْجَتَها والعيش غَضٌّ مَكاسِرُهْ

فأين الحِجَابُ الصعب حيث تمنَّعَتْ ... بهَيْبتِها أبوابُه ومقاصره

وأين عميد الناس فى كل نوْبة ... تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره

وعلى قول أبى إسحاق بن خفاجة الأندلسى :

ومُرْتبَعٍ حططْت الرحل فيه ... بحيْثُ الظِّلُّ والماء القَرَاحُ

تخرَّمَ حُسْنَ منظره مليك ... تخرم مُلْكَهُ القدرُ المُتاحُ

فجريَةُ ماء جَدْوله بكاء ... عليه ، وشَدْوُ طائره نوَاحُ

---

(١) تغاوره : تغير عليه ، ووقع فى ا ، ب «العاطول» و«تغادره» محرفا عما أثبتناه عن نسخ الديوان .

(٢) وقع فى ا ، ب « سواء دوره ومقاصره » محرفا عما أثبتناه عن الديوان .

وهذا النوع من البكاء على الدمن ، والتأسف على مافعلت بها أيدى الزمن ، كثيرجدا ، لايعرف الباحث عنه لهحدا ، وذلك لشدة وَلُوع النفوس بذكرأحبابها وحنينها إلى أماكنها التى هى مواطن أطرابها ، ولهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة ، وجعلناهانُغبةً[1] يشفى المشوقُ بها غليلَه، وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم أنه لايُجْدِى ، ولا يدفع عادية الدهر الخؤن ولا يُعْدِى ، ونهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب ، الجرع لصاحبه الصاب والأوصاب[2] .

قال أبو عمر بن عبد البر :

عفتِ المنازل غير أرْسُمِ دِمْنة حيّيتُها من دِمْنةٍ وَرُسُوم

كمذا الوقوف ولم تَقِفْ فى منسكٍ كم ذا الطواف ولم تطف بحريم

فكلِ الديار إلى الجنائب والصَّبَا ودع القفار إلى الصدى والبوم[3]

انتهى كلامه رحمه الله تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار .

رجع إلى قرطبة — فنقول : وقد ألم لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة و بعض أوصافها فى كتاب له كتبه على لسان سلطانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرناه بجملته فى الباب الخامس من القسم الثانى فليراجع ثَمَّةَ ، ونص محل الحاجة منه هنا : ثم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومَثْوَى الطارف والتِّلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ؟ المدينة التى على عمل أهلها فى القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسىُّ الذى بعصاهرُعِىَ الهَمَل، والمصر [المعمور] الذى فى[4] خطه الناقة والجمل ، والأفق الذى هو لشمس الخلافة العَبْشَمية الحمل ، فخيم الإسلام فى عُقْرتها المستباحة ، وأجاز نهرها المعيي على السباحة ، وعم دوحها الأشِبَ بواراً ، وأدار المحلات بسورها سواراً ، وأخذ بمُخَنَّقِها حصاراً ، وأعمل النصر بشجرة

من كتاب للسان الدين فيه وصف قرطبه

---

(١) النغبة — بضم فسكون— حسو الطائر ، والجرعة من الماء، ووقع فى ب « نبعة »

(٢) وقع فى ا « المجرع لصاب الأوصاب » والصاب : عصارة مرة، والأوصاب : الأوجاع ، واحدها وصب ، بفتح الواو والصاد .

(٣) فى ا « ودع القفار مع الصدى والبوم » .

(٤) فى ا « والمصر الذى فى خطة المعمور الناقه والجمل » .

أصلها اجتناء ماشاء واهتصارا ، وجَـدَّل من أبطالهـا من لم يرض انجحارا ، فأعمل إلى المسلمين إصحاراً ، حتى قرع بعضَ جهاتها غِلاباً جهاراً ، ورفعت الأعلام إعلاما بعز الإسلام و إظهاراً ، فلولا استهلال الغوادى ، وأن أتى الوادى ، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادى ، ولقضى تفَثَه العاكِفُ والبادى . انتهى

ومما كتب به لسان الدين ـ رحمه الله تعالى ! ـ فى وصف هـذه الغَزْوة لسلطان بنى مَرِين على لسان صاحب الأندلس ، ماصورته : المقامُ الذى نُطَالعه بأخبار الجهاد ، ونُهْدى إليه عوالىَ العوالى صحيحة الإسناد ، ونبشره بأخبار الفتح البعيد الآماد ، ونسأل الله تعالى [له توَالىَ الإسعاف و] دوام الإسعاد والإمداد ، ونرتقب من صُنْع الله تعالى على يديه تكييفاً يخرق حجاب المعتاد ، وامتعاضاً يُطْلِع بآفاق البلاد نجومَ غرر الجياد ، و يفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف الحِداد ، و ينبىء(١) عن مكارم مَنْ سلف من الآباء الكرام والأجداد ، مقامُ محل أخينا الذى نستفتح له بالفتح والظهور ، ونهدى إلى مَجْده لما نعلم من فضل نيته وحسن قصده لطائفَ السرور ، ونستظهر بملكه المؤيد المؤمل ومجده المشهور ، ونتوعد منهما العدوَّ بالحبيب المَذْخُور والولى المنصور ، السلطان الـكذا ابنُ الـكذا ابن السلطان الـكذا أبقاه الله تعالى عالى القدر ، قرير العين منشرح الصدر ، ولا زال حديث فخره سائراً مسيرَ الشمس والبدر ، عَظَّم سلطانَه الخليقَ بالتعظيم ، الواثقُ منه بالذُّخْر الـكريم ، المُثْنِى على مجده الصَّمِيم وفضله العميم ، أميرُ المسلمين عبدالله الغنى بالله محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين أبى [الوليد] إسماعيل بن فرج بن نصر ، سلام كريم ، برعميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأخُوَّتكم الفضلى ، ورحمة الله و بركاته . أما بعد حمد الله ربِّ العباد ، ومُلْهِم الرشاد ، ومُـكَيف الإسعاف والإسعاد ، الولى النصير الذى نُلْقى إلى التوكُّلِ عليه مقاليدَ الاعتماد ، ونمد إلى إنجاده [و إمداده] أيدىَ الاعتداد ، ونرفع إليه أكفَّ الاستمداد ، ونُخْلصُ لوجهه الـكريم عملَ الجهاد ،

(١) هكذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « وينسى عن مكارم »

فنتعرّف عوارفَ الفضل المزداد ، ونجتنى ثمارالنصر من أغصان القنا المنآد(١) ، ونجتلى وجوهَ الصنع الْوَسيم أبهر من وجه الصباح الباد ، ونظفر بالنعيم العاجل فى الدنيا والنعيم الآجل يوم قيام الأشهاد ، ونَتَفَيَّأ ظلال الجنة من تحت أوراق السيوف الحِداد ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله النبى الهاد ، رسول الملْحَمة المؤيدِ(٢) بالملائكة الشداد ، ونبى الرحمة الهامية العِهَاد ، أكرم الخلق بين الرائح والغاد ، ذى اللواء المعقود والحَوْض المورود والشفاعة فى يوم التنّاد ، الذى بجاهه نجْدَع أنوفَ الآساد يوم الجِلاَد ، وببركته ننال أقصى الأمل والمراد ، وفى مَرْضَاته نصلُ أسبابَ الوداد ، فنعود بالتّجْر الرابح من مَرْضاة رب العباد ، ونستولى من ميدان السعادة المعادة على الآماد ، والرضا عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه الكرماء الأمجاد ، دعائم الدين من بَعْده وهُداة العباد ، أنجاد الأنجاد وآساد الآساد ، الذين ظاهروه فى حياته بالحلوم الراجحة الأطواد ، والبَسَالة التى لا تُنَال بالعُدَد فى سبيل الله والأعداد ، حتى بوّءُوا الإسلام فى القواعد الشهيرة والبلاد ، وأرغموا أنوفَ أهل الجحد والإلحاد ، فأصبح الدينُ رفيعَ العماد ، منصور العساكر والأجناد ، مستصحب العزفى الإصدار والإيراد ، والدعاء لمقامكم الأعلى بالسّعد الذى يُغْنى عن اختيار الطوالع وتقويم الميلاد ، والنصر الذى تُشْرِق أنباؤه فى جنح ليل المداد ، والصنع الذى تُشْرَع له أبواب التوفيق والسّداد ، من حمْراء غَرْناطة حرسها الله واليسر قد وطأ المِهاد(٣) ، والخيرواضح الأشهاد ، والحمد لله فى المبدأ والْمعاد ، والشكر له على آلائه المتصلة التّرْداد ، ومقامكم الذخر الكافى العتاد ، والمردد المتكفل بالإنجاد ، وإلى هذا وصل الله سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى نَصْركم وعَضّدكم [وعددكم وعددكم](٤) وبلغكم من فضله العميم أملكم وقصْدكم ، فإننا

(١) فى ا « أغصان القنا المياد » وفى نسخة « المنشاد »

(٢) فى نسخة عند ا « المؤيدة » علي وصف المضاف إليه ، لا المضاف

(٣) فى أصل ا « واليسروثيق المهاد » (٤) لاتوجد هذه الزيادة في ا

نؤثر تعريفكم بتافه المتزيدات ، ونورد عليكم أشتات الأحوال المتجدِّدات ، إقامةً لرسم الخلوص فى التعريف بما قل ، ومودة خالصة فى الله عز وجل ، فكيف إذا كان التعريف بماتهتز [له] منابر الإسلام ارتياحا لوروده ، وتنشرح الصدور منه لمواقع فضل الله وجوده ، والمكيفات البديعة الصفات فى وجوده ، وهو أننا قدمنا إعلامكم بمانوَيْناه من غزومدينة قُرْطُبة أمِّ البلاد الكافرة، ومقر الحامية المشهودة[1] والخيرات الوافرة ، والقُطْر الذى عهده بإلمام الإسلام متقادم، والركن الذى لايتوقع صَدْمَةَ صادم ، وقد اشتمل سورها من زعماء ملة الصليب على كل رئيس بئيس ، وهِزَبْرٍ خِيس[2] ، وذى مكر وتَلْبيس ، ومن له سِمَة تذيع مكانه وتشيعه ، وأتباع على المَنْشَط والمَكْرَه تطيعه ، فاستدعينا المسلمين من أقاصى البلاد ، وأذَعْنَا فى الجهات نفيرَ الجهاد ، وتقدَّمْنَا إلى الناس بسَعَة الأزواد ، وأعطينا الحركة التى تخلف المسلمون فيها وراءهم جمهور الكفر من الأقطار والأعداد حقها من الاستعداد ، وأَفضْنَا[3] العطاء والاستلحاق والاستركاب فى أهل الغناء وأبطال [الجهاد] [و] الجلاد ، فحشر الخلق فى صَعيد ، وأخذوا الأهبة والزينة فى عيد سعيد ، وشمل الاستدعاء كل قريب و بعيد عن وعد ووعيد ، ورحلنا وفضلُ الله شامل ، والتوكل عليه كافٍ كافل ، وخَيَّمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس آرابَهُم ، واستكملوا أَسْرَابهم ، ودُسْنا منهم بلادَ النصارى بجموع كثرها الله وله الحمد وأنماها ، وأبعد فى التماس ما عنده من الأجر مُنْتَماها ، وعندما حَلَلْنا قاشرة وجدنا السلطان دُونْ بِطْرُه مؤمل نصرنا و إنجادنا ، ومستعيد حظه من مواقع[4] جهادنا ، ومقتضى دَيْن كَدْحه بإعانتنا إياه و إنجادنا ، قد نزل بظاهرها فى محلات ممن استقر على دعوته ، وتمسك بطاعته ، وشمله حكم جماعته ، فكان لقاؤنا إياه على حالٍ أَقرَّت عيون المسلمين ، وتكفلت بإعزاز الدين ، ومجملها يغنى عن التعيين ، والشرح والتبيين ،

(١) فى ا «الحامية الشهيرة» (٢) فى ا «هزبر خسيس» وفى نسخة «خبيس»
(٣) فى ب «وأقصينا» (٤) فى ا «لواحق جهادنا»

ورأى هو ومن معه من وفور جيش الله ماهالهم ، وأشك فى حال اليقظة خيالهم ، من جموع تَسُدُّ الفضا ، وأبطال تُنَازِع أسْدَ(١) الغَضَى ، وكتائب منصورة ، ورايات منشورة ، وأمم محشورة ، تفضل عن مَرْأى العين ، وتُرْدِى العدوَّ فى مَهَاوى الْحَيْن ، فاعترفوا بما لم يكن فى حسابهم ، واعتبر فى عزة الله سبحانه أولو ألبابهم ، و إذا كَثَّرَ الله تعالى العدد نما وزكا ، و إذا أزاح العِلَلَ ما اعتذر غازٍ ولا شكا ، وسالت من الغد الأباطح بالأعراف ، وسَمَت الْهَوَى إلى الاستشراف ، وأخذ الترتيب حقه من المواسط الجهادية والأطراف ، وأحكمت التعبية التى لا ترى العين فيها خَلَلا ، ولا يجدُ الاعتبار(٢) عندها دَخَلا ، وكان النزول على فَرْسخ من عُدْوَة النهر الأعظم من خارج المدينة أنجز الله تعالى وَعْدَ دمَارها ، وأعادها إلى عهدها فى الإسلام وشعارها ، ومحا ظلام الكفر من آفاقها بملة الإسلام وأنوارها ، وقد برزت من حاميتها شوكة سابغة الدروع ، وافرة الجموع ، واستجَنَّتْ من أسوار القنطرة العظمى بحمًى لا يُخْفَر ، وأخذ أعقابها من الحُمَاة والكماة العدَدَ الأوفر ، فبادر إليهم سَرْعَانُ خيل المسلمين فصَدَقُوهم الدفاع والقِرَاع ، والمِصَال والمِصَاع ، وخالطوهم هَبْرًا بالسيوف ، ومباكرة بالحُتُوف ، فتركوهم حصِيداً ، وأذاقوهم وَبالاً شديداً ، وجدَّلوا منهم جملة وافرة ، وأمة كافرة ، وملكوا بعضَ تلك الأسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة ، وظهرت عليها عزماتهم الصادقة ، واقتحم المسلمون الوادىَ سبيا فى غَمْرِه ، واستهانةً فى سبيل الله بأمره ، وخالطوا حامية العدو فى ضفته فاقتلعوها ، وتعلَّقوا بأوائل الأسوار فقرعُوها ، فلو كنا فى ذلك اليوم على عَزْم من القتال ، وتيسير الآلات وترتيب الرجال ، لدُخِل البلد ، وملك الأهل والولد ، لكن أجار الكفار من الليل كافر ، وقد هلك منهم عدَد وافر ، ورجع المسلمون إلى محلاتهم ونصرُ الله سافر(٣) ، والعزم ظافر ، ومن الغد خُضْنا البحر الذى جعلنا

---

(١) فى ا « وأبطال تقارع أسود الغضى » (٢) فى ا « ولا يجد الاختيار »

(٣) نصر الله سافر : أراد أنه ظاهر باد لا يحجبه شيء .

العزم فيه سَفِيناً ، والتوكل على الله للبلاغ ضميناً ، ونزلنا من ضِفَّتِهِ القُصْوى منزلا عزيزا مكيناً ، بحيث يجاور سورها طُنُبَ القباب ، وتصيب دورها من بين الخيمات(١) بوارق النّشاب ، و برزت حاميتُها على متعددات الأبواب ، مقيمة أسواق الطعان والضِّراب ، فآبت بصَفْقة الخسْر والتباب ، ولما شرعْنا فى قتالها ، ورتبنا أشتات النِّكايات لنكالها ، و إن كنا لم نُبْق على مُطاولة نِزالها ، أنزل الله المطر الذى قَدُم بعِهاده العَهْد ، وساوى النجدُ من طوفانه الوهْد ، وعظم به الجُهْد ، ووقع الإبقاء على السلاح ، والكفّ بالضرورة عن الكفاح ، و بلغ المقام عليها ، والأخذ بمُخَنّقها والثّواء لديها ، خمسة أيام لم تخل فيها الأسوار من اقتراع ، ولا الأبواب من دفاع عليها وقِراع ، وأنفذت مقاتل الستائر أنقابا ، وارتقب الفتح الموعود ارتقابا ، وفشت فى أهلها الجراح والعَيْث الصُّراح ، وساءهم المساء بعزة الله والصّباح ، ولولا عائق المطر لكان الإجهاز والاستفتاح ، والله بعدها الفَتّاح ، وصُرِفت الوجوه إلى تخريب العُمْران ، وتسليط النيران ، وعَقْر الأشجار ، وتعْفية الآثار ، وأتى منها العَفاء على المصْر الشهير فى الأمصار ، وتركت زروعها الماثحة عبْرة لأولى الأبصار ، ورحلْنا عنها وقد ألبسها الدخان حدادا ، ونكس من طغاتها أجيادا فاعتادت الذلّ اعتيادا ، وألفت الهون قيادًا ، وكادت أن تستباح عَنْوة لولا أن الله تعالى جعل لها ميعادًا ، وأتى القتل من أبطالها ، ومشاهير رجالها ، ممن يبارز ويناطح ، و يماسى بالناس ويُصابح ، على عدد جمٍّ أخبرت سِيماهم المشهورة بأسمائهم ، ونبهت علاماتهم على نباهاتهم(٢) ، وظهر إقدام المسلمين فى المعتركات ، و بروزهم(٣) بالحدود المشتركات ، وتنفيلهم الأسلاب ، وقَوْدهم الخيلَ المسوّمة قَوْد الغِلاب ، وكان القفول ، وقد شمل الأمن والقبول ، وحصل الجهاد المقبول ، وراع الكفر العزُّ الذى يهُول ، والإقدامُ الذى شهدت به الرماح والخيول ،

---

(١) فى نسخة عندا « من بين المخيمات » والنشاب : آلة من آلات الحرب

(٢) فى ا « ونبهت علاماتها على نبهائهم » (٣) فى ا « وبذرهم »

وخاض المسلمون من زَرْع الطرق التى ركبوها ، والمنازل التى استباحوها وانتهبوها، بحوراً بَعُدَ منها الساحل ، وفلاحة مُدْرَكة تتعدد فيها المراحل ، فصيروها صَرِيماً ، وسلطوا عليها النار غريماً ، وحَلوا بظاهر حصن أَنْدُوجَر وقد أصبح مألف أَذْمار غير أو شاب ، ووكر طير نشاب ، فلما بلونا مِرَاسَه صَعْباً ، وأبراجه ملئت حَرَساً شديداً وشُهُبا ، ضنناً بالنفوس أن تفيض دون افتتاحه ، فسلّطنا العَفَاء على ساحه ، وأغرينا الغارات باستيعاب ما بأحوازه واكتساحه ، وسلطنا النارَ على حُزُونِه وبِطَاحه ، وألصقنا بالرغام ذوائبَ أدواحه ، وانصرفنا بفضل الله والمناجلُ دامية ، والأجورُ نامية ، وقد وطئنا المواطئ التى كانت على الملوك قبلنا بَسْلاً ، ولم نترك بها حرثا يرفد ولا نسلا ، ولا ضَرْعاً يرسل رسلا ، والحمد لله الذى يتم النعيم بحمده ، ونسأله حُلة النصر(١) فما النصرُ إلا من عنده، عرّفناكم بهذه الكيفيات(٢)، الكريمة الصفات ، والصنائع الروائع التى بعد العهدُ بمثلها فى هذه الأوقات ، علما بأنها لديكم من أحسن الهديات الوُدِّيات ، ولما نعلمه لديكم من حسن النيات وكرم الطوِّيات ، فإنكم سُلالة الجهاد المقبول ، والرِّفْد المبذول ، ووعد النصر المفعول ، ونرجو الله عز وجل أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهادية ، إلى المُعاينة فى نصر الملة المحمدية ، وأن يجمع الله بكم كلمة الإسلام ، على عَبَدة الأصنام ، ويتم النعمة على الأنام ، وودنا لكم ما علمتم يزيد على ممرّ الأيام ، والله يجعله فى ذاته لكم متصل لدوام ، مُبَلِّغاً إلى دار السلام ، وهو سبحانه يَصِلُ سَعْدكم ، ويحرس مجدكم ، ويضاعف الآلاء عندكم ، والسلام الكريم يخصُّكم(٣) ورحمة الله وبركاته ، انتهى.

ومن هذا المَنْحَى ما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى عن سلطانه ، ونصه : المقامُ الذى أحاديثُ سعادته لا تُملّ على الإعادة والتكرار ، وسبيل مَجادته

(١) فى ا « ونسأله صلة النصر » (٢) فى ا « المكيفات »
(٣) فى ب « والسلام الكريم يصحبكم »

الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار ، وأخبارُ صنائع الله لملكه ، ونظمُ فرائد الآمال فى سلكه ، تخلدها أقلامُ الأقدار ، بمداد الليل فى قرطاس النهار ، وترسُمها بتذهيب الإسفار فى صفحات(١) الأقمار ، وتجعلها هِجِّيرَى حملاء الأسفار ، وحُدَاة القطار فى مسالك الأقطار ، مقامُ محل أخينا الذى نلذ عادة هنائه مع الإعادة ، ونتلقى أنباء علائه بالإذاعة والإشادة ، ونُطَرِّز بأعلام ثنائه صحائفَ المَجَادة ، ونشكر الله أن وَهَب لنا من أخوته المضافة إلى المحبة والوَدَادة ، ما يرجح فى ميزان الاعتبار أخوة الولادة ، وعرفنا بيُمْن ولايته عوارف السعادة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى فى أعلام الملك السعيد ، بَيْتَ القصيد ، ووُسْطَى القِلاَدَة ، ومجلى الكمال الذى تبارى بميدان بأسه(٢) وجوده جنسا الإبادة والإفادة ، ولا زالت آمالُه القاصية تنثال طَوْعَ الإرادة ، ويمن نَقِيبته يجمع من أشتات الفتوح والعز الممنوح بين الحسنى والزيادة ، مُعَظِّمُ سلطانه العالى ، المثنى على مجده المرفوع إسنادُه فى عَوَالى المعالى ، المسرور بما يسنيه الله له من الصنع المتوالى ، والفتح المقدَّم والتالى ، أميرُ المسلمين عبد الله الغنى بالله محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر ، أيد الله أمره ، وأسعد نصره(٣) ، سلام كريم يتأرَّجُ فى الآفاق شذاطيبهِ ، وتُسْمع فى ذِرْوَة الودّ بلاغة خطيبه ، ويتضمن نوره سواد المداد ، عند مُرَاسلة الوداد ، فيكاد يذهب بعُبُوسه المجهول وتقطيبه ، ورحمة الله وبركاته ، أما بعـدَ حمدِ الله فاتح الأبواب بمقاليد الأسباب ، مهما استصعبت ، ومُيَسِّر الأمور بمحكم المقدور إذا أجهدت الحِيَلُ وأتعبت ، مُخْمِد نيران الفتن ما التَهَبَتْ ، وجامع كلمة الإسلام وقد تصدعت وتَشَعَّبَتْ ، ومسكن رَجَفان(٤) الأرض بعد مااضطربت ، ومُحْيِيها بعِهَاد

---

(١) فى ا « صحائف الأقمار »
(٢) فى ب « الذى بارى عيدان بأسه »
(٣) فى ا « وأسعد عصره »
(٤) رجفان الأرض : اضطرابها وميدانها

الرحمة مهما اهتزت وَرَبت ، اللطيف الخبير الذى قدرت حكمته الأمور ورتّبَتْ ، مُنْهِى كل نفس إلى ما خطت الأقلام عليها وكتبت ، ونفت وأوجبت وشاءت وأبت ، ومُجَازيها يوم العرض بما كسبت ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمد رسوله هازم الأحزاب لما تألفت وتألّبَتْ(١)، وجالب الحتف إليها عند ما أجْلبت، رسول الملحمة إذا الليوث وثبَتْ ، ونبى الرحمة التى هيأت النجاة وسَبَّبَتْ ، وأبلغت النفوس المطمئنة من السعادة ما طلبت ، ومُدَاوى القلوب المريضة وقد انتكبت وانقلبت ، بلطائفه التى راضت وهذّ بت، وقادت إلى الجنة العليا واستجبلت، وأدّتْ عن الله وأدبت ، الذى بجاهه نستكشف الغمّاء إذا أطنبت ، ونَسْتَوْكف النَّعماء إذا أخلفت البروق وكذبت ، ونتحابُّ فى طاعته ابتغاء الوسيلة إلى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت(٢) ، والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه التى استحقت لمزية المرضية واستوجبت لما انتمت إلى كماله وانتسبت ، و ببذل نفوسها فى الله ومرضاته تقربت ، وإلى نصرته فى حياته انتدبت ، والمناصل قد رويت من دماء الأعداء واخْتَضَبَتْ(٣)، وخلفته فى أمته بعد مماته بالهمم التى عن صدق اليقين أعربت ، فتداعت لمجاهدة الكفار وانتدبت ، وأبعدت المُغَار وأدربت ، حتى بلغ ملك أمته أقاصى البلاد التى نَبَتْ(٤) ، فكسرت الصُّلُب التى نُصِبت ، ونفلّت التيجان التى عُصِبت ، ما همَتِ السحب وانسحبت ، وطلعت الشمس وغربت ، والدعاء لمَثابتكم العليا بالنصر العزيز كلما جُهِّزت الكتائب وتكتّبت ، والفتح المبين كلما ركنت عقائل القواعد إذا خُطِبت ، والصنائع التى مهما حدَّقت فيها العيون تعجبت، أوجالت فى لطائفها الأفكار استطابت مَذاق الشكر واستعذبت ، حتى تنجز لكم مواعيد النصر فقد اقتربت ، فإنا كتبنا إليكم كتَبَ الله لكم أغيا(٥) ما سألت الألسن

---

(١) تألبت : تجمعت
(٢) فى ا « حسبما ثبتت »
(٣) فى ب « وأخصبت »
(٤) نبت : بعدت
(٥) أغيا : مأخوذ من غاية الشىء ، وهي منتهى أمره ، وتقول « أغيا فلان » إذا بلغ غاية الشرف .

السائلة واستوعبت ، من حَمْراء غرناطة حرسها الله تعالى وجنودُ الله بفضل الله تعالى ونعمته قد غلبت ، وفتحت وسلبت ، وأسودُ جهاده قد أَرْدتِ الأعداء بعد ما كَلِبَت ، ومراعى الآمال قد أخْصَبت ، والحمد لله حمدا يجلو وجوه الرضا بعدما احتجبت ، ويفتح أبواب المزيد فكلما استقبلها الأمل رَحَّبَت ، والشكر لله شكرا يُقَيِّدُ شوارد النعم مما أبقَتْ وما هربت ، وإلى هذا وصل الله لمقامكم أسبابَ الظهور والاعتلاء ، وعرفكم عوارف الآلاء على الولاء ، فإننا لما وَرَدَ علينا كتابُكم البر الوِفادة الجمُّ الإفادة الجامع بين الحسنى والزيادة ، جالى غرة الفتح الأعظم من ثنايا السعادة ، وواهب المنن المُتاحة وواصف النعم المعادة ، فوقفنا(١) من رَقِّه المنشور على تحف سنية ، وأمانيَّ هنية ، وقِطَاف للنصر جَنِية ، ضمنتْ سكون البلاد وقرارها ، وأن الله قد أذهب الفتن وأُوَارها وأخمد نارها ، ونضح عن وجه الإسلام عارها ، وجمع الأهواء على من هويته السعادة بعد أن أجهد اختيارها ، فأصبح الشتيت(٢) مجتمعاً ، وجنح الجناح مرتفعا ، والجبل المخالف خاشعا متصدِّعا ، وأصحب(٣) فى القياد من كان مُتمنِّعا(٤) ، فاستوثقت الطاعة ، وتبَجّحَتْ(٥) السنة والجماعة ، وارتفعت الشناعة ، وتمسكت البلاد المكرهة بأذيال وليها لما رأته ، وعادت الأجياد العاطلة إلى حَلْيها بعد ما أنكرته ، أجَلْنَا جِياد الأقلام فى ملعب الهناء ومَيْدانه ، لأول أوقات إمكانه على بعد مكانه ، وأجهدنا عبارة الكلام فى إجلال هذا الصنع وتعظيم شانه ، وأغرينا الثناء بشِيم مجدكم فى شرحه لنا وبيانه ، رأينا أن لا نَكِلَ ذلك إلى اليَرَاع ، ونفرده فيه بالاجتماع ، وما يتعاطاه من مُنّة الذراع ، وأن نَشُدَّ بِرِدْءٍ من المشافهة أزْرَه ، ونعضد بمعين من اللسان أمره ، فعينا لذلك من يفسِّرُ منه المجمل ويمهد المقصد المُعْمَلَ ، حتى يجمع بين أغراض البر ، والعلن منه والسر ، ويقيم

(١) فى ب «فأوقفنا» وهى لغة رديئة . وفى نسخة عند ا «فواقفنا» وفى أخرى «فوافقنا»

(٢) الشتيت : المتفرق المتبدد (٣) أصحب : ذل وانقاد وخضع

(٤) فى ا «ممتنعا» وفى نسخة «مستمنعا»

(٥) تبجحت : باهت وفخرت ، ووقع في ب «تبحبحت» محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ا

شتّى الأدلة على الوداد المستقر ، ووجّهنا فى غَرَض الرسالة به إليكم ، واخترنا لشرحه بين يديكم ، خطيبَ الوفود ، و بركة المشايخ فى هذا المقام المحمود ، الشيخَ الجليل الشهير الكبير الصالح الفاضل أبا البركات ابن الحاج ـ وصل الله حفظه !ـ وأجزل من الحمد واللطف حَظّه !ـ وهو البطل الذى لا يُعَلَّم الإجالة فى الميدان ، ولا يبصَّر بوظائف ذلك الشان ، ومُرادنا منه أن يطيل و يطيب ، و يحيل فى وصف محاسنكم اللسان الرّطيب ، و يقرر ما عندنا لمقامكم من التشيع الذى قام على الحب المتوارث أساسُه ، واطرد حكمه وأنتجَ قياسه ، وليجعل تلو مقصد الهناء ، بمجلسكم الباهر السناء ، الصارف إلى الجهاد فى سبيل الله والفناء ، وجه التهمُّم والاعتناء ، على مر الآناء ، ما تجدد لدينا من الأنباء فى جهاد الأعداء ، و إن كان رسولكم ـ أعزه الله تعالى !ـ قد شارك فى السرى والسير و يُمن الطَّير ، وأغنى فى الحكاية عن الغير ، فلا سَرَفَ فى الخير ، وهو أننا لما انصرفنا من مُنَازلة قرطبة نظرا للحشود التى نفدَت مُعِدّات أزوادها ، وشابت بهشيم الغَلَّة المستغَلّة مفارقُ بلادها ، و إشفاقا لفساد أقواتها ، بفوَات أوقاتها ، رحلنا عنها وقد انطوينا من إعفاء أكثر تلك الزروع ، المائلة الفروع ، الهائلة الروع ، على همٍّ مُمِض ، وأسف للمضاجع مُقِضّ ، إذ كان عاذل المطر يكف ألسنة النار عن المبالغة فى التهابها ، وحلاق إهابها ، ونفض أغوارها ، ونهب شوارها ، و إذاعة أسرارها ، وهى البحور المتلاطمة ، إذا حطمتها الرياح الحاطمة ، واللجَجُ الزاخرة ، إذا حركتها السوافى الماخرة ، تود العيون أن تتحدى(١) حدودها القاصية فلا تطيق ، والركائب الراكضة أن تُشْرِف على غايتها فيفضل عن مراحلها الطريق ، قد جللها الربيع أرزَاقاً تغص بها الخزائن والأطباق ، وحبو بامفضلة لا يرزؤها الإنفاد والإنفاق ، ولو اعتصت(٢) على انتسافها الآفاق ، فَخَفَفْنَا فى سبيل الله لتعقيب غزو تلك الأقطار المخالفة ، بمحق

(١) فى ا « أن تتخذ حدودها »

(٢) فى ا « اعتضت » بالضاد ، ولعل أصلها « اعتضدت » وأصل ما أثبتناه فى ب « اعتصبت »

الصائفة ، وإعانة تلك الطائفة ، بكلوم المجاع الجائفة[١] ، خفوفا لم نقنع فيه بالاستنابة ، حرصاً على استئصال الصُّبَابة ، وأعفينا الرجل من اتصال الكد ، وقابلنا قبولهم على استصحابنا فيها بالرد ، وأطللنا على قرطبة بمحلاتنا ننسف الجبال[٢] نَسْفاً ، ونعم الأرض زَلْزَالا وخَسْفا ، ونستقرى مواقع البذر احتراقا ، ونخترق أجوابها المختلفة[٣] بجب الحصيد اختراقا ، ونسلط عليها من شرر النار أمثال الجمالات الصفر مدت من الشُّواظ أعناقا ، ونوسع القرى الواسعة قتلا واسترقاقا ، ونديرعلى مستديرها كؤس الحُتُوف دِهَاقَا ، وأخذت النيران واديها الأعظم من كلا جانبيه حتى كأن العيون أحمت سبيكته فاستحالت ، وأذابت صفيحته فسالت ، وأتت الكفار سماؤهم بالدخان المبين ، وصارت الشمس من بعد سفورها وعموم نورها منقبة[٤] المحيَّا معصبة الجبين ، وخُضْنا أحشاء الغريرة[٥] نَعُمُّ أشتات النّعم انتسافا ، وأقوات أهلها إتلافا ، وآمال سكانها إخلافا ، وقد بُهِتُوا لسرعة الرجوع ، ودُهِشوا لوقوع الجوع ، وتسبيب تخريب الربوع ، فمن المنكر البعيد ، أن يتأتى بعدُ عمرانُها المعهود ، وقد اصطلم الزرع واجْتُثّ العود ، وصار إلى العدم منها الوجود ، ورأوا من عزائم الإسلام خوارق تشِذ عن نطاق العوائد ، وعجائب تستريب فيها عين المشاهد ، إذ اشتمل هذا العام ، المتعرف فيه من الله تعالى الإنعام ، على غَزَواتٍ أربع دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميرا ، وعلا فوق مراقيها الأذانُ عزيزا جَهيرا ، وضويقت كراسيُّ الملك تضييقا كبيرا ، وأذيقت وبالاً مُبيرا ، ورياحُ الإدالة إن شاء الله تعالى تستأنف هُبوبا ، وبأسا مَشْبُوبا ، والثقة بالله قد ملأت نفوساً مؤمنة وقلوبا ، والله سبحانه المسؤل أن يُوزِعَ شكر هذه النعم التى أثقلت الأكتاد ، وأبهظت الطّوق

---

(١) الجائفة — بالجيم — النافذة إلى الجوف ، ووقع فى ا «الحائفة» وفى ب «الحائفة»

(٢) فى ا « ننسف جبال النعم نسفا » (٣) في ب « المحترقة »

(٤) فى ا « منقبة المجتلي » (٥) فى ا «الفرنتيرة »

المعتاد ، وأبهجت المسيم والمرتاد[1] ، فبالشكر يستدر فريدها ، و يتوالى تجديدها ، وقطعنا فى بُحْبُوحة تلك العمالة المستبحرة العمارة ، والفَلَج المغنى وصفُها عن الشرح والعبارة ، مراحل َختمنا بالتعريج على حرب جَيَّانَ حربهَا ، فقللنا ثانية غربها وجدَّدنا كربها واستوعبنا حرقها وخربها ، ونظمنا البلاد فى سلك البلاء ، وحَثَثْنا فى إنجادها وأغوارها ركائبَ الاستيلاء ، فلم نترك بها مَلْقَط طير ، فضلا عن مَعَاف عير ، ولا أسأرنا لفلها المحروب بُلاَلَةَ خير ، وقفلنا وقد تركنا بلاد النصارى التى منها لكيادنا المدد ، والعُدَّة والعدد ، وفيها الخصام واللَّدد ، قد لبست الحداد حريقا ، وسلكت إلى الخلاء والجلاء طريقا ، ولم نترك لها مضغة تخالط ريقا ، ولا نعمة تصون من الفراق فريقا ، وما كانت تلك النعم لولا أن أعان الله تعالى من عنصرى النار والهواء بجنود كونه الواسع ، ومدركه البعيد الشاسع ، لتتولى الأيدى البشرية تغريبها ولا ترزأ كثيرها ، ولا تمتاح بالاغتراف غديرها ، بل لله القدرة جميعا ، فقدرته لا تتحامى ريعا ولا حمى مَريعا منيعا ، وعدنا والعود فى مثلها أحمد ، وقد بعد من شفاء النفوس الأمد ، ونُسخ بالسرور الكمد ، ورفعت من عز الاسلام العَمَد ، والحمد لله حمد الشاكرين ، ومنه نلتمس عادة النصر على أعدائه فهو خير الناصرين ، عرفناكم به لُيسر دينكم المتين ، ومجدكم الذى راق منه الجبين ، والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، و يبلغكم أملكم من فضله ، وقصدكم بمنه وطَوْله ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى و بركاته ، انتهى .

رجع إلى ما كنا بسبيله من أخبار قرطبة الجليلة الوَصْف ، وذكر جامعها البديع الإتقان والوصف ، فنقول :

جامع قرطبة

قد شاع وذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس فى هذه البلاد المشرقية وغيرها أن فى جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقا ، على عدد أيام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق ، إلى أن يتم الدور ثم تعود ، وهذا شىء لم أقف عليه فى كلام المؤرخين من أهل المغرب والأندلس ، ولو كان كما شاع لذكروه وتعرضوا

---

(١) فى ب « المشيم »

له ، لأنه من أعجب ما يُسْطَر ، مع أنهم ذكروا ما هو دونه ، فالله أعلم بحقيقة الحال فى ذلك ، وستأتى فى الباب السابع رسالة الشقَنْدِى الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الأندلس الطِّم والرِّم [1] ، وقد ذكرنا فى الباب الأول جملة من محاسن قرطبة ، فأغنى ذلك عن إعادتها هنا ، على أن رسالة الشّقَنْدِى تكرر فيها بعض ما ذكرناه ، لأنا لم نرد أن نخل منها بحرف ، فأتينا بها بلفظها ، وإن تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه ، والعذر واضح للمنصف المُغْضِى ، والله نسأل سلوكَ السبيل الذى يُرْضِى ، بمنه وكرمه .

وقال صاحب « نشق الأزهار » : إن فى جامع قرطبة تَنُّورًا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وفيه أشياء غريبة ، من الصنائع العجيبة ، يعجز عن وصفها الواصفون ، قيل : أحكم عمله فى سبع سنين ، وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصاموسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث [2] صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام ، الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع ، انتهى .

قلت : لم أر أحداً من محققى المؤرخين للأندلس وثقاتهم ذكر هذا ، على قلة اطلاعى ، وهو عندى بعيد ، لأنه لو كان لذكره الأئمة .

وقد حكى [القاضى] عياض فى الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر هذا ، ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره ، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال فى موضع آخر من هذا الكتاب : إن دَوْرَ قرطبة أربعة عشر ميلا ، وعرضها ميلان ، وهى على النهر الكبير ، وعليه جسران ، وبها الجامع الكبير الإسلامى ، وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى ، وبهذه المدينة معدن الفضة

---

(١) فى « وعلي الآخر »

(١) يقال : الطم ـ بالكسر ـ البحر ، والرم ـ بالكسر أيضا الثرى ، وهذا مثل ، والمراد أن فيها كل شىء

ومعدن الشادبج ، وهوحجر من شأنه أن يقطع الدم ، وكان يُجْلب منها البغال التى تباع كل واحدة منها بخمسمائة دينار من حسنها وعلوّها الزائد ، انتهى .

عظم البناء يدل على عظمة البانى

رجع إلى أخبار البنيان — ولاخفاء أنه يدل على عظم[١] قدر بانيه ، ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المروانى بانى الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعضُ العلماء وبعض ينسبهما لغيره ، وسيأتيان فى ترجمة نور الدين بن [سعيدٍ][٢] علىٍّ منسوبين :

همُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرها ... من بَعْـدِهم فبألْسُنِ البُنْيان

إن البناء إذا تعاظم قَدْرُه ... أضحى يدلّ على عظيم الشان

وتذكرت هنا قصيدة قالهـا بعض الشاميين ، وهو الأديب الفاضل الشيخ أسد بن معين الدين ، ممـا يكتب على أبراج دار الحسيب النسيب، الشهير البيت، الـكبير الحى والميت ، القاضى عبد الرحمن بن الفرُفْور الدمشقى ، وضمنها بيتى الناصر المذكورين :

زُرْ مجلسا أضحى أعزَّ مكان ... ومَحلَّ أهل العلم والعِرْفانِ

المجـد خيّم فى ذرى أبْرَاجهِ ... والسعدُ عبدُ البابِ طولَ زمان

كالخلد مرفوع البناء ، وأرضُهُ ... مفروشـــة بالدر والعقيان

بيت به فخــر البيوت لأنه ... بيت القصيد ومَنْزل الضيفان[٣]

مَغْنًى فسيحٌ فيه معنى مُفْصح ... عن قدر بانيه بغــير لسان

قد قال بعض ذوى الفضائل قبلنا ... قولا بديعاً واضــح التبيان

هِمم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

إنّ البناء إذا تعاظم قدره ... أضحى يدلُّ على عظيم الشان

---

(١) فى ا « على عظيم قدر بانيه » (٢) كلمة « سعيد » فى ا دون ب

(٣) يقال للبيت الذى هو أجل أبيات القصيدة « إنه بيت القصيد » وأراد أن بيت الممدوح بيت الشعر والأدب واللغة ونحوهن كما أنه بيت الـكرم والجود والعطاء

قد شاده مَنْ ساد أهل زمانه   بالأصل والإفضال والرُّجحان
وَرِثَ السيادة كابراً عن كابر   وسَما برفعته على كيوانِ
قاضى القضاةومفخر العصرِ الذى   قد جاء فيـه سابقَ الأقران
فى العلم بحرٌ لاينَال قَرَارُه   فى الحكم مثل مُهنّدٍ وسِنَان
يرْوى عطاءً عن يديه قد اقتفى   آثارَ آباء ذوى إحسـان
لا زال يبقى شائدا بيتَ العلا   وعَدُوُّه فى الوهن والنقصان
ياأيها المولى الذى يجرى مع الإقــبال والإسعاد طَلْقَ عِنَان[١]
دُمْ شامخَ المقدار مرتفع البنا   والناس تحت رضاك كالغلمان
متمتعا ببنيك سادات الوَرى   فى عز ربٍّ دائم السلطان
ما رجَّعَ القُمْرِىُّ فى تغريده   فى الروض فوق منابر الأغصان

ابن فرفور يشكو الدهر

وكان القاضى عبدُ الرحمن بن فُرْفُور المذكور عالى الهمة ، تضيق يده عما يريد ، فلذلك كان كثيرا ما يبث شكواه فى الطروس والدفاتر ، ويعتب على الزمان الذى أخنى على أهل الأدب وقطع آمالهم بحُسَامه الباتر ، ويرحم الله القائل :

هٰـذا زمان دريهمى لاغيره   فَدَعِ الدفاتر للزمان الفاتر

فمن نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض إخوانه ، فكتب إليه معتذرا ، وأدمج شكوى الزمان الذى كان من شماتة الأعداء به حذرا :

أبطأتُ فى ذا الجزء يا سَيِّدِى   كتابة من جَوْرِ دَهْرٍ بغيض
صابرته فالجسمُ منى لَقًى   تجلداً والقلبُ منى مريض[٢]
فإذ أبى إلا تلافِى وقـد   أحَلَّنى منـه مَحَلَّ النقيض
واقتادنى قَسْراً إلى مَصْرَعٍ   قدرَقَّ منه اللحمُ والعظمُ هِيضْ

(١) العنان — بكسر العين — فى الأصل ماتقاد به الدابة ، وطلقه : إرساله ، ويقال « فلان طلق العنان » يراد أنه مرسل لايمنعه شىء من التصرف كما يريد

(٢) تقول « هذا شىء لقى » تريد أنه مطروح على الأرض ملقى

سلمت للأقــدرا مستسرعا لباب مَوْلًى ذى عَطَاء عريضْ
جُمومُ صــبر كنت أسطو به على رَوَايا الدهر بالهمم غِيضْ
فلا تلم يا صاحِ من بعد ذا إذا تمثلت بحَالَ الجْرِيضْ(١)

ورأيت بخطه رحمه الله تعالى مما نسبه جده القطب الخيضرى الحافظ لإبراهيم بن نصر الحموى ثم المصرى المعروف بابن الفقيه :

يا زمانا كلما حا وَلْتُ أمرا يَتمنَّعْ(٢)
إن تعصَّبْتَ فإنى باصطبارى أتقنَّعْ(٣)

وهذه تورية بديعة للغاية فى التعصب والتقنع ، مع حلاوة النظم وجودة السبك وخفة الوزن ، والله سبحانه يروِّح تلك الأرواح فى الجنان ، و يعاملنا و إياهم بمحض الفضل والامتنان ، و يكفينا شجون دهر جرى بنا طَلْقَ العنان ! ! .

تحقيق فى نسبة بيتين

رجع إلى ما كنا فيه ـ وكنت وقفت فى كلام بعض العلماء على أن البيتين السابقين المنسوبين إلى أمير المؤمنين الناصر المروانى ـ رحمه الله تعالى ! ـ قالهما فى الزهراء التى بناها ، وسيأتى ذكرها قريبا ، وقال الشيخ سيدى محيى الدين بن العربى فى المسامرات : قرأت على مدينــة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش ، و بناؤها عجيب فى بلاد الأندلس ، وهى قريبة من قرطبة ، أبياتا تذكر العاقل ، وتنبه الغافل ، وهى :

ديارٌ بأكناف المَلاعِب تَلمَعُ وما إن بها من ساكنٍ وَهْى بَلْقَعُ(٤)
ينوحُ عليها الطير من كل جانب فيَصْمُتُ أحيانا وحينا يُرَجِّعُ
فخاطبت منهـا طائرا متغرداً له شَجَنٌ فى القلب وهو مُرَوَّعُ
فقلت: على ماذا تنوح وتشتكى؟ فقال: على دهرٍ مضى ليس يَرجِعُ

(١) يشير إلى مثل قاله عبيد بن الأبرص «حال الجريض دون القريض» والجريض: الغصة
(٢) وقع فى ب « يمتنع » وأثبتنا ما فى ا (٣) وقع فى ب « أقتنع » وما أثبتناه عن ا
(٤) البلقع ـ بزنة جعفر ـ الخالية القفر التى لا شىء فيها

سبب بناء الزهراء

ثم قال : وأخبرنى بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سُرِّيَّة ، وتركت مالا كثيرا ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطاب فى بلاد الإفرنج أسيرا فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك ، فقالت له جاريته الزهراء ــ وكان يحبها حبا شديدا ــ : اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى ، وتكون خاصة لى ، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل ، وشمال قرطبة ، وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك ، وأتقن بناءها ، وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزها ومسكنا للزهراء وحاشية أرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب ، فلما قعدت الزهراء فى مجلسها نظرت إلى بياض المدينــة وحسنها فى حِجْر ذلك الجبل الأسود ، فقالت : ياسيدى ، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى ، فأمر بزوال ذلك الجبل ، فقال بعض جلسائه : أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يَشينُ العقل سماعه ، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفرا ولا قطعا ، ولا يزيله إلاّ مَنْ خلقه ، فأمر بقطع شجره وغَرْسه تينا ولوزا ، ولم يكن منظر أحسن منها ، ولاسيما فى زمان الأزهار وتفتح الأشجار(١) ، وهى بين الجبل والسهل ، انتهى ببعض اختصار .

وصف ابن خلكان للزهراء

وقال ابن خلكان فى ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته : الزهراء ــ بفتح الزاى وسكون الهاء وفتح الراء ، وبعدها همزة ممدودة ــ وهى من عجائب أبنية الدنيا ، وأنشأها أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر ، أحد ملوك بنى أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة ، فى أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب (٢) ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد السوارى التى فيها أربعة آلاف سارية [وثلثمائة سارية](٣) وعدد

(١) فى أصل ا «وتفتح الأزهار» وتقرأ كلمة الأزهار الأولى على ذلك بكسر الهمزة
(٢) فى أصل ا «إلى الجوف» وما أثبتناه يوافق ب ونسخة عند ا وابن خلكان
(٣) هذه الكلمة لا توجد فى ا

أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب ، وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا : فثلث للجند ، وثلث مدخر ، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء ، وكانت جباية الأندلس [يومئذ] خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن الستوق[١] والمستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار ، وهى من أهول ما بناه الإنس ، وأجلّه خطرا ، وأعظمه شأنا ، ذكر ذلك كله ابن بَشْكُوال فى تاريخ الأندلس ، انتهى كلامه .

وحكى فى المطمح أن الوزير الكبير الشهير أبا الحزم[٢] بن جَهْور قال وقد وقف على قصور الأمويين التى تقوّضت أبنيتها ، وعُوِّضت من أنيسها بالوحش أفنيتها :

قلتُ يوماً لدار قوم تفانَوْا: أين سُكاّنُكِ العزاز عَلَيْنَا ؟
فأجابت : هُنا أقاموا قليلا ، ثم ساروا ، ولست أعلم أينا

وفيه أن أبا عامر بن شُهَيْد بات ليلة بإحدى كنائس قُرْطُبة وقد فرشت بأضغاث[٣] آس ، وعرشت بسرورٍ وائتناس ، وقرع النواقيس يُبْهج سمعه[٤]، وبَرْق الحميا يسرج لمعه ، والقس قد برز فى عَبَدة المسيح ، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح ، قد هَجَروا الأفراح ، واطّرحوا النعم كل اطِّراح ، لايعمدون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح ، وأقام بينهم يعملها حميا، كأنما يرشف من كأسها شفة لَمْيَا وهى تَنْفح له بأطيب عَرْف ، كلما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتجل ، بعد ما ارتحل، فقال :

ولربَّ حانٍ قد شَمِمْتُ بدَيْرِه خمر الصبا مُزِجَتْ بصِرْف عصيره
فى فتية جعلوا السُّرورَ شعارَهُمْ متصاغرين تخشعا لكبيره
والقَسُّ مما شاء طولَ مُقامنا يَدْعو بعود حولنا بزَبُورِه

(١) فى ا « ومن السوق والمستخلص » .
(٢) فى ب « الشهير بالحزم ابن جهور » محرفا .
(٣) أضغاث : جمع ضغث ــ بكسر فسكون ــ وهو مقدار قبضة من الحشيش اختلط رطبه بيابسه ، وكل ما ملأت به كفك من نبات (الحزمة) .
(٤) فى ب « يهيج » و « يسرع لمعه »

يُهْــدى لنا بالراح كل مُصَفر كالخِشْفِ خَفَرَهُ التماحُ خفيره(١)
يتناولُ الظرفاء فيــه وشُرْبُهم لسلافِهِ ، والأكل من خنزيره

بناء الزهراء وتكاليفه والعمال فيه

رجع إلى أنباء(٢) الزهراء ـ قال بعض من أرخ الأندلس : كان يتصرف فى عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان من الرجال(٣) من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة ، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل ، انتهى ، وسيأتى فى الزهراء مزيد كلام .

رواية ابن حيان

وقال ابن حيان : ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥ ، وجعل طولها من شرق إلى غرب ألفين وسبعمائة ذراع ، وتكسيرها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع ، كذا نقله بعضهم ، وللنظر فيه مجال ، قال : وكان يثيب(٤) على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤنة حملها ، وجَلَب إليها الرخام الأبيض من المَرِية ، والمجزَّع من رَيَّة ، والوردى والأخضر من إفريقية من إسفاقس وقَرْطَاجَنَّة ، والحوض المنقوش المذهب من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل [وصُوَر] على صور الإنسان ، وليس له قيمة ، ولما جلبه أحمد الفيلسوف ـ وقيل غيره ـ أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثنى عشر تمثالا ، و بنى فى قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة ، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ [فى جرمه] الصافى لونه المتلونة أجناسه ، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت فى وسطه اليتيمة التى أتحف الناصرَ بها أليونُ ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وهــذا المجلس فى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على

(١) فى أصل ا « كل محفر » وفى نسخة عندها « كل مضفر » والخشف : ولد الظبية أول ولادته .
(٢) فى ا « رجع إلى بناء الزهراء »
(٣) في ا « الرجالة »
(٤) فى ا « يثبت » .

حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على [تلك] الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر(١) المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يُفْزِع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم ، ما دام الزئبق يتحرك ، وقيل : إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس ، وقيل : كان ثابتا على صفة هذا الصهريج ، وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه فى الجاهلية ولا فى الإسلام ، وإنما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم ، وكان بناء الزهراء فى غاية الإتقان والحسن ، وبها من المرمر والعُمُد كثير ، وأجرى فيها المياه ، وأحدق بها البساتين ، وفيها يقول الشاعر السميسر(٢) :

وَقفْتُ بالزهراء مُسْتَعْبِرا مُعْتَبِراً أندبُ أشْتَاتا
فقلت : يازهرا ألا فارْجِعِى قالت : وهل يرجع مَنْ ماتا؟
فلم أزل أبْكِى وأُبْكِى بها هيهات يغنى الدمعُ هيهاتا
كأنما آثار مَنْ قد مضى نوادبٌ يندبن أمواتا

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصا ، وسيأتى ما يوافق جُلّه ، ويخالف قُلّه ، والله سبحانه يعلم الأمر كله ، فإنه ربما ينظر المتأمل هذا الكتاب فيجد فى بعض الأخبار تخالفا ، فيحمل ذلك على الغلط ، وليس كذلك ، وإنما السبب الحامل لذلك جَلْبُ كلام الناس بعباراتهم ، والناقد البصير لايخفاه مثل هذا ، وربما يقع التكرار ، وذلك من أجل ما ذكر ، والله أعلم .

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ماحكاه غير واحد عن القصر العظيم

---

(١) فى ا « سمك المجلس »

(٢) كذا فى ا وهو الصواب ، وفى ب ونسخة عند ا « الشميس » وفى أخرى « السهير » وكلاهما تحريف .

صفة قصر طليطلة الذى بناه المأمون بن ذى النون

الذى شاده ملك طُلَيْطلة المأمون ابن ذى النُّون بها ، وذلك أنه أتقنه إلى الغاية ، وأنفق عليه أموالا طائلة ، وصنع فى وسطه بحيرة ، وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها و يتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج فى غِلَالة مما سكب(١) خلف الزجاج لا يَفْتر من الجرْى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصله ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب ، و بينما هو فيها مع جَوَاريه ذات ليلة إذ سمع منشداً ينشد :

أتبنى بناء الخالدين ، و إنما ... مُقَامُكَ فيها لو عَلِمْتَ قليلُ(٢)
لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كُلَّ يوم يقتضيه رحيلُ

فنغص عليه حاله ، وقال : إنا لله و إنا إليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى ، ولم يجلس فى تلك القبة بعدها ، وذلك سنة ٤٦٧ ، تجاوز الله تعالى عنه ! هكذا حكاه بعض مؤرخى المغرب .

وقد ذكر فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع .

وتذكرت هنا قول أبى محمد المصرى فى صفة قصر طُلَيْطلة :

قَصْر يُقصِّر عن مَدَاهُ الفرقدُ ... عَذُبَتْ مصادره وطاب المَوْرِدُ
نَشَر الصباحُ عليه ثوبَ مكارم ... فعليه أَلْوِيَةُ السعادة تعقَدُ
وكأنما المأمونُ فى أرجائِهِ ... بَدْر تمام قابلته أسْعُدُ
وكأنما الأقداح فى رَاحاتِهِ ... دُرٌّ جَمادٌ ذابَ فيه العَسْجَدُ(٣)

---

(١) فى ا « من ماء سكب خلف الزجاج » وهو أليق بالسياق بعده
(٢) فى ا « بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل »
(٣) فى ب « درجمان ذاب فيه العسجد » والعسجد : الذهب

وله فى صفة البركة والقبة عليها :

شَمْسية الأنساب بدرية ... يحَارُ فى تشبيهها الخاطر

كأنما المأمونُ بدرُ الدُّجى ... وَهْىَ عليه الفلَكُ الدائر

احتفال ملوك الأندلس بالمجالس والقصور

وكان ملوك الأندلس فى غاية الاحتفال بالمجالس والقصور، وللوزير الجزيرى — رحمه الله تعالى! — فى وصف مجلس للمنصور بن أبى عامر ما يشهد لذلك، وهو قوله :

وتوسّطتْها لجة فى قعرها ... بنت السّلاحف ماتزال تُنقنِق

تنساب من فَكّىْ هِزَبر إن يكن ... ثَبْتَ الجنان فإن فاه أخْرَقُ

صاغوه من ندٍّ وخَلّق صفحتى ... هاديه محضُ الدرِّ فهو مُخَلق (١)

للياسمين تَطلّع فى عَرْشه ... مثل المليك عَرَاه زهوٌ مُطرقُ

ونضائد من نرجس و بنفسج ... وجنىٍّ خِيرىٍّ وورد يعبقُ

ترنو بسحر عيونها وتكاد من ... طرب إليك بلا لسان تنطق

وعلى يمينك سَوْسَنَات أطلعتْ ... زهر الربيع فهُنَّ حُسْناً تشرق

فكأنماهى فى اختلاف رُقومها ... رايات نصرك يوم بأسك تخفِق

فى مجلس جمعَ السرورَ لأهله ... ملك إذا جمعت قناه يفرق

حازت بدولته المغاربُ رفعةً ... فغدا ليحسدها عليه المشرق (٢)

ومن هذه القصيدة .

أما الغمامُ فشاهدٌ لك أنه ... لاشكّ صِنوُك أو أخوك الأوْثق (٣)

وافى الصنيعَ لحين تمّ تمامُه ... فى الصَّحْو أنشأ وَدْقُه يتدفّق (٤)

وأظنُّه يحكيك جوداً إذ رأى ... فى اليوم بحرَكَ زاخراً يتفهق

وكان السبب فى هذه الأبيات أن المنصور صنع فى ذلك الأوان صنيعاً لتطهير

---

(١) فى ا « فهو مطوق » (٢) فى ا « حازت بدولته المغارب عزة »

(٣) فى ا « بل أخوك الأوثق» (٤) الودق — بفتح فسكون — المطر

ابنه عبد الرحمن ، وكان عام قَحْطٍ ، فارتفع السعر بقرطبة ، وبلغ ربع الدقيق إلى دينارين ، فجلا الناس من قرطبة ، فلما كان يوم ذلك الصنيع نشأت فى السماء سحابة عمت الأفق ، ثم أتى المطر الوابل ، فاستبشر الناس ، وسر المنصور بن أبى عامر فقال الجزيرى بديهةً * أما الغمام إلخ *

من شعر ونثر الوزير الجزيرى

وهو القائل على لسان نرجس العامرية :

حَيّتْكَ يا قمرَ العُلاَ والمجلِس ‏ ‏ ‏ ‏ أزكى تحيّتَها عيونُ النرجس

زهر تريك بحُسْنها وبلونها ‏ ‏ ‏ ‏ زُهر النجوم الجاريات الكُنَّسِ(١)

مُلِّكن أفئدة النَّدامى كلما ‏ ‏ ‏ ‏ دارت بمجلسهم مدار الأكؤس

ملك الهمام العامرى محمد ‏ ‏ ‏ ‏ للمكرمات وللنهى والأنفس

قال ابن بسام : ومن شعر الجزيرى ما اندرج له أثناء مدحه(٢) الذى ملح فيه مخاطبته للمنصور على ألسنة أسماء كرائمه بزهر رياضه ، فمن ذلك عن بَهَار العامرية :

حدق الحسان تُقِرُّ لى وتَغَار ‏ ‏ ‏ ‏ وتَضِلُّ فى صِفتى النهى وتحَار

طَلَعَتْ على قضبى عيونُ تمائمى ‏ ‏ ‏ ‏ مثل العيون تحفّها الأشفار

وأخص شىء بى إذا شبهتنى ‏ ‏ ‏ ‏ درر تنطق سلكهَا دينار

أهدى له قضبَ الزمرد ساقُه ‏ ‏ ‏ ‏ وحباه أنفسَ عطرِهِ العطار

أنا نرجسٌ حقًّا بهرْتُ عقولهم ‏ ‏ ‏ ‏ ببديع تركيبى فقيل بَهَارُ

ومن أخرى عن بنفسج العامرية : إذا تدافعت الخصوم - أيد الله مولانا المنصور! - فى مذاهبها ، وتنافرت فى مفاخرها ، فإليه مفزعها ، وهو المقنع فى فصل القضية بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه بسرها وجهرها ، وقد ذهب البهار والنرجس فى وصف محاسنهما ، والفخر بمشابههما ، كل مذهب ، وما منهما إلا ذو فضيلة غير أن فضلى عليهما أوضح من الشمس التى تعلونا ، وأعذب من الغمام الذى يسقينا ، وإن كانا قد تشبها فى شعرهما ببعض ما فى العالم من جواهر الأرض ومصابيح السماء

(١) فى ا « زهوا تريك بحسنها وبلونها » (٢) فى ا « أثناء نثره »

وهى من الموات الصامت ، فإنى أتشبه بأحسن ما زيَّنَ الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أنى أعطر منهما عطرا ، وأحمد خبراً ، وأكرم إمتاعا شاهداً وغائباً ويانعاً وذابلا ، وكلاهما لا يمتع ، إلا ريثما يينع ، ثم إذا ذبل تستكره النفوس شمه ، وتستدفع الأكف ضمه ، وأنا أمتع يابسا ورطبا ، وتدخرنى الملوك فى خزائنها وسائر الأطباء ، وأصرف فى منافع الأعضاء ، فإن فخرا باستقلالها على ساق هى أقوى من ساقى ، فلا غرو أن الوشى ضعيف ، والهوى لطيف ، والمسك خفيف ، وليس المجد يُدْرَك بالصِّراع ، وقد أودعت أيد الله مولانا قوافى الشعر من وصف مشابهى ما أودعاه ، وحضرت بنفسى لئلا أغيب عن حضرتهما ، فقديماً فضل الحاضر و إن كان مفضولا ، ولذا قالوا : ألذ الطعام ما حضر لوقته ، وأشعر الناس مَنْ أنت فى شعره ، فمولانا أتم الحكم فى أن يفصل بحكمه العدل ، وأقول :

شهدت لنُوّار البنفسج ألسُنٌ … من لونه الأحْوَى ومن إيناعِه[1]
لمشابه الشعر الأعمِّ أعاره الـ … ـقمرُ المنيرُ الطلقُ نور شُعاعه
ولربما جمع النجيع من الطلَى … من صارم المنصور يوم قِراعِه
فحكاه غير مخالف فى لونه … لا فى روائحه وطيب طِباعِه
ملك جهِلنا قبلَه سبل العُلا … حتى وضَحْنَ بنَهْجه وشراعِه
فى سيْفه قِصَرٌ لطول نِجَاده … وتمام ساعده وفُسْحة باعِه
ذو همة كالبرْقِ فى إسراعِه … وعزيمة كالحين فى إيقاعه[2]
تلقى الزمانَ له مطيعاً سامعاً … وترى الملوك الشمَّ من أتباعه

في وصف حديقة

وما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف حديقة :

وحديقة مخضرَّة أثوابها … فى قُضْبها للطير كل مغرد
نادمْتُ فيها فتية صُفحاتُهم … مثل البدور تنير بين الأسعُد

---

(١) فى ا « ومن أتباعه » (٢) فى ا « وصريمة كالحين فى إيقاعه »

والجدول الفضىّ يضحك ماؤه　　فكأنه فى العين صَفْحُ مهند
وإذا تجعَّد بالنسيم حَسِبْتَه　　لما تراه مشبها للمبرد
وتناثرَتْ نقطٌ على حافاته　　كالعقد بين مجمَّع ومُبَدَّدِ
وتدحرجت للناظرين كأنها　　دُرٌّ نثيرٌ فى بساط زَبَرْجد (١)

صفة صورة بحمام الشطارة

وكان بحمام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الأندلس بقوله :

ودُمْية مرمر تَزْهى بجيدٍ　　تناهى فى التورُّد والبياض (٢)
لها ولد ولم تعرف حليلا　　ولا أَلِمَتْ بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حَجَرٌ ، ولكن　　تتيمُنا بألحاظٍ مِراض

وكان بسَرَقُسْطة فى القصر المسمى بدار السرور أحد قصور المقتدر بن هود مجلس الذهب ، وفيه يقول ذو الوزارتين بن غُنْدَشِلْبَ (٣) يهجو وزيراً كان ينبز بتحقون :

ضَجَّ من تحقون بيت الذهب　　ودعا مما به وَاحَرَبِى
رَبِّ طهِّرْنى فقد دنَّسَنى　　عارُ تَحَقُّونَ ألوف الذنب

وصف بقعة بوادى الزيتون

وكتب بعض كبراء الأندلس إلى إخوانه : كتابى هذا من وادى الزيتون ، ونحن فيه مُحْتَلُّون (٤) ، ببقعة اكتست من السندس الأخضر ، وتحلت بأنواع الزهر وتخايلت بأنهار تتخللها ، وأشجار تُظَلّلها ، تحجب أدواحها الشمس لالتفافها ، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها ، وما شئتم من محاسن تروق وتعجب ، وأطيار تتجاوب بألحان تلهى وتطرب ، فى مثلها يعود الزمان كله صَباً ، وتجرى الحياة على الأمل والمنى ، وأنا فيها ــ أبقاكم الله سبحانه ! ــ بحالِ من طاب غذاؤه ، وحَسُن استمراؤه ، وصحا من جنون العقار ، واستراح من مضض الْخُمار ، وزايلته وساوسه ، وخلصت من

---

(١) فى ا « وترجرجت للناظرين » وفى نسخة عندها « وتزخرفت للناظرين »
(٢) فى ب « تزهو بجيد » (٣) فى ب « بن عبد شلب » وأثبتنا ما فى ا
(٤) فى ب « مختلفون » وفى نسخة عند ا « محفلون »

الخباط هواجسه ، ثم ذكر كلاما من هذا النمط فى وصف الخمار والدعاء إلى العقار .

فراجعه أبو الفضل بن حسداى برقعة قال فى صدرها : إلى سيدنا الذى ألزمنا بامتنانه الشكر ، وكبيرنا الذى علمنا ببيانه السِّحْر ، وعميدنا الذى عَقَدنا بحرمه وانحلّ ، ورمانا بدائه وانسل ، أبقاك الله تعالى لتوبة نَصُوحٍ تمرها ، ويمين غموس تبرّها ، وَرَدَ أبقاك الله تعالى كتابك الذى أنفذته من مُعَرَّسِك بوادى الزيتون ، ووقفنا على ما لقنت فى أوصافه من حجة المفتون ، وإعجابك بالتفاف شجره ودوحاته ، واهتزازك باطيف بَوَاكردورَوْحاته ، وسرورك[1] به وهو حُوَّتلاعه ، مورودة هضابه وأجراعه ، وكل المشارب ماخلاه ذميم ، وماؤه الدهر خَصِر[2] والمياه حميم ، وتلك عادة تلونك ، وسجية تخضرمك ، وشاكلة ملالك وسأمك ، وأشعر الناس عندك مَنْ أنت فى شعره ، وأحب البلاد إليك ما أنت فى عُقره ، فأين منك بساتين جلّق وجنانه ، ورياضه المونقة وخُلْجانه ، وقبابه البيض فى حدائقه الخضر ، وجُونُ العطر[3] فى جنانه النضر ، وما تَضُمُّه[4] حيطانه ، وتمجّه أنجاده وغيطانُه ، من أمهات الراح التى هجرتها بزَعْمك ، وموارد الشّمول التى طلقتها برغمك ، وهيهات فوالله ما فارقتك تلك الأجارعُ والمجانى[5] ، ولا شاقتك تلك المنازل والمغانى ، إلا تذكراً لما لدينا من طيب المعاهد ، وحنيناً إلى ما عندنا من جميل المشاهد ، وأين من المشتاق عَنْقاء مغرب . ثم ذكر كلاما فى جواب ما مر من الخمار لم يتعلق لى به غرض .

لابن خفاجة فى وصف متنزه

وما أحلى ما كتب به أبو إسحاق بن خفاجة من رسالة فى ذكر متنزه : ولما أكب الغمام إكبابا ، لم أجد منه إغبابا ، واتصل المطر اتّصالا ، لم أُلِف منه انفصالا ، أذن الله تعالى للصّحْو أن يطلع صَفْحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجلُّ الكتاب ، وطفقت السماء تخلع جلبابها ،

(١) فى ا « ومرورك به » (٢) خصر : بارد ، وحميم : حار .

(٣) الجون : جمع جونة ، وهو وعاء العطار ، ووقع فى ا « ووجوه العطر »

(٤) فى ا « وما تضمنه » (٥) فى ا « والمجارى » محرفا

والشمس تُميطُ نقابها[١]، وطلعة الدنيا[٢] تبتهج كأنها عروس تجلّتْ، وقد تحلت، ذهبتُ فى لُمَّة من الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضًا، ونطوى للتفرج أرضا، فلا أندفع[٣] إلا إلى غدير، نمير، قد استدارت منه فى كل قَرَارة سماء، سحائبها غماء[٤]، وانساب فى تَلْعَةٍ حُبَاب، جلدُه حَبَاب، فترددنا بتلك الأباطح، نتهادى تهادى أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم، أثناء ذلك المنظرِ الوسيم، تراسلُ مَشْى، على بساط وَشْى، فإذا مر بغدير نسجه دِرْعا، وأحكمه صُنْعا، وإن عثر بجدول شَطَبَ منه نَصْلا، وأخلصه صَقْلا، فلا ترى إلا بطاحا، مملوءة سلاحا، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من دِرْع مَصْقول، وسيف مسلول.

ومن فصل منها: فاحتللنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان، سُنْدُسية رِوَاق الأوراق، وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظَليل، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل، ونجيل الطرف فى نهر صَقيل، صافى لُجين الماء، كأنه مَجَرّة السماء، مؤتلق جوهر الحباب، كأنه من ثغور الأحباب، وقد حَضَرَنا مُسْمِع يجرى مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها وهَوَاها، ويغنى لها مُقْتَرَحها ومُناها، فصيح لسان النقر، يشفى من الوَقْر، كأنه كاتب حاسب، تمشق يمناه، وتعقد يسراه:

يحرِّك حين يشدو ساكناتٍ وتَنْبَعِث الطبائعُ للسكون

من أبى إسحاق ابن خفاجة إلى صديق له

وكانت بين أبى إسحاق وبعض إخوانه مُقاطعة، فاتفق أن ولى ذلك الصديق حصنا، فخاطبه أبو إسحاق برقعة، منها: أطال الله بقاء سيدى النبيه أوصافه النزيهة عن الاستثناء، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء، ما انحذفت ياء يَرْمِى[٥] للجزم، واعتلت واو يغزو لموضع الضم، كتبت عن وُدٍّ قديم هو الحال، لم يلحقها انتقال، وعهد كريم هو الفعلُ لم يدخله الاعتلال، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة، ويَعْصم هذا بعدُ من الحروف الجازمة، وأنا استنهض

(١) فى ا « تحط نقابها » (٢) فى ا « وتطلعت الدنيا »
(٣) فى ا « فلا ندفع » (٤) فى ب « سحابة عماء »
(٥) فى ب « ياء يرى » محرفا، فان آخر « يرى » ألف وإن صورت ياء

طوْلك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ، وتعدية فعل الفَصْل ، وعدولك عن باب ألف القطع ، إلى باب الوصْل والجمع ، حتى يسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ، ويدخل الانتقال حال الصمت ، فلا تتخيل أعزك الله أن رَسْمَ إخائك عندى دَوْحساً(١) قد دَرَسَ عَفاَء ، ولا أن صدرى دارُ مية أمسى من وده خلاء ، وإنما أنا فعل إذا ثُنِّىَ ظهر من ضمير وده ما بطن ، وبدا منه ما كمن ، وهنيئا أعزك الله أن فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعه تغيير ، وأن فعل سيفك ماضٍ ما به للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظَّرْف ، تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ، ودرس حروف العطف ، وتدخل لام التبرئة على ماحدث من عَتْبك ، وتوجب بعد النفى ما سلف من قُرْبِك(٢) ، وتدع ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين ، وترفع بالإضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك ومعتل الإخاء أن يصح ، وكتابى هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الأولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة ، فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنيل ، ومنك أُشتقاق اسم السودد والفضل ، وإنك وإن تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا ، وعدوك وإن تكبر كالـكُمَيْت لم يقع إلا مُصَغرا ، وللأيام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ، فلا دخل عروضَكَ قَبْض ، ولا عاقب رفْعك خفض ، ولا زلت مرتبطا بالفضل شرطُك وجزاؤك ، جاريا على الرفع سروك الـكريم وسناؤك ، حتى يُخفض الفعل ، وتبنى على الـكسر قبْلُ ، إن شاء الله .

لابن خفاجة يستدعى عود غناء

وكتب رحمه الله تعالى يستدعى عُودَ غناء : انتظم إخوانك ــ أعزك الله تعالى ! ــ عقد شرب يتساقون فى ودك ، ويتعاطون ريحانة شكرك وحمدك ،

---

(١) فى ب « دوحه قد درس عفاء » وحسا ــ بفتح الحاء ــ واد بأرض الشربه ، وقد وقع فى شعر كثير من شعراء الجاهلية ، من ذلك قول النابغة الذبياني :

عفا ذو حساً من أهله فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

(٢) فى ا « عتبك » وفى ب « عبدك » وكلاهما تحريف ما أثبتناه .

ومامنهم إلا شَرِهُ المسامع إلى رَنَّة حمامة ناد ، لا حمامة بطن واد ، والطَّوْل لك فى صلتها بجماد ناطق قد استعار من بنانٍ لساناً ، وصار لضمير صاحبه ترجمانا ، وهو على الإساءة والإحسان لاينفك من إيقاع به ، من غير إيجاع له ، فإن هفا عُرِكت أذنه وأُدِّب ، و إن تأبَّى(١) واستوى بُعِج بطنه وضرب ، لازلت منتظم الجَذَل ، ملتئم الأمل ، انتهى .

من نظم ابن خفاجة يتفجع

ومن نظمه رحمه الله تعالى يتفجع و يتوجع :

شَرَابُ الأمانى لوعلمت سَرَابُ وعُتْبَى الليالى لو عرفت عتاب
وهل مُهْجَة الإنسان إلا طريدة يحوم عليها للحِمَام عُقابُ
يخبُّ بها فى كل يوم وليلة مطايا إلى دار البلى ورِكابُ
وكيف يَغِيضُ الدمعُ أويبرد الحشا وقد باد أقرانٌ وفات شباب
أقلِّبُ طرفى لا أرى غير ليلة وقد حُطَّ عن وجه الصباح نِقَابُ
كأنى ، وقد طار الصباح ، حمامةٌ يمد جناحيه علىّ غراب
دعا بهمُ داعى الردى فكأنما تبارت بهم خيلٌ هناك عِراب
فهاهم وسِلْمُ الدهر حرب كأنما جثا بينهم طعن لهم وضراب(٢)
هجود ولا غير التراب حَشِيَّةٌ لجنب ولا غير القبور قِبابُ
ولست بناس صاحباً من ربيعة إذا نَسِيَتْ رسمَ الوفاء صحابُ
ومما شجانى أن قَضَى حَتْفَ أنفهِ وما اندقَّ رمحٌ دونه وكعاب(٣)
وأنا تجارَيْنا ثلاثين حِقْبةً فمات سباقا والحمام قِصاب
كأنْ لم نبت فى منزل القصف ليلة نجيب بها داعى الصبا ونجاب
إذا قام منا قائم هزّ عطفه شبابٌ أرقناه بها وشَرَاب

(١) فى ا « وإن تأنى » وفى نسخة عندها « تأتى » .

(٢) فى ا « جثابهم طعن له وضراب » وجثا : جاس على ركبتيه .

(٣) فى ا « وما اندق رمح دونه وذباب » وذباب السيف : طرفه .

ولما تراءت للمشيب بريقة وأقشع من ظلّ الشباب سحاب
نهضنا بأعباء الليالى جزالة وأرست بنا فى النائبات هِضاب
فياظاعناً قد حطّ من ساحة البلى بمنزلِ بينٍ ليس عنه مآب
كفى حزناً أن لم يزرنى على النوى رسول ولم ينفذ إلىّ كتاب[1]
وأنى إذا يمّمتُ قبرك زائراً وقفتُ ودونى للتراب حجاب
ولو أن حيًّا كان جاور ميّتاً لطال كلام بيننا وخطاب
وأعْرَبَ عما عنده من جليّةٍ فأقشع عن شمس هناك ضَباب

وقد أبعدنا عما كنا بصدده من ذكر قرطبة أعادها الله للاسلام ، فنقول : قال بعض من أرخ الأندلس :

عود إلى وصف قرطبة ومشاهدها

انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمائة وتسعين مسجدا ، ثم زادت بعد ذلك كثيرا كما سيأتى ذكره .

وقال بعضهم : كانت قرطبة قاعدة الأندلس ، وأم المدائن ، وقرارة الملك ، وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلثمائة ، وكانت عدة الدور فى القصر الكبير أربعمائة دار ونيفاً وثلاثين ، وكانت عدة دور الرعايا والسّواد بها الواجب على أهلها المبيت فى السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض .

ورأيت فى بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لَمْتُونة والموحّدين ، قال : وكانت ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار وثلثمائة دار . انتهى

وعدد أرباضها ثمانية وعشرون ، وقيل : أحد وعشرون ، ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدا ، وعدد الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام ، وقيل : ثلثمائة حمام .

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « ولم ينفذ إليك كتاب »

وقال ابن حيان : إن عدة المساجد عند تناهيها فى مدة ابن أبى عامر ألف وستمائة مسجد ، والحمامات تسعمائة حمام[١] .

وفى بعض التواريخ القديمة : كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا : منها بشَقنْدَة ثمانية عشر مسجدا ، وتسعمائة حمام وأحد عشر حماما ، ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصاً ، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ، هكذا نقله فى المغرب ، وهو أعلم بما يأتى ويذَر ، رحمه الله تعالى ! .

وقال بعض المؤرخين ــ بعد ذكره نحوما تقدم ــ : ووسط الأرباض قبة قرطبة التى تحيط[٢] بالسوردونها ، وأما اليتيمة التى كانت فى المجلس البديع فإنها كانت من تُحَف قصر[٣] اليونانيين بعَث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية . انتهى

ونحوه لابن الفرَضى وغير واحد ، لكن خالفهم صاحب « المسالك والممالك » فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجدا ، وهو بعيد ، وقال قبله : إن دَوْرَ قرطبة فى كمالها ثلاثون ألف ذراع ، وتفسيرها باللسان القوطى القلوب المختلفة ، وهى بالقوطية بالظاء المشالة ، وقيل : إن معنى قرطبة أجز فاسكنها[٤] قال : وبقرطبة أقاليم كثيرة وكُوَرٌ جليلة ، وكانت جبايتها فى أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين دينارا ، وسبق مايخالف هذا ، ومن القمح أربعة آلاف مدى وستمائة مدى ، ومن الشعير سبعة آلاف مدى ، ومن الشعير سبعة آلاف مدى وستمائة مدى وسبعة وأربعين مديا .

وقال بعض العلماء : أحصيت دور قرطبة التى بها وأرباضها أيام ابن أبى عامر فكان مائتى ألف دار وثلاثة عشر ألف داراً وسبعة وسبعين دارا ، وهذه دور الرعية ، وأما دور

---

(١) فى ا « والحمامات سبمائة حمام » . (٢) فى ا « التى تختص بالسور »
(٣) فى ا « من تحف قيصر اليونانيين » (٤) فى ا « اجر فاسكنها »

الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلثمائة دار، سوى مصارى الكراء والحمامات والخانات، وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون حانوتا، ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران، ومحيت آثار تلك القرى والبلدان، انتهى ملخصا

وسيأتى فى رسالة الشَّقَنْدى ماهو أشمل من هذا.

ولما رقت حال أبى القاسم عامر بن هشام القرطبى بقرطبة وزَيَّنَ له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحِّدين مَرَّاكُشَ قال وذكر المتنزهات القرطبية:

قصيدة القرطبي وفيها ذكر متنزهات قرطبة

يا هَبَّةً باكرت من نحو دارين وافتْ إلىّ على بُعْدٍ تُحَيِّينى[1]
سَرَتْ على صَفَحَات النهر ناشرة جَنَاحها بين خِيرِىّ ونسرينِ
ردت إلى جسدى رُوحَ الحياة وما خلتُ النسيمَ إذا ما مِتُّ يحيينى
لولا تنسُّمها من نَشْرِ أرضكمِ ما أصبحت من أليم الوَجد تُبْرِينى[2]
مَرت على عقدات الرمل حاملةً مِنْ سِرِّكم خَبَراً بالوحى يَشْفِينى
عَرَفْتُ من عَرْفه ما كنتُ أجهله لما تبسّم فى تلك الميَادِينِ[3]
نَزَوْتُ من طَربٍ لما هفا سَحَرا وظَلَّ ينشرُنِى طَوْراً ويَطْوِينى
خلْتُ الشمالَ شَمُولاً إذ اسكِرْتُ بها سُكْراً بما لستُ أرجوه يُمَنِّينى
أهْدَتْ إلىّ أريجاً من شمائلكم فقلت: قربنى مَنْ كان يُقصينى
وخِلْتُ من طَمَعٍ أن اللِّقاء على إثْرِ النسيم وأضْحَى الشَوْق يَحْدُونى[4]
فظَلْتُ أَلْثِمُ من تعظيمِ حقِّكُمُ مَجَرَّ أذيالها والوَجْدُ يُغْرِينى
مَسَارح كم بها سرحْتُ من كَمَدٍ قلبى وطَرْفى ولا سُلْوَان يَثْنِينى
بين المصلَّى إلى وادى العَقيق وما يزال مثلَ اسمه مذ بان يُبْكِينى

(١) دارين: بلد مشهورة بالمسك (٢) النشر ـ بالفتح ـ طيب الرائحة
(٣) فى ا «ما لست أجهله». (٤) يحدونى: يسوقنى ويبعثنى.

إلى الرُّصافة فالمَرْجِ النضير فوَا   دِى الدَّيْرِ فالعَطْفِ من بَطْحاء عَبْدُونِ

لباب عبد سقَتْهُ السحْبُ وابلَهَا   فلم يزل بكُؤُس الأنس يَسْقِينى

لا باعَدَ اللهُ عَيْنى عَنْ مَنازِهِهِ   ولا يقرِّبْ لهَا أبوابَ جَيْرُونِ (١)

حاشا لها من محلات مُفارقة   من شَيِّق دونهَا فى القرب محزونِ

أين المسيرُ ورِزْقُ الله أَدْرِكُهُ   من دون جَهْدٍ وتأميلٍ يُعَنِّينى

يا مَنْ يزيِّنُ لى الترحالَ عن بَلَدِى   كم ذا تحاول نَسْلاً عند عِنِّينِ

وأين يَعْدِلُ عن أرجاء قُرْطُبة   مَنْ شاء يَظْفَرُ بالدنيا وبالدينِ

قُطْرٌ فسيحٌ ونهر مَا بِهِ كَدَرٌ   حَفَّتْ بشَطَّيْه ألفافُ الْبَسَاتينِ

ياليْتَ لى عمرَ نوحٍ فى إقامتها   وأنَّ مالِىَ فيه كَنْزُ قارونِ

كلاهما كُنْتُ أفنيه على نشَوا   تِ الراح نَهْباً ووَصْلِ الحورِ والعِينِ (٢)

وَإنما أسفِى أنى أهِيمُ بها   وأنَّ حَظِّىَ منها حَظٌّ مَغْبُونِ

أرَى بعينىَ مالا تستطيلُ يَدِى   لَهُ وقَدْ حازَهُ مَنْ قَدْرُه دُونِى

وأنكدُ الناسِ عَيْشًا مَنْ تكون له   نَفْسُ الملوك وحالاتُ المسَاكينِ

يَغُضُّ طَرْفَ التصابى حين تَبْهَتُه   قُضْبانُ نَعْمانَ فى كُثْبانِ يَبْرِينِ

قالوا الكَفافُ مُقِيمٌ قلت ذاك لمن   لا يَسْتخفُّ إلى بَيْتِ الزراجينِ

ولا يُبَلْبِله هَبُّ الصَّبَا سَحَرًا   ولا يُلَطِّفُه عَرْفُ الرياحينِ

ولا يَهِيمُ بتُفَّاحِ الخدود ورُمَّا   نِ الصُّدُورِ وترجيعِ التلاحينِ (٣)

لا تُجْتَنَى راحة إلا على تعبٍ   ولا تُنَالُ العُلا إلا من الهُونِ

وصاحبُ العقلِ فى الدنيا أخو كدرٍ   وإنما الصفوُ فيها للمجانينِ (٤)

يا آمرى أن أحثّ العيسَ عن وَطَنى   لما رأى الرزقَ فيه لَيْسَ يُرْضِينى

---

(١) فى ا « من منازهه »

(٢) فى ا « ووصل الخرد العين »

(٣) فى ا « ورمان النهود »

(٤) فى ا « وإنما الصفو منها »

نَصحْت لـكِنّ لى قَلباً يُنازِعُنى فلَوْ ترحّلْتُ عنـــه حلّهُ دونِى
لألزَمَنْ وطَنِى طوراً تطَاوِعُـــنِى قودُ الأمانى وطَوْراً فيه تعْصِينِى
مُذللا بَيْنَ عرفانى وأضربُ عن سَيْرلأرضٍ بها مَنْ لَيْسَ يدْرِينِى
هٰــذَا يقول غريبٌ ساقه طمَعٌ وذاك حِينَ أريهِ البريجفُونِى[1]
إليك عَـــنِّىَ آمالى فبُعْدُكِ يَهْـــدينى وقُرْبُك يُطْغينى ويغْوِينى
يالَحظَ كلِّ غــزالٍ لَسْت أملكُه يدْنو ومالىَ حَالٌ منـــه تُدْنِينى
ويا مُدَامَـــةَ دَيْرٍ لا أُلِمُّ بهِ لولا كُمَا كان ما أُعْطِيتُ يَكْفِينِى
لأصبرنَّ على ما كانَ من كَدَرٍ لمن عَطَايَاه بَيْنَ الـكافِ والنُّونِ

وتسمى هذه القصيدة عنـد أهل الأندلس « كنز الأدب » وقد أشرنا فى الباب الأول إلى كثير مما يتعلق بقرطبة أعادها الله تعالى إلى الاسلام ! فأغنى عن إعادته ، و إن كان ذكره هنا أنسب ، لأن ماتقدم إنما هو فى ذكرها مع غيرها من بلاد الأندلس ، وهذا الباب لها بالاستقلال .

وأنشد أبو العاصى غالب بن أمية المورورى[2] لما جلس على نهر قرطبة بإزاء الرَّبض ملتفتا إلى القصر بديهة :

يا قَصْرُ كم حَوَيْتَ من نِعَمٍ عادَتْ لَقًى بعَوَارضِ السكَكْ
ياقَصْرُ كم حَوَيْتَ من مَلِكٍ دَارَتْ عليــه دوائرُ الفَلَكِ
ما شئت فابْقَ فكلٌّ متخــذ يَوْمًا يَعُودُ بحالِ مُتَّرَكِ

وقال القاضى أبو الفضل عياض عند ارتحاله عن قرطبة :

أقول وقدجَـدّ ارتحالى وغَرَّدَتْ حُدَاتى وزُمّتْ للفراق رَكَائبى[3]

---

(١) فى ب « وذاك حين أريد البر » (٢) فى ب « المروزى »
(٣) غردت : غنت ، والحداة ـــ بضم الحاء ـــ جمع حاد ، وهو من يحدو الإبل ويسوقها ، والركائب : جمع ركوبة ، وزمها : وضع الزمام الذى تقاد به ، وأراد أعدت للرحيل .

وقد غَمَضَتْ من كثرة الدَّمْع مُقْلتى   وصارت هَوَاءً من فؤادى تَرَائبى
ولم يبقَ إلا وَقْفَــة يستحثها   وَدَاعِىَ للأحباب لا لِلْحَبَائِبِ
رعَى اللهُ جيراناً بقرطبة العُلا   وجاد رُباها بالعهاد السَّواكِبِ
وحَيَّــا زماناً بينهم قد أَلِفْتُهُ   طليقَ المحيّا مُسْتَلَانَ الجَوَانب
أإخواننا بالله فيهــا تذكروا   مَوَدّة جارٍ أو مَوَدَّةَ صاحِبِ[1]
غَدَوْت بهم من برِّهم واحتفائهم   كأنى فى أهــلى و بين أقاربى[2]

وأما مسجد قرطبة فشهرته تغنى عن كثرة الـكلام فيه ، ولـكن نذكر من[3] أوصافه وننشر من أحواله ما لابد منه ، فنقول :

وصف مسجد قرطبة وابتداء بنائه

قال بعض المؤرخين : ليس فى بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة ، وكلما اجتمعت منه أربع سوارى كان رأسها واحدا ، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد فى أعلاه وأسفله ، انتهى .

وكان الذى ابتدأ بناء هذا المسجد[4] العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، ولم يكمل فى زمانه ، وكمله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه ، حتى صار المثل مضروبا به ، والذى ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على مَنْ قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء .

وقال بعض المؤرخين : إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره [وعظم] بنى القصر بقرطبة ، و بنى المسجد الجامع ، وأنفق عليـه ثمـانين ألف دينار ، و بنى بقرطبة الرُّصافة تشبيهاً برُصَافة جده هشام بدمشق .

وقال بعض : إنه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار ، واشترى موضعه إذ كان كنيسة بمـائة ألف دينار ، فالله تعالى أعلم .

---

(١) فى أصل ا « معاهد جار أو مودة صاحب »
(٢) فى ب « واحتفالهم » وما أثبتناه عن ا هو الصواب .
(٣) فى ا « ولنشر من أحواله إلى ما لابد منه » ويسقط منها قوله « ولـكن نذكر من أوصافه » .
(٤) فى ا « بنيان هذا المسجد »

وقال بعض [المؤرخين] فى ترجمة عبدالرحمن الداخل ماصورته : إنه لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرُّصافة متنزهاله ، واتخذ بها قصراً حسناً ، وجناناً واسعة ، نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار ، انتهى

وكانت أخته أم الأصبغ ترسل إليه من الشام بالغرائب ، مثل الرمان العجيب الذى أرسلته إليه من دمشق الشام كما مر ، وسيأتى كلام ابن سعيد بما هو أتم من هذا .

زيادة المنصور ابن أبى عامر فى مسجد قرطبة

ولما ذكر ابن بَشْكُوال زيادة المنصور بن أبى عامر فى جامع قرطبة قال : ومن أحسن ماعاينه الناس فى بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مُصَفَّدين فى الحديد من أرض قَشْتَالَة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون فى البنيان عوضاً من رَجَّالة المسلمين ، إذلالا للشرك وعزةً للاسلام ، ولما عزم على زيادته هذه جلس لأرباب الدور التى نقل أصحابها عنها بنفسه ، فكان يُؤْتَى بصاحب المنزل فيقول له : إن هذه الدار التى لك ياهذا أريد أن أبتاعها(1) لجماعة المسلمين من مالهم و[من] فَيْئهم لأزيدها فى جامعهم وموضع صلاتهم ، فشَطِّطْ واطلب ما شئت ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها ، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت : لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة ، فقال : تُبتاع لها دار بنخلة ، ولو ذهب فيها بيتُ المال ، فاشتريت لها دار بنخلة ، وبولغ فى الثمن ، وحكى ذلك ابن حيان أيضاً .

وقيل : إن إنفاق الحكم فى زيادة الجامع كان مائة ألف وواحداً وستين ألف دينار ونيفاً ، وكله من الأخماس .

وقال صاحب كتاب « مجموع المفترق » : وكان سقف البلاط من المسجد

---

(1) فى أصل ا « أريد ابتياعها » .

الجامع من القبلة إلى الجَوْف قبل الزيادة مائتين وخمساً وعشرين ذراعاً ، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة[1] ذراع وخمسة أذرع ، ثم زاد الحكم فى طوله مائة ذراع وخمسة أذرع ، فكمل الطول ثلثمائة ذراع وثلاثين ذراعا ، وزاد محمد بن أبى عامر بأمر هشام بن الحكم فى عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً ، فتم العرض مائتى ذراع وثلاثين ذراعاً ، وكان عَدَدُ بلاطه أحد عشر بلاطاً ، عرض أوسطها ستة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من اللذين يليانه غرباً واللذين يليانه شرقا أربعة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من الستة الباقية إحدى عشرة ذراعاً ، وزاد ابن أبى عامر فيه ثمانيةً عرضُ كل واحد عشرة أذرع ، وكان العمل فى زيادة المنصور سنتين ونصفاً ، وخدم فيه بنفسه ، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع وثمان وعشرون ذراعاً ، وعرضه من القبلة إلى الجَوْف مائة ذراع وخمسة أذرع ، وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع ، فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعا ، وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة فى صحنة غرباً وشرقاً وجوفاً ، وأربعة فى بلاطاته : اثنان شرقيان واثنان غربيان ، وفى مقاصير النساء من السقائف بابان ، وجميعُ ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً ، رخاما كلها ، وباب مقصورة الجامع ذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفُسَيْفِساء ، وثُرَيّات المقصورة فضة محضة ،وارتفاعُ الصومعة اليوم — وهى من بناء عبد الرحمن بن محمد — ثلاثة وسبعون ذراعا إلى أعلى القبة المفتحة التى يستديرُ[2] بها المؤذن ، وفى رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ، ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف ، فاثنان من التفافيح ذهب إبريز ، وواحدة فضة ،

(١) كذا فى ا وفى ب « مائتا ذراع » ولا يستقيم على النسختين ما ذكره بعد ذلك من أن العرض قد صار مع الزيادة مائتين وثلاثين ذراعا ، ولعل أصل الكلام هنا « مائة ذراع وخمسين ذراعا » (٢) فى ب « التى يستدبرها»

وتحت كل واحدة منها وفوقها سَوْسَنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج ، وهى إحدى غرائب الأرض .

مصحف عثمان بمسجد قرطبة

وكان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه الذى خَطَّه بيده ، وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وهو على كرسى [من] العود الرَّطْب بمسامير الذهب .

رجع إلى المنارة ــ وارتفاعُ المنارة إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعا ، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمان عشرة ذراعا ، انتهى بحروفه .

رواية ابن الفرضى فى زيادة ابن أبى عامر

وفيه بعض مخالفة لما ذكره ابن الفرضى و بعضهم ، إذ قال فى ترجمة المنصور ابن أبى عامر ماصورته : وكان من أخبار المنصور الداخلة فى أبواب [الخير[1] و] البر والقُرَب بنيانُ المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، وذلك أنه لما زاد الناس بقُرْطُبَة وانجلب إليها قبائلُ البربر من العُدْوة وإفريقية ، وتناهى حالها فى الجلالة ضاقت الأرباض وغيرها ، وضاق المسجد الجامع عن حَمْل الناس ، فشرع المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربى بقصر الخلافة ، فبدأ ابنُ أبى عامر [فى][1] هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولا من أول المسجد إلى آخره ، وقصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى الإتقان والوثاقة ، دون الزخرفة ، ولم يقصر ــ مع هــــذا ــ عن سائر الزيادات جودة ، ما عدا زيادة الحكم . وأوّلُ ما عمله ابن أبى عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتُرِيت منهم للهَدْم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن ، وصنع فى صحنه الجبَّ العظيمَ قدرُه ، الواسع فناؤه ، وهو ــ أعنى ابن أبى عامر ــ هو الذى رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت ، فتطابق بذلك النوران ، وكان عدد سوارى الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقِبابه ومَناره بين كبيرة وصغيرة ألف سارية

(١) هذه الكلمات زيادة فى ا وحدها .

وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية ، وقيل : أكثر ، وعدد ثُرَيَّات الجامع مابين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثُرَيا ، وعددُ الكؤس سبعة آلاف كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأساً ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤس ، وزنة مَشاكى الرصاص للكؤس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها ، وزِنَة مايحتاج إليه من الكتان للفتائل فى كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار، وجميع مايحتاج إليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربع أو نحوها ، يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد ، ومما كان يختص برمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور ، والكبيرة من الشمع التى تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلا ، يحترق بعضها بطول الشهر ، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة ، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسَدَنة ومُوقِدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصاً ، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواقٍ من العنبر الأشهب وثمان أواقٍ من العود الرطب ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين : كان للجامع كل [ليلة][1] جمعة رطل عود ، وربع رطل عنبر ، يتبخر به ، انتهى .

رواية ابن بشكوال فى مساحة جامع قرطبة

وقال ابن سعيد ، نقلا عن ابن بَشْكوال : طول جامع قرطبة الأعظم الذى هو بداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف ثلثمائة وثلاثون ذراعا ، الصحْنُ المكشوف منه[2] ثمانون ذراعا ، وغير ذلك مُقَرْمَد ، وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعا ، وعدد أبهائه عندا كتمالها بالشمالية التى زادها المنصور ابن أبى عامر بعد هذا تسعة عشر بَهْوًا ، وتسمى البلاطات ، وعدد أبوابه الكبار

---

(١) كلمة « ليلة » لاتوجد فى ا (٢) فى ا « عنه »

والصغار أحد وعشرون بابا فى الجانب الغربى تسعة أبواب ، منها واحد كبير للنساء
يشرع إلى مقاصيرهن ، وفى الجهة الشرقية تسعة أبواب ، منها لدخول الرجال
ثمانية أبواب ، وفى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب ، منها لدخول الرجال بابان كبيران،
وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهنّ ، وليس لهذا الجامع فى القبلىّ سوى باب
واحد بداخل المقصورة المتخذة فى قبلته متصل بالساباط المُفْضِى إلى قصر الخلافة
منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة ، وجميعُ هذه الأبواب
مُلَبّسة بالنحاس الأصفر بأغرب صنعة ، وعدد سوارى هذا المسجد الجامع الحاملة
لسمائه واللاصقة(١) بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألفٌ
وأربَعُمائة سارية وتسع سوار ، منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية ،
وذكر المقصورة البديعة التى صنعها الحكم المستنصر فى هذا الجامع فقال : إنه خطر
بها على خمس بلاطات من الزيادة الحكَمية ، وأطلق حفافيها على الستة الباقية
ثلاثة من كل جهة ، فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمساً وسبعين ذراعا ،
وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعا ، وارتفاعُها
فى السماء إلى حدّ شرفاتها ثمان أذرع ، وارتفاعُ كل شرفة ثلاثة أشبار ، ولهذه
المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقىٍّ
وغربى وشمالىّ ، ثم قال : وذَرْعُ المحراب(٢) فى الطول من القبلة إلى الجوف
ثمان أذرع ونصف ، وعرضه من الشرق إلى الغرب سبع أذرع ونصف ،
وارتفاع قبوه فى السماء ثلاث عشرة ذراعا ونصف ، والمنبر إلى جنبه مؤلف من
أكارم الخشب ما بين آبنوس وصَنْدَل ونَبْع و بَقم وشَوْحَط وما أشبه ذلك ،
ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم
[وثُلُث درهم] وقيل غير ذلك ، وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه

---

(١) فى ا « والملصقة » وفى نسخة عندها « والملاصقة »

(٢) ذرع المحراب : أى مقياسه بالذراع .

الله ، وذكر أن عدد ثُرَيَّات الجامع التى تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة ـ سوى ما منها على الأبواب ـ مائتان وأربع وعشرون ثُرَيَّا ، جميعُها من لاطونٍ(١) مختلفة الصنعة ، منها أربع ثريَّات كبار معلقة فى البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلقة فى القبة الكبرى التى فيها المصاحف حيال المقصورة ، وفيها من السُّرُج ـ فيما زعموا ـ ألف وأربعمائة وأربعة(٢) وخمسون ، تستوقد هذه الثريات الضخام فى العشر الأخير من شهر رمضان ، تسقى كل ثريا منها سبعة أرباع فى الليلة ، وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح فى هذا المسجد فى السنة أيام تمام وَقوده فى مدة ابن أبى عامر مكملة(٣) بالزيادة المنسوبة ألف ربع ، منهاَ فى شهر رمضان سبعمائه وخمسون ربعا ، قال : وفى بعض التواريخ القديمة كان عدد القَوَمة بالمسجد الجامع بقرطبة فى زمن الخلفاء وفى زمن ابن أبى عامر ثلثمائة ، انتهى . وفيه مخالفة لبعض ما تقدم .

وذكر بعضهم الزيت ـ ولكن قوله أولى بالاتباع ، لنقله عن ابن بشكوال، ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكبر من غيره ، والله سبحانه أعلم ـ فقال : ألف ربع وثلاثون ربعا ، منها فى رمضان خمسمائة ربع ، وفى الثريات التى من الفضة ـ وهى ثلاثة ـ اثنان وسبعون رطلا ، لكل واحدة ثمانية عشر فى ليلة وقْدها . وقال فى المنبر : إنه مركب من ستة وثلاثين ألف وصل ، قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة ، وسمرت بمسامير الذهب والفضة ، وفى بعضها نفيس الأحجار ، واتصل العمل فيه تسعة(٤) ، ثم قال : ودور الثريا العظيمة خمسون شبرا ، وتحتوى على ألف كأس وأربعة وثمانين ، كلها مُوَشَّاة بالذهب ، إلى غير ذلك من الغرائب .

وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد إبراهيم بن صاحب الصلاة الولْبَنِي يصف جامع

---

(١) اللاطون : النحاس الأصفر (٢) فى ا « ألف وأربعة وخمسون »
(٣) فى ب « مكمل بالزيادة » (٤) فى نسخة عند ا « واتصل العمل فيه تسع سنين » وفى أخرى « سنين » بدون ذكر العدد

الولبى يصف جامع قرطبة

قرطبة بما نصه : عمر الله سبحانه بشمول السعادة رسمك ، ووفر من جزيل الكرامة قَسْمك ، ولا بَرِحت سحائب الإنعام تهمى عليك ثَرَّة ، وأنامل الأيام تهدى إليك كل مَسَرَّة ، لئن كان أعزك الله طريق الوداد بيننا عامرا ، وسبيل المحبة(١) غامرا ، لوجب أن نفض ختمه ، ونرفض كتمه ، لاسيما فيما يُدِرُّ أخلاف الفضائل ، ويهز أعطاف الشمائل ، وإنى شخصت إلى حضرة قرطبة ـ حرسها الله تعالى ! ـ منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر ، والجامع ـ قدس الله تعالى بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه ! ـ قد كسى ببردة الأزدهاء ، وجُلى فى معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول فى سنان ، أو أشَر فى أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كِلَل ، أو خلعت على أرجائه حُلَل ، وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهارا قد أحدق به ليل ، كما أحدق بربْوَة سيل ، ليل دامس ، ونهار شامس ، وللذُّبال تألق كنَضْنضة الحيات ، أو إشارة السبابات فى التحيات ، قد أُترعَت من السليط كؤسها ، ووُصِلت بمحاجن الحديد رؤسها ، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عُصبت بها تفاح من الصُّفْر ، كاللِّقاح الصفر(٢) : بولغ فى صقلها وجلائها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها جليت باللهب ، وأشربت ماء الذهب ، إن سَمَتَّها(٣) طولا رأيت منها سبائك عسجد ، أو قلائد زبرجد ، وإن أتيتها(٤) عرضا رأيت منها أفلاكا ولكنها غير دائرة ، ونجوما ولكنها ليست بسائرة ، تتعلق تعلق القرط من الذِّفْرَى(٥) ، وتبسط شعاعها بَسْطَ الأديم حين يُفْرَى ، والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوى فى هداية ضيائها الشقى والسعيد ، وقد قوبل منها مُبْيَضّ بمحمر ، وعورض مخضر بمصفر ، تضحك ببكائها وتبكى بضحكها ، وتهلك بحياتها وتحيى بهلكها ، والطيب تفغم أفواحه ، وتتنسم

(١) فى ا « وسبيل الاتحاد » وفى نسخة عندها « وسبيل الإخلاص »

(٢) أخذه من قوله تعالى : (كأنه جمالات صفر) وعدل عن « جمالات » لترصيع السجع.

(٣) سمتها : قصدتها ، ووقع فى ا « سامتها طولا »

(٤) فى ا « وإن جئتها عرضا »

(٥) الذفرى ـ بكسر الذال وسكون الفاء ـ أصل الأذن

أرواحه ، وقتارُ الألنجوج والند[١]، يسترجع من رَوْح الحياة ماندَّ[٢]، وكلما تصاعد وهو محاصر ، أطال من العمر ما كان تقاصر ، فى صفوف مَجامر ، كـكعوب مُقَامر ، وظهور القباب مؤللة ، و بطونها مهللة ، كأنها تيجان ، رُصِّع فيهـا ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكم تقويس ، ووُشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مُقَرْطق ، و بقوس قُزَحَ مُمنطَق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، و بين رسومه ، نُتَف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظُلَل الغمام ، والناس أخياف[٣]فى دواعيهم ، وأوزاع فى أغراضهم ومراميهم ، بين ركع وسجد ، و إيقاظ وهجد ، ومزدحم على الرقاب يتخطاها، ومقتحم على الظهور يتمطاها ، كأنهم بَرَد خلال قَطْر ، أو حروف فى عرض[٤]سطر ، حتى إذاقرعت أسماعهم رَوْعَة التسليم، تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا بالأثواب ، وتساقَوْا بالأكواب ، كأنهم حُضور طال عليهم غياب ، أو سَفْر أتيح لهم إياب ، وصَفِيُّكَ مع إخوان صِدْق ، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الوَدْق ، فى مكان كوَكْر العصفور ، أستغفر الله أو كـكِنَاس اليَعْفُور ، كأن إقليدسَ قد قسم بيننا مساحته بالموازين ، وارتبطنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين ، حتى صار عقدنا لايُحَلّ ، وحَدُّنا لايُفَل ، بحيث نسمع سور التنزيل كيف تُتْلَى ، ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى ، والقوَمة حوالينا يجهدون فى دفع الضرر ، و يعمدون إلى قرع العمدَ بالدِّرر ، فإذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين ، وسرت نحوهم سُرَى القين، توهموا أنها إلى أعطافهم واصلة ، وفى أقحافهم حاصلة ، ففروا بين الأساطين ، كما تفرُّ من النجوم الشياطين ، كأنما ضربهم أبوجَهْم[٥] بعصاه ،أوحصبهم عمير بن ضابىء[٦]

(١) الند — بفتح النون — البخور ، ومثله الألنجوج .

(٢) ند : فعل ماض ، معناه شرد وذهب وغاب .

(٣) أخياف : يريد أنهم مختلفون ، ومثله أوزاع (٤) فى ا «عروض سطر »

(٥) أبوجهم: عامر—وقيل عبيد —بن حذيفه بن غانم ، من مسلمة الفتح، قرشى ، عدوى .(٦) عمير بن ضابىء : برجمى ، تميمى ، وهوالذى كسر أضلاع عثمان بن عفان يوم الدار ، ووقع فى ب « عين بن صاف » محرفا .

بحصاه ، فأكرم بها مَسَاعٍ تشوق إلى جنة الخلد ، ويهون فى السعى إليها إنفاقَ الطوارف والتُّلْد ، تعظيما لشعائرالله ، وتنبيها لكل ساه ولاه ، حكمة تشهد لله تعالى بالربوبية ، وطاعة تذل لها كل نفس أبِيَّة ، فلم أر أدام الله سبحانه عزك منظرا منها أبهى ، ولا مخبرا أشْهى ، وإذ لم تتأمله عيانا ، فتخيله بيانا ، وإن كان حظ منطقى من الكلام ، حظ السفيح[1] من الأزلام ، لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها ، وذِمَّة[2] تقلدنا حمائلها ، يوجب قبول إتحافى سميناً وغثًّا ، ولبس إطاقى جديداً ورثا ، لازلت لزناد النبل مُورِيًا ، وإلى آماد الفضل مجريا ، والتحية العَبِقَة الريَّا ، المشرقة المحيَّا ، عليك ما طلع قمر ، وأينع ثمر ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

تجديد الحكم المستنصر فى مسجد قرطبة

وذكر ابن بَشْكُوَال أن الحكم المستنصر هَدَم الميضأة القديمة التى كانت بفناء الجامع الذى يستقى لها الماء من بئر السانية ، وبنى موضعها أربع ميضآت فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى والغربى منها ثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء ، أجرى فى جميعها الماء فى قناة اجتلبها من سفح جبل قُرْطُبَة إلى أن صبت ماءها فى أحواض رخام لاينقطع جريانه الليل والنهار ، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية ، أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير ، وألقاه الرخَّامون[3] هنالك ، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم فى المدة الطويلة حتى استوت فى صورها البديعة لأعين الناس ، فخفف ذلك من ثقلها ، وأمكن من إهباطها إلى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع ، وأمد الله تعالى على ذلك بمعونته ، فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة

---

(١) السفيح : أحد سهام الميسر التى لاحظ لها فى الربح ، ووقع فى نسخة عند ا « السنيح » ولعله محرف عن « المنيح » وهو أخو السفيح ، ولهما ثالث اسمه الوغد

(٢) فى ا « وأذمة » جمع ذمام ، وهو العهد (٣) فى ب « الرخاميون » .

كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فَلَكٍ موثقة بالحديد المثقف محفوفة بوثاق الحبال قُرِن لجرّها سبعون دابة من أشد الدواب ، وسهلت قدامها الطرق والمسالك ، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة فى مدة اثنى عشر يوما ، فنصبت فى الأقباء المعقودة لها ، قال : وابتنى المستنصر فى غربى الجامع دارَ الصدقة ، واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية ، وابتنى للفقراء البيوت قُبالَةَ باب المسجد الكبير الغربى ، انتهى .

عمل قرطبة كان حجة في بلادالمغرب

واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب ، حتى إنهم يقولون فى الأحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة ، وفى هذه المسألة نزاع كثير ، ولا بأس أن نذكر مالا بد منه من ذلك ، قال الإمام ابن عرفة رحمه الله تعالى : فى اشتراط الإمام على القاضى الحكم بمذهب معين ـ وإن خالف معتقد المشترط اجتهاداً وتقليدا ـ ثلاثة أقوال : الصحة للباجى ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب مَنْ ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة ، قال المازرى : مع احتمال كون الرجل مجتهدا . الثانى : البطلان ، للطرطوشى ، إذ قال : فى شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم . الثالث : تصح التولية و يبطل[1] الشرط ، تخريجاً على أحد الأقوال فى الشرط الفاسد فى البيع للمازرى عن بعض الناس ، انتهى مختصرا .

قال ابن غازى : إن ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقا ، وابن شاس إنما نسب له التفصيل ، انتهى .

ولما ذكر مولاى الجد الإمام قاضى القضاة بفاس[2] سيدى أبو عبد الله المقرى التلمسانى فى كتابه القواعد شرطَ أهل قرطبة المذكور ، قال بعده مانصه : وعلى هذا الشرط ترتب [إيجاب] عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ، فبينما نحن ننازع الناس فى عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلى وابن مسعود ومن كان معهما :

* ليس التّكحُّلُ فى العينين كالكَحَلِ *

(١) فى ب ونسخة عند ا « ويذهب الشرط »   (٢) فى ب « بالأندلس » محرفا

سنح لنا بغض الجمود ، ومعدن التقليد :

اللهُ أخَّرَ مُـدَّتى فتأخَّرَتْ حتى رأيت من الزمان عجائبا

يالله وللمسلمين ، ذهبت قرطبـة وأهلها ، ولم يبرح من الناس جهلها ، ماذاك إلا لأن الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه ، والباطل لازال يلقنه ويلقيه ، ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك ، وأسماؤها كالعتمة ويثرب ، وكذا التنابز بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحـذر منه ، كيف لم تزُل من أهلها ، وانتقلت إلى غيرهم مع تيسُّر أمرها ، حتى كأنهم لايرفعون بالدين رأساً ، بل يجعـلون العادات القديمة أسا ، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسب وما انخرط فى هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة لانحفظه إلاقولا ، ولا نحمله إلا كَلاًّ ، انتهى .

وقال الحافظ بن غازى ـ بعـد ذكر كلام مولاى الجد ـ مانصه : وحدثنى ثقة ممن لقيت أنه لما قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيى الشريف التلمسانى وتصدى لإقراء التفسير بالبـلد الجديد وأمر السلطان أبو سعيد المَرِينى الحفيد أعيان الفقهاء بحضور مجلسه كان مما ألقاه إليهم مَنْزَع المقَّرِى(١) هذا ، فبالغوا فى إنكاره ، ورأوا أنه لامعدل(٢) عما عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطى من اعتماد عمل أهل قرطبة ومَنْ فى معناهم ، انتهى .

وصف بعض المؤرخين لقرطبة ومسجدها الجامع

وقال بعض المؤرخين ـ حين ذكر قرطبـة ـ ماملخصه : هى قاعدة بلاد الأندلس ، ودار الخلافة الإسلامية ، وهى مدينة عظيمة ، وأهلها أعيان البلاد وسَرَاة الناس ، فى حسن المآكل [والمشارب] والملابس والمراكب ، وعـلو الهمم ، وبها أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وأجلاد الغُزَاة ، وأنجاد الحروب ، وهى فى تقسيمها خمس مدن يتـلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز ،

(١) فى ب «مشرع المقرى»

(٢) فى ب ونسخة عند ا «لامعول عما عول عليه»

وكل مدينة مستقلة بنفسها ، وفيها ما يكفى أهلها من الحمامات والأسواق والصناعات وطول قرطبة ثلاثة أميال فى عرض ميل واحد ، وهى فى سفح جبل مطل عليها ، وفى مدينتها الثالثة وهى الوسطى القنطرة والجامع الذى ليس فى معمور الأرض مثله وطوله مائة ذراع فى عرض ثمانين ، وفيه من السوارى الكبار ألف سارية ، وفيه مائة وثلاثة عشر ثريا للوقود أكبرها تحمل ألف مصباح ، وفيه من النقوش والرقوم مالا يقدر أحد على وصفه ، وبقبلته صناعات تدهش العقول ، وعلى فرجة(١) المحراب سبع قِسِيٍّ قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون فى حسن وضعها ، وفى عِضَادَتى المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران واثنان لازورديان ، ليس لها قيمة لنفاستها ، وبه منبر ليس على معمور الأرض [أنفس منه ولا] مثله فى حسن صنعته ، وخشبه ساج وآبنوس [وبَقَّم] وعُود قاقلى ، ويذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال محمدى ، فكان جملة ماصرف على المنبر لاغير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا ، وفى الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وَقُوده ، وبهذا الجامع مصحف يقال : إنه عثمانى ، وللجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسى مخرمة تخريماً عجيباً بديعاً يعجز البشر ويبهرهم ، وفى كل باب حلقة فى نهاية الصنعة والحكمة ، وبه الصومعة العجيبة التى ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى ، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة مايعجز لواصف عن وصفه ونَعْته ، وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، والجميع خلقة ربانية ، وأما القنطرة التى بقرطبة فهى بديعة الصنعة ، عجيبة المرأى ، فاقت قناطر الدنيا حسناً ، وعدد قِسِيِّها سبعة عشر قوساً ، سعة كل قوس منها خمسون شبرا وبين كل قوسين خمسون شبرا ، وبالجملة فمحاسن قرطبة أعظم من أن نحيط بها وصفاً ، انتهى ملخصاً .

---

(١) فى أصل ا « فرخة المحراب »

وهو و إن تكرر بعضه مع ماقدمته فلا يخلو من فائدة زائدة ، والله الموفق .

وما ذكره فى طول المسجد وعرضه مخالف لما مر ، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك ، كما أشار إليه هو فى أمر الصومعة ، وكذا ماذكره فى عدد السوارى ، إلا أن يقال : ماتقدم باعتبار الصغار والكبار ، وهذا العدد الذى ذكره هنا[١] إنما هو للكبار فقط ، كما صرح به ، والله تعالى أعلم .

وأما الثريات فقد خالف فى عددها ماتقدم ، مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخى الأندلس ، ونحن جَلَبْنَا النقل من مواضعه ، وإن اختلفت طرقه ومضموناته .

وقال فى المغرب ــ عند تعرضه لذكر جامع قرطبة ــ ما نصه : اعتمدت فيما نقلته[٢] فى هذا الفصل على كتاب ابن بَشْكُوال ، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، وأغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره .

الرازى يتحدث عن مسجد قرطبة وأصله والزيادة فيه

عن الرازى أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا مافعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر رضى الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها بسنت بنجنت[٣] ، وابتنوا فى ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، و بقى الشطر الثانى بأيدى النصارى ، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما فى أيديهم ، إلى أن كثروا ، وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنُّونَ بها ، حتى كان الناس ينالون فى الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى مايمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض

(١) فى ا « الذى ذكره هذا » (٢) فى ا « فيما أنقله فى هذا الفصل »
(٣) فى ب « شنت نبجنت » وأثبتنا ما فى أصل ا

ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى إلى الأندلس ، واستولى على إمارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدّنت به ، فنظر فى أمر الجامع ، وذهب إلى توسعته و إتقان بنيانه ،فأحضر أعاظمَ النصارى، وسامَهُم بيعَ ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وَفَاءً بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم[1] التى هُدِمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به ، فتم الأمر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لاحاجة إلى تفسير[2] الزيادة فيه ، و إنما الحاجة فى وصفه بكماله ، وفى بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوى[3] من قصيدة :

وأنفقَ فى دين الإله ووَجْهه ثمانينَ ألفاً من لُجَيْنٍ وعَسْجَدِ
توزَّعَهَا فى مسجد أسُّه التُّقَى ومَنْهَجُه دينُ النبى محمدِ
ترى الذهب النارىّ فَوْقَ سُمُوكه يلوحُ كَبرْق العارض المتوقِّدِ

قال : وكمل سنة سبعين ومائة ، ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضا وماجدَّده فيه ، وأنه بناه من خُمْس فَىْء أرْبُونة ، ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الأوسط لما تزايد الناسُ ، قال : وهلك قبل أن يتم الزخرفة ، فأتمها ولده محمد بن عبد الرحمن ، ثم رمَّ المنذر[4] ابن محمد ماوَهَى منه ، وذكر ما جدده خليفتهم الناصر ونقضه للصومعة الأولى و بنيانه للصومعة العظيمة ، قال : ولما ولى الحكم المستنصر بن الناصر ــ وقد اتسع نطاق قرطبة ، وكثر أهلها ، وتبين الضيق فى جامعها ــ لم يقدّم شيئاً على النظر فى الزيادة ، فبلغ الجَهْد ، وزاد الزيادة العظمى ، قال : وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار فى حدّ يقصر[5] الوصف عنه ، وذكر حضوره لمشاورة العلماء فى

(١) فى ا « كنائسهم » (٢) فى ا « لا حاجة فى تفسير الزيادات فيه »
(٣) فى ا « البلوني » (٤) رم : أصلح ، ووهي : ضعف
(٥) فى ا « يحسر الوصف » ومعناه يعي ويكل .

تحريف القبلة إلى نحو المشرق ، حسبما فعله والدُه الناصر فى قبلة جامع الزهراء ، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة إلى نحو الغرب ، فقال له الفقيه أبو إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت ، متأسِّين(١) بأوّل مَنْ نصبها من التابعين كموسى بن نُصَير وحنش الصنعانى وأمثالهم ، رحمهم الله تعالى ! وإنما فَضَلَ مَنْ فضل بالاُتباع ، وهلك من هلك بالابتداع ، فأخذ الخليفة برأيه ، وقال : نِعْمَ ما قلت ، وإنما مذهبنا(٢) الاتباع .

قال ابن بَشْكُوال : ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة فى هذه الزيادة وما اتصل بها انتهت إلى مائتى ألف دينار وأحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهمين ونصف .

صومعة المسجد (المأذنة)

ثم ذكر الصومعة نقلا عن ابن بَشْكُوال فقال : أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الأولى سنة ٣٤٠ وأقام هذه الصومعة البديعة ، فحفر فى أساسها حتى بلغ الماء مدّة من ثلاثة وأربعين يوماً ، ولما كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء وصَعد فى الصَّوْمعة من أحد دَرَجَيها(٣) ، ونزل من الثانى ، ثم خرج الناصر وصلى ركعتين فى المقصورة ، وانصرف ، قال : وكانت الأولى ذات مَطْلع واحد ، فصير لهذه مطلعين ، فَصَل بينهما البناء ، فلا يلتقى الراقون فيها إلا بأعلاها ، تزيد مراقى كل مطلع منها على مائةٍ سبعاً .

قال : وخبر هذه الصومعة مشهور فى الأرض(٤) ، وليس فى مساجد المسلمين صومعة تعدلها .

قال ابن سعيد : قال ابن بَشْكُوال هذا لأنه لم ير صومعة مراكش ولا صومعة إشبيلية اللتين بناهما المنصور من بنى عبد المؤمن ، فهما أعظم وأطول ،

---

(١) فى ا « مؤتسين » (٢) فى ا « وإنما مذهبي الاتباع »

(٣) فى ا « أحد درجيه » (٤) فى ا « مشهور فى الأندلس »

لأنه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعا وإلى أعلى الرمانة الأخيرة بأعلى الزج ثلاثة وسبعون ذراعا ، وعرضها فى كل تربيع ثمانية عشر ذراعا ، وذلك اثنان وسبعون ذراعا ، قال ابن سعيد : وطول صومعة مراكش مائة وعشرة أذرع ، وذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة القطيعة[1] مُنَجَّدة غاية التنجيد ، وفى أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانات ملصقة فى السفود البارز فى أعلاها من النحاس: الثنتان منها ذهب إبريز، والثالثة منها وسطى بينهما من فضة إكسير ، وفوقها سَوْسَنة من ذهب مسدّسة فوقها رمانة ذهب صغيرة فى طرف الزج البارز بأعلى الجوّ ، وكان تمام هذه الصومعة فى ثلاثة عشر شهراً .

أصل موضع المسجد

وذكر ابن بَشْكُوال فى رواية أن موضع الجامع الأعظم بقُرْطُبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهلُ قرطبة قُمَامتهم وغيرها ، فلما قدم سليمانُ بن داود صلى الله عليهما ودخل قرطبة قال للجن : أَرْدِمُوا هذا الموضع وعدّلوا مكانه ، فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه ، ففعلوا ما أمرهم به ، وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور ، قال : ومن فضائله أن الدارات الماثلة فى تزاويق سمائه مكتوبة كلها بالذكر والدعاء إلى غيره بأحكم صَنْعة ، انتهى .

مصحف عثمان

وذكر مصحف عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه الذى كان فى جامع قرطبة وصار إلى بنى عبد المؤمن فقال : هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، مما خَطَّه بيمينه ، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم ، انتهى . وسنذكر فيه زيادة على هذا .

الزهراء ووصفها ومسجدها

وأما الزهراء فهى مدينة الملك التى اخترعها أميرُ المؤمنين عبدُ الرحمن الناصر لدين الله ، وقد تقدّم ذكره ، وهى من المدن الجليلة العظيمة القدر، قال ابن الفرضى

---

(١) كذا فى ب ووقع فى أصل ا « القطعية » وفى نسخة عندها « القطيعة » ويراد بهما المقطوعة من الجبل .

وغيره : كان يعمل فى جامعها حين شُرع فيـه من حُذّاق الفَعَلة كلَّ يوم ألفُ نسمة منها ثلثمائة بنَّاء ومائتا نجار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه و إتقانه فى مدة من ثمانية وأر بعين يوماً ، وجاء فى غاية الإتقان [من خمسة أبْهَاء عجيبة الصَّنعة ، وطوله من القبلة إلى الجَوْف ـ حاشا المقصورة ـ ثلاثون ذراعا ، وعرض البَهْو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعا ، وعرض كل بَهْو من الأر بعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعا ، وطول صَحْنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاث وأر بعون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب إحدى وأر بعون ذراعا ، وجميعه مفروش بالرخام الخمرى ، وفى وسطه فوّارة يجرى فيها الماء ، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف ـ سوى المحراب ـ سبع وتسعون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعا ، وطول صَوْمعته فى الهواء أر بعون ذراعا ، وعرضها عشرة أذرع فى مثلها .

منبر المسجد

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ مِنْـبَر بديع لهذا المسجد ، فصنع فى نهاية من الحسن ، ووضع فى مكانه منه ، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة ، وكان وضع هذا المنبر فى مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلثمائة .

وصف قناة قرطبة

قال : وفى صدر هذه السـنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى [أجراها و]جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة ، فى المَنَاهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة ، عليها أسَدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشاهد أبْهَى منه فيما صَوَّر الملوك فى غابر الدهر ، مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وَبيص[1] شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجُّه فى تلك البركة مِنْ

(١) الوبيص — بفتح الواو وآخره صاد مهملة — البريق واللمعان ، ووقع فى ا « لهما وميض » بالميم وآخره ضاد معجمة ، وهو بمعنى الوبيص

فِيهِ ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثَجَاجَة صبه ، فتُسقى من مُجَاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجَنَباته ، ويمدّ النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القنَاة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر ، لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسموّ أبراجها التى يترقى الماء منها ويتصوّب من أعاليها ، وكانت مدّة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت - أعنى القناة - إلى هذه البركة أربعة عشر شهراً ، وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاقَ الذى اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة ، وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفْضَلَ فيها على عامة أهل مملكته ، ووصل المهندسين والقُوَّام بالعمل بصلات حسنة [جليلة] جزيلة .

وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلثمائة إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم ، وذلك نحو من أربعين سنة .

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أوّل جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ، وكان الإمامُ القاضىَ أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى عيسى ، ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة ، وأوّل مَنْ خطب به القاضى المذكور ، ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يُبْنَ مثله فى الإسلام البتة ، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد النائية والنِّحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وجهبذ ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم يَرَ له شبها ، بل يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه ، والتحدث عنه ، والأخبار عن هذا تتسع جداً ، والأدلة عليه تكثر ، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرَّدُ المُشْرِف على الروضة المُبَاهى بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستَشْرَف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مَسْنون وذهب

مَصُون[١] وعَمَد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبِرَك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياضٍ وتمـاثيلَ عجيبة الأشخاص لاتهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة كيما يُرِى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعدّه لأهل السعادة فى دار المقامة التى لا يتسلّط عليها الفناء ، ولا تحتاج إلى الرَّم ، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم .

وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيان صاحب الشرطة أن مبانى الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ، ونيِّف على[٢] ثلثمائة سارية هوستَّ عشرةَ ، قال: منها ما جلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه ، والله سبحانه أعلم فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس ، وأجله خطرا ، وأعظمه شأنا ، انتهى .

قلت : فسر بعضهم ذلك النيف فى كلامه بثلاث عشرة ، والله أعلم .

وقال بعض من أرخ الأندلس : كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فَتًى وسبعمائة وخمسين فَتًى ، ودِخَالتهم من اللحم كل يوم ـ حاشا أنواع الطير والحوت ـ ثلاثة عشر ألف رطل ، وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار ، وخدم الخِدْمَة ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة ، انتهى .

وقيل : إن عدد الصبيان[٣] الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون، وجعل بعضٌ مكان الخمسين سبعة وثمانين .

---

(١) فى ا « وذهب موضون »

(٢) فى ا « ونيف هو ثنتا عشرة على ـ إلخ »

(٣) فى ا « عدد الفتيان » .

وقال آخر : ستة آلاف صَقْلبي وسبعة وثمانون ، والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ، و ينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم ، انتهى .

ثم قال الأول : وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى مادون ذلك ، سوى الدجاج والحَجَل وصنوف الطير وضروب الحيتان ، انتهى .

مبدأ الزهراء عمارة ونفقاتها

وقال ابن حيان : ألفيت بخط ابن دحُّون[١] الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبدالرحمن الناصر لدين الله بعمارة[٢] الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وكان مبلغ ماينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت [المنجور] المعدل ستة آلاف صخرة ، سوى الصخر المصرف فى التبليط ، فإنه لم يدخل فى هذا العدد ، وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأر بعمائة بغل ، وقيل أكثر منها : أر بعمائة زوامل الناصر لدين الله ، ومن دواب الأكرية[٣] الراتبة للخدمة ألف بغل ، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر ، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال وكان يرد الزهراء من الجير والجص[٤] فى كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل ، وكان فيها حمامان : واحد للقصر ، وثانٍ للعامة .

وذكر بعض أهل الخِدْمَة فى الزهراء أنه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلثمائة ألف دينار مدة خمسة وعشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها، لأنه توفى سنة خمسين ، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال .

---

(١) فى ب « ابن دجون » وفى نسخة عند ا « دخون » وأثبتنا مافى أصل ا

(٢) فى ا « بنيان الزهراء » وما أثبتناه موافق لما فى ب ونسخة عند ا

(٣) فى أصل ا « الأكرياء » . (٤) فى ا « من الجيار والجص »

قال : وجلب إليها الرخام من قَرْطَاجَنة وإفريقية وتونس ، وكان الذين يجلبونه عبدالله بن يونس عريف البنائين وحسن بن محمدوعلى بن جعفر الإسكندرانى ، وكان الناصر يَصِلُهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير ، انتهى .

وقال بعض ثقات المؤرخين : إنه كان يَصِلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير ، قيل(١) : وكان عددالسوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية ، وسائرها من مقاطع الأندلس طَرَّكونة وغيرها، فالرخام المجزع من رَيَّة ، والأبيض من غيرها، والوردى والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقُسَ ، وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليـه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام ، وقيل : من القسطنطينية مع ربيع الأسقف أيضا ، وقالوا : إنه لاقيمة له لفرط غرابته وجماله ، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل فى البحر(٢)، ونصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد بجانبه (٣) غزَال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحِدَأة ونسر ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها ، وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنُه الحكم ، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره ، وكان يخبز فى أيامه(٤) فى كل يوم برَسْم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة ، وقيل : أكثر ، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه .

(١) فى ا « قال »
(٢) فى ا « إلى البحر »
(٣) فى ا « إلى جانبه »
(٤) فى ا « على أيامه »

وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثا : ثلث للجند، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكُوَر والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص[١] سبعمائة ألف[٢] وخمسة وستين ألف دينار، وأما أخماس الغنيمة فلا يحصيها ديوان .

وقد سبق هذا كله ، وإنما كررته لقول بعضهم إثر حكايته له ، ما صورته : وقيل : إن مبلغ تحصيل النفقة فى بناء الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة ، وقيل : إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديا وسبعة أقفزة[٣] من الدراهم المذكورة ، واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر خمسا وعشرين سنة شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته خلافَةَ ابنه الحكم كلها ، وكانت خمسة عشر عاما وأشهرا ، فسبحان الباقى بعد فناء الخلق ، لا إله إلا هو ، انتهى .

وقال ابن أصبغ[٤] الهمدانى والفتح فى المطمح : كان الناصر كَلِفاً بعمارة الأرض ، وإقامة معالمها ، وانبساط مجاهلها[٥]، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلوّ الهمة ، فأفضى به الإغراق فى ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره ، الذائع خبره ، المنتشر صيته فى الأرض[٦]، واستفرغ جهده[٧] فى تنميقها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ثلاث جمع متواليات ، فأراد القاضى منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير[٨] بالإنابة والرجوع ، فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى : (أتبنون بكل

---

(١) في ب « ومن الستوق والمستخلص » وانظر ص ٦٦ من هذا الجزء
(٢) فى ا « ثمانمائة ألف » (٣) فى ا « وستة أقفزة »
(٤) فى ب ونسخة عند ا « ابن البديع » وفى نسخة « ابن حيان » وفى أخرى « ابن منذر » .
(٥) فى ا « وانبساط مياهها » (٦) فى ا « المنتشر فى الارض أثره »
(٧) فى ا « واستفرغ وسعه » (٨) فى ا « والتذكرة بالإنابة والرجعة »

ريع - إلى قوله تعالى : من الواعظين) ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهى دار القرار ، ومكان الجزاء ، ومضى فى ذم تشييد البنيان ، والاستغراق فى زخرفته ، والإسراف فى الإنفاق عليه ، بكل كلام جَزْل ، وقول فصل ، قال الحاكى : فجرى فيه طلقا ، وانتزع فيه قوله تعالى : (أفمن أَسَّس بنيانه - إلى آخر الآية) وأتى بما يُشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير من فجأته ، والدعاء إلى الزهد فى هذه الدار الفانية ، والحض على اعتزالها ، والرفض لها ، والندب إلى الإعراض عنها ، والإقصار عن طلب اللذات ، ونهى النفس عن اتباع هواها ، فأسهب فى ذلك كله ، وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر مَنْ حضره من الناس وخَشَعوا ورقّوا واعترفوا و بكوا وضجوا ودعوا وأعلنوا التضرع إلى الله تعالى فى التوبة والابتهال فى المغفرة ، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على ما سلف[1] له من فرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، إلا أنه وَجَدَ على منذر لغلظ ما قرّعه[2] به ، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر ، وقال : والله لقد تعمدنى مُنْذر بخطبته ، وما عَنَى بها غيرى ، فأسرف على ، وأفرط فى تقريعى وتفزيعى ، ولم يحسن السياسة فى وعظى ، فزعزع قلبى ، وكاد بعصاه يقرعنى ، واستشاط [غيظا عليه] فأقسم أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرّف صاحب الصلاة بقرطبة ، و يُجَانب الصلاة بالزهراء ، وقال له الحكم : فما الذى يمنعك من عَزْل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته ؟! فزجره وانتهره ، وقال له : أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه لا أم لك يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون ، و إنى لأستحى من الله أن لا أجعل بينى و بينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر فى وَرَعه وصدقه ، ولكنه أحرجنى ، فأقسمت ، ولوددت أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى ، بل يُصَلى بالناس حياتَه وحياتَنَا إن شاء الله تعالى ، فما أظننا نعتاض منه أبدا ،

(١) فى ب ونسخة عند ا « على ماناله من فرطه » (٢) فى ب « تقرعه به »

وقيل : إن الحكم اعتذر عما قال منذر ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إنه رجل صالح ، وما أراد إلا خيرا ، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك ، فأمر حينئذ الناصر بالقصور ففرشت ، وفرش ذلك المجلس بأصناف فرش الديباج ، وأمر بالأطعمة ، وقد أحضر العلماء وغَصّ بهم المجلس ، فدخل منذر فى آخرهم ، فأومأ إليه الناصر أن يقعد بقربه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما يَقْعُد الرجل حيث انتهى به المجلس ، ولا يتخطى الرقاب ، فجلس فى آخر الناس وعليه ثياب رَثَّة ، ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاما من كلام المنذر يأتى قريبا .

استسقاء منذر ابن سعيد فى عهد الناصر على إثر قحط

وقحط الناس آخر مدة الناصر ، فأمر القاضى منذر المذكور بالبروز إلى الاستسقاء بالناس ، فتأهب لذلك ، وصام بين يديه أياما ثلاثا تنفلا و إنابة ورهبة ، واجتمع له الناس فى مصلى الرَّبَضِ بقرطبة بارزين إلى الله تعالى فى جمع عظيم ، وصعد الخليفة الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس ، ويشاركهم فى الخروج إلى الله والضَّرَاعة له ، فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناسُ وغصت بهم ساحة المصلى ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعا مُخْبِتاً متخشعاً ، وقام ليخطب ، فلما رأى بِدَار الناس إلى ارتقائه ، واستكانتهم من خيفة الله ، وإخباتهم له ، وابتهالهم إليه – رقت نفسه ، وغلبته عيناه ، فاستعبر و بكى حيناً ، ثم افتتح خطبته بأن قال : يا أيها الناس ، سلام عليكم ، ثم سكت ووقف شبه الحَصِر ، ولم يك من عادته ، فنظر الناسُ بعضهم إلى بعض لا يدرون ماعراه ولا ما أراد بقوله ، ثم اندفع تالياً قوله تعالى (كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمة ، إلى قوله : رحيم) ثم قال : استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، وتزلَّفُوا بالأعمال الصالحة لديه ، قال الحاكى : فضج الناس بالبكاء ، وجأروا بالدعاء ، ومضى على تمام خطبته ، ففزَّع[1] النفوس بوعظه ، وانبعث الإخلاص بتذكيره ، فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء مُنهمر ، روَّى الثرى ، وطرد المحل ، وسكن الأزْلَ ، والله لطيف بعباده

---

(١) فى ب « فقرع النفوس بوعظه »

وكان لمنذر فى خطب الاستسقاء استفتاح عجيب ، ومنه أنْ قال يوما ـ وقد سرح طرفه فى ملأ الناس عند ماشخصوا إليه بأبصارهم ، فهتف بهم كالمنادى ـ : يا أيها الناس ، وكررها عليهم مشيراً بيـده فى نواحيهم ، أنتم الفقراء إلى الله إلى بعزيز ، فاشتد وَجْدُ الناس ، وانطلقت أعينهم بالبكاء ، ومضى فى خطبته .

وقيل : إن الخليفة الناصر طلبه[١] مرة للاستسقاء ، واشْتَدَّ[٢] عزمه عليه ، فتسابق الناس للمصلى ، فقال للرسول ـ وكان من خواص الناس ـ : ليت شعرى ! ما الذى يصنعه الخليفة سيدنا ؟ فقال له : ما رأينا قط أخشع منـه فى يومنا هذا ، إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه ، لابس أخس الثياب ، مفترش التراب ، وقد رَمَّدَ به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول : هذه ناصيتى بيدك ، أتراك تعذب بى الرعية وأنت أحكم الحاكمين ؟ لن يفوتك شىء منى ، قال الحاكى : فتهلل وجه القاضى منذر عند ماسمع قوله ، وقال : ياغلام ، احمل المطر معك فقد أذن الله تعالى بالسُّقْيَا ، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء ، وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

صفات القاضي منذر بن سعيد وبعض اخباره

وكان منذر شديد الصلابة فى أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، وقوة الحكومة[٣] والقيام بالحق فى جميـــع مايجرى على يده ، لايهاب فى ذلك الأمير الأعظم فمن دونه .

وقال ابن الحسن النُّبَاهى ، وأصله فى المطمح وغيره : ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر فى إنكاره عليه الإسرافَ فى البناء ، أن الناصر كان اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية التى كانت مائلة على الصَّرْح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة أنفق عليها مالا جسيما ، وقَرْمَدَ سقفها به ، وجعل

(١) فى ب ونسخة عند ا « خرج مرة » (٢) فى ب « وأسرع عزمه عليه »
(٣) فى ا « وقوة الحلوة » .

سقفها صفراء فاقعة ، إلى بيضاء ناصعة ، تستلب(١) الأبصار بأشعة نورها ، وجلس فيها إثر تمامها يوما لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومَنْ حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع مايتصل به من البدائع الفتانة : هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قَدَرَ عليه ؟ فقالوا : لا والله ياأمير المؤمنين ، وإنك لأوحد فى شأنك كله ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولا انتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسره ، و بينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلسه قال له كالذى قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه ، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته وقال له : والله ياأمير المؤمنين ماظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ، قال : فانفعل عبد الرحمن لقوله ، وقال له : انظر ماتقول ، وكيف أنزلنى منزلتهم ؟ قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ــ الآية) فوجم الخليفة ، وأطرق مَلِيًّا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى [قال الحاكى :] ثم أقبل على منذر وقال له : جازاك الله ياقاضى عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين أجل جزائه ، وكثر فى الناس أمثالك ! فالذى قلت هو الحق ، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنَقْض سقف القبيبة ، وأعاد قرمدها تراباً على صفة غيرها ، انتهى ماحكاه ابن الحسن النُّباهى .

ولنذكر هذه الحكاية وغيرها ، وإن خالف السياق ماسبق ، وهذا منقول من كلام الحِجَارى فى « المسهب ، فى أخبار المغرب » فإنه أتم فائدة ، إذ قال رحمه الله : دخل منذر بن سعيد يوما على الناصر بانى الزهراء ، وهو مكب على الاشتغال بالبنيان ، فوعظه ، فأنشد عبد الرحمن الناصر :

---

(١) فى أصل ا « تسلب الأبصار »

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها من بعدهم فبألسنِ البنيان
أوماترى الهرمَيْنِ قد بقيا وكم ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدل على عظيم الشان(1)

قال : فماأدرى أهذا شعره أم تمثل به ؟ فإن كان شعره فقدبلغ به [إلى] غاية الإحسان و إن كان تمثل به فقداستحقه بالتمثل(2) به فى هذا المكان ، وكان منذر يكثر تعنيفه على البنيان ، ودخل عليه مرة وهو فى قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضة ، واحتفل فيها احتفالا ظن أن أحداً من الملوك لم يصل إليه ، فقام خطيباً والمجلس قد غَصَّ بأرباب الدولة ، فتلا قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون - الآية) وأتبعها بما يليق بذلك ، فوجم الملك ، وأظهر الكآبة ، ولم يسعه إلا الاحتمال لمنذر بن سعيد لعظم قدره فى علمه ودينه .

وحضر معه يوما فى الزهراء ، فقام الرئيس أبوعثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن مُضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر ، وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة ، ثم قام منشداً :

ياباني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رَوْنقاً لولم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر : إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع ياأبا الحكم لاتذبل إن شاء الله تعالى ، فقال منذر : اللهم اشهد أنى قد بثثت ماعندى ولم آلُ نُصْحاً ، انتهى .

---

(1) فى ا « إن البناء إذا تعاظم قدره » (2) فى ا « بالتمثيل به »

دثور الزهراء

ولقد صدق القاضى منذر رحمه الله تعالى فيما قال ، فإنها ذبلت بعد ذلك فى الفتنة ، وقُلِب ما كان فيها من مِنْحة مِحْنة ، وذلك عندما ولى الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر الملقب بشنجول ، وتصرف فى الدولة مثل ماتصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور ، فأساء التدبير ، ولم يميز بين الفتيل والنقير[1] ، فدس إلى المؤيد هشام بن الحكم مَنْ خَوَّفه منه حتى ولاه عهده كما بينا نص العهد فيما سبق ، فأطبق الخاصة والعامة على بغضه ، و إضمار السوء له ، وذلك سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدى وخلع المؤيد وحبسه ، وأسلمت الجيوش شنجول فأخذ وأسر وقتل .

قال ابن الرقيق : ومن أعجب ما رؤى أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة ، وهدمت الزهراء ، وخلع خليفة وهو المؤيد ، وولى خليفة وهو المهدى ، وزالت دولة بنى عامر العظيمة ، وقتل وزيرهم محمد بن عَسْقَلَاجة[2] ، وأقيمت جيوش من العامة ، ونكب خلق من الوزراء وولى الوزارة آخرون ، وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين ، وهم جند المهدى هذا ، انتهى .

وقد تقدم بعض الكلام على المهدى هذا ، وهو الذى قيل فيه لما قام على الدولة:

قد قام مَهْدِيُّنَا ولكن	بملَّة الفِسْقِ والمُجُونِ
وشارك الناسَ فى حريم	لولاه مازال بالمَصُونِ
مَنْ كان من قبل ذا أجما	فاليَوْمَ قد صار ذا قُرُونِ

محمد بن هشام المهدى

ومن شعر المهدى هذا وقد حَيَّاه فى مجلس شرابه غلامٌ بقضيب آس :

أهْدَيْتَ شِبْهَ قَوَامك المَيَّاسِ	غُصنًا رَطيباً ناعماً من آس
وكأنما يَحْكيك فى حَرَكاته	وكأنما تحكيه فى الأنفاسِ

---

(١) فى ا « ولم يميز بين القبيل والدبير » والنقير : النكتة التى تكون فى ظهر النواة ، والفتيل : مايكون فى شق النواة .

(٢) فى ب « علاجة » محرفا ، وأثبتنا ما فى ا وهو أبو حفص ابن عم المنصور بن أبى عامر ووزيره .

وقد ذكرنا فيما سبق فى الفصل الثالث خبر المهدى هذا وقتله .

ولقد كان قيامه مشئوما على الدين والدنيا ، فإنه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس وماحى معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكثر [١] الرؤساء ، وتطاول العدو إليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً حتى محا اسم الإسلام منها ، أعادها الله تعالى! .

رواية ابن خلدون فى ماشيده الناصر من المبانى

وقد ألم الولى ابن خلدون فى تاريخه بذكر الزهراء فى جملة مبانى الناصر ، فقال مانصه : ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمبانى ، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبدالرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا [٢] فى ذلك و بنوا قصورهم على أكمل الإتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسماه « دار الروضة » وجلب الماء إلى قصورهم [من الجبل] واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ فى بناء المستنزهات [٣] ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور ، وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء ، واتخذها لنُزُله ، وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ماعَفَّى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن ، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس ، انتهى .

وأما الزاهرة فهى من مبانى [٤] المنصور محمد بن أبى عامر .

وصف الزاهرة

قال ابن خلدون [فى] أثناء كلامه على المنصور ماصورته : وابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ، ونقل إليها جزءا من الأموال والأسلحة ، انتهى .

---

(١) في ب « وكسر الرؤساء »
(٢) فى نسخة عند ا « اختلفوا »
(٣) فى ا « بناء المتنزهات »
(٤) فى ا « فهى من بناء المنصور »

المنصور ابن أبى عامر يأمر ببناء الزاهرة

وقال غيره ، وأظنه صاحب المطمح : وفى سنة ثمان وستين وثلثمائة أمر المنصور بن أبى عامر ببناء الزاهرة ، وذلك عند ما [تكامل و] استفحل أمره ، واتقد جَمْرُه(١) ، وظهر استبداده ، وكثر حُسَّاده [وأضداده] وأنداده ، وخاف على نفسه فى الدخول إلى قصر السلطان ، وخشى أن يقع فى أشْطَان ، فتوثق لنفسه ، وكشف له ما ستر عنه فى أمسه ، من الاعتزاز عليه ، ورفع الاستناد إليه ، وسما إلى ما سَمَتْ إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ، ويحله بأهله وذَوِيه ، ويضم إليه رياسته ، ويتم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه ، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة ، الموصوفة بالقصور الباهرة ، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، ونَسَّق فيها كل اقتدار معجز ونظم ، وشرع فى بنائها فى هذه السنة المؤرخة ، وحشد الصناع والفَعَلة ، وجاب إليها الآلات الجليلة ، وسَرْبَلها بهاء يرد الأعين كَليلة ، وتوسع فى اختطاطها ، وتولّع بانتشارها فى البسيطة وانبساطها ، وبالغ فى رفع أسوارها ، وثابر على تَسْوية أنجادها وأغوارها ، فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة ، وصار بناؤها من الأنباء الغريبة(٢) ، و بنى معظمها فى عامين .

انتقال المنصور إلى الزاهرة

وفى سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته ، فتبوّأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل فى داخلها الأهْرَاء(٣) ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقوّاده وحجابه ، فابْتَنَوْا بها كبار الدور ، وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغَلّات المفيدة ، والمنازه المَشِيدة ، وقامت بها الأسواق ، وكَثُرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها ، للدنوّ من صاحب الدولة ، وتناهى الغلوّ فى البناء حَوْله ، حتى اتصلت أرباضُهَا بأرباض قرطبة وكثرت بحَوْزَتها العمارة ، واستقرت فى بحبوحتها الإمارة ، وأفرد الخليفة من كل شىء

(١) يقال : شبت نار فلان ، واتقد جمر فلان ، ونحو ذلك ، كناية عن ظهور أمره ، ورفعة شأنه ، واعتلاء قدره (٢) فى أصل ا « من الأبنية الغريبة »

(٣) الأهراء : جمع هرى ، بضم فكسر فياء مشددة ، وهو بيت تخزن فيه الحبوب

إلا من الاسم الخلافى ، وصير ذلك هو الرسم العافى(١) ، ورتب فيها جلوس وزرائه ، ورؤس أمرائه ، وندب إليها كل ذى خطته ، ونصب ببابها كرسىَّ شُرْطته ، وأجلس عليها والياً على رَسْم كرسى الخليفة ، وفى صفة تلك المرتبة المنيفة ، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعُدْوَة بأن تُحْمَل إلى مدينته تلك أموالُ الجِبَايات ، ويقصدها أصحاب الولايات ، وينتابها طلابُ الحوائج ، وحَذَّر أن يعوج عنها إلى دار الخليفة عائج ، فاقتضيت إليها اللُّبانات والأوطار ، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار ، وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد ، وانتظم بِلَبَّةِ أمانيه المراد ، وعطل قصر الخليفة من جميعه ، وصَيَّره بمَعْزِل من سامعه ومُطيعه ، وسدّ باب قصره عليه ، وجدّ فى خبر ألا يصل إليه ، وجَعَل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ، ويبسط فيه النهى والأمر ، ويُشْرف منه على كل داخل ، ويمنع ما يحذره من الدواخل ، ورتب عليه الحُرَّاس والبوّابين ، والسُّمَّار والمنتابين ، يلازمون حراسة مَنْ فيه ليلا ونهاراً ، ويراقبون حركاتهم سراً وجهاراً ، وقد حَجَر على الخليفة كل تدبير ، ومنعه من تملك قَبيل أو دَبير ، وأقام الخليفة هشام مهجور الفِنَاء ، معجوز(٢) الغَنَاء ، خفى الذكر ، عليل الفكر ، مسدود الباب ، محجوب الشخص عن الأحباب ، لا يراه خاص ولا عام ، ولا يُخَاف منه بأسٌ ولا يرجى منه إنعام ، ولا يعهد منه(٣) إلا الاسم السلطانى فى السِّكة والدعوة ، وقد نسخه ولَبَّس أبهته ، وطمس بَهْجته ، وأغنى الناس عنه ، وأزال أطماعهم منه ، وصيرهم لا يعرفونه ، وأمرهم [أنهم] لا يذكرونه ، واشتدّ ملك محمد بن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسَّع مع الأيام فى تشييد [أ]بنيتها حتى كملت أحسن كمال ، وجاءته فى نهاية الجمال ، تفاوت بناء ، وسَعَة فناء ، واعتدال هواء ، رقّ أديمه ، وصقالة جوّ اعتلّ نسيمه ، ونَضْرة بستان ، وبهجة للنفوس فيها افتتان ، وفيها يقول صاعد اللغوى :

---

(١) الرسم فى الأصل : مابقى من أثر الديار لاصقا بالأرض ، والعافى : اسم الفاعل من « عفا الربع » أى ذهب وامحى ودرس

(٢) فى أصل ا « محجور الغناء » (٣) فى ب « ولا يعهد فيه »

يا أيها الملك المنصورُ من يمن — والمبتنى نسباً غير الذى انتسبا
بغزْوةٍ فى قلوب الشرك رائعة — بين المنايا تناغى السُّمْرَ والقُضُبا
أما ترى العينَ تجرى فوق مَرْمَرِهَا — زَهْواً فتُجرى على أحفافها الطربا (١)
أجريتها فطَمَا الزاهى بجَرْيتها — كما طموْتَ فسُدْتَ العُجْمَ والعربا
تخال فيه جُنودَ الماء رافلة — مُسْتلئمات تُريك الدِّرْعَ واليَلَبا (٢)
تَحُفُّها من فنون الأيك زاهرة — قد أوْرقَتْ فضة إذ أورقت ذهبا (٣)
بديعة الملك ما ينفك ناظرُهَا — يتلو على السمع منها آيةً عجبا
لا يُحْسِنُ الدهرُ أن يُنْشى لها مَثَلا — ولو تعنَّتَ فيها نفْسَه طَلَبا

ودخل عليه ابنُ أبى الحباب فى بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية ، والروضُ قد تفتحت أنواره ، وتوشحت أنجادُه وأغواره ، وتصرَّفَ فيها الدهرُ متواضعاً ، ووقف بها السعد خاضعاً ، فقال :

فى المنية العامرية

لا يَوْمَ كاليوم فى أيَّامِكَ الأوَلِ — بالعامرية ذاتِ الماء والظُّلَلِ
هَوَاؤها فى جميع الدهر مُعْتَدل — طيباً وإن حلَّ فصلٌ غيرُ معتدل
ما إن يُبَالِي الذى يحتلُّ ساحتَهَا — بالسعد أن لا تحلَّ الشمسُ بالحَمَلِ (٤)

ومازالت هذه المنية (٥) رائقة ، والسُّعودُ بلَبَّتها مُتَنَاسقة ، تُراوحها الفتوح وتغاديها، وتُجلب إليها منكسرة أعاديها ، لا تزحف عنها راية إلا إلى فتح ، ولا يصدر عنها تدبير إلا إلى نُجْح ، إلى أن حان يومُهَا العصيب ، وقُيض لها من المكروه أوفرُ نصيب ، ، فتولت فَقيدة ، وخلت من بهجتها كل عقيدة ، انتهى .

وقد حكى الحميدى فى « جذوة المقتبس » هذه الحكاية الواقعة لابن أبى الحباب بزيادة ، فقال ــ بعد أن ذكر هذه المُنْيَة العامرية التى إلى جانب الزهراء ــ : إن

(١) وقع فى ب ونسخة عند ا « هوى فيجرى على أحفافها الطربا »
(٢) اليلب ــ بفتح الياء واللام جميعا ــ وهو الترس
(٣) فى ا « إذ أثمرت ذهبا » (٤) الحمل : منزلة للشمس تحلها أول فصل الربيع
(٥) فى ا « ومازالت هذه المدينة »

أبا المطرف بن أبي الحباب الشاعر دخل إلى المنصور في هذه المنية ، فوقف على رَوْضة فيها ثلاث سَوْسَنات ثنتان منها قد فتحتا(١) وواحدة لم تفتح ، فقال [يصف ذلك] :

لا يَوْمَ كاليوم في أيامنا الأولِ … بالعامرية ذاتِ الماء والظُّلَلِ (٢)

هواؤها في جميع الدهر معتدل … طيباً ، وإن حَلَّ فصْلٌ غيرمعتدل

ما إن يُبَالى الذي يحتل ساحتَهَا … بالسعد ألاّ تحلّ الشمس في الحَمْل (٣)

كأنما غُرِسَتْ في ساعة وبَدَا السوسانُ من حينِه فيها على عَجَلِ

أبدت ثلاثا من السوسان مائلةً … أعناقُهُنّ من الإعياء والكَسَل

فبعضُ نُوّارها للبَعْض مُنْفَتح … والبعضُ منغلق عنهنّ في شُغُلِ

كأنها راحَـــة ضمت أناملهَا … من بعدماملئت من جودك الخَضِل

وأختُهَا بَسَطَتْ منها أناملهَا … تَرْجُو نَدَاكَ كما عوّدتها فَصِلِ

وقد ذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات :

فالعامرية تزهَى … عَلَى جميع المَبَانِي

وأنت فيها كسَيْفٍ … قد حل في غمْدَانِ (٤)

فقام صاعد ، وكان مناقضاً له ، فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ! ومكن سلطانه ! هذا الشعر الذي [قاله] قد أعدّه وتروّى فيه أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا ، فقال له المنصور : قل ليظهر صدُق دعواك ، فجعل يقول من غير فكرة كثيرة(٥) :

يا أيها الحاجِبُ المُعْـتَلِى … عَلَى كِيوَانِ

ومَنْ به قـد تناهى … فخارُ كل يَمَانِ

العامرية أضحتْ … كجنّة الرضوان

---

(١) في ا « ثنتان قد تفتحتا » (٢) في أصل ا هنا « ذات الماء والقلل »

(٣) في ا « بالحمل » كما سبق ص ١١٥ (٤) أراد بسيف سيف بن ذى يزن الحميرى ، وغمدان — بضم فسكون — قصر يقول فيه الشاعر يمدح ذايزن :

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا … في رأس غمدان دارا منك محلالا

(٥) في ا « فكرة طويلة »

فريدة لفريدٍ ما بين أهل الزمان

ثم مر فى الشعر إلى أن قال فى وصفها :

أُنظر إلى النهر فيها يَنْسَابُ كالثُّعْبَانِ
والطير يخطب شكرا على ذُرَا الأغصان
والقُضْبُ تلتفُّ سكراً بمُيَّسِ القضْبان
والروض يفترُّ زَهْوًا عن مَبْسِمِ الأقحوان
والنرجسُ الغض يَرْنُو بوَجْنة النُّعْمَان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الريحان(١)
فَدُمْ مَدَى الدهر فيها فى غِبْطَةٍ وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : مالك فائدة فى مناقضة مَنْ هذا ارتجالُه ، فكيف تكون رَوِيته ؟ فقال ابن العريف : إنما أنطقه وقَرَّبَ عليه المأخذَ إحسانُك ، فقال له صاعد : فيخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك و بعدت عليك المأخذ ، فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما .

المنى ببلاد الاندلس

قلت : وقد ذكر مؤرخو الأندلس مُنًى كثيرة بها : منها منية الناعورة السابقة ، ومنية العامرية هذه ، ومنية السرور ، ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة .

قال أبو الحسن بن سعيد : أخبرنى أبى عن أبيه قال : خرج معى إلى هذه المنية فى زمان فتح نوّار اللوز أبو بكر بن بَقيٍّ الشاعرُ المشهور ، فجلسنا تحت سطر لوز قد نوّر ، فقال ابن بَقيٍّ :

سَطْرٌ من اللوز فى البُسْتَان قابَلَنى ما زاد شىء على شىء ولا نقَصَا
كأنما كلّ غُصْنٍ كُمُّ جارية إذا النّسيمُ ثَنَى أعطافَهُ رقَصَا

ثم قال :

---

(١) فى أصل ا « تمتاز نفحة الريحان » وتقول « فلان يمتار لأولاده » أى يجلب لهم الميرة ، وهى الطعام

عجبتُ لمن أبقى على خمرِ دَنِّه　　غَدَاة رأى لَوْزَ الحديقة نَوَّرَا

عناية المنصور بدوابه ومبانيه

وذكر بعض مؤرخى الأندلس أن المنصور بن أبى عامر كان يزرع كل سنة ألف مدى من الشعير قصيلا لدوابه الخاصة به ، وأنه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لايحلّ عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش ، وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره ، قال : وكان له دخالة كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم ، حاشا الصيد والطير والحيتان ، وكان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف تُرْس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء ، قال : وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينـــة الزاهرة ذات القصور والمنتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة ، انتهى .

بين ابن شهيد والمنصور

ومن المطمح : أن المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها الإيغال وغال فيها من عظماء الروم مَنْ غال ، وحل من أرضهم ما لم يُطْرق ، وراع منهم ما لم يُرَعْ قط ولم يَفْرَقْ ، وصدر صدراً سَمَابه على كل حسناء عَقِيلة ، وجلابه كل صفحة للحسن صَقيلة ، ودخل قرطبة دخولا لم يُعْهَد ، وشهد له فيها يوم مثله لم يُشْهَد ، وكان ابن شُهَيد متخلفا عن هذه الغزوة لِنقْرس عداهُ عائده ، وحداهُ منتجعُه ورائده ، وابن شُهَيْد هذا أحد حجاب الناصر ، وله على ابن أبى عامر أيادٍ محكمة الأواصر ، وهو الذى نَهَضَ به أولَ انبعاثه ، وشَفَى أمره زمن التياثه ، وخاصم المصحفى عنه بلسان من الحماية ألَدَّ ، وتوخّاهُ بإحسان قلده من الرعاية ماقلد ، وأسْمى رتبته ، وحَلَّى بإعظام جاهه[١] لَبَّته ، وكان كثيرا ما يُتْحِفه ، ويَصِله ويُلْطفه ، فلما صــدر المنصور من غزوته هذه وقَفَل ، نسى مُتاحفته وغفل[٢] ، فكتب إليه ابن شُهَيْد :

أنا شيخ والشيخ يَهْوَى الصَّبَايا　　[يا] بنفسى أقيكَ كل الرَّزَايَا

ورســولُ الإلهِ أسْهَمَ فى الفىءِ لمنْ لم يُخِبَّ فيــه المطايا

---

(١) فى أصل ا « وحلى بأعظم جاه جيده ولبته »

(٢) فى أصل ا « فلما صدر المنصور من غزوته هذه وقد نسى متاحفته أوغفل »

فاجْعَلنى فديت أشكر معرو فكَ وابْعَثْ بها عِذابَ الثّنايا

فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار ، كأنهن نجومُ سَوَار ، وكتب إليه :

قد بعثْنا بها كشمس النهار فى ثلاث من المَها أبكارِ
فاتئِدْ واجْتَهِدْ فإنك شيخ سَلَخ الليلَ عن بَياض النهارِ
صانكَ الله عن كلالكَ فيها فمِن العار كلة المِسْمَارِ

فكتب إليه ابن شهيد :

قد فَضَضنا خِتامَ ذاك السِّوارِ واصْطَبَغنا من النَّجيع الجارى
ونَعِمنا فى ظل أنْعَمِ ليلٍ ولَهَوْنا بالبدْرِ ثم الدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مَضَاء عَضْب الظُّبا بتَّارِ
فاصطنعه فليس يَجزيك كُفْراً واتخِذْهُ سيفاً على الكفار

وقد قدمنا هذه الحكاية فى أخبار المنصور من الباب الثالث ، ولكنا أعدناها هنا بلفظ المطمح لما فيه من العذوبة والفائدة الزائدة .

أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى

وممن كان فى أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبدُ الملك بن إدريس الخَوْلانى ، قال فى المطمح : عَلَم من الأعلام فريد[1] الزمان ، وعَيْن من أعيان البيَان ، باهر الفصاحة ، طاهرُ الجناب والساحة ، تولى التحبيرَ أيام المنصور والإنشاء ، وأشعر بدولته الأفراح والانتشاء ، ولبس العزة مدتَها[2] ضافية البُرود ، ووردها النعمة صافية الورود ، وامتطى من جياد التوجيه ، وأعْنَقَ من لاحق والوجيه[3] ، وتمادى طَلْقه ، ولا أحد يلحقه ، إلى أيام المظفر فمشى على سَنَنه ، وتمادى السعدُ يترنم على فنَنه[4] ، إلى أن قتل المظفر صهره عيسى بن القطاع ، صاحب دولته وأميرها المُطاع ، وكان أبو مروان قديم الاصطناع له والانقطاع ،

(١) فى ا « علم من أعلام الزمان » (٢) فى ب ونسخة عند ا « مدة ضافية البرود »
(٣) لاحق ، والوجيه : اسما فرسين من جياد الخيل
(٤) الفنن : الغصن

فاتهم معه ، وكاد أن يذوق حمامه ومَصْرَعه[١] ، إلا أن إحسانه شَفَع ، و بيانه نفع ودفع[٢] ، فحطّ عن تلك الرتب ، وحمل إلى طُرُطُوشة على القَتَب ، فبقى هنالك معتقلا فى برج من أبراجها نائى المنتهى ، كأنما[٣] يناجى السها ، قد بعد ساكنه عن الأنيس ، وقعد من النجم بمنزلة الجليس ، تمر الطيور دونه ولا تجُوزُهُ ، و يرى منه الثرى ولا يكاد يَحُوزه ، فبقى فيه دهراً لا يرتقى إليه راق ، ولا يرجى لَبثّه راق ، إلى أن أخرج منه إلى ثراه ، واستراح مما عَرَاه ، فمن بديع نظمه قوله يصف المعتقل[٤] ، الذى فيه اعتقل :

يأوِى إليه كل أعْوَرَ ناعق   وتهُبُّ فيه كل ريح صَرْصَرِ

ويكادُ من يَرْقَى إليه مَرّة   من عمره يشكو انقطاع الأبْهَرِ

ودخل ليلة على المنصور والمنصورُ قد اتكأ وارتفق ، وتحلى بمجلسه ذلك الأفق ، والدُّنيا بمجلسه[٥] ذلك مَسُوقة ، وأحاديث الأمانى به مَنْسُوقة ، فأمره بالنزول [عنده] فنزل فى جملة الأصحاب ، والقمر يظهر و يحتجب فى السحاب ، والأفق يبدو به أغر ثم يعود مبهما ، والليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهما ، وأبو مروان قد انتَشَى ، وجال فى ميدان الأنس ومشى ، و بُرْدُ خاطره قد دبجه السرور ووشى ، فأقلقه ذلك المغيب والالتياح ، وأنطقه ذلك السرور والارتياح ، فقال :

أرى بدر السماء يلوح حيناً   فيبدو ثم يلتحف السحابا

وذلك أنه لما تبـدّى   وأبصَرَ وَجْهَك اسْتَحْيَا فغابا

مقال لو نمى عنـدى إليه   لراجعنى بذا حقا جـوابا

وله فى مدة اعتقاله ، وتردده فى قِيلِه وقاله[٦] :

شَحَط المزار فلا مزار ، ونافرت   عينى الهجوع فلا خيالٌ يَعْـتَرِى

أزرى بصبرى وهو مشدود القُوَى   والآن عودى وهو صُلْبُ المكسِرِ[٧]

---

(١) فى أصل ا « أن يذوق الحمام ومصرعه » وفى نسخة عنـدها « أن يذوق الحمام ويصرعه » (٢) فى أصل ا « وبيانه منع ودفع » (٣) فى ب ونسخة عند ا « كالما يناجى السها » (٤) فى ا « ويصف المعقل » (٥) فى ا « فكم أمانيا بمجلسه ذلك » (٦) فى نسخة عند ا « وتردده فى قيده وعقاله » (٧) فى ب ونسخة عند ا « مشدود العرا »

وطَوَى سرورى كله وتلذذى بالعيش طىَّ صحيفة لم تُنشرِ
ها إنما ألقى الحبيبَ توهُّماً بضمير تذكارى وعين تذكرى
عجباً لقلبى يوم راعتنى النوى ودنا وَدَاعٌ كيف لم يتفطّرِ (١)

عود إلى أخبار المنصور بن أبى عامر

رجع إلى المنصور : وكان المنصور إذا أراد أمرا مهما شاور أرباب الدولة [و]الأكابر من خدام الدولة الأموية ، فيشيرون عليه بالوجه الذى عرفوه وجرت الدولة الأموية عليه ، فيخالفهم إلى المنهج الذى ابتدعه ، فيقضون فى أنفسهم بالهلاك فى الطريق الذى سلكه ، والمهيع الذى اخترعه ، فتُسْفر العاقبة عن السلامة التامة التى اقتضاها سَعْدُه ، فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها .

وقيل له مرة : إن فلاناً مشؤم فلا تستخدمه ، فقال : أف لسعد لا يغطى على شؤمه ، فاستخدمه ، ولم ينله من شؤمه الذى جرت به العادة شىء .

وحكى عنه أنه كان فى قصره بالزاهرة (٢) ، فتأمل محاسنه ، ونظر إلى مياهه المطردة ، وأنصت لأطياره المغردة ، وملأ عينه من الذى حواه من حسن وجمال ، والتفت فى الزاهرة من اليمين إلى الشمال ، فانحدرت دموعه ، وتجهم وقال : ويها (٣) لك يازاهرة ، فليت شعرى مَنِ الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب ؟ فقال له بعض خاصته : ماهذا الكلام الذى ما سمعناه من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الردىء الذى لايليق بمثله شغل البال به ؟ فقال : والله لترون ماقلت ، وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت ، و برسومها قد غيرت ، و بمبانيها قد هدمت ونُحِّيت ، و بخزائنها قد نهبت ، و بساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت ، قال الحاكى : فلم يكن إلا أن توفى المنصور وتولى المظفر ولم تطل مدته ، فقام بالأمر (٤) أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، فقام عليه المهدى والعامة ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة ، وانقرضت دولة آل عامر ، ولم يبق منهم آمر :

---

(١) فى ا « ودنا وداعى » (٢) فى ب « قصره الذى بالزاهرة »
(٣) فى ب « ويل لك يازاهرة » (٤) فى ب « فقام بالإمرة »

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفَا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامرُ
بلَى نحن كنا أهلَها فأبادَنا صروف الليالى والجدودُ العواثِرُ

وخربت الزاهرة ، ومضت كأمس الدابر (١) ، وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر (٢) ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر ، والسلاح ، وتلاشى أمرها فلم يُرْجَ لفسادها صلاح ، وصارت قاعا صَفْصَفاً (٣) ، و[أ] بدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا .

دثور الزاهرة

ويروى أن بعض أولياء ذلك الزمان مر بها ، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة ، ومبانيها العالية الرائقة ، فقال : يادار فيك من كل دار ، فجعل الله منك فى كل دار .

قال الحاكى : فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلا أيام يسيرة حتى نُهبت ذخائرها ، وعُمَّ بالخراب سائرها ، فلم تبق دار فى الأندلس إلا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذى همتُه مع ربه جليلة .

ولقد حكى أن بعض مانهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية ، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضى ملكه ! لا إله إلا هو .

وتذكرت هنا ماراَه فى المنام بعضُ أهل المغرب بالليلة التى انقرض فيها ملك الموحِّدين أن شخصاً ينشده :

ملكُ بنى مؤمن تولَّى وكان فوق السِّماك سَمْكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا : سبحان من لا يبيد ملكه
لا إله إلا هو .

بعض خبر المهدى الثائر على العامريين

وكان المهدى القائم على العامريين ماجناً فاتكا ، وقال ـ وقد حيَّاه فى مجلس شرابه غلام بقضيب آس ـ :

---

(١) فى ا « وذهبت كأمس الدابر » (٢) فى ا « والمنابر » وهى أوفق بالسجع

(٣) أخذها من قوله تعالى : (فيذرها قاعا صفصفا) والقاع : الأرض السهلة المطمئنة ، والصفصف : المستوى الذى لانبات فيه

أهديت شِبْهَ قوامك المياس | غصناً رطيباً ناعماً من آس
وكأنما يحكيك فى حركاته | وكأنما تحكيه فى الأنفاس

وكان المنصور بن أبى عامر حين تغلب على ملك الأمويين غير مكترث بمثل المهدى المذكور ، فسلطه الله تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه ، وأخر كل ما قدمه، ولم ينفع فى ذلك احتياط ولا حزم ، ولا راد للقضاء المبرم الجزم .

والله يحكم ما يشاء | فلا تكن متعرضا

وقد قدمنا شيئاً من أخبار المنصور ، ولا بأس أن نُلِمَّ هنا ببعضها و إن حصل منه نوع تكرار فى نبذة منها لارتباط الكلام بعضه ببعض .

حجر المنصور على المؤيد الأموى

قال بعض المحققين من المؤرخين : حجر المنصور بن أبى عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعدَ سنين وجعل عليه برنساً ، وعلى جواريه مثل ذلك ، فلا يعرف منهن ، ويأمر من ينحِّى الناس من طريقه ، حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه ، ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة فى بعض الأيام لغرضٍ له ، كما ألمعنا به فيما سبق ، وكان المنصور إذا سافر وكَّلَ بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بنى أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفا أن يثوروا به ، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ، ثم فرق باقيهم فى البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطِّراف والتِّلاد ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة :

أبنى أمية أين أقمار الدجى | منكم ؟ وأين نجومها والكوكب ؟
غابت أسود منكمُ عن غابها | فلذاك حاز الملك هذا الثعلبُ

مع أن للمنصور مفاخر ، بَذَّ بها[1] الأوائل والأواخر ، من المثابرة على جهاد العدو ،

(١) بذ بها : تفوق وغلب ، ووقع فى ب «لذ بها» وفى ا «بديها» وكلاهما تحريف

وتكرار الذهاب بنفسه فى الرواح والغدوّ ، وله مع المصحفى وغيره أخبار مرت ويأتى بعضها ، ولا بأس أن نلخص ترجمة المصحفى فنقول :

ترجمة الحاجب جعفر المصحفى

قال الفتح فى المطمح : الحاجب جعفر المصحفى ـ تجرّد للعَلْيا ، وتمرد فى طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ، وتسوّغ ذلك الجَنَى ، فسما دون سابقة ، وارتمى إلى رتبة لم تكن لبِنْيَتِه[1] بمُطَابقة ، والْتاح فى أفياء[2] الخلافة ، وارتاح إليها بعطفه[3] كنَشْوان السُّلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه كان يَسْمع وبه [كان] يبصر ، فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحبائلَ والشّرَك ، واقتنى وادخر ، وأزْرَى[4] بمن سواه وسَخر ، واستعطفه المنصور [محمد] بن أبى عامر ونجمُه [بعد] غائر لم يَلُحْ ، وسره مكتوم لم يبح ، فما عَطَف ، ولا جَنَى من روضة دنياه ولا قطف ، فأقام فى تدبير الأندلس ما أقام والأندلس متغيرة ، والأذهان فى تكييف سعده متحيرة ، فناهيك من ذكر خلد ، ومن فخر تقلد ، ومن صَعْب راض ، وجَنَاح فتنة هَاضَ ، ولم يزل بنِجَاد تلك الخلافة معتقلا ، وفى مطالعها مُنْتقلا ، إلى أن توفى الحكم ، فانتقض عقده المُحْكَم ، وانبرت إليه النوائب ، وتسدّدت إليه [من الخطوب] سهامٌ صوائب ، واتّصل إلى المنصور ذلك الأمر ، واختص به كمال بيزيد أخوه الغَمْرُ ، وأناف فى تلك الخلافة كماشَبّ قبل اليوم عن طوقه عمرو ، وانتدب للمصحفى بصدر [قد] كان أوغرَه ، وساءه وصَغَّره ، فاقتصّ من تلك الإساءة ، وأغصّ حلقه بأى مَسَاءة[5] ، فأخمله ونكبه ، وأرجله عما كان الدهر أركبه ، وألهب جوارحه[6] حَزَنًا ، ونهب له مدّخرا ومُخْتَزنا ، ودمّر عليه ما كان حاط ، وأحاط به من مكروهه ما أحاط ، وغبَرَ سنين فى مهوى تلك النكبة ، وجَوَى تلك الكربة ، ينقله المنصور معه فى غزواته ،

---

(١) كذا فى أصل ا ، وفى نسخ عندها «لبيته» و «لنفسه» و «لهيئته» و «لبنيه»

(٢) فى ا «أفق الخلافة» (٣) فى ا «إليه معطفه» (٤) فى ب «وزرى»

(٥) فى ب ونسخة عند ا «إشاءة» (٦) فى ا «جوانحه»

ويعتقله بين ضيق المُطْبِق ولَهَواته ، إلى أن تكوّرت شمسه ، وفاظت بين أثناء المحن نفسُه ، ومن بديع ما حُفظ له [فى] نكبته ، قوله يستريح من كربته :

صَبَرْتُ على الأيام لما تولّتِ وألزَمْتُ نفسى صَبْرَهَا فاستمرتِ

وَمَا النفسُ إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت وإلاّ تَسَلّتِ(١)

فوا عَجَباً للقلب كيف اعْتِرَافه وللنفس بعد العِزِّ كيف اسْتَذَلَّتِ

وكانت على الأيام نفسى عزيزةً فلما رأت صبرى على الذل ذلت

فقلت لها يا نفس مُوتِى كريمةً فقد كانتِ الدنيا لنا ثم وَلَّتِ

وكان له أدب بارع ، وخاطر إلى نظم القريض يُسَارع(٢) ، فمن محاسن [نظامه و] إنشاده ، التى بعثها إيناسُ دهره بإسعاده ، قولُه :

لعينيك فى قلبى عَلَيَّ عيونُ وَبَيْنَ ضلوعى للشجون فُنُونُ

لئن كان جسمى مخلقاً فى يَدِ الهوى فحبّك عندى فى الفؤاد مَصُونُ

وله وقد أصبح عاكفاً على حُمَيَّاه ، هاتفاً بإجابة دنياه ، مرتشفاً ثغر الأنس متنسما رَيَّاه ، والملك يغازله بطَرْف كَلِيل(٣) ، والسعدُ قد عُقِد عليه منه إكليل ، يصف لون مُدَامِهِ ، وما تعرّف له منها دون ندامِهِ :

صَفْرَاء تَطْرُقُ فى الزجاج فإن سَرَتْ فى الجسم دَبَّتْ مثل صِلٍّ لادغ(٤)

خَفِيَتْ على شُرَّابها فكأنما يَجِدُونَ رِيًّا من إناء فارغ

ومن شعره الذى قاله فى السَّفَرْجَل مشبهاً ، وغدا به لنائم البديع مُنَبهاً ، قوله يصف سفرجلة ، و يقال إنه ارتجله :

ومُصْفَرَة تختالُ فى ثوب نَرْجِس وتَعْبَقُ عن مِسْكٍ ذَكى التَّنَفُّس

لها ريحُ محبوبٍ وقَسْوَة قلبهِ ولَوْنُ محبٍّ حُلَّةَ السُّقْم مُكْتَسِى

---

(١) وقع هذا البيت فى ا متأخرا عن الذى يليه هنا ، وكذلك فى المطمح

(٢) فى ا « مسارع » (٣) في ا « بطرف كحيل » والكليل : المعي المتعب

(٤) فى نسخة عند ا « تشرق فى الزجاج »

فصُفْرَتها من صفرتى مُسْتعارة — وأنفاسُهَا فى الطِّيب أنفاس مُؤْنِسى
وكان لها ثوبٌ من الزغبِ أغْبَر — على جِسْمٍ مصفرٍّ من التبر أمْلَس
فلما استتمَّتْ فى القضيبِ شَبَابَهَا — وحاكت لها الأوراق أثواب سُنْدُسِ
مَدَدْتُ يدِى باللطفِ أبغى اجْتِنَاءَهَا — لأجعلهَا رَيْحَانتى وَسْطَ مجلسى
فَبَزَّتْ يدِى غَصْباً لها ثوبَ جسمها — وأعْرَيْتُهَا باللطف من كل مَلْبَسِ
ولما تعرَّتْ فى يدى من بُرُودِهَا — ولم تَبْقَ إلا فى غِلاَلة نَرْجِسِ
ذكرتُ لها مَنْ لا أبوح بذكره — فأذبلَهَا فى الكف حَرُّ التنفس

وله وقد أعاده المنصور إلى المُطْبِق ، والشجون تُسْرِع إليه وتَسْبِق ، معزيا لنفسه ، ومجتزياً بإسعاد أمسه :

أجازى الزمانَ على حاله — مُجَازاة نَفْسى لأنفاسِهَا
إذا نَفَسٌ صاعدٌ شفَّهَا — توارَتْ به دون جُلَّاسِهَا
وإن عكفَتْ نَكْبة للزمان — عَكَفْتُ بنفسى عَلَى رَاسِهَا(١)

ومما حفظ له فى استعطافه ، واستنزاله للمنصور واستلطافه ، قولُه :

عَفَا الله عنكَ ، ألا رحمة — تجودُ بعفوك أن أبْعَدَا
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أعْتَمِدْهُ — فأنت أجلُّ وأعْلَى يدَا
ألم تر عبداً عدا طوْرَهُ — ومَوْلًى عَفَا ورشيداً هَدَى
ومفسدَ أمرٍ تلافَيْتَهُ — فعاد فأصْلَحَ ما أفْسَدَا
أقِلْنِى أقالك مَنْ لم يزل — يَقِيكَ ويَصْرِف عنك الرَّدَى

عود إلى أخبار المنصور

عود وانعطاف إلى أخبار المنصور بن أبى عامر رحمه الله تعالى ! وجازاه عن جهاده أفضل الجزاء بمنه وكرمه وفضله وطَوْله ! فنقول :

وكان له فى كل غَزْوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر

(١) فى ب « عطفت بنفسى على رأسها » وفى نسخة عند ا « عطفت بصلدى » ولعله محرف عن « عطفت بصدرى » أو « عكفت بصدرى »

الإسلامية ، فمنها أن بعض الأجناد نسى رايته مَرْكوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم ، فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر ، وهذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل التوحيد على [أهل] التثليث ، لأنهم لما أشرب قلوبُهُم خوفَ شِرْذِمة المنصور وحِزْبه، وعلم كلٌّ من ملوكهم أنه لا طاقة له بِحَرْبه لَجئُوا إلى الفِرَار والتحصن بالمعاقل والقلاع ، ولم يحصل منهم غير الإشراف من بعدٍ والاطلاع .

ومن مفاخر المنصور فى بعض غزواته أنه مر بين جَبَلين عظيمين فى طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج ، فلما جاوز ذلك المحل - وهو آخذ فى التحريق والتخريب والغارات والسبى يميناً وشمالا - لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه ، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا مَنْ وراءهم(١) ، وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذى بين جبلين ، وكان الوقت شتاء ، فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر ، وتقدم ببناء الدور والمنازل ، و بجَمْع آلات الحرث ونحوها ، و بث سَرَاياه فسَبَتْ وغنمت ، فاسترق الصِّغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جُثَثهم حتى سَدَّ بها المدخل الذى من جهته ، وصارت سَرَاياه تخرج فلا تجد إلا بلدا خراباً ، فلما طال البلاَء على العدو أرسلوا إليه فى طلب الصلح ، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسْرَاه ، فأجابهم : إن أصحابى أبوا أن يخرجوا ، وقالوا : إنا لا نكاد نصل [إلى] بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة ، فإذا غزونا عُدْنا ، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبى ، وأن يُمِدّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده ، وأن يُنَحُّوا جِيفَ القتلى عن طريقه(٢) بأنفسهم ،

---

(١) فى أصل ا « من وراءه »

(٢) فى ا « من طريقه » وينحوا : يبعدوا ويجعلوها فى ناحية ليسهل عليه السير

ففعلوا ذلك كله ، وانصرف .

ولعَمْرى إن هـذا لعز ما وراءه مطمح ، ونصر لا يكاد الزمان يَجُود بمثله ويَسْمح ، خصوصاً إزالتهم جِيفَ قتـلاهم من الطريق ، وغصصهم[١] فى شرب ذلك بالريق .

ومن مآثره التى [هى] فى جبين عَصْره غـرة ، ولعين دهره قُرَّة ، أنه لما ختَن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبى ، ومن أولاد الضعفاء عدد لا يحصر[٢] ، فبلغت النفقة عليهم فى هذا الإعذار، خمسمائة ألف دينار ، وهذه مكرمة مُخَلَّدة ، ومنة مُقَلدة ، فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء ! ويجعل للمسلمين فى فقد مثله أحسن العزاء !.

ومن مناقبه التى لم تتفق لغيره من الملوك فى غالب الظن[٣] ، أن أكثر جنده من سَبْيِهِ على ما حققه بعضُ المؤرخين ، وذلك غاية المنح من الله والمنّ .

ومن أخباره الدالة على إقبال أمره وخيبة عدوّه وإدباره ، أنه ما عاد قط من غَزْوة إلا استعدّ لأخرى ، ولم تُهْزَم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة[٤] وكفاه ذلك فَخْراً .

ومنها أنه لقيته — وقد عاد من بعض غزواته — امرأة نَغَّصَتْ عليه[٥] بلوغ مُنَاه وشهواته ، وقالت له : يا منصور ، استمع ندائى ، فأنت فى طيب عيشك وأنا فى بكائى ، فسألها عن مصيبتها التى [عَمَّتها و] غَمَّتها ، فذكرت له أن لها ابنا أسيراً فى بلادٍ سَمَّتْهَا ، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده ، ولا يخبو ضِرام قلقها من وَقْده ، وأنشد لسان حالها

يا ذَلِكَ الْمَلِكِ الْعَلِيّ وَيْحَ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيّ

فرحَّب المنصور بها ، وأظهر الرقة بسببها ، وخرج من القابلة إلى تلك المدينة التى

(١) فى ا «وغصهم» بصاد واحدة مشددة (٢) فى ا « لا ينحصر »

(٣) فى أصل ا « فى غابر الزمان »

(٤) شاتية : أى فى زمن الشتاء ، وصائفة : أى فى زمن الصيف

(٥) فى ا « نقمت عليه »

فيها ابنها وجاسَ أقطارَهاَ وتخللها ، حتى دَوَّخها إذ أناخ عليها بكلكله[١] وذلّلها، وأعراها من حُماتها و بينود الإسلام المنصورة ظَلّلها ، وخَلّص جميعَ من فيها من الأسرى ، وجلبت عَواملُه إلى قلوب الكفرة كَسْرا ، وانقلبت عيون الأعداء حَسْرَى ، وتلا لسانُ حال المرأة : (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) .

فهكذا تكون الهمة السلطانية ، والنخوة الإيمانية ، فالله سبحانه يروّح تلك الأرواح فى الجنان ، و يرقى درجاتها و يعاملها بمَحْض الفضل والامتنان .

وقد تذكرت هنا والحديث شجون[٢] ، و بذكر[٣] المناسبات يَبْلُغ الطلابُ ما يَرْجُون ، كتابا كتبه الأديب الكاتبُ أبو محمد ابن الإمام الحافظ محدث الأندلس أبى عمر بن عبد البر النُّمَيْرى ، إلى المنصور بن أبى عامر ، وهو من ذرية المنصور الكبير الذى كنا نتحدث فى أخباره ، يمت إليه بسلفه ومعاملتهم لمن تقدم من آبائه بتعظيم قدره و إكباره ، وهو : عَمَّر الله ببقاء سيدى ذى السابقتين بهجَةَ أوطانه ، ومَلّكه عنان زمانه ، ومَدَّ عليه ظلال أمانه ، إنى أبقى الله الملك الكريم ، والسيد الزعيم ، لما أضاءت لى أهِلّة مفاخركم فى سماء الفخار ، وأشرقت شموس مكارمكم على مفارق الأحرار ، وأبصرت شمائلك الزهْرَ تهدى إليك من الهمم محامدها[٤] ، ومحاسنك الغر توقظ لك من الآمال رَوَاقدها ، أيقنت أنه بحقّ انقادت لك القلوبُ بأعِنّتها[٥] ، وتهادت إليك النفوسُ بأزمّتها ، فآليت أن لا أُلم إلا بِحماك ، ولا أحطّ رَحْلا إلا بفنائك ، علما بأنك نثرة الفخر ، وغرة الدهر ، فتيممتُ ساريا فى ساطع نورك ، متيمنا بيمن طائرك ، محققا للربح ، موقنا بالفَلَج والنُّجْح ، حتى حللت فى دَوْحة المجد ، وأنختُ بدولة السعد ، واستشعرت لبسة الشكر والحمد ، وجعلت أنظِمُ من جَوَاهر الكلام ، ما يُرْبى على جواهر النِّظَام ، وأنشر من

خطاب من ابن عبد البر إلى المنصور ابن أبى عامر

---

(١) قالوا « أناخ الدهر بكلكله على فلان » يريدون أنه نال منه أعظم النيل ، والكلكل - بزنة جعفر - أصله صدر البعير ونحوه .

(٢) المثل المعروف « الحديث ذو شجون » أى أنه أنواع وضروب وأفانين .

(٣) فى ا « وفى ذكر » (٤) فى ا « من الهمم كامنها » (٥) فى ا « فى أعنتها »

عطر الثناء ، مايزرى بالروضة الغَنَّاء ، وحاشا للفهم أن يعطل ليلى من أقمارك ، أو يخلى أفقى من أنوارك ، فأرانى منخرطاً فى غير سلكه ، ومنحطاً إلى غير ملكه ، لا جَرَم أنه من استضاء بالهلال ، غنى عن الذُّبَال[1] ، ومن استنار بالصباح ، ألْقَى سَنَا المصباح ، وتالله ما هزت آمالى ذوائبها إلى سواك ، ولا حَدَتْ أوطارى ركائبها إلى مَنْ مداك ، ليكون فىَّ أثر الوَسْمِيِّ فى الماحل[2] ، وعلىَّ جمالُ الحلى على العاطل ، لسيادتك السنية ، ورياستك الأولية ، التى يَقْصُر عنها لسانُ إفصاحى ، ويَعْيَا فى بعضها بيانى وإيضاحى ، فالقراطيسُ عند بَثِّ مناقبك تَفْنَى ، والأقلام فى رَسْم مآثرك تَحْفَى ، وما أمَلُ المجدِب ، فى حياة المخصِب ، ولا جَذَلُ المذنب ، برضا المُعْتِب ، كأملى فى التعزز بحَوْزتك ، والتجمُّل بجملتك ، والترفع بخدمتك ، فالسعيدُ من نشأ فى دولتك ، وظهر فى أمتك ، واستضاء بعزتك[3] ، لقد فاز بالسبق مَنْ لَحَظَتْه عين رعايتك ، وكَنَفَتْه حَوْزة حمايتك ، فأنت الذى أمنت بعدله نوائب الأيام ، وقويت بسلطانه دعائمُ الإسلام ، تختال بك المعانى اختيالَ العَرُوس ، وتخضع لجلالك أعزة النفوس ، سابقةٌ أشهرُ من الفجر ، وفطنةٌ أنورُ من البدر ، وهمة أنفذ من الدهر :

لقد فاز مَنْ أضحى بكُمْ متمسكا ... يَشُدّ على تأميل عِزِّكُم يدَا

سلكْتَ سبيلَ الفخر خلقاً مركبا ... وغَيْرُك لا يأتيه إلا تجَلُّدَا

فأنتم لواءُ الدين لازال قيِّماً ... بآرائكم فى ظُلْمة الخطب يُهْتَدَى

لِيَهْنِكُمُ مجدٌ تليدٌ بَنَيْتُمُ ... أغار سَنَاه فى البلاد وأنجدَا[4]

ومثله أبقاه الله سبحانه يستثمر إبراقه ، فيثمر جَنَاه ، ويستمطر إبراقه ، فيُمْطر حَيَاه ، لا سيما و إنى نشأةٌ حَفَّها إحسان أوائلك الطاهرين ، وألفها إنعام أكابرك

---

(١) الذبال — بضم الذال — جمع ذبالة ، وهى الفتيلة والسراج .

(٢) الوسمى : المطر فى أول الربيع . (٣) فى ا « واستضاء بغرتك »

(٤) عجز هذا البيت من بيت فى كلمة للأعشى ميمون ، وهو :

نبى يرى مالا ترون ، وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

[الأخيار] الطيبين ، وجَديرٌ بقبُولك و إقبالك ، و برك و إجمالك ، مَنْ أصله ثابت فى أهل محبتكم ، وفَرْعُه نابت فى خاصتكم :

وما رَغْبَتى فى عَسْجد أسْتفيدُهُ ولـكنَّهَا فى مَفْخَـر أسْتَجِدُّهُ
فـكُلُّ نوالٍ كانَ أوهُوَ كائن فلحْظَةُ طَرْفٍ منكَ عِنْدِىَ نِدُّهُ
فكُنْ فى اصْطِنَاعِى مُحْسِناً كمجرب يَبِنْ لك تقريبُ الجْوَاد وشَدُّهُ[(١)]
إذا كنتَ فى شك من السيف فابْلُهُ فإمّا تنافيه وإمّا تُعِـدُّهُ
وَمَا الصارمُ الهندىُّ إلا كغيره إذا لم يُفَارِقْه النجاد وغِمْدُهُ

ولا بأس[(٢)] أن يتطوّلَ مولاى بغَرْس الصنيعة فى أزكى الترب ، ووضع الْهِنَاء موضع النُّقَب[(٣)] ، والله سبحانه يبقى مولاى آخذاً بزمام الفخر ، ناهضاً بأعباء البر ، مالكا لأعِنَّة الدهر ، وصنع الله سبحانه لسيدى أتم الصنع وأجمله ، وأفضله وأكمله ، بمنه لا رب سواه ، انتهى .

رجع إلى أخبار المنصور ابن أبى عامر

رجع إلى أخبار المنصور الكبير محمد بن أبى عامر ، رحمه الله !.

وكنا قد ذكرنا أنه قبض على الوزير الحاجب المصحفى مع أنه كان أحد أتباعه قال صاحب كتاب « روضة الأزهار ، وبهجة النفوس ، ونزهة الأبصار » : ولما أمر المنصور بن أبى عامر بسَجْن المصحفى فى المُطْبِق بالزهراء[(٤)] ودَّع أهله [وودَّعوه] وداع الفرقة ، وقال لهم : لستم تروننى بعد[ها] حياً ، فقد أتى وقتُ إجابة الدعوة ، وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة ، وذلك أنى أشركت[(٥)] فى سجن رجل فى عهد الناصر ، وما أطلقته إلا برؤيا رأيتها بأن قيل لى : أطلق فلانا فقد أجيبت فيك دعوته ، فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته على ، فقال : دعوت على مَنْ

(١) فى ب ونسخة عند ا « فـكن فى اصطناعى محسنا لمجرب » .

(٢) فى ا « ولا غرو » .

(٣) الهناء : القطران ، والنقب : جمع نقبة ، وهو أثر الجرب فى الجسم ، وهذا مثل ، ووقع فى ا « ووضع الهناء مكان النوب » محرفا .

(٤) فى ا « بالمطبق فى الزهراء » (٥) فى ا « شاركت » .

شارك فى أمرى أن يميته الله فى أضيق السجون ، فقلت : إنها قد أجيبت ، فإنى كنت ممن شارك فى أمره ، وندمت حين لا ينفع الندم ، فيروى أنه كتب للمنصور بن أبى عامر بهذه الأبيات :

هَبْنِى أسأت فأين العَفْوُ والكَرَمُ إذ قادنى نحوك الإذعان والنَّدَمُ
ياخيرَ من مُدَّتِ الأيدى إليه أما ترثى لشيخ نعاه عنــدك القلم
بالغْتَ فى السُّخْطِ فاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ إن الملوك إذا ما استُرْحِمُوا رحِمُوا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيرى :

ياجاهلا بعدمازلَّتْ بِكَ القَدَمُ تبغى التكرُّم لما فاتَكَ الكَرَمُ
ندمت إذلم تعد مِنِّى بطائلة وقلما ينفع الإذعان والنـدم
نفسىإذاجمحتليستبراجعة ولو تشفع فيك العرب والعجم

فبقى فى المطبق حتى مات ، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم ، انتهى .

وقد ذكر بعضهم فى هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرناه فى غير هـذا المحل ، فإن هذه الأبيات للمنصور ، وهذا المؤرخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيرى ، وقد يقال : لامنافاة بينهما ، فإن المنصور أجاب بالأبيات ، وهل هو قائلها أم لا ؟ الأمر أعم ، فبين هنا ، والله أعلم .

وقال بعض مؤرخى المغرب : إن الحاجب المصحفى حصل له فى هذه النكبة من الهلع والجزع مالم يظن أنه يَصْدر من مثـله ، حتى إنه كتب إلى المنصور بن أبى عامر يطلبمنه أن يقعد فى دهليزه معلماً لأولاده ، فقال المنصور بدهائه وحذقه : إن هذا الرجـل يريد أن يحط من قدرى عند الناس ، لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادما ومسلماً[١] ، فـكيف يرونه الآن فى دهليزى معلما ؟! وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه فى غزواته ، حتى إنه حكى بعضهم أنه رأى الحاجب المصحفى فى ليـلة نَهَى المنصور فيها الناس عن إيقاد النـيران تعمية على العـدو الكافر ، وهو ينفخ فحما فى كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه ، أو كما قال ، فسبحان مديل[٢] الدول ،

(١) في ب « خادماً ومعلماً » (٢) فى نسخة عند ا « مزيل الدول » .

لا إله إلا هو ، فإن هذا المصحفى بلغ من الجلالة والعظم والتحكم فى الدولة المدةَ المديدة أمراً لا مزيد عليه ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

ولقد ذكر بعض علماء(١) المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن أبى عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، ولم يزل أعداء المنصور بن أبى عامر يتربَّصُون به الدوائر ، فغلب سَعْدُه الذى هو المثل السائر ، وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعاً إذ قال :

اقْتَرَبَ الوعدُ وحان الهلاكْ ... وكُلُّ ماتّحذره قد أتاكْ

خليفة يَلعَبُ فى مَكْتَبٍ ... وأمّه حُبْلَى وقاض يناكْ

يعنى بالخليفة هشاما المؤيد لكونه كان صغيراً ، وأمّه صبح البشكنشية(٢) كان الأعداء يتهمون بها المنصور ، وذلك بهتان وزور ، وأفظع منه رَمْيُهم القاضى بالفجور ، والله عالم بسرائر الأمور ، ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون إلاًّ ولا ذمة ، ويُطْلقون ألسنتهم فى العلماء والأئمة .

و[أظلم أهل الأرض]مَنْ كان حاسداً ... لمن بَاتَ فى نعمائه يتقلب(٣)

جدير بأن لا يدرك ما يؤمّل ويتطلب ، لأنه يعترض على الله سبحانه فى أحكامه ، نعوذ بالله من شر أنفسنا ومن شر كل ذى شر ، بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه .

وقد قدمنا أن المنصور بن أبى عامر كان أولا يخدم جعفر بن عثمان المصحفى مدبر مملكة هشام المؤيد ، ويريه النصيحة ، وأنه مازال يَسْتَجْلب القلوبَ بجوده وحسن خلقه ، والمصحفى ينفرها ببخله وسوء خلقه ، إلى أن كان من أمره ما كان ، فاستولى على الحجابة ، وسَجَنَ المصحفى ، وفى ذلك يقول المصحفى :

---

(١) فى ا « العلماء المغاربة » (٢) فى ب « البشتكية » محرفا

(٣) سقط « أظلم أهل الأرض » من ا وجاء الكلام فيها « ومن بات..جدير »

نماذج من شعر المصحفى

غَرَسْتُ قضيباً خِلْتُه عودَ كَرْمَةٍ وكنتُ عليه فى الْحَوادِثِ قَيِّمَا
وأ كرِمُه دَهْرِى فيزْداد خُبْثُه ولو كان من أصل كريم تكرمَا

ولما يئس المصحفى من عفو المنصور قال :

لى مُــدَّةٌ لابدّ أبْلُغُهَا فإذا انْقَضَتْ أيامُهَا متُّ
لو قابلتنى الأسْدُ ضارِيةً والموتُ لم يقرب لما خِفْتُ(١)
فانظر إلىَّ وكُنْ على حَذرٍ فى مثل حالِك أمسِ قَدْ كُنْتُ

ومن أحسن ما نعَى به نفسه قوله حسبما تقدم :

صبرت على الأيام حــتى تولَّتِ وألزمْتُ نفسى صَبْرَهَا فاسْتَمرَّتِ
فوا عَجبَاً للقلْبِ كيف اعْتِرافُهُ وللنفس بعد العز كيف استذلَّتِ
وما النفسُ إلا حيث يَجْعَلُهَا الفتى فإن طَمِعَتْ ماتت وإلاّ تَسَلَّتِ
وكانَتْ على الأيام نَفْسِى عزيزَةً فلما رأت صَبْرِى على الذل ذَلَّتِ
فَقُلْتُ لهـا يا نَفْسُ موتى كريمةً فقد كانتِ الدنيا لنا ثم وَلَّتِ

وأنشد له الفتح فى المطمح ، ونسبهما غيره لأحمد بن الفرج صاحب الحدائق :

كلمتــنى فقلت دُرٌّ سَقِيطٌ فتأمَّلت عقدَهَا هَلْ تَنَاثر
فازْدَهاهَا تبسُّمٌ فأرَتْنى نَظْمَ دُرٍ منَ التَّبَسُّمِ آخر

وله كما مر :

صفراء تُطْرِقُ فى الزجاج، فإن سَرَتْ فى الجسم دَبَّتْ مثلَ صِلٍّ لادِغ(٢)
خَفِيَتْ على شُرَّابِهَا فكأنما يَجِدُون رِيًّا مِن إناء فارغِ

وله :

ياذا الذى أوْدَعَنِى سِرَّهُ لا تَرْجُ أنْ تَسْمَعَه مِنِّى

(١) ضارية : أي معودة الافتراس وانتهاب النفوس

(٢) سبق ذكر البيتين ، وقلنا : إنه وقع فى نسخة « تشرق فى الزجاج »

لم أجْرِه بعدك فى خاطرِى　　كأنه ما مَرَّ فى أذْنِي

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات :

سألْتُ نجومَ الليل هل يَنقَضِي الدُّجى　　فخطَّتْ جواباً بالثُّرَيَّا كَخَطِّ لا

وكنت أرى أنى بآخر ليلتى　　فأطْرِقُ حتى خِلْتُه عاد أولا

وماعَنْ هَوًى سامَرْتها ، غير أننى　　أنافِسُها المجرَى إلى طُرُق العلا

مآل مصحف عثمان الذى كان بالأندلس

رجع ــ وكان كما تقدم بقُرْطُبة المصحف العثمانى ، وهو متداول[1] بين أهل الأندلس ، قالوا : ثم آل أمره إلى الموحِّدين ، ثم إلى بنى مَرِين ، قال الخطيب بن مرزوق فى كتابه « المسند الصحيح الحسن » ما ملخصه : وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر [موضعا] إلا ومعه المصحف الكريم العثمانى ، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم ، ومقام كبير ، وكيف لا ؟ قال ابن بَشْكُوال : أُخْرِج هذا المصحف منها ــ أى قرطبة ــ وغُرِّبَ منها وكان بجامعها الأعظم، ليلة السبت حادى عشر شوّال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فى أيام أبى محمد عبد المؤمن بن على وبأمره ، وهذا أحد المصاحف الأربعة التى بعث بها عثمانُ رضى الله تعالى عنه إلى الأمصار : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، وما قيل إن فيه دم عثمان [هو] بعيدٌ ، و إن يكن أحدها فلعله الشامى ، قاله ابن عبد الملك .

قال أبو القاسم التجيبى السبتى : أما الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق المحروسة ، وعاينته هناك سنة ٦٥٧ ، كما عاينت المكى بقبة اليهودية ، وهى قبة التراب ، قلت : عاينتها مع الذى بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيهما ، قال النخعى : لعله الكوفى أو البصرى ، وأقول : اختبرت الذى بالمدينة والذى نقل من الأندلس فألفيت خَطّهما سواء ، وما توهموه[2] أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحداً منها ، و إنما جمع عليها بعضاً من

---

(١) فى ا « وهو متواتر عند أهل الأندلس »

(٢) فى ا « وماتوهموا من أنه خطه »

الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدنى ، ونص ما على ظهره : هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاصى ، وذكر العدد الذى جمعه عثمان رضى الله تعالى عنه من الصحابة رضى الله تعالى عنهم على كَتْب المصحف ، انتهى .

واعتنى به عبد المؤمن بن على ، ولم يزل الموحِّدون يحملونه فى أسفارهم متبركين به ، إلى أن حمله المعتضد ، وهو السعيد على بن المأمون أبى العلاء إدريس بن المنصور ، حين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥ ، فقتل قريبا من تلمسان ، وقدِّمَ ابنه إبراهيم ، ثم قتل ، ووقع النهب فى الخزائن ، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ، ونهب المصحف ولم يعلم مستقره ، وقيل : إنه فى خزانة ملوك تلمسان ، قلت : لم يزل هـذا المصحف فى الخزانة إلى أن افتتحها إمامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ ، فظفر به وحصل عنده إلى أن أصيب فى وقعة طريف ، وحصل فى بلاد برتقال ، وأعمل الحيلة فى استخلاصه ، ووصل إلى فاس سنة ٧٤٥ على يد أحد تجار أَزُمُّورَ(١) ، واستمر بقاؤه فى الخزانة ، انتهى باختصار .

واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء ، كما ذكره ابن رُشَيْد فى رحلته ، ولا بأس أن أذكر كلامه بجملته ، والرسالة فى شأن المصحف لما فيها من الفائدة ، ونص محل الحاجة منه : أنشدنى الخطيب أبو محمد بن برطَلَةَ من لفظه وكتبته من خطه ، قال : أنشدنى الشيخُ الفقيهُ القاضى أبو القاسم عبد الرحمن بن كاتب الخلافة أبى عبد الله بن عياش لأبيه رحمهم الله تعالى مما نظمه ، وقد أمر أمير المؤمنين المنصور بتحلية المصحف :

ونفلته من كل ملك ذخيرة ... كأنهمُ كانوا بِرَسْم مكاسبه(٢)

فإن ورث الأملاك شرْقاً ومَغْربا ... فكم قَدْ أَخلُّوا جاهلين بواجبه

(١) أزمور ـ بثلاث ضمات وتشديد الميم ـ بلد بالمغرب

(٢) وقع فى ب « ونقلته » بالقاف ، ومعنى « نفلته » أعطاكه الله نفلا ، وخصك به

وكيف يفوتُ النصرُ جيشاً جعلته أمام قَنَاه فى الْوَغى وقَوَاضِبِهْ
وألبسته الياقوت والدرّ حِلْيـة وغيرك قد روّاه من دم صاحبه(١)

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الأمر فى وصوله إلى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وما أبدى فى ذلك من الأمور الغريبة التى لم يُسْمع بمثلها فى سالف الدهر ، حسبما أطرفنَابه الوزيرالأجل أبو زكرياءَ يحيى بن أحمد بن يحيى ابن محمد بن عبد الملك بن طُفَيْل القيسى حفظه الله تعالى وشكره ، مما استفاده وأفاده لنا مما لم نسمع به قبل ، عن كتاب جده الوزير أبى بكر محمد بن عبد الملك بن طُفَيْل المذكور ، مما تضمنه من وصف قصة المصحف ، فقال : وصل إليهم أدام الله سبحانه تأييدهم قمرا الأندلس النيران ، وأميراها المتخيِّران ، السيدان الأجلان أبو سعيد وأبو يعقوب أيدهما الله ، وفى صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، وهو الإمام الذى لم يختلف فيـه مختلف ، وما زال ينقله خلف عن سلف ، وقد حفظ شخصه على كثرة المتناولين ، وذَخَرَه الله لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمتِه من المتداولين ، وله من غرائب الأنباء ومتقدم الإشعار بما آل إليه أمره من الإيماء ما ملئت به الطروس ، وتحفظه من أهل الأندلس الرائس والمرؤس ، فتلقى عند وصوله بالإجلال والإعظام ، وبودر إليه بما يجب من التبجيل والإكرام ، وعكف عليه أطول العكوف والتزم أشدّ الالتزام ، وكان فى وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولى الألباب ، وبلاغ فى الإغراب والإعجاب ، وذلك أن سيدنا ومولانا الخليفة أميرالمؤمنين ، أدام الله له عوائد النصر والتمكين ، كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره فى خاطره الكريم ، وحركته إليه دواعى خلقه العظيم ، وتراءى مع نفسه المطمئنة المرضية ، وسجاياه الحسنة الرضية ، فى معنى اجتلابه من مدينة قُرْطُبة محل مَثْوَاه القديم ، ووطنه

(١) يشير إلى مافعله الثوار يوم الدار بذى النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، حيث خضبوا المصحف بدمه ، جازاهم الله بما يستحقونه!

الموصل بحرمته للتقديم ، فتوقّع أن يتأذّى أهلُ ذلك القطر بفراقه ، ويستوحشوا لفقدان إضاءته فى أفقهم وإشراقه ، فتوقف عن ذلك لما جُبِل عليه من رحمته وإشفاقه ، فأوصله الله إليه تحفة سنية ، وهدية هنية ، وتحية من عنده مباركة زكية ، دون أن يكدرها من البشر اكتساب ، أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب ، بل أوقع الله سبحانه وتعالى فى نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله إلى مستحقه ، والتبرع به إلى القائم إلى الله تعالى بحقه ، ما اطلع بالمشاهدة والتواتر على صحته وصدقه ، وعضدت مخايلَ بَرْقه سواكبُ وَدْقه ، وكان ذلك من كرامات سيدنا ومولانا الخليفة معدودا ، وإلى أمره الذى هو أمر الله مردودا ، وجمع[1] عند ذلك بحضرة مراكش – حرسها الله تعالى ! – سائر الأبناء الكرام ، والسادة الأعلام ، بُدُور الآفاق ، وكواكب الإشراق ، وأهل الاستئهال المقامات الرفيعة و[ذوو] الاستحقاق ، فانتظم عند ذلك هذا القصيد مشيرا إلى اجتماع هذه الدرارى الزاهرة ، والتئام خطوطها على مركز الدائرة ، ووصول المتقدم ذكره ، المشهور فى جميع المعمور أمره ، وهو هذا :

دَرَارِىُّ مِنْ نور الهدى تتوقَّدُ ... مطالعُها فوق المجرَّة أسْعُدُ

وأنهارُ جودٍ كلما أمسك الحَيَا ... يمد بها طامى الغَوَارب مُزْبدُ

وآسادُ حربٍ غابُهَا شَجَر القنا ... ولا لِبدٌ إلا العَجَاجُ المُلَبَّد[2]

مَسَاعير فى الهيجا مَسَارِيعُ لِلنَّدَى ... بأيديهمُ يُحْمَى الهَجيرُ ويَبْرُدُ

تشبُّ بهم ناران للحرب والقِرَى ... ويَجْرِى بهم سَيلانِ جيش وعَسْجَدُ

وَيَسْتَمْطِرُونَ البَرْقَ والبرقُ عندهم ... سيوفٌ على أفق العُدَاة تُجَرَّدُ

إذا منٌ سجف السار يات مضاؤها ... فماذا الذى يُغْنِى الحديدُ المسرَّدُ[3]

---

(١) فى ا « وأجمع » وفى نسخة « واجتمع » (٢) فى ا « ولالبدة إلا العجاج »

(٣) فى ا « إذا عن سجف الساريات » وفى ب « إذا من سجف السائرات »

ويسترشدون النجمَ والنجمُ عندهم ... نُصُول إلى حَبِّ القلوب تَسدَّدُ

تزاحمُ فى جو السماء كأنما ... عَوَاملُها فى الأفق صَرْحٌ ممرَّدُ(١)

تخازَرُ ألحاظُ الكواكب دُونها ... ويفرقُ منها المِرْزَمانِ وفرقدُ

ألم ترَها فى الأفق خافقةَ الحشا ... كما تطرف العينان والقلبُ يُزْأَدُ

وليس احمرارُ الفجر من أثر السَّنى ... ولكنَّهُ ذاك النَّجيعُ المورَّدُ(٢)

وما انبسطَتْ كفُّ الثريا فدافعتْ ... ولكنَّها فى الحرْب شِلْو مُقدَّدُ

وحطَّ سُهَيْلاً ذُعْرُهُ عن سَمِيِّهِ ... فأضحَى على أفقِ البسيطة يُرْعَدُ

ولما رأى نَسْرٌ وقوعَ أليفِهِ ... تطايَرَ من خَوْفٍ فما زال يَجْهَدُ

مواقعُ أمر الله فى كل حالةٍ ... يكاد لها رأس الثرى يتميَّدُ

أهابَ بأقْصَى الخافقين فنظّمت ... وهَيَّبَ جمع المخفقين فبُدِّدُوا

وأضْفى على الدنيا ملابسَ رحمةٍ ... نُضارتُهَا فى كل حين تجدَّدُ

وأخضَل أرْجاء الربا فكأنما ... عليها من النَّبْتِ النضير زَبَرْجَدُ

فمن طَرَب ما أصبح البرقُ باسماً ... ومن فَرَح ما أضحت المُزْنُ تُرْعَدُ

وغَنَّى على أفنان كل أراكةٍ ... غذاها حَيَا النُّعْمَى حمامٌ مُغرِّدُ

وكَبَّر ذو نطقٍ وسَبَّح صامتٌ ... وكاد به المعدومُ يُحْيَا ويُوجَدُ

وأبرز للأذهان ما كان غائباً ... فسِيَّانِ فيها مُطاق ومقيدُ

سلام على المهْدِيِّ ، أمَّا قَضَاؤه ... فَحَتْمٌ ، وأمّا أمْرُهُ فمؤكَّدُ

إمام الوَرَى عمَّ البسيطةَ عدلُه ... على حين وَجْهُ الأرض بالجور أرْبَدُ

بصيرٌ رأى الدنيا بعَيْنِ جَلِيَّةٍ ... فلَمْ يُغْنِهِ إلا المقام الممجَّدُ

ولما مضى والأمرُ لله وَحْدَهُ ... وُبلغ مأمول وأنجز مَوْعِدُ

---

(١) العوامل : جمع عامل ، وهو صدر الرمح ، والصرح : القصر ، والممرد : الأملس الناعم ، وفى التنزيل العزيز : (صرح ممرد من قوارير)

(٢) النجيع : الدم ، وقيل : هو دم الجوف خاصة ، والمورد : أراد به الأحمر

تردَّى أميرُ المؤمنين رداءَهُ ... وقام بأمر الله والناسُ هُجَّدُ
بعزمة شَيْحَان الفؤاد مُصَمِّم ... يقومُ به أقصى الوُجود ويَقْعُدُ
مشيئته ماشاءه اللهُ ، إنه ... إذا همَّ فالحكم الإلٰهيّ يُسْعِدُ
كتائبُه مشفوعـة بملائكٍ ... تُرادِفُهَا فى كل حال وتُرْفَدُ[1]
وما ذاك إلا نيَّةٌ خَلَصَتْ لَهُ ... فليس له فيما سِوَى الله مَقْصِدُ
إذا خَطَبَتْ راياتُه وَسْطَ محفلٍ ... ترى قِمَمَ الأعداء فى التُّرْبِ تسجد
وإن نَطَقَتْ بالفصل فيهم سُيوفُهُ ... أقرَّ بأمر الله مَنْ كان يَجْحَدُ
مُعيد علوم الدين بعد ارتفاعِهَا ... ومُبْدِى علومٍ لم تكن قبل تُعْهَدُ
وباسط أنوار الهداية فى الورى ... وقدضم قرص الشمس فى الغرب مَلْحَد
وقدكان ضوءُ الشمسِ عندطلوعها ... يغانُ بأكنان الضلال ويُغْمَدُ[2]
فما زال يجلو عن مطالعها الصَّدا ... ويُبْرِزُها بيضاء والجوُّ أسْوَدُ
جزى الله عن هذا الأنام خليفةً ... به شربوا ماء الحياة فَخُلِّدُوا
وحيّاهُ مادامت محاسنُ ذكرِه ... على مَدْرَج الأيام تُتْلَى وتُنْشَد
لِمُصْحَفِ عُثمان الشهيد وجمعه ... تَبَيَّنَ أن الحق بالحق يُعْضَد
تحامته أيدى الروم بعد انتسافه ... وقد كاد لولا سَعْدُهُ يتبَدَّد
فما هو إلا أن تمرَّس صارخٌ ... بدعوته العَلْيا فصِينَ المبدَّدُ
وجاء وليُّ الثأر يرغبُ نصره ... فلباه منه عزمه المتجرِّد
رأى أثر المسفوح فى صَفَحَاته ... فقام لأخذ الثأر منه مؤيد
وشبَّهه بالبدر وقت خسوفه ... فلله تشبيه له الشرع يشهد[3]

---

(١) ترادفها : تتبعها وتكون لها شبه الرديف ، ووقع فى ب « تزاد بها » ، وفى نسخة عندنا « تراد بها » .

(٢) يغان : مضارع مبنى للمجهول من الغين ، وهو كالغيم وزنا ومعنى والأكنان : جمع كن ، وهو الستر

(٣) فى ب « قبل خسوفه » و « به الشرع يشهد » .

زمان ارتفاع العلم كانَ خسوفه وقد عاد بالمهدىِّ والعَوْدُ أحمد
أتتكَ أميرالمؤمنين ألوكةٌ من الحرم الأقصى لأمرك تَمْهَدُ
سيوف بنى عيلان قامت شهيرة لدعوتك العلياء تهدِى وتُرْشِدُ
وطافت ببيت الله فاشتد شوقه إليك ولَبَّى منه حِجْرٌ ومَسْجِدُ
وحج إلَيْكَ الركن والمرْوُ والصفَا فأنت لذاك الحج حَجٌّ ومقصد
مشاعرها الأجسام والروح أمركم ومنكم لها يرضى المقام المخلد[1]
فلله حجٌّ واعتمارٌ وزَوْرَةٌ أتتنا ولم يبرَحْك بالغرب مشهد
ولله سبعٌ نيِّرات تقارنت بها فِئَةَ الإسلام تحْمَى وتسعد[2]
إذا لم يكن إلا فِناءَك عصمة فماذا الذى يرجو القصىُّ المُبَعَّدُ
فدُمْ للوَرَى غيثاً وعزًّا ورَحمةً فقُرْبُكَ فى الدارَينِ مُنْجٍ ومُسْعِد
وزادت بك الأعياد حسناً وبهجة كأنك للأعياد زِىٌّ مجدد
ولا زلت للأيام تُبلِى جديدها وعمرك فى ريعانه ليس ينفد

ثم إنهم أدام الله سبحانه تأييدهم، ووصل سعودهم، لما أرادوا من المبالغة فى تعظيم المصحف المذكور، واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير[3]، شرعوا فى انتخاب كسوته، وأخذوا فى اختيار حليته، وتأنقوا فى استعمال أحفظته، وبالغوا فى استجادة أصْونته[4]، فحشروا له الصُّنّاع المتقنين [والمَهَرَةَ المتفنِّنين] ممن كان بحضرتهم العلية، [أ] وسائر بلادهم القريبة والقَصِيّة، فاجتمع لذلك حُذّاق كل صناعة، ومَهَرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين[5] والنقاشين والمرصِّعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق فى صناعة، إلا أحضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة، وأشكال مبتدعة،

(١) فى ا «يرضى البقاء المخلد» (٢) فى ب ونسخة عند ا «تحيا وتسعد»
(٣) التعزير : التعظيم والتوقير (٤) الأصونة : جمع صوان ـ بكسر الصاد ـ وهو ما يحفظ فيه الشىء ويصان. (٥) الحلائين ـ بالحاء المهملة ـ الذين يصنعون الحلية .

وضمنوها من غرائب الحركات ، وخفى إمداد الأسباب للمسببات ، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جَهْدَ قوتهم ، والهمة العلية أدام الله سموها تترقى فوق معارجهم [1] وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء مواجلهم [2] ، وتنيف على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ، فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كل شِعْب ، ورأبوا من منتشرها كل شَعْب [3] ، وأشرفوا عند تحقيقها و إبراز دقيقها على كل صَعْب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تيأس عن مَطْلَبها ، والخواطر تكر راجعةً عن خفى مذهبها ، حتى أطلع الله خليفته فى خلقه ، وأمينَه المرتضى لإقامة حقه ، على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد [4] اعتياصها ، وتخلَّصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ، ألقواذ لك ـ أيدهم الله بنصره ، وأمدهم بمعونته و يسره ! ـ إلى المهندسين والصناع فقبلوه أحسن القبُول ، وتصوروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول ، فوقفهم حسنُ تنبيهه مما جهلوه على طَوْر غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وسيأتى بعد هذا إشارة إلى تفصيل تلك الحركات المستغربة ، والأشكال المونِقة المعجبة ، إن شاء الله تعالى .

ما صنع للمصحف من الحليـة والأصونة

مما صنع للمصحف العظيم من الأصوِنة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنه كُسى كله بصِوَان واحد من الذهب والفضة ذى صنائع غريبة من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومى ما لم يعهد له فى العصر الأول مثال ، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مَفَاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم ، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم ، قد أسْلِسَتْ [5] للتحرك أعطافُها ، وأحكم إنشاؤها على البغية وانعطافُهاَ ، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس فى أفراده

(١) المعارج : جمع معرج ، وهو السلم

(٢) الموالج : جمع مولج ، وهو اسم المكان من « ولج يلج ولوجا » أى دخل

(٣) الشعب ـ بكسر الشين ـ الطريق ، والشعب ـ بالفتح ـ الصدع

(٤) اعتياص الأمر : صعوبته وعدم انقياده (٥) فى ب «قد أمليت» محرفا .

وتتوارثه على مرور الزمن وتَرْدَاده ، وتظنّ العز الأقعس(١) ، والملاك الأنفس ، فى ادخاره و إعداده ، وتسمى الواحدَ منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه فى صنعه واتحاده ، فانتظم عليه منها ماشاكله زُهْرُ الكواكب فى تلألئه واتقاده ، وأشبهه الروض المزخرف غبّ سماء أقلعت عن إمداده ، وأتى هـذا الصِّوانُ الموصوف رائق المنظر ، آخذا بمَجَامع القلب والبصر ، مستولياً بصُورَته الغريبة على جميع الصُّوَر ، يدهش العقول بهَاءً ، ويحير الألباب رُوَاء(٢) ، و يكاد يعشى الناظر(٣) تألقّا وضياء ، فحين تمت خصاله ، واستركبت أوصاله ، وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله ، رَأَوْا ـ أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم ! ـ مما رزقهم الله تعـالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الثنيات ، أن يُتَلَطَف فى وجه يكون به هذا الصِّوان المذكور طوراً متصلا ، وطوراً منفصـلا ، و يتأتّى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبذلا وتارة للعموم متجملا ، إذ مَعَارج الناس فى الاستبصار تختلف ، وكل له مقام إليه ينتهى وعنده يقف ، فعمل فيه على شاكلة هذا المقصد ، وتلطف فى تتميم هذا الغرض المعتمد ، وكسى المصحف العزيز بصِوَان لطيف من السندس الأخضر ، ذى حلية [عظيمة] خفيفة تلازمه فى المغيب والمحضر ، ورتب ترتيباً يتأتى معه أن يكسى بالصِّوان الأكبر ، فيلتئم به التئاماً يغطى على العين من هـــذا الأثر ، وكمل ذلك كله على أجمل الصفات وأحسنها ، وأبدع المذاهب وأتقنها ، وصنع له محمل غريب الصنعة ، بديع الشكل والصبغة ، ذومفاصل ينبوعن دقتها الإدراك ، و يشتد بها(٤) الارتباط بين المفصلين و يصح الاشتراك ، مُغَشّى كله بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، فى قطع من الآبنوس والخشب الرفيع ، لم تعمل قط فى زمان من الأزمان ، ولا انتهت قط إلى أيسره نوَافذ الأذهان ، مُدَار بصنعة قد أجريت فى صفائح الذهب ،

(١) العز الأقعس : الثابت المنيع (٢) الرواء ـ بضم الراء ـ حسن المنظر
(٣) يعشى الناظر : يصيبه بالعشا ، وهو سوء النظر ليلا
(٤) وقع فى ب « ويشهد بها الارتباط » وما أثبتناه موافق لما فى ا

وامتدت امتدادَ ذوائب الشُهب ، وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال ، ويشاركه فى أكثر الأحوال ، مرصّع مثل ترصيعه الغريب ، ومشاكل له فى جودة التقسيم وحسن الترتيب ، وصنع لذلك كله تابوت يحتوى عليه احتواء المِشْكاة على أنوارها ، والصدور على محفوظ أفكارها[١] ، مكعب الشكل سامٍ فى الطول حسن الجملة والتفصيل ، بالغ ما شاء من التتميم فى أوصاله والتكميل ، جارٍ مجرى المحمل فى التزيين والتجميل ، وله فى أحـــد غَوَار به بابٌ ركبت عليه دفتَان قد أحكم ارتتاجهما[٢] ، ويسر بعد الإبهام انفراجهما ، ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسى من تلقائه ، وتركب المحمل عليه ، مادبرت الحركات الهندسية ، وتلقيت [تلك] التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية ، وذلك أن بأسفل هاتين الدفتَيْنِ فَيْصَلا فيه موضع قد أعِدَّ له مفتاح لطيف يدخل فيه ، فإذا أدخل ذلك المفتاح فيــه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما ، وخرج الكرسى من ذاته بما عليه إلى أقصى غايته ، وفى خلال خروج الكرسى يتحرك عليه المحمل حرَكة منتظمة مقترنة بحركته يأتى بها من مؤخر الكرسى زحفاً إلى مقدمه ، فإذا كمل الكرسى بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق البابُ برجوع الدّفتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد ، وترتبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شىء آخر ، فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التى أدير إليها أولا انفتح الباب وأخذ الكرسى فى الدخول والمحمل فى التأخر عن مقدم الكرسى إلى مؤخره ، فإذا عاد كل إلى مكانه انسدَّ البابُ بالدفتين أيضاً من تلقائه ، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح ، كالذى كان فى حال خروجه ، وصَحّتْ هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومُسَبّبات غائبة عن الحس

(١) فى ا « محفوظ أمكارها » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب

(٢) ارتتاجهما : انغلاقهما ، أرتجت الباب إرتاجا : أغلقته ، ووقع فى ب ، ا « ارتجاجهما »

فى باطن الكرسى ، وهى مما يَدِقُّ وصفها ، ويصعب ذكرها ، أظهرتها بركاتُ هذا الأمر السعيد ، وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة ، أدام الله تعالى أمرهم ! وأعز نصرهم !

بناء مسجد مراكش

وفى خلال الاشتغال بهذه الأعمال التى هى غُرَر الدهر ، وفرائد العمر ، أمروا – أدام الله تعالى تأييدهم ! – ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش – حرسها الله تعالى ! – فبدئ ببنائه[١] وتأسيس قبلته فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور ، على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والنجارة ، وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات[٢] المنبر والمقصورة مالوعمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه ، فكيف فى هذا الأمد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصُّنَّاع أن يتم[٣] فيه فضلا عن بنائه ؟ وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ، ونهضوا – أدام الله سبحانه تأييدهم ! – عقب ذلك لزيارة البقعة المكرمة ، والروضة المعظمة ، بمدينة تِينمَلَّلَ أدام الله رِفْعَتَها ، فأقاموا بها بقية شعبان المكرم ، وأكثر شهر رمضان المعظم ، وحملوا فى صحبتهم المصحفَ العزيز ومعه مصحف الإمام المهدىِّ المعلوم رضى الله تعالى عنه فى التابوت الموصوف ، إذ كان قد صنع له غرفة فى أعلاه ، وأحكمت فيه إحكاماً كمل به معناه ، واجتمع فى مِشْكَاتَه فعاد النور إلى مبتداه[٤] ، وخُتم القرآن العزيز فى مسجد الإمام المعلوم ختمات كادت لا تحصى لكثرتها ، وهنا انتهى ما وجدناه من هذا المكتوب .

ثم قال ابن رُشَيْد – بعد إيراد ماتقدّم – ماصورته : نجزت الرسالة فى المصحف العظيم ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى محل الحاجة منه .

---

(١) فى ا « ببنيانه »
(٢) فى ا « وحركات المنبر »
(٣) فى ا « أنه يتم فيه »
(٤) فى ا « إلى مبداه »

توديع ابن عطية قرطبة

وما أحسن قول الشيخ الإمام أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية يستودع أهل قرطبة :

أَسْتَوْدِعُ اللهَ أهلَ قُرْطُبةٍ حيث وَجَدْتُ الحياءَ والكرما[1]

والجامع الأعظم العتيق ولا زال مَدَى الدَّهر مأمناً حرما

وقال أبو الربيع بن سالم : حدثنى بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى قال : أنشدنى أبو محمد بن عطية لنفسه ، فذكرهما بعد أن قال : إنه لما أزمع القاضى أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع وأنشد[نى] البيتين، انتهى .

وقال ابن عطية أيضاً رحمه الله تعالى :

بأربعٍ فاقَتِ الأمصارَ قرطبةٌ وهُنَّ قنطرَةُ الوادى وجامعها

هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة ، والعلم أكبر شىء وهْوَ رابعها

وقد تقدم إنشادنا لهذين البيتين من غير نسبتهما[2] لأحد .

من أخبار الزاهرة

ومما يدخل فى أخبار الزاهرة من غير ما قدمناه ما حكاه عن نفسه الوزيرُ الكاتب أبو المغيرة بن حَزْم قال : نادمت يوما المنصور بن أبى عامر فى منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين روضة وغدِير ، فلما تضمخ النهار بزعفران العَشِى ، ورفرف غرابُ الليل الدَّجُوجِىّ ، وأسبل الليلُ جُنْحَه ، وتقلد السِّماكُ رُمْحَه ، وهمَّ النسر بالطيران ، وعام فى الأفق زورق الزِّبْرِقان[3] ، أوقدنا مصابيح الراح ، واشتملنا مُلاَءَ الارتياح ، وللدَّجْنِ فوقنا رُوَاق مضروب ، فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب [وقالت] :

قدم الليلُ عند سَيْرِ النهار وبدا البدر مثل نصف السِّوار[4]

فكأَنَّ النهار صَفْحة خد وكأن الظلام خَطُّ عِذار

(١) فى ا « حيث عهدت الحياء والكرما »

(٢) في ا « من غير نسبة لأحد » وانظرهما فى ج ١ ص ١٤٦

(٣) الزبرقان : البدر

(٤) فى ا « نصف سوار »

وكأن الكؤوس جامدُ ماءٍ　　وكأن المدام ذائبُ نارِ
نظرى قد جنَى على ذنوبا　　كيف مما جنته عينى اعتذارى؟
يالقومى تعجَّبوا من غزال　　جائر فى محبتى وهو جارى
ليت لو كان لى إليه سبيل　　فأقضِّى من الهوى أوطارى (١)

قال : فلما أكملت الغنا ، أحسست بالمعنى ، فقلت :

كيف كيف الوصول للأقمار　　بين سُمْر القنا و بيض الشِّفار
لو علمنا بأن حُبّك حقٌّ　　لطلبنا الحياة منك بثار
وإذا ما الكرامُ همُّوا بشىء　　خاطَروا بالنفوس فى الأخطار

قال : فعند ذلك بادر المنصور لحسامه ، وغلظ فى كلامه ، وقال لها : قولى واصدقى إلى مَنْ تشيرين ، بهذا الشوق والحنين ؟ فقالت الجارية : إن كان الكذب أنجى ، فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت إلا نظرة ، ولَّدت فى القلب فكرة ، فتكلم الحب على لسانى ، وبرَّحَ الشوق بكتمانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة ، ثم بكت فكأن دمعها در تناثر من عقد ، أو طلٌّ تساقط من (٢) ورد ، وأنشدت :

أذنبتُ ذنباً عظيما　　فكيف منه اعتذارى؟
والله قدَّر هذا　　ولم يكن باختيارى
والعفو أحسن شىء　　يكون عند اقتدار

قال : فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إلى ، وسلَّ سيف السخط على ، فقلت : أيدك الله تعالى ! إنما كانت هَفْوَةً جرها الفكر ، وصبْوَة أيدها النظر ، وليس للمرء إلا ماقدر له ، لا مااختاره وأمله ، فأطرق المنصور قليلا ثم عفا وصفح ،

---

(١) فى ا « فأقضى من حبه أوطارى »

(٢) الطل — بفتح الطاء وتشديد اللام — المطر الخفيف ، وفى التنزيل الكريم : ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾

وتجاوز عنا وسمح ، وخلى سبيلى ، فسكَنَ وَجيبُ قلبى وغليلى ، ووهب الجارية لى فبتنا بأنعم ليلة ، وسحبنا فيها للصِّبا ذيله ، فلما شمر الليل غدائره ، وسَلَّ الصباح بواتره ، وتجاوبت الأطيار بضروب الألحان ، فى أعالى الأغصان ، انصرفت بالجارية إلى منزلى ، وتكامل سرورى .

بين الرشيد وابنه المأمون فى جارية من جواريه

قال بعضهم : ذكرتنى حكاية أبى المغـــيرة هذه حكاية قرأتها فى النوادر لأبى على القالى البغدادى حَذَتْ فى الظرف حذوَها، وزهت فى الإغراب(١) زهوَها ، وهى ما أسنده عن منصور البرمكى أنه كانت للرشيد جارية غُلَامية وكان المأمون يميل إليها ، وهو إذ ذاك أمرد ، فوقفت تصبُّ على يد الرشيد من إبريق معها ، والمأمون خلف الرشيد ، فأشار إليها يقبلها ، فأنكرت ذلك بعينها ، وأبطأت فى الصب على قدر نظرها للمأمون وإشارتها إليه ، فقال الرشيد : ماهذا ؟ ضعى الإبريق من يدك ، ففعلت ، فقال [لها] : والله لئن لم تصدقينى لأقتلنك ، فقالت : ياسيدى ، أشار إلى كأنه يقبلنى ، فأنكرت ذلك عليه ، فالتفت إلى المأمون فنظر إليـه كأنه ميت لما داخله من الجزع والخجل ، فرحمه وضمه إليه ، وقال : ياعبدالله ، أتحبها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : هى لك فاخل(٢) بها فى تلك القبة ، ففعل ، ثم قال له : هل قلت فى هذا الأمر شيئاً ؟ فقال : نعم ياسيدى ، وأنشد(٣) :

ظَبْىٌ كَنَيْتُ بطَرْفِى ... من الضمير إليـــه(٤)
قبلته من بعيـــد ... فاعتـلَّ من شَفَتَيْهِ
وردَّ أخبث ردٍّ ... بالـكَسْرِ من حاجبيه
فما برحْتُ مكانى ... حتى قدَرْتُ عليه

وفى هذا المعنى يقول بعض البلغاء : اللحْظ ، يُعْرِب عن اللفظ ، وقال آخر : رب كناية تغنى عن إيضاح ، ورب لفظ يدل على ضمير ، ونظمه الشاعر فقال :

---

(١) فى ا « وزهت بالإغراب » (٢) فى أصل ا « فادخل بها »
(٣) فى ا « ثم أنشد » (٤) فى ا « ظبى كتبت بطرفى »

جَعَلْنا علاماتِ المـودَّةِ بيننا دقائقَ لحظِهنّ أمضَى مِنَ السِّحْرِ (١)
فأعْرِفُ منها الوصلَ فى لين لحظها وأعرفُ منها الهجرَ بالنظر الشزْرِ

وفى هذا قال بعض الحكماء : العين باب القلب ، فما فى القلب ظهَر فى العين (٢) ، وقال الشاعر :

العينُ تُبْدِى الذى فى نفس صاحبها من المحبَّـة أو بُغْضٍ إذا كانا
فالعَيْنُ تنطق والأفواه صامِتَـة حتى ترَى من ضمير القلب تِبْيَانَا

وأبو المغيرة بن حَـزْم قال فى حقه فى المطمح ما نصه : الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب ابن حزم ، وبَنُو حزم (٣) فِتيَةَ علم وأدب ، وثَنِيَّةُ (٤) مجد وحَسَب ، وأبو المغيرة هذا فى الكتابة أوحد ، لا ينُعَت ولا يحد ، وهو فارس المضمار ، حامى ذلك الذِّمار ، و بطل الرَّعيل ، وأسد ذلك الغِيل ، نَسَق المعجـزات ، وسَبَق فى المعضلات الموجزات ، إذا كتب وَشَّى المهارق ودبج ، وركب من بحر البلاغة الثَّبَج ، وكان هو وأبو عامر بن شُهَيد خليلى صفاء ، وحليفى وفاء ، لا ينفصلان فى رَواح ولا مقيل ، ولا يفترقان كمالك وعقيل (٥) ، وكانا بقُرْطُبة رافعَىْ ألوية الصَّبْوة ، وعامِرَىْ أندية السلوة ، إلى أن اتُّخِذ أبو عامر فى حِبالة الردى وعلق ، وغدا رَهْنه فيها وغلق (٦) ، فانفرد أبو المغيرة بذلك المَيْدَان ، واستردَّ من سَبْقِه ما فاته منذ زمان ، فلم تذكر له مع أبى عامر حسنة ، ولا سَرَتْ له فِقْرَة مستحسنة ، لتعذر ذلك وامتناعه ، بشُفوف أبى عامر وامتداد باعه ، وأمّا شعر أبى المغيرة فمرتبط بنثره ، ومختلط زهره بدُرِّه ، وقد أثبتّ له منها فنونا ، تجنّ بها الأفهام جنوناً ، فمن ذلك قوله :

ترجمة أبى المغيرة ابن حزم الوزير

ظَعَنَتْ وفى أحْداجها من شَكْلها عِينٌ فَضَحْنَ بحسنهنّ العِينَا
ما أنصفَتْ فى جنب تُوضِحَ إذ قَرَتْ ضيفَ الودادِ بَلابلا وشُجُونا

---

(١) فى ا « دقائق لفظ » (٢) فى ب « يظهر العين »
(٣) فى ب « وأبوه حزم فقيه علم وأدب »
(٤) فى ب « ونبيه » وفى نسخة « نتيجة »
(٥) مالك وعقيل : هما نديما جذيمة الأبرش (٦) فى ا « فيما قد غلق »

أضحى الغرامُ قَطينَ ربع فؤادِهِ إذ لم يَجِدْ بالرقمتين قَطينا

وله :

لما رأيت الهلال مُنْطَوِياً في غرّة الفجر قارنَ الزُّهَرَهْ
شَبَّهْتُهُ والعيانُ يشهدُ لى بصَوْلَجان انثنى لضَرْبِ كُرَهْ

وأبو عامر بن شُهَيْد المذكور قال فى حَقِّه ما صورته :

ترجمة الوزير أبي عامر ابن شهيد

الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيد الأشجعى ، عالم بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قصبَ السبق فيها ، لا يُشْبهه أحد من أهل زمانه ، ولا ينسق ما نسق من دُرِّ البيان وجُمانه ، توغل فى شعاب البلاغة وطُرُقها ، وأخذ على مُتعَاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يُقاومه عمرو بن بَحْر[١] ، ولا تراه يغترف إلا من بَحْر ، مع انطباع ، مشى فى طريقه بأمدِّ باع[٢] ، وله الحسب المشهور ، والمكان الذى لم يَعْدُه ظهور[٣] ، وهو من ولد الوضاح ، المتقلد تلك المفاخر والأوضاح ، والضحاك صاحب[٤] يوم المرج ، وراكب ذلك الهرج ، وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب ، ونَبْع لا يُراش إلا من ذلك الغرب[٥] ، وقد أثبتُّ له ما هو بالسحر لاحق ، ولنور المحاسن ماحق ، فمن ذلك قوله :

إن الكريم إذا نابتْه مَخْمَصَة أبدَى إلى الناس رِيًّا وهو ظَمْآن[٦]
يَحْنِى الضلوعَ على مثل اللَّظَى حُرَقاً والوَجْهُ غَمْرٌ بماء البِشْرِ رَيّان[٧]

وهو مأخوذ من قول الرضى :

ما إن رأيت كَمعشَرٍ صبرُوا عِـزًّا على الأزلات والأزْمِ
بَسَطوا الوجوهَ وبين أضلعهم حَرُّ الجَوَى ومآلم الكَلْمِ

وله أيضاً :

كلفت بالحبِّ حتى لو دَنَا أجَلى لما وَجَدْتُ لِطَعْمِ الموت من أَلَمِ[٨]

---

(١) عمرو بن بحر : أبو عثمان ، الجاحظ ، إمام أهل البلاغة (٢) أمد باع : أطوله
(٣) يعده : يتجاوزه ، وفى ا «لم يعده للظهور» (٤) فى ا «صاحب الضحاك يوم المرج»
(٥) فى ب «الزغب» (٦) فى ا «إذا نالته مخمصة» و «أبدى إلى الناس شبعا وهو طيان»
(٧) فى ا «بماء البشر ملآن» (٨) فى ا «ألمت بالحب» وهى أدق

كلا الندى والْهوَى قدماً ولعتُ به وَيْلى من الحبِّ أو ويلى من الكرم

وأخبرنى الوزير أبو الحسين[١] بن سراج – وهو بمنزل[٢] ابنِ شُهَيْد – وكان من البلاغة فى مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة فى أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب الصَّوْمعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يُخْليه من نثر درره وأزهاره ، فقعد فى ليلة ٢٧ من رمضان فى مُلة من إخوانه ، وأئمة سُلْوانه ، وقد حَفّوا به ليقطفوا نُخَبَ[٣] أدبه ، وهو يخلط لهم الجدّ بهزل ، ولا يفرط فى انبساط مشتهر ولا انقباض جَزْل ، وإذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها ، من يسترها و يُوَاريها ، وهى ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، وتبتغى منزلا لاستغفار ذنبها ، وهى متنقبة ، خائفة ممن يَرْقُبها مترقبة ، وأمامها طفل لها كأنه غصن آس ، أوظبى يمرح فى كِناس ، فلما وقعت عينُها على أبى عامر وَلَّتْ سريعة ، وتوات مَرُوعَة ، خيفةَ أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها قال قولا فَضَحَهَا به وشهرها :

وناظرةٍ تحتَ طَيِّ القِناعِ دَعَاهَا إلى الله بالخَيْر داعى
سَعَتْ خِفيَةً تَبْتَغى منزلاً لوَصْلِ التبتُّلِ والانقطاع
فجاءَتْ تَهادَى كمثل الرَّؤُم تُرَاعِى غزَالاً برَوْضِ الْيَفاعِ[٤]
وجَالَتْ بموضِعِنا جَوْلَةً فحلَّ الربيعُ بتلك البِقاع
أتتنا تَبَخْتَر فى مَشْيِها فحلَّتْ بوادٍ كثير السِّباع
وريعَتْ حِذاراً على طِفلِها فنادَيْتُ ياهٰذهِ لا تُرَاعِى
غزالكِ تَفرَقُ منه الليوثُ وتَفزَعُ منه كُماة المِصاعِ[٥]

(١) فى ب ونسخة عند ا « أبو الحسن » (٢) فى ب « بمنزلة »
(٣) فى ب ونسخة عند ا « تحت أدبه » وفى نسخة أخرى « تحف أدبه »
(٤) فى أصل ا « تناغى غزالا » وفى ب « بروض البقاع »
(٥) فى ا « وتنصاع منه كماة المصاع » وفى نسخة « وتهرب منه »

فولَّتْ وللمسْكِ فى ذَيْلِهَا على الأرضِ خَطٌّ كظَهْر الشجاع(١)

انتهى المقصود منه .

من أخبار الزهراء أيضا

رجع – ومما ينخرط فى سلك أخبار الزهراء ما حكاه الفتح فى ترجمة المعتمد ابن عباد إذ قال : وأخبرنى الوزير الفقيه أبو الحسين(٢) بن سِراج أنه حضر مع الوزراء والكتاب بالزهراء فى يوم قد غَفَل عنه الدهر فلم يَرْمُقْه بطَرْف ، ولم يطْرُقْهُ بصَرْف ، أرَّخَتْ به المسراتُ عَهْدَها ، وأبرزت له الأمانى خدّها [ونهْدَها] وأرشفت فيه لَمَاها ، وأباحت للزائرين حِمَاها ، وما زالوا ينتقلون من قصر إلى قصر ، و يتذلون(٣) الغصون بجَنًى وهَصْر ، و يَتَوَقّلون فى تلك الغرُفَات ، و يتعاطَوْنَ الكئوسَ بين تلك الشُرُفَات ، حتى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطاراً ، ووفروا بالاعتبار قِطَارًا ، فحلوا منها فى درانك ربيع مُفَوَّفة بالأزهار ، مطرّزة بالجداول والأنهار ، والغصون تختال فى أدْوَاحها ، وتتثنى فى أكف أرواحها ، وآثارُ الديار قد أشرفت عليهم كثكالى يَنُحْنَ على خرابها ، وانقراض [أترابها و] أطرابها ، والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غرابٌ ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شَذَاهم وتأرّجَتْ(٤) ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيئوا ظلالها ، وعَمَرُوا حدائقها وجَنَّاتها ، ونبهوا الآمال من سِنَاتها ، وراعوا الليوث فى آجامها ، وأخجلوا الغيوثَ عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفُّع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نُؤىٌ وأحجار ، قد وَهَت قِبابُها ، وهَرِمَ شبابُهَا ، وقد يلين الحديد ، ويَبْلَى على طيه الجديد ، فبينما هم يتعاطَوْنَهَا صغاراً وكباراً ، ويُدِيرونها أنساً واعتباراً ، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها :

حَسَدَ القصرُ فيكم الزهراءَ ولَعَمْرِى وعَمْرِكم ما أساءَ

قد طَلَعْتُم بها شموساً صباحًا فاطْلُعُوا عندنا بدوراً مَسَاءَ

---

(١) الشجاع – بضم الشين – الثعبان

(٢) فى ب « الوزير أحمد بن سراج » وفى نسخة عند ا « أبو الحسن بن سراج »

(٣) فى ب ونسخة عند ا « ويتبدلون الغصون . الخ » (٤) فى ا « وأرجت »

فساروا إلى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلساً قدحار فيه الوصف ، واحتشد فيه اللهو والقَصْف ، وتوقدت نجومُ مدامِه ، وتأوّدت قدودُ خُدّامه ، وأرْبى على الخَوَرْنق والسدير ، وأبدى صفحةَ البدر من أزْرَار المُدِير ، فأقاموا ليلتهم[1] ماعَرَاهم نوم ، ولا عداهم عن طيب اللذات سَوْم ، وكانت قرطبة منتهى أمله ، وكان رَوْم أمرها أشهى عمله ، ومازال يخطبها بمُداخله أهليها ، ومُواصلة واليها ، إذ لم يكن فى منازلتها قائد ، ولم يكن لها إلا حِيَل ومكايد ، لاستمساكهم بدَعْوة خلفائها ، وأَنَفتهم من طمُوس رسوم الخلافة وعَفَائها ، وحين اتفق له تملكها ، وأطلعه فلكها ، وحصل فى قطب دائرتها ، ووصل إلى تدبير رياستها و إدارتها ، قال :

مَنْ للملوك بشَأو الأصْيَدِ البطَلِ ؟ هيهات جاءتكم مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ[2]

خَطَبْتُ قرطبةَ الحسناء إذ مَنَعَتْ مَنْ جاء يخطُبها بالبيض والأسَل

وكم غَدَتْ عاطلاً حتى عَرَضْتُ لها فأصْبَحَتْ فى سَرِيِّ الحَلْيِ والحلل

عِرْسُ الملوك لنا فى قصْرِها عُرُسٌ كل الملوك بها فى مأتم الوَجَـــل

فراقبوا عن قريب لاأبالكم هجومَ ليْثٍ بدرع البأس مُشْتَمل

ولما انتظمت فى سلكه ، واتَّسَمَتْ بملكه ، أعطى ابنه الظافر زمامها ، وولاه نقضها و إبرامها ، فأفاض فيها نداه ، وزاد على أمده ومَدَاه ، وجملها بكثرة حِبَائه ، واستقل بأعبائها على فتَائه ، ولم يزل فيها آمراً وناهياً ، غافلا عن المكر ساهياً ، حُسْنَ ظن بأهلها اعتقده ، واغتراراً بهم مارواه ولا انتقده ، وهيهات كم من ملك كَفَّنُوه فى دمائه ، ودفنوه بذَمائه ، وكم من عرْشٍ ثلّوه[3] ، وكم من عز يزملك أذلوه ، إلى أن ثار فيها ابن عُكاَّشة ليلا ، وجر إليها حرباً وويلا ، فبرز الظافر منفرداً عن كُمَاته ، عارياً من حُمَاته ، وسيفه فى يمينه ، وهاديه فى الظلماء نور جبينه ، فإنه كان غلاما قد بلله[4] الشباب بأندائه ، وألحفه الحسن بردائه ، فدافعهم أكثر ليله ، وقد منع منه تلاحق رَجْله وخَيْله ، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لهالَعاً ، ولااستقال[5] منها ولا

(١) فى ا « فأقاموا ليلهم » (٢) فى أصل ا « مهرية الدول » (٣) فى ب ونسخة عند ا « كم من عرش فلوه » (٤) فى ا « كابلله » (٥) فى ا « ولا استقل منها »

سعى، فترك ملتحفاً فى الظلماء [١]، تحت نجوم السماء، معفراً فى وسط أكماء [٢]، تحرسه الكواكب، بعد المواكب، ويستره الحِنْدِس [٣]، بعد السندس، فمر بمصرعه سحراً أحد أئمة الجامع المغلِّسين، فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى، وهو أعرى من الحسام المنتضَى، فخلع رداءَه عن منكبيه ونضَاه، وستره به ستراً أقنع المجد به وأرضاه، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة، فكان المعتمد إذا تذكر صَرْعَته، وسعَّر الحزنُ لوعته، رفع بالعويل نداءه، وأنشد «ولم أدرِ مَن ألقى عليه رداءه» [٤]، ولما كان من الغد حُزَّ رأسه ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم، ويرشق نفس كل ناظر بألم، فلما رَمَقَتْه الأبصار، وتحققته الحماة والأنصار، رَمَوْا أسلحتهم، وسوَّوْا للفرار أجنحتهم، فمنهم من اختار فراره وجلاه، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه، وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره، ونَصْب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره، وعدل عن تأبينه، إلى البحث عن مفرقه وجبينه، فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة للوعته شافية، إلا إشارته إليه، فى تأبين أخويه، المأمون والراضى المقتولين فى أول النائرة، والفتنة الثائرة، انتهى.

وقد رأيت أن أزيد على ما تقدم – مما قصدت جَلْبه فى هذا الموضع – نبذة من كلام الفتح فى ذكر مُنْتزهات قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس ووصْف مجالس الأنس التى كانت بها مما تنشرح له الأنفس، ووقع ذكر غير قرطبة والزهراء لهما تبعاً، ولا يخلو ذلك من عبرة بحال مَنْ جَعَلَ فى اللهو مصيفاً ومُرْتَبَعاً، ثم طواه الدهر طَيَّ السجل، ومحا آثاره التى كانت تسمو وتجِلّ، وما قصدنا علم الله غير الاعتبار، بهذه الأخبار، لا الحث على الحرام، وتسهيل القصد إليه والمرام، والأعمال بالنيات، والله سبحانه كفيل بفضله وكرمه ببلوغ الأمنيات، وتعويضنا

ذكر منتزهات قرطبة ومجالس الأنس بها

---

(١) فى ا «بالظلماء» والتحافه الظلماء كناية عن نومه بغير غطاء

(٢) الأكماء: جمع كمأة، وفى ا «وسط الحماء» وهو جمع حمأة، وهو الطين الأسود (٣) الحندس – بكسر الحاء والدال بينهما نون ساكنة – الظلام الشديد

(٤) هذا صدر بيت من كلام أبى خراش الهذلى، وهو بتمامه:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ... سوى أنه قد سل عن ماجد محض

عن هذه النعم الفانيات ، بالنعم الباقيات السنيَّات .

من ترجمة ابن زيدون وفيها ذكر بعض المتنزهات

قال الفتح رحمه الله تعالى فى ترجمة الوزير أبى الوليد بن زيدون ، ماصورته : وأخبرنى الوزير الفقيه أبو الحسين[1] بن سراج رحمه الله تعالى أنه فى وقت فراره أضحى، غداة الأضحى ، وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينيه تلك الظِّباء الأوانس والآرام ، وقد كان الفطر وافاه ، والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى أعفاه[2]، فلما عاده منهما[3] ماعاد، وأعياه ذلك النكد المعاد ، استراح إلى ذكر عهده الحسن ، وأراح جفونه المسهَّدة بتوهم ذلك الوَسَن ، وذكر معاهد كان يخرج إليها فى العيد ، ويتفرج بها مع أولئك الغيد ، فقال :

خليليَّ لافطر يَسُرُّ ولا أضحَى ... فماحالُ من أمسى مَشُوقاً كما أضحى
لئن شاقنى شرق العُقَاب فلم أزل ... أخص بممحوض الهوى ذلك السَّفْحا[4]
ومانفك جوفىُّ الرُّصافة مُشْعِرِى ... دواعىَ بَثٍّ يُعْقِبُ الأسفَ البرحا
ويَهْتَاجُ قصرُ الفارسىِّ صبابة ... لقلبىَ لايألو زناد الأسى قَدْحا
وليس ذميما عهد مَجْلِسِ ناصح ... فأقبلَ فى فرط الولوع به نُصْحا[5]
كأنى لم أشْهَدْ لدى عَينِ شَهْدَةٍ ... نزال عِتاب كان آخره الفَتْحا
وقائعُ جانيها التجنى فإنْ مَشَى ... سفيرُ خضوعٍ بيننا أكَّدَ الصُّلْحا
وأيام وَصْلٍ بالعقيق اقتضيْتُه ... فإن لم يَكُنْ ميعادُه العيدَ فالفِصْحا
وآصال لهوٍ فى مُسَناةِ مالكٍ ... مُعاطاة نَدْمان إذاشئت أوسبْحا
لدى راكدٍ تُصْبيك من صفحاتِهِ ... قَوارِيرُ خُضْرٌ خلتهامُرِّدت صَرْحا
مَعَاهد لذات وأوطانُ صَبْوَةٍ ... أجلْتُ المُعَلَّى فى الأمانى بها قدْحا
ألاَ هلْ إلى الزهراء أوْبةُ نازحٍ ... تَقَضَّى تنائيها مَدامعُهُ نَزْحا
مَقاصيرُ مَلْكٍ أشْرقَتْ جنباتُها ... فخلنا العَشَايا الجُونَ أثناءَهاصُبْحا

(١) فى ب ونسخة عند ا « أبو الحسن » وانظر ص ١٥١ من هذا الجزء

(٢) فى ا « حتى عفاه » وكلاهما صحيح (٣) فى أصل ا « عاده منه »

(٤) ممحوض الهوى : خالصه (٥) فى ب ونسخة عند ا « مجلس ناصح »

يُمثِّلُ قُرْطَيْهَا لِيَ الوَهْمُ جَهْرَةً ... فقُبَّتَهَا فالكوكبَ الرَّحْبَ فالسَّطْحا

محلّ ارتياحٍ يذكرُ الخلدَ طيبُه ... إذا عزّ أن يَصْدَى الفتى فيه أو يضحى (١)

هُنَاكَ الجِمَامُ الزرق تَنْدَى حِفافُهَا ... ظِلالٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فيها فتًى سَمْحَا (٢)

تعوَّضْتُ من شَدْوِ القِيان خلالَها ... صَدَى فَلَوَاتٍ قد أطار الكَرَى صُبْحَا

ومِنْ حَمْلِيَ الكأسَ المُفدَّى مُدِيرُهَا ... تَقَحُّمَ أهوالٍ حَمَلْتُ لها الرمحا

أجَلْ إن لَيْلِي فَوْقَ شاطِىء نِيطَةٍ ... لأقْصَرُ من لَيْلِي بآنةَ فالبَطْحَا

وهذه معاهد بنى أمية قطعوا بها ليالى وأياماً ، وظلت فيها الحوادث عنهم نياماً ، فهاموا بشرق العُقَاب ، وشامُوا به برقاً يَبْدو من نِقاب ، ونعموا بجَوْفيِّ الرُّصافة ، وطعموا عيشاً تولى الدهر جلاءه وزفافه ، وأبعدوا نصح الناصح ، وحمدوا أنس مَحْبِسٍ ناصح ، وعُمُوا بالزهراء ، وصَمُّوا عن نبأ صاحب الزوراء ، حتى رحلهم (٣) الموت عنها وقوَّضهم ، وعوّضهم منها ماعوّضهم ، فصاروا أحاديثَ وأنباء ، ولم يتزودوا منها إلا حَنُوطا وكِباء ، وغدَتْ تلك المعاهدُ تصافحها أيدى الغِيَر ، وتناوحها نعبَات الطير ، وراحت بعد الزينة سُدَى ، وأمست مسرحا للبوم وملعباً للصَّدى ، يُسْمَع للجنّ بها عَزيف ، ويُصْرَع فيها البطلُ الباسل والنزيف ، وكذا الدنيا أعمالها خراب ، ومآلها آلٌ وسَرَاب (٤) ، أهلكت أصحاب الأخدود ، وأذهبت ما كان بمأرب من حِيازات وحُدُود ، انتهى .

وقال الفتح بعد كلام ماصورته : ولما عَضَّتْه أنيابُ الاعتقال ، ورَضَّتْه تلك النوَبُ الثقال ، وعُوّض بخشانة العيش من اللين ، وكابد قَسْوَةَ خَطْبٍ لا تلين ، تذكر عهد عيشه الرقيق ، ومَرَحه بين الرُّصافة والعقيق ، وحَنَّ إلى سعد زُرَّتْ عليه

(١) يصدى : يعطش ، ويضحى : يتعرض لحر الشمس ، ووقع فى أصل ا « يصحا » وفى نسخة « يمسى الفتى فيه أو يضحى » وكلاهما ردىء

(٢) فى ا «هناك الحمام الورق تندى جفافها» وفى ب ونسخة عند ا «الجمام الزرق تبدى خفافها » والجمام : جمع جمة ، وهى مكان اجتماع الماء ، وحفافها : جوانبها

(٣) فى ا « حتى راح بهم الموت » (٤) فى ا « وآمالها آل وسراب »

جُيُوبُه ، واستهدى نسيمَ عيشٍ طاب له هُبوبه ، وتأسَّى بمن باتت له النوائب بمرصاد ، ورمته بسهامٍ ذاتِ إقصاد [وضيمَ من عهد الأحصِّ إلى ذات الإصاد](١) فقال :

الْهوَى فى طُلوعِ تلك النجوم ... والْمُنَى فى هُبوبِ ذاك النَّسيمِ

سَرَّنا عيشُنا الرقيق الحواشي ... لو يدومُ السرورُ للمستديمِ

وَطَرٌ ما انقضَى إلى أن تَقَضَّى ... زمَنٌ ما ذِمامُه بالذَّميمِ

أيُّهَا المؤذِنِي بظُلْمِ اللَّيالِي ... لَيْسَ يَوْمِى بواجدٍ من ظَلُومِ

ما ترى البدرَ إن تأمَّلْتَ والشمسَ هُمَا يُكْسَفَان دونَ النجُومِ

وهُوَ الدَّهْرُ ليس ينفَكُّ يَنْحُو ... بالمُصَاب العظيم نحو العظيم

وقال الفتح أيضاً فى شأن ابن زيدون ، ما صورته :

ولما تعذر انفكاكه ، وعُفِّر فرقده وسماكه ، وعاودته الأوهام والفكر ، وخانه من أبى الحزم الصارمُ الذكر ، قال يصف ما بين مَسَرَّاته وكُروبه ، ويذكر بُعْدَ طلوع سَعْده من غروبه ، ويبكى لما هو فيه من التعذير ، ويعذر أبا الحزم وليس له غيره من عذير ، ويتعزى بإخناء(٢) الدهر على الأحرار ، وإلحاحه على التمام بالسِّرار ، ويخاطب وَلَّادَةَ بوَفَاء عهده ، ويُقيم لها البراهينَ على أرَقِه وسُهْده :

ما جال بَعْدَكِ لَحْظى فى سَنَى الْقَمَرِ ... إلا ذكَرْتُكِ ذِكْرَ الْعَيْنِ بالأثَرِ

ولا اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ الليل من أسَفٍ ... إلاَّ عَلَى ليلةٍ سَرَّتْ مع القِصَرِ

فى نَشْوَةٍ من سِنَاتِ الدَّهْرِ مُوهِمَةٍ ... أنْ لا مَسَافَةَ بين الوَهْنِ والسَّحَرِ(٣)

يا لَيْتَ ذاك السَّوادَ الجون مُتَّصِلٌ ... قد استعار سواد القلب والبصرِ

يا للرَّزايا لقد شافهتُ مَنْهَلَهَا ... غمراً فما أشربُ المكروهَ بالغُمَرِ

لا يهنأ الشامتُ المرتاحُ خاطرُهُ ... أنِّى مُعَنًّى الأمانى ضائعُ الخَطَرِ

هل الرياحُ بنَجْمِ الأرض عاصفَةٌ ... أم الكُسوفُ لغيرِ الشَّمْسِ والقمرِ

---

(١) الأحص : مكان بنجد كان مما حماه كليب وائل ، وذات الإصاد : من بلاد فزارة .

(٢) فى ا « بإنحاء الدهر » (٣) فى ب « فى نشوة من شباب الوصل »

إن طال فى السجن إيداعى فلا عَجَب قد يُودَعُ الجفنَ حَدُّ الصارم الذَّكَرِ
و إن يُثَبِّطْ أبا الحزم الرضا قَدَر عَنْ كَشْفِ ضُرِّى فلا عَتْب على القَدَرِ
مَنْ لم أزل مِنْ تَدَانيه على ثِقَةٍ ولم أبِتْ من تجنِّيه على حَذَرِ (١)

وله يتغزل ، و يعاتب من يستعطفه و يتنزل (٢) :

يا مستخفًّا بعاشِقيهِ ومُسْتَغِشًّا لناصِحِيهِ
ومَنْ أطاع الوُشاة فينا حتى أطَعْنَا السُّلوفيه
الحمدُ لله إذا أراني تكذيبَ ما كُنت تدَّعِيهِ
من قبل أن يُهْزَم التَّسَلِّى ويَغْلِبَ الشوق ما يليه

وما أحسن قولَ ابن زيدون المذكور فى قصيدته النونية الشهيرة :

غِيظَ العِدا من تَساقينا الهوَى فَدَعَوْا بأن نَغَصَّ فقال الدَّهْرُ آمينا

موشحة لابن الوكيل تتضمن أعجاز نونية ابن زيدون

ومن أغرب (٣) ما وقفت عليه مُوشَّحة لابن الوكيل دَخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون ، وهى :

غدا مُنَادينا مُحَكِّما فينا يَقْضِى علينا الأسى لولا تأسِّينا

بحرُ الهوى يُغْرِق مَنْ فيه جَهْده عَامْ
ونارُه تحْرِقْ مَنْ هم أو قَدْ هَامْ
ورُبَّمَا يُقْلِق فَتًى عليه نَامْ
قد غيَّرَ الأجسام وصيرَ الأيام سُودًا وكانَتْ بكم بِيضاً ليالينا

يا صاحبَ النَّجْوَى قِفْ واسْتَمِعْ منى
إيَّاك أن تهْوَى إن الهوى يُضْنِى
لا تقْرب البَلْوَى اسْمَعْ وقلْ عَنِّى
بِحَاره مرَّهْ خُضْنَا على غِرَّهْ حيناً فقام بها للنَّعى ناعينا
مَنْ هام بالغيدِ لاقى بهم هَمَّا

(١) فى ا « من لم أزل من تأنيه على ثقة »
(٢) فى ا « ويعاتب من يستعطف ويستنزل » (٣) فى ا « ومن غرائب »

بذلتُ مجهودى لأحْورٍ ألْمى
يَهُمُّ بالجود وردّ ماهمّا

وعند ما قد جاد بالوصْلِ أو قدكاد أضحى التنائى بديلا مِنْ تدانينا

بِحقِّ مابينى وبَيْنكمُ إلا
أقْررْتُم عيْنِى فتجمعُوا الشملاَ
فالعَيْنُ بالبَيْنِ بفَقْدكم أبْلَى

جديد ماقدكان بالأهل والإخوان وموْرِدِ اللهوِ صافٍ منْ تصافينا

يا جيرةً بانت عنْ مُغرم صبِّ
لعَهْده خانتْ منْ غيْر ما ذنبِ
ما هٰكذا كانتْ عوائِدُ العُرْبِ

لا تحسبوا البعدا يغيِّر العهدا إذ طالما غير النأى المحبينا

ياناز لاً بالبان بالشفع وَالْوترِ
والنمل والفرقان والليل إذا يَسْرِ
وسورة الرحمن والنحل والحِجْرِ

هل حل فى الأديان أن يقْتُلَ الظمآن مَنْ كان صِرْفَ الهوى والود يسقينا

يا سائل القطْرِ عرِّج على الوادى
من ساكنى بدر وقِفْ بهم نادى
عسى صباً تَسْرِى لمغرم صادى

إن شئت تُحْيينا بلغ تحيتنا منْ لَوْ عَلَى البُعْدِ حيًّا كان يُحيينا

وافتْ لنا أيام كأنها أعْوَام
وكان لى أعْوَام كأنها أيام
تمرُّ كالأحْلام بالوصل لى لودام

والكأسُ مُتْرَعَة حُثَّتْ مُشَعْشَعَة فينا الشَّمولُ وغَنَّانا مُغَنِّينا

رجع إلى مايتعلق بقرطبة ــ قال الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنَة ، يخاطب الوزير أبا الحسين بن سراج ، ويذكر لَمَّةً إخوانه بقرطبة :

قصيدة للوزير ابن القبطرنة

ياسيدِّى وأبى هُدًى وجَلالةً ورسولَ وُدِّى إن طلبت رسولا
عرِّجْ بقرطبةٍ ولُذْ إن جئتها بأبى الحسين وناده تعويلا
فإذا سعدت بنظرة من وجهه فاهد السلام لكفه تقبيلا
واذكر له شكرى وشوقى مجملا ولو استطعت سردته تفصيلا
بتحيةٍ تُهْدَى إليه كأنما جرَّت على زهرِ الرياض ذُيُولاَ
وأشِمَّ منها المصحفى على النّوَى نفساً ينسِّى السوسن المبلولا
وإلى أبى مَرْوَانَ منه نفْحَة تهدى له نَوْرَ الربا مَطْلولا
وإذا لقيت الأخطى فَسَقِّه من صفوِ وُدِّى قرقفاً وشَمُولا
وأبو على سَقِّ منها ربعه مسكا بماء غمامة محلولا[1]
واذكرلهم زمناً يهب نسيمه أصُلاً كنَفْثِ الراقيات عليلا[2]
مولًى ومولِىَ نعمةٍ وكرامة وأخا إخاء مخلصاً وخليلا
بالحَيْرِ ماعبست هناك غمامة إلا تضاحك إذخِراً وجَليلاَ
يوما وليلا كان ذلك كلُّه سحراً وهذا بكرة وأصيلا
لا أدركت تلك الأهلة دَهْرَهَا نقصاً ولاتلك النجومُ أُفُولاَ

قال أبو نصر : الحير[3] الذى ذكره هنا هو حَيْرُ الزَّجَّالى خارج باب اليهود بقرطبة الذى يقول فيه أبو عامر بن شُهَيد :

---

(١) فى نسخة عند ا « وأبو على رو منها ربعه »

(٢) الأصل ــ بضمتين ــ جمع أصيل ، وهو وقت اصفرار الشمس

(٣) الحير ــ بالفتح ــ فى الأصل المكان يجتمع الماء فيه ، وهو ــ هنا ــ البستان

لقد أطْلَعُوا عند باب اليهو د شمساً أبىَ الحسنُ أن تكسفا
تراه اليهودُ على بابهـــا أميراً فتحْسَبُه يوسُــفا

وصف حير الزجالى

وهذا الحَيْرُ من أبدع المواضع وأجملها ، وأتمها حسناً وأ كملها ، صحنه مرمر صافى البياض ، يخترقه جدول كالحية النَّضْناض ، به جابية ، كل لجة بها[1] كابية ، قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزَّرَتْ بهما جوانبه وأرجاؤه ، والروض قد اعتـدلت أسطاره ، وابتسمت من كمائمها أزهاره ، ومنع الشمس أن ترمق ثراه ، وتعطَّر النسيم بهبو به عليه ومَسْراه ، شهدت به ليالى وأيَّاما كأنما تصورت من لمحات الأحباب ، أو قُدَّت من صفحات أيام الشباب ، وكانت لأبى عامر بن شُهَيد به فُرَجٌ وراحات ، أعطاه فيها الدهر ماشاء ، ووالى عليه الصحو والانتشاء ، وكان هو وصاحب الروض المدفون بإزائه أليفَىْ صَبْوَة ، وحليفى نشوة ، عكفافيه على جِرْيالهما[2] ، وتصرفا بين زَهْوهما واختيالهما ، حتى ردَّاهما الردى ، وعداهما الحمام عن ذلك المدى ، فتجاورا فى الممات ، تجاورهما فى الحياة ، وتقلصت عنهما وارفات تلك الفيآت ، و إلى ذلك العهد أشار ابن شُهَيد و به عرَّض ، و بشوقه صحح ومامرض ، حيث يقول عند موته يخاطب أبا مروان صاحبه وأمر أن يُدْفَنَ بإزائه و يكتب على قبره :

يا صاحِبِى قم فقد أطَلْنا أنحنُ طولَ المدى هُجودُ ؟
فقال لى : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصَّعيد
تذكركم ليــلة نعِمْنا فى ظِلِّها والزمان عيد
وكم سروراً همَى علينا سحابه ثَرَّةً تجـود ؟[3]
فخيرُهُ مُسرعا تقضَّى وشـؤمه حاضر عَتِيدُ[4]
حصَّـله كاتب حفيظ وضمه صـادق شهيد
يا ويلنا إن تنكَّبَتْنا رحمةُ مَنْ بَطْشُهُ شـديد

(١) فى أصل ا « كل لجة فيها كابية » (٢) الجريال : من أسماء الخمر
(٣) سحابة ثرة : أى كثيرة الماء (٤) صدره فى ا « كل كأن لم يكن تقضى »

يارَبِّ عفواً فأنت مولًى قَصَّرَ فى أمرِكَ العبيد[١]

انتهى .

ثم قال بعد كلام : وركب أبو الحسن بن القَبْطُرْنَة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسين بن سراج ، فنظر إلى أبي الحكم بن حزم غلاما كما عَقَّ تمائمه[٢] ، وهو يروق كأنه زهر فارق كمائمه ، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فيه ، فأرتج عليه[٣] ، فثنى عنان القول إليه ، فقال :

رأى صاحبى عَمْراً فكَلَّفَ وصفه وحَمَّلنى من ذاك ماليس فى الطوق

فقلت له : عمرو كعمرو ، فقال لى : صدقت ولكن ذاكَ شَبَّ على الطَّوْقِ[٤]

بنو القبطرنة الوزراء ومنزلتهم

وكان بنو القَبْطُرْنَة بالأندلس أشهَرَ من نار على عَلَم ، وقد تصرفوا فى البراعة والقَلم ، ولهم الوزارة المذكورة ، والفضائل المشكورة ، ولذا قال أبو نصر فى حقهم ما صورته :

هم للمجد كالأثافِى ، ومامنهم إلا موفور القَوادم والخَوافى ، إن ظهروا ، زَهَرُوا ، وإن تجمَّعُوا ، تضوّعوا ، وإن نطقوا ، صدقوا ، ماؤهم صَفْو ، وكل [واحد] منهم لصاحبه كُفْو ، أنارَتْ بهم نجومُ المعالى وشموسُها ، ودانت لهم أرواحُها ونفوسُها ، ولهم النظام الصافى الزجاجة ، المضمحل العجاجة ، انتهى .

ثم قال : وبات منهم أبو محمد مع أخويه فى أيام صِباه ، واستطابتهِ[٥] جَنُوب الشَّباب وصَباه ، بالمنية المسماة بالبديع ، وهو روض كان المتوكل يَكْلَف بموافاته ، ويبتهج بحسن صفاته ، ويقطف رياحِينَه وزَهَرَه ، ويوقف عليه إغفاءهُ وسَهَرَه ، ويستفزه الطرب متى ذَكَرَه ، وينتهز فُرَصَ الأنس فيه رَوْحَاته وبُكَره ، ويدير حُمَيَّاه على ضفة نهره ، ويخلع سره فيه لطاعة جهره ، ومعه أخَوَاه فطاردوا اللذات

---

(١) فى ا «قصر فى شكره العبيد» (٢) عق تمائمه : كناية عن مجاوزته حد الطفولة
(٣) أرتج عليه ـ بالبناء للمجهول ـ استغلق عليه الكلام
(٤) فى ب ونسخة عند ا «ولكن ذا أشب على الطوق»
(٥) فى ب ونسخة عند ا « واستطابة جنوب الشباب »

حتى أنضَوْهَا ، ولبسوا برود السرور وما نَضَوْها ،حتى صرعتهم العُقَار، وطَّحتهم تلك الأوقار ، فلما همَّ رداءُ الفجر أن يَنْدَى ، وجبينُ الصبح أن يتبدَّى ، قام الوزير أبو محمد فقال :

يا شقيقى وافى الصباحُ بوَجْهٍ ستَرَ الليلَ نورُه وبَهَاؤُه
فاصْطَبِحْ واغتنم مَسَرَّةَ يومٍ لَسْتَ تدرِى بما يجىءُ مَسَاؤُه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال :

يا أخِى قم ترَ النَّسيمَ عليلا باكِرِ الرَّوْضَ والمدامَ شَمُولَا
لا تَنَمْ واغتنم مَسَرَّةَ يومٍ إن تحت التراب نَوْمًا طويلا
فى رياضٍ تعانقَ الزهْرُ فيها مثلَ ما عانق الخليلُ الخليلَا(١)

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن ، وقد هبَّ من غفلة الوَسَن(٢) ، فقال :

يا صَاحِبَيَّ ذَرَا لَوْمِى ومَعْتَبَتِى قُمْ نَصْطَبِحْ خمرةً من خَيْرِ ماذخَرُوا
وبادِرَا غفلَةَ الأيام وَاغْتَنِمَا فاليومَ خمر ويَبْدُو فى غدٍ خَبَرُ(٣)

وساق صاحبُ البدائع هذه القصة فقال : وذكر الفتح ما هذا معناه أنه خرج الوزراء بنو القَبْطُرْنَة إلى المُنْيَة المسماة بالبديع ، وهو روض قد اخضَرَّت مسارحُ نباته ، واخْضَلَّت مسارى هَبَّاته ، ودَمَعَت بالطلِّ عيونُ أزهاره ، وذاب على زَبَرْجَده بَلُّور أنهاره ، وتجمعت فيه المحاسن المتفرِّقة ، وأضحت مُقَل الحوادث عنه مُطرِقة ، فخيولُ النسيم تركض فى مَيَادينه فلا تَكْبُو ، ونصولُ السواقى تحسم أدواء الشجر فلا تنبو ، والزروع قد نقَّبتْ وجه الثرى ، وحجبت الأرض عن العيونِ فما تبصر ولا تُرَى ، وكان المتوكل بن الأفطس يعده غاية الأرب ، ويُعِدُّه مشهدًا للطرب ، ومدفعاً للكرب ، فباتوا فيه ليلتهم يديرون لُمَعَ لَهَب يتمنون فيه الخلود ، ويَتَحَسَّوْنَ(٤) ذَوْب ذهب لا يُصْهَر به ما فى بطونهم والجلود، حتى تركتهم

(١) فى ا « مثل ما عانق الخليل خليلا » (٢) الوسن – بفتح الواو والسين – النوم
(٣) أخذ هذا من قول امرىء القيس بن حجر « اليوم خمر وغداً أمر »
(٤) فى ب ونسخه عند ا « ويحسون ذوب ذهب »

ابنة الخابية ، كأنهم أعجازُ نخل خاوية ، فلما هزم رُومىُّ الصباح زنجىَّ الظلام ، ونادى الديك حىَّ على المُدام ، انتبه كبيرُهم أبو محمد مستعجلا ، وأنشد مرتجلا * يا شقيق - إلخ * فانتبه أخوه أبو بكر لصوته ، وتخوّف لذهاب ذلك الوقت وفَوْته ، وأنبه أخاهما أبا الحسن وهو يرتجل * يا أخى قم تر النسيم - إلى آخره * فانتبه أخوه لكلامه ، دافعاً لذة منامه للذة قيامه ، وارتجل * ياصاحبىَّ ذَرَا - إلخ ، انتهى .

حديث عن الوزير ابن اليسع

قال الفتح : ولما أمر المعتمد بن عباد أبا بكر بن القَبْطُرْنة السابق الذكر مع الوزير أبى الحسين بن سراج بلقاء ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليَسَع القائد والمشى إليه ، والنزول عليه ، تنويهاً بمَقْدمه[١] ، وتنبيهاً على حظوته لديه وتقدمه ، فصارا إلى بابه ، فوجداه مقفرا من حُجَّابه ، فاستغربا خُلُوّه من خَوَل ، وظنَّ كلٌّ واحد منهما وتأوّل ، ثم أجمعا على قَرْع الباب ، ورَفْع ذلك الارتياب ، فخرج وَهُو دهِش ، وأشار إليهما بالتحية ويَدُه ترتعش ، وأنزلهما خجِلا ، ومشى بين أيديهما عَجِلا ، وأشار إلى شَخْص فتوارى بالحجاب ، وبارى الريحَ سرعة فى الاحتجاب ، فقعدا ومُقْلة الخِشْف[٢] ، ترمق من خلال السِّجْف[٣] ، فانصرفا عنه ، وعزما أن يكتبا إليه بما فهما منه ، فكتبا إليه :

سَمِعْنَا خَشْفَةَ الخِشْفِ ... وشِمْنَا طَرْفَةَ الطَّرْفِ
وصَدَّقْنَا ولم نقطع ... وكَذَبْنَا ولم نَنْفِ
وأغْضَيْنَا لإجلالك ... عن أُكرومَةِ الظَّرْفِ[٤]
ولم تُنْصِف وقد جِئْنا ... كَ ما نَنْهَضُ من ضَعْفِ[٥]
وكان الحكم أن تَحْمِلَ ... أو تُرْدِفَ فى الرِّدْفِ[٦]

فراجعهما فى الحين[٧] بقطعة منها :

(١) فى ا « تنويها لمقدمه » (٢) الخشف - بكسر فسكون - ولد الظبية
(٣) فى ا « من خلل السجف » والسجف - بكسر فسكون - وهو الستر
(٤) كذا فى أصل ا ، وفى ب ونسخة « أكرومة الطرف » وفى أخرى « أكرومة الطيف » (٥) فى نسخة « ولم ننصف ... ماننهض »
(٦) فى ا « وكان الحق » (٧) فى نسخة عند ا « فراجعهما أبو الحسن »

أيا أسفي على حالٍ سلبت بها من الظرف(١)
ويا لهفي على جهلي بضيف كان من صنف(٢)

ولأهل الأندلس فى مغانى الأنس الحسان ، مالا يفى به لسان .

من ترجمة ابن حسداى فى وصف مجلس أنس

وقال الفتح فى ترجمة الوزير أبى الفضل بن حَسْدَاى ، بعد كلام ، ماصورته : فمنها هذه القطعة التى أطْلعهَا نيرة ، وترك الألباب بها متحيرة ، فى يوم كان عند المقتدر بالله مع عِلْية، قد اتخذوا المجد حِلْية ، والأملُ قد سفَر لهم عن مُحيّاه ، وعبق لهم [عن] رَيَّاه ، فصافحه الكل منهم وحَيَّاه ، وشمس الراح ، دائرة على فلك الراح(٣)، والملك ينشر فضله ، وينثر وابله وطَلّه ، يُسْدى العلاَء ، ويهب الغنى والغناء ، فصَدَحَت الغوانى ، وأفصحت المَثالث والمثانى ، بما استنزل من مرقب الوقار ، وسرى فى النفوس مسرى العُقَار :

توريدُ خدِّك للأحداق لَذَّاتُ عليه من عَنْبَر الأصداغ لاَمَاتُ
نِيرانُ هجرك للعُشَّاق نارُ لَظًى لكنَّ وَصْلَكَ إن وَاصَلْتَ جَنّاتُ
كأنما الراحُ والراحاتُ تَحْمِلُها بُدُورُ تِمٍّ وأيْدِى الشَّرْبِ هالاتُ
حُشَاشَةٌ ما تركنَا الماءَ يَقْتُلُهَا إلا لتَحْيَا بها منا حُشاشَاتُ
قد كان فى كأسها مِنْ قبْلها ثِقَلٌ فخَفَّ إذ مُلِئَتْ منها الزُّجاجاتُ
عَهْدٌ لِلُبْنَى تقاضَتْه الأماناتُ بانَتْ وما قُضِيت منها لُبَاناتُ
يُدْنِى التوهمُ للمشتاق مُنْتَزِحًا من الأمور ، وفى الأوهام راحاتُ
تُقْضَى عِداتٌ إذا هَبَّ الكرى ، وإذا هبَّ النسيمُ فقد تُهْدَى تحيَّاتُ
زُورٌ يُعَلِّل قلبُ المُسْتَهَام به دَهْرًا ، وقد بَقِيَتْ فى النفس حاجاتُ
لعل عَتْبَ الليالى أن يَعُودَ إلى عُتْبَى فَتُبْلَغَ أوْطَارٌ ولذاتُ
حتى نَفُوز بما جادَ الخيالُ به فرُبمَا صَدَقَتْ تلك المَنَامَاتُ

(١) فى ا «سلت بها» وفى ب ونسخة عندنا «من الطرف»
(٢) فى ب «بنصف كان من نصف» وصنف : أراد به صنفاً معهوداً يستريح خاطره إليه
(٣) الراح الأول : الخمر ، والراح الثانى : اليد ، وفى ب ونسخة عندنا «فلك الأفراح»

ما صنع فى عرس المستعين

ولما أعرس المستعينُ بالله بينت الوزير الأجل أبى بكر بن عبد العزيز احتفل أبوه المؤتمن فى ذلك احتفالا شهرَه ، وأبدع فيه إبداعاً راق مَنْ حضره وبهره ، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، ما بهرَ الألباب ، وقطَع [بذكائه] دون معرفتها الأسباب ، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس ، مِنْ دَانٍ وقاص ، ومُطِيع وعاص ، فأتوْه مسرعين ، ولبوه متبرعين ، وكان مُدِيرُ تلك الآراء ومُدبِّرَها ، ومنشىء مخاطباتها ومُحبِّرُها ، الوزير الكاتب أبو الفضل ، وصدرت عنه فى ذلك الوقت كتب ظهر إعجازُهاَ ، وبهر اقتضابها وإيجازها ، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر : محلك أعزك الله فى طى الجوانح ثابتٌ وإن نزحت الدار ، وعِيانُكَ فى أحناء الضلوع بادٍ وإن شحَطَ المزار ، فالنفس فائزة منك بتمثّل الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن تمتع من لقائك بظفَر اللحظ ، فلا عائدة أسبغ بُرْدَا ، ولا موهبة أسْوَغُ وِرْدَا ، من تفضلك بالخفوف[1] إلى مأنسٍ يتم بمشاهدتك التئامُه ، ويتصل بمحاضرتك انتظامه ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال ، وأنا أعزك الله على شرَف سُؤْددك حائم ، وعلى مَشْرَع سنائك حائم ، وحَسْبى ما تتحقّقه من نِزَاعى وتشوُّقى ، وتتيقنه من تطلعى وتتوقى ، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الانشراح[2] بارتقاب الصلة ، وأنت وَصَلَ الله سَعْدَك بسَمَاحة شيمك ، وبارع كرمك ، تُنْشىء للمؤانسة عهدا ، وتُورِى بالمكارمة زَنْدا ، وتقتضى بالمشاركة شكرا حافلا وحمدا ، لازلتَ مُهنَّئاً بالسعود المقتبلة[3] ، مُسوَّغا اجتلاء غُرَرِ الأمانى المتهللة ، بمنه ، انتهى .

وصف مجلس من مجالس المستعين

ثم قال بعد هـــذا بيسير ، ما نصه : وركب المستعين بالله يوما نهر سَرَقُسْطة يريد طِرَادَ لذته ، وارتياد نزهته ، وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بلبَّته ،

(١) الخفوف : الإسراع ، ووقع فى ب ونسخة عند ا « تفضلك باللحوق »
(٢) فى ب « واعترض الاقتراح باستحباب الصلة » وفى نسخة « الانتزاح بارتقاب الصلة »
(٣) فى ا « المقبلة »

واجتمع له من أصحابه ، من اختصه لاستصحابه ، وفيهم أبو الفضل مشاهداً لانفراجهم ، سالكا لمنهاجهم ، والمستعين قد أحضر من آلات إيناسه ، وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه ، ما رَاقَ مَنْ حضر ، وفاق حسنُه الروضَ الأنضر ، والزوارق قد حفت به ، والتفَّت بجوانبه ، ونغماتُ الأوتار تحبس السائر عن عَدْوِه ، وتخرس الطائر المُفْصِح بشَدْوِه ، والسمك تثيرها المكايد ، وتغوصُ إليها المصايد ، فتبرز منها للعين ، قُضْبَان در أو سبَائِك لُجَيْنِ ، والراحُ لايطمس لها لمع ، ولايبخس(١) منها بصر ولاسمع ، والدهرُ قد غضت صروفُه ، واقتص من نكره(٢) معروفه ، فقال :

لله يوم أنيقٌ واضــحُ الغُرَرِ ... مُفَضَّض مُذْهَبُ الآصال وَالبُكَرِ
كأنما الدهرُ لما ساء أعْتَبَنَا ... فيه بعُتْبَى وأبْدَى صَفْحَ مُعْتَذِرِ
نسيرُ فى زَوْرَقٍ حفَّ السَّفِينُ به ... من جانبيه بمنظومٍ ومُنْتَثِرِ
مدَّ الشراعُ به نشراً على مَلِكٍ ... بَذَّ الأوائلَ فى أيامــه الأخَرِ
هو الإمام الهمام المستعينُ حوى ... علياء مؤتمن عن هَدْيِ مُقْتَدِرِ
تحوى السفينة منــه آيةً عجبا ... بحر تجمَّع حتى صار فى نهرِ
تُصاد من قعْرِه النينانُ مُصْعدة ... صيْدًا كما ظفر الغوّاصُ بالدُّرَرِ(٣)
وللندامى به عَبٌّ ومُرْتَشَفٌ ... كالريق يَعْذُب فى وِرْدٍ وفى صدَرِ
والشَّرْبُ فى مَدح مولًى خلقُه زهرٌ ... يَذْكُو وغرَّتُه أبهى من القمر(٤)

من ترجمة البطليوسي فى وصف مجلس الناعورة

وقال فى ترجمة العلامة الكبير ، الأستاذ أبى محمد عبد الله بن السِّيد البطليوسى شارح أدب الكتاب وسقْط الزَّند وغيرهما ، ما صورته : أخبرنى أنه حضر مع المأمون بن ذى النون فى مجلس الناعورة بالمُنية التى تطمح إليها المُنَى ، ومَرْآها هو المقترح والمتمنى ، والمأمون قد احْتَبَى ، وأفاض الحُبا ، والمجلسُ

(١) فى ا « ولاينجس » (٢) فى ا « واقتص من منكره »
(٣) فى ا « تثار من قعره النينان » والنينان : جمع نون ، وهو الحوت
(٤) فى ا « والشرب فى ود مولى »

يروق كأن الشَّمسَ(١) فى أُفُقِه ، والبدرَ فى مفرقه ، والنَّوْر عبق ، وعلى ماء النهر مُصْطبح ومُغْتبق ، والدولاب يئن كناقة إثر الحوار ، أو كثكلى من حر الأوار ، والجوّ قد عنبرته أنواؤه ، والروض قد رشّته أنداؤه ، والأسد قد فغرت أفواهها ، ومجت أمواهها ، فقال :

يا مَنْظرًا إنْ نظرتُ بهجته ... أذكرنى حُسْنَ جنَّة الخُلْدِ
تُرْبَةُ مسْكٍ ، وجوّ عنبرةٍ ، ... وغَيمُ ندّ ، وطشٌّ ما وَرْدِ
والماء كاللازوَرْدِ قد نظمتْ ... فيه اللآلى فواغرُ الأسْدِ
كأنما جائلُ الحباب به ... يلعبُ فى جانبيه بالنرْدِ
تراهُ يزْهُو إذا يحلُّ به الـ ... ـمأمونُ زَهْوَ الفتاة بالعقدِ(٢)
تخاله إنْ بدا به قمراً ... تمًّا بدا فى مطالع السَّعْدِ
كأنما ألبِستْ حدائقُهُ ... مَا حازَ من شِيمَةٍ ومن مجْدِ
كأنما جادها فروَّضها ... بوابلٍ من يمينه رَغْدِ
لازالَ فى رِفعةٍ مُضاعفةٍ ... متمم الرِّفْدِ وارِىَ الزَّنْدِ(٣)

وقال فى وصف هذا المجلس بعينه ، فى الكتاب الذى أفرده لترجمة ابن السِّيد ماصورته : فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذى النون بمجلس الناعورة بطليْطلة فى المنية المتناهية البهاء والإشراق ، المباهية لزَوْراء العراق ، التى ينفح شذاها العَطِر ، ويكاد من الغضارة يُمْطر ، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه ، وحكم العُقار فى جوده ونداه ، والمجلسُ يشرق كالشمس فى الحمل ، ومن حواه يتهج كالنفس عند منال الأمل ، والزهر عبق ، وعلى ماء النهر مُصْطبح ومغتبق ، والدولابُ يئن كناقة إثر حُوار ، إلى آخر ما سبق .

وصف آخر لمجلس الناعورة

وقال الفضل(٤) فى وصف هذا المجلس حاذياً حذو الفتح ، ماصورته : حضر

(١) فى ب ونسخة عند ا « كالشمس فى أفقه »
(٢) فى ا « تراه يزهي » بالبناء للمجهول
(٣) فى ا « لازال فى عزة » وفى ب « متمم الوفد » محرفا عما فى نسخة « ميمم الوفد »
(٤) فى نسخة عند ا « وقال أبو ظافر »

الأستاذ أبو محمد بن السِّيد عند المأمون ابن ذى النون فى بعض منتزهاته فى وقت طاب نَعيمُه ، وسَرَت بالسعود نجومه ، والروض قد أجادوَشْيَه راقمه ، والماء قد جَرَت بين الأعشاب أراقمه ، وثم بركة مملوة ، كأنها مرآة مجلوة ، قد اتخذت سباعُ الصُّفْر بشاطئها غابا ، ومَجَّت بها من سائغ الماء لُعَاباً ، فكأنها آساد عَيْن ، أدْلَعَتْ ألسنة من لُجَين ، وهى لا تزال تقذف الماء ولا تَفْتُر ، وتنظم لآلى الحباب بعد ما تنثر ، فأمره بوصف ذلك الموضع ، الذى تَخِدُ إليه ركائبُ القلوب وتُوضع ، فقال بديها * يا منظرا إلخ ، انتهى .

فى وصف الخمر

ثم قال الفتح فى هذا التصنيف بعد كلام فى المذكور ، مانصه : وما أبدع قوله فى وصف الراح ، والحضّ على النبذ للهموم والاطّراح ، بمُعَاطاة كأسها ، وموالاة إيناسها، ومُعَاقرة دِنانها ، واهتصار ثمار الفُتُوّة من أفنانها (١) ، والإعراض عن الأيام وأنكادها ، والجَرْى فى مَيْدان الصَّبْوة إلى أبعد آمادها (٢):

سَلِّ الهُمُومَ إذا نبَازَمَن ... بمُدَامة صَفْرَاء كالذّهبِ
مُزِجت فمن دُرٍّ على ذَهبٍ ... طافٍ ومن حَبَبٍ على لَهَبِ
وكأنَّ ساقِيهَا يُثِيرُ شَـذَى ... مِسْكٍ لدَى الأفوام مُنْتَهبِ

ولله هو فقد ندب إلى المندوب ، وذهب إلى مداواة القلوب من الندوب (٣) ، وإبرائها من الآلام ، وإهدائها كلَّ تحية وسلام ، وإبهاجها بآصال وبُكَر ، وعلاجها من هموم وفكر ، فى زمن حَلِيَ عاطله ، وجُلّى فى أحسن الصور باطله ، ونفقت مُحَالاته (٤)، وطبقت أرضهوسماءهُ استحالاته ، فليثه كأسد ، وذئبه مُسْتأسد وأضغاثه تُنْسر ، وبِغَاثه قد اسْتَنْسر (٥)، فلا استراحة إلا فى مُعَاطاةِ حُمَيّاً ، ومواخاة وسيم المحيَّا ، وقد كان ابن عمار ذَهب مذهبه ، وفَضَّضه بالإبداع وذهَّبه ، حين دخل سَرَقُسْطة ورأى غباوة أهلها ، وتكاثُفَ جهلها ، وشاهد منهم من لا يعلم

(١) فى ا «وأفنانها» والأفنان : الأغصان (٢) فى ا « إلى بعد آمادها »
(٣) الندوب : جمع ندب ، وهو الجرح (٤) نفقت : راجت
(٥) أخذه من قولهم فى مثل « إن البغاث بأرضنا تستنسر »

معنى ولا فصْلا ، وواصَل من لا يعرف قَطْعاً ولا وصلا ، فأقبل على راحِهِ يتعاطاها ، وعكف عليها ما تعدّاها ولا تخطّاها ، حتى بلغه أنهم نقموا مُعاقرته العُقار ، وجالت ألسنتُهم فى تو بيخه مَجالَ ذى الفقار(١) ، فقال :

نقمتم عَلَىَّ الرَّاح أُدْمِنُ شربها ... وقلتم فَتَى راحٍ وليس فتى مجد
ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى ... سِوَاىَ ومن أعطى كثيرا ولم يُكْدِ ؟
فديتكمو لم تفهموا السِّرَّ ، إنما ... قَلَيتكم جَهْدِى فأبعدتكم جَهْدِى(٢)

ودعى ابن السِّيد ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب ، وقرع [فيه] السرورُ نبعه بالغَرَب ، ولاحت نجوم أكواسه ، وفاح نسيم رَنْدِهِ وآسه ، وأبدت صدور أباريقه أسرارها ، وضمت عليه المجالس أزرارها ، والراح يديرها أهيف أوطف(٣) ، والأمانى تُجْنَى وتُقْطَف ، فقال :

يارُبَّ ليلٍ قد هتكتَ حجابه ... بمدامة وَقادة كالكوكب
يَسْعَى بها أحْوَى الجُفُون كأنها ... من خدِّه وَرُضاب فيه الأشْنَبِ
بدران بدرٌ قد أمِنْتَ غروبَه ... يسعى ببدر جانح للمغرب
فإذا نعِمتَ برشْفِ بدر غارب ... فانعم برشفةِ طالعٍ لم يغرُب
حتى ترى زُهرَ النجوم كأنها ... حول المجرَّة رَبْرَبٌ فى مشرب
والليل منفجر يطير غرابه ... والصبح يطرُده ببازٍ أشهب(٤)

قدوم البطليوسى على المستعين بسرقسطة ومدحه

ثم قال الفتح ، بعد كلام كثير ، ماصورته : ودخل ـ يعنى ابن السِّيد ـ سَرَقُسْطة أيام المستعين وهى جنة الدنيا ، وفتنه المْحيَا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقَصْف ، ملك نمير البشاشة ، كثير الهشاشة ، وملك أبهج الفِناَء ، أرِجُ الأرجاء ، يروق المجتلى ، و يفوق النجم المعتلى ، وحضرة منسابة الماء ، منجابة

---

(١) ذو الفقار : اسم علم على سيف على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وأرضاه
(٢) قليتكم : كرهتكم (٣) أهيف : ضامر البطن ، وأوطف : طويل أهداب العين
(٤) فى ا «والليل منحفز» وفى نسخة عندها « منحفر »

السماء ، يبسم زهرها ، وينساب نهرها ، وتتفتح خمائلها ، وتتضوع صباهاوشمائلها ، والحوادث لا تعترضها ، والكوارث لاتقترضها[١] ، ونازلها من عرس إلى موسم ، وآملها متصل بالأمانى ومُتَّسم ، فنزل منها فى مثل الخورنق والسدير ، وتصرف فيها بين روضة وغدير ، فلم يَخْفَ على المستعين احتلاله ، ولم تَخْفَ لديه خلاله ، فذكره معلماً به ومعرفا ، وأحضره مُنَوِّها به ومشرفا ، وقد كان فر من ابن رَزِين ، فرار السرور من نفس الحزين ، وخلص من اعتقاله ، خلوص السيف من ثقاله ، فقال يمدحه :

هُم سلبونى حسن صبرىَ إذ بانوا ... بأقمار أطواق مطالعُها بانُ
لئن غادرونى باللوى إن مهجتى ... مسايرة أظعانَهُمْ حيثما كانوا
سقى عهدهم بالخَيْفِ عهدُ غمائم ... ينازعها نهر من الدمع هتَّان[٢]
أأحبابنا هل ذلك العهد راجع ... وهل لىَ عنكم آخِرَ الدهر سُلوان
ولى مقلة عَبْرَى و بين جوانحى ... فؤاد إلى لُقْياكم الدهْرَ حنّان
تنكرتِ الدنيا لنا بعد بُعْدِكم ... وحَفَّتْ بنا من مُعْضِل الخطب ألوان
أناخت بنا فى أرض شَنْتَمَرِية ... هواجسُ ظَنٍّ خَانَ والظن خوان
وشِمْنَا بروقا للمواعيد أتعبت ... نواظرنا دهراً ولم يَهْمِ تَهْتَانُ
فسرنا وما نُلْوِى على متعذر ... إذا وطن أقصاك آوتك أوطان
ولا زاد إلا ماانتشته من الصَّبَا ... أنوف وحازته من الماء أجفان
رحلنا سَوَامَ الحمد منها لغيرها ... فلا ماؤها صَدًّا ولا النبت سَعْدَان[٣]
إلى ملك حاباه بالمجد يوسف ... وشاد له البيتَ الرفيعَ سليمان
إلى مستعين بالإله مؤيد ، ... له النصر حزب والمقادير أعوان
جَفَتْنَا بلا جرم كأنَّ مودَّةً ... ثنى نحونا منها الأعنةَ شَنْآن[٤]

(١) لاتقترضها : لا تقتطعها . وفى ا « لا تقرضها »

(٢) فى أصل ا « ينازعها مزن »

(٣) فى ا « سوام الحمر » وفى نسخة عندها « سوام الحمر » وكلاهما تحريف . وأخذ الشاعر عجز هذا البيت من قولهم فى مثل « ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان ، وفتى ولا كمالك »

(٤) الشنآن : البغض والكراهية

ولو لم تُفِدْ مناسوى الشِّعْر وحده لحق لنا بر عليه و إحسان(١)
فكيف ولم نجعل بها الشِّعْر مكسباً فيوجَب للمُكْدِى جفاء وحِرْمانُ
ولا نحن ممن يرتضى الشعرَ خُطَّة و إن قصُرت عن شأونا فيه أعيان
ومن أوْهمته غيرَ ذاك ظنونه فثَمَّ مجال للمقال ومَيْدان
خليلَىَّ من يُعْدِى على زمن له إذا ماقضى حَيْفٌ علىَّ وعُدْوَانُ
وهل رِىءَ من قبلى غريقُ مدامعٍ يفيض بعينيه الحيا وهْو حرَّان(٢)
وهل طرَفَتْ عين لمجدٍ ولم يَكُنْ لها مقلة من آل هُود و إنسانُ
بوجه ابن هودٍ كلما أعرض الورى صحيفة إقبال لها البشر عُنوان
فتى المجد فى بُرْدَيْهِ بَدْرٌ وضَيْغَم وبحرٌ وقدسٌ ذو الهِضاب وثَهْلاَن
من النفر الشمِّ الذين أكفُّهُمْ غيوث ولكنَّ الخواطرَ نيران
ليوثُ شَرًى مازال منهم لدى الوغى هِزَبْرٌ بيُمْنَاهُ من السمِّ ثُعْبان
وهل فوق ماقد شاد مُقْتَدِرٌ لهم ومؤتمن بالله لقياه إيمان
ألا ليس فخر فى الورى غير فخرهم وإلاّ فإنَّ الفخرَ زُور وبُهْتَان
فيامستعيناً مُسْتَغاثاً لمن نبا به وطن يوما وعَضَّتْه أزمان(٣)
كسوتك من نظمى قِلادة مَفْخَر يباهى بها جيدُ المعالى ويَزْدَان
و إن قصُرَت عما لبست فرُبَّما تجاور درٌّ فى النظام ومَرْجان
معان حكت غنج الحسان كأننى بهن حبيب أو بَطَلْيَوْسُ بغدان(٤)
إذا غرست كفاك غرس مكارم بأرضىَ أجْنَتْكَ الثنا منه أغصان

وقال فى وصف مجلس لأبى عيسى(٥) بن لبُّون أحضر إليه ابنَ السِّيد منوها بقدره ، ماصورته :

---

(١) فى أصل ا « لحن لنا بر عليه وإحسان »

(٢) رىء : أصله « رئى » بالبناء للمجهول ، فقدم الياء التى هى لام الكلمة على الهمزة التى هى لام

(٣) فى ا « فيامستعينا مستعاناً »

(٤) بغدان : لغة فى بغداد

(٥) فى ا « فى وصفه مجلسا لأبى عيسى »

في وصف مجلس لأبى عيسى بن لبون

وأحضره إلى مجلس نام عنه الدهر وغفل ، وقام لفرط أنسه واحتفل ، قد بانت صُرُوفه ، ودنت من الزائر قطوفه ، وقال : هلم بنا إلى الاجتماع بمذهبك ، والاستمتاع بماشئته من براعة(١) أدبك ، فأقاموا يُعْمِلون كأسهم ، ويصلون إيناسهم ، وباتوا ليلتهم(٢) ماطرقهم نوم(٣) ، ولا عَدَاهم عن طيب اللذات سَوْم

ثم قال بعد كلام كثير : وحضر ابن السِّيد عند عبدالرحمن الظافر بن ذى النون مجلساً رَفعت فيه المنى لواءها ، وخلعت عليه أضواءها ، وزَفَّتْ إليه المسرات أبكارها ، وفارقت إليه الطير أوكارها ، فقال يصف :

لم ترَ عينى مثْلَه ولا ترَى ... أنفسَ فى نفسى وأبهى منْظرَا
إذا تردَّى وشيَه المصوَّرَا ... مِنْ حَوْكِ صَنْعاء وحَوْكِ عَبْقَرَا(٤)
ونسج قرْقُوب ونسج تسْترَا ... خِلْتَ الربيع الطلق فيه نوَّرَا(٥)
كأنما الإبريقُ حين قَرْقَرَا ... قَدْ أم لثمَ الكأس حين فغرَا
وَحْشيّة ظلت تناغى جُؤْذَرَا ... تُرْضِعه الدَّرَّ ويرْنُو حذرَا
كأنما مجَّ عقيقاً أحْمرَا ... أوْفتَّ من ريَّاه مِسْكا أذْفرَا
أو عابد الرحمن يوْماً ذُكِرا ... فنَمَّ مسكا ذكْرُه وَعنْبرَا
الظافر الْمَلِكُ الذى منْ ظفرَا ... بقربه نال العَلاء الأكْبرَا
لو أن كِسْرَى راءهُ أو قيْصرَا ... هَلَّلَ إكباراً له وكَبَّرَا
تُبْدِى سماء الملك منه قمرا ... إذا حجابُ المجد عنه سفرَا
يا أيها الْمُنْضِى المطايا بالسُّرى ... تبغى غمام المكرمات المطرا

وقال الفتح فى ترجمة الأديب أبى القاسم بن العطار ، ماصورته :

هو أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ، العامرين لأرجاء المعارف وساحاتها ، لولا

(١) فى ا « ببراعة أدبك » (٢) فى ا « ليلهم » (٣) فى نسخة « ماطرقهم نوم »

(٤) صنعاء : بلد باليمن مشهورة بجودة الصناعة . وعبقر : يزعم بعضهم أنه مسكن الجن ، وهم ينسبون إليه كل مايتعاظمون أمره ، وقيل : بلد بأرض الجزيرة ، وقيل : باليمن.

(٥) قرقوب — بزنة عصفور — بين واسط والاهواز . وتستر : مدينة بخوزستان.

ترجمة ابن العطار الأديب النحوى

مواصلة راحاته ، وتعطيل بُكرِه ورَوْحاته، ومُوالاته للفرَج ، ومغالاته فى عَرْف الأنس والأرج(١)، لا يُعَرِّجُ إلا على ضفة نهر، ولا يبتهج(٢) إلا بقطعة زهر، ولا يحفِل بملام ، ولا يتنقل إلا فى طاعة غلام ، ناهيك من رجل مخلوع العِنان فى ميدان الصبابة، مُغرم بالحسان(٣) غَرامَ يزيد(٤) بحبابة، لا تراه إلا فى ذمة انهماك ، ولا تلقاه إلا فى لُمَّةِ انهتاك ، رافعاً لرايات الهوَى، فارعا لثنيَّات الجوى، لا يُقْفِرُ فؤاده من كلف، ولا يبيت إلا رَهْن تلف ، أكثر خلق الله تعالى عَلاَقة ، وأحضرهم لمشهد خَلاقة، مع جزالةٍ تُحرك السكون، وتضحك الطير فى الوُكُون، وقد أثبتُّ له مما ارتجله(٥) فى أوقات أنسه وساعاته ، ونَفَثَ به أثناء زَفَراته ولَوْعاته ، فمن ذلك ما قاله فى يوم ركب فيه النهر على عادات انكشافه ، وارتضاعه لثغور اللذات وارتشافه :

عَبَرْنا سماء النهر والجوُّ مُشْرِق … وليس لنا إلا الحباب نُجُومُ
وقد ألبَسَتْه الأيكُ بُرْدَ ظِلاَلها … وللشمس فى تلك البرود رُقُومُ

وله فيه :

مَرَرْنا بشاطى النهر بينَ حدائق … بها حَدَقُ الأزهار تَسْتَوْقِفُ الحَدَقْ
وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفاضَة … عليه وما غيرُ الحباب لها حَلَقْ

وله :

هَبَّتِ الريحُ بالعشىِّ فحاكت … زَرَدًا لِلغَدير ناهيك جُنَّهْ
وانجلى البدرُ بعد هَدْءٍ فصاغتْ … كفه للقتال منه أسِنَّهْ(٦)

وقوله :

لله بهجــة مَنْزَهٍ ضَرَبَتْ به … فوق الغـدير رُوَاقَهَا الأنْسامُ
فمعَ الأصيلِ النهرُ دِرْعٌ سَابغٌ … ومعَ الضحَى يلتاحُ منه حُسَامُ

(١) فى ا « فى عرف للأنس أو أرج » (٢) فى ا « ولا يلهج » (٣) فى أصل ا « مغرم بالمحاسن »
(٤) يزيد : هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموى ، وحبابة — بزنة سحابة — جارية مغنية له اشتراها من مكة ، وهام بها وبغنائها .
(٥) فى ا « أثبت له ما يرتجله ... وينفث » (٦) في ب ونسخة عند ا « بعد هذا فحاكت »

وله :

ما كالعشيَّة فى رُوَاء جمالِهَا ... و بُلوغِ نفسى مُنْتهَى آمالِهَا
ماشِئْتَ شمسُ الأرض مُشْرِقَةُ السَّنَى ... والشمسُ قد شدّتْ مَطِىَّ رحالِهَا
فى حَيْثُ تَنْسابُ المياهُ أراقمًا ... وتُعيرُكَ الأفياء بُرْدَ ظِلالِهَا

وله :

لله حُسْنُ حديقة بَسَطت لنا ... منها النفوسَ سَوالفُ وَمَعاطِفُ
تختالُ فى حُلَلِ الربيع وحَلْيِهِ ... وَمِنَ الربيعِ قلائدٌ ومَطَارِف

من ترجمة ابن عمار فى وصف مجلس أنس

وقال الفتح فى ترجمة ابن عمار: أخبرنى ذو الوزارتين الأجل أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤتمن فى يوم جادت فيه السماء بهَطْلها ، وأتبعت وَبْلَهَا بطَلّها ، وأعْقَبَ[1] رَعْدَهَا برقُها، وانسكب دِرَاكاً وَدْقُهَا ، والأزهار قد تجلت من كمامها[2] ، وتحلّتْ بدُرِّ غَمامها ، والأشجار قد جُلى صَدَاها ، وتوشَّحت بنداها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، تديرُها أناملُ تكاد من اللطافة تُعْقَدُ ، إذا بفتىً من فتيان المؤتمن أخرس لا يُفصح ، ومستعجم لا يبين ولا يوضح ، متنمر تَنَمُّرَ الليث، متشمر[3] كالبطل الفارس[4] عند العَيْثِ[5]، وقد أفاض على نفسه دِرْعا، تضيق بها الأسنة ذَرْعًا ، وهو يريد استشارة المؤتمن فى التوجه[6] إلى موضع بَعَثَه إليه ووجَّهه ، وكل من صده عنه نهره ونَجَهَه[7]، حتى وصل إلى مكان انفراده ، ووقف بإزاء وِساده[8] ، فلما وقعت عينُ ابن عَمَّار عليه ، أشار بيده إليه ، وقَرَّبه واستدناه ، وضمه إليه كأنه تبنّاه ، وأراد أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقى والْمُدير ، فأمره المؤتمن بخلعه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنضَاه عن جسمه، وقام يسقى على حكمه ورَسْمه ، فلما دبت فيه الحميَّا ، وشبت غرامه بهجةُ ذلك المحيَّا

(١) فى ب « وارتقب رعدها برقها »
(٢) في ب « من أكمامها »
(٣) فى ا « مشمر »
(٤) فى ا « كالبطل الباسل »
(٥) العيث — بفتح فسكون — الإفساد
(٦) فى ا « الخروج »
(٧) نجهه : استقبله بالمكروه ، وبابه منع
(٨) فى نسخة عندنا « إساده » وهو مثل « وساده » بقلب الواو همزة .

واستنزلته سَوْرة العُقار ، من مرقب الوقار ، قال :

وهَوِيته يُسْقِى المدام كأنه قمرٌ يَدُور بكوكب فى مَجلِس
متأرِّجُ الحركات تَنْدَى رِيحُهُ كالغصن هزّتْهُ الصَّبا بتنفُّس
يَسْعَى بكأسٍ فى أنامل سَوْسَنٍ ويُدِيرُ أخرى من محاجر نرجسِ
يا حاملَ السيفِ الطويل نجادُهُ ومُصَرِّف الفرس القصير المحبس
إياكَ بادِرَة الوَغَى من فارس خَشِنِ القِناع على عِذار أملسِ
جَهْمٍ وإن حَسَرَ اللثامَ فإنما كشف الظلامَ عن النهارِ المشمس[١]
يطغَى ويلعبُ فى دلالِ عذارِهِ كالمُهر يمرحُ فى اللجام المُجرِسِ
سَلِّمْ فقد قصف القَنَا غصنُ النَّقَا وَسَطا بليث الغاب ظبىُ المَكْنِسِ
عنّا بكاسِكَ ، قد كَفَتْنَا مُقْلة حَوْراء قائمة بسُكر المجلسِ

وأورد هذه القصة[٢] صاحبُ البدائع بقوله : حضر أبو المطرّف[٣] بن عبد العزيز عند المؤتمن بن هُود فى يوم أجرى الجوُّ فيه أشقرَ بَرْقِهِ ، ورمى بنَبْل وَدْقه ، وتحملت الرياحُ فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتمايلت[٤] قاماتُ الأغصان فى الحُلل الخضر من أوراقها ، والرياحُ قد أشرقت نجومُها فى بروج الراح ، وحاكت شمسُها شمسَ الأفق فتلفعت بغيوم الأقداح ، ومُديرُها قد ذاب ظرْفاً فكاد يسيل من إهابه ، وأخجل خدَّها حُسنافتظلل[٥] بعرق حَبابه ، إذا بفتى [رومىٍّ] من فتيان المؤتمن قد أقبل متدرِّعا كالبدر اجتابَ سحابا ، والخمر قد اكتست حبَابا ، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن فى الخروج إلى موضع [قد] كان عوّل فيه عليه ، وأمره أن يتوجَّه إليه ، فحين لمحه ابنُ عمار والسكر قد استحوذ على لبه ، وبثَّ سراياه فى ضواحى قلبه ، جَدَّ فى أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدِّلاص ، وأن يجلِّى

(١) فى ا « جهم وإن حسر القناع »
(٢) فى ب « هذه القصيدة » وأحسبه محرفا
(٣) فى نسخة عند ا « أبو المظفر »
(٤) فى أصل ا « وتميلت »
(٥) فى أصل ا « فتكالل »

عنه سهكه كما يجلى الخبثُ عن الخِلاص ، وأن يكون هو الساقى ، فأمر المؤتمن بقبول أمره وامتثاله ، واحتذاء مِثاله(١) ، فحين ظهرت تلك الشمس من حُجُبها ، ورُميت(٢) شياطين النفوس من كُميت المدام بشُهُبها ، ارتجل ابنُ عمار * وهويته ـ إلخ *
إلا أنه قال إثر قوله : * إياك بادرةَ الْوَغَى من فارس *
ماصورته : * يضع السنان على العِذار الأملس *

ولابن عمار الرائية المشهورة فى مدح المعتضد [عباد] والد المعتمد ، وهى :

رائية ابن عمار فى مدح المعتضد

أدرِ المدامة فالنسيمُ قد انبرَى ... والنجمُ قد صرف العِنانَ عن السُّرَى
والصبحُ قد أهْدَى لنا كافورَهُ ... لما استردَّ الليلُ منا العنبرَا
والروض كالحسْنَا كساه زَهْرُهُ ... وشْياً وقلّدهُ نداه جَوْهَرَا
أو كالغُلاَم زَهَا بورْدِ خُدُودِهِ ... خَجَلاً وتاهَ بآسِهِنِ مُعَذَّرَا
رَوْضٌ كأنَّ النهرَ فيه معْصَمٌ ... صافٍ أطَلَّ عَلَى رِدَاء أخضرَا
وتهزه ريحُ الصَّبَا فتخالُهُ ... سَيْفَ ابن عَبَّادٍ يبدِّد عَسْكَرَا
عَبَّادٌ المخضرُّ نائلُ كفِّهِ ... والجوُّ قد لبِسَ الردَاء الأغبرَا
مَلِك إذا ازدَحَمَ الملوكُ بمَوْرِدٍ ... ونحَاه لايرِدُونَ حتى يَصْدُرَا
أندى على الأكباد من قطْر الندَى ... وألذ فى الأجفانِ من سِنَةِ الكرَى
يختارُ إذ يهَبُ الخريدَةَ كاعباً ... والطِّرْفَ أجرَدَ والحسام مُجَوْهَرَا(٣)
قدّاحُ زَنْدِ المجدِ لاينفكّ من ... نارِ الْوَغَى إلا إلى نارِ القِرَى
لاخَلْق أقْرَى من شِفَارِ حُسَامه ... إن كنت شبّهْتَ المواكب أسْطُرَا
أيقنت أنى من ذَرَاه بجنة ... لما سقانى من نداه الكوْثرَا
وعلمتُ حقا أن رَبْعِى مُخْصِبٌ ... لما سألْتُ به الغَمَامَ المُمْطِرَا(٤)

(١) فى ب ونسخة عند ا « واحتذاء أمثاله » (٢) فى ا « ورمت شياطين »
(٣) يختار : يقصد إلى الجيد النفيس المنتخب ، والخريدة : الفتاة البكر الحسناء ، والطرف ـ بالكسر ـ الفرس الكريم ، والأجرد : القصير الشعر
(٤) فى ا « لما أسال به الغمام المطرا »

مَنْ لاتُوَازِنُهُ الجبالُ إذا احْتَبَى مَنْ لاتُسَابِقُهُ الرياحُ إذا جَرَى

ماضٍ وصَدْرُ الرمح يَكْهَمُ والظُّبَا تَنْبُو وأيدى الخيلِ تعثرُ فى الثرَى[1]

قادالكتائب كالكواكب فوقهُمْ مِنْ لأمِهِمْ مِثْلُ السَّحَاب كنَهْوَرا[2]

مِنْ كل أبْيَضَ قد تقلد أبْيَضاً عَضْباً وأسمرَ قد تقلد أسمرَا

ملك يَرُوقُكَ خَلْقُهُ أو خُلْقُه كالرَّوْض يَحْسُنُ مَنظَراً أو مَخْبَرَا

أقْسَمْتُ باسْمِ الفضْل حتى شِمْتُه فرأيْتُهُ فى بُرْدَتَيْهِ مُصَوَّرَا

وجَهِلْتُ مَعْنَى الجود حتى زُرْتُه فقرأتُه فى رَاحَتَيْهِ مُفسَّرَا

فاحَ الثرى مُتعطِّرا بثنائِهِ حتى حَسِبْنَا كل تُرْب عَنْبَرَا

وتتوجت بالزهر صُلْعُ هضابه حتى ظننا كل هضب قيصرا

هصرت يدى غصن الغنى من كفه وجنت به روض السُّرُورِ منوَّرَا

حسبى على الصنع الذى أولاه أن أسعى بِجِدٍّ أو أموت فأعذَرَا

يا أيها الملك الذى حاز العلا وحَبَاه منه بمثل حمدى أنورا

السيف أفصح من زِيَادٍ خطبةً فى الحرب إن كانت يمينك منبرا[3]

ما زلت تغنى مَنْ عَنَا لك راجيا نيلا وتُفْنِى من عتا وتَجَبَّرَا

حتى حللت من الرياسة مَحْجِراً رحباً وضمت منك طرفا أحورا

شقيت بسيفك أمةٌ لم تعتقد إلا اليهود وإن تَسَمَّتْ بَرْبَرَا

أثمرت رمحك من رؤس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء كُمَاتهم لما علمت الحسن يُلْبَسُ أحمرا

---

(١) يكهم : يكل فلا يقطع ، وقالوا « سيف كهام » من ذلك . والظبا : جمع ظبة ، وهو حد السيف ، ووقع فى ا « تعثر فى البرى » وهو التراب كالثرى

(٢) اللأم ــ بفتح فسكون ــ جمع لأمة ، وهى : عدة الحرب ، والكنهور ــ بزنة سفرجل ــ قطع السحاب

(٣) الأصل فى معنى هذا البيت قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وإليكها كالروض زارته الصَّبَا — وحنا عليه الطلُّ حتى نورا
نمقتها وَشياً بذكرك مُذْهباً — وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا
من ذا ينافحنى وذكرك مَنْدَلٌ — أُوردته من نارِ فكرى مِجْمَرَا
فلئن وجدتَ نسيم مدحى عاطراً — فلقد وجدتُ نسيم برّك أعطرا

من ترجمة ابن وهبون فى وصف نزهة فى نهر

وقال فى ترجمة عبد الجليل بن وَهْبُون المُرْسى : ركب بإشبيلية زورقا فى نهرها الذى لاتدانيه الصَّرَاة[1] ، ولا يضاهيه الفُرَات ، فى ليلة تنقبت فى ظلمتها[2] ، ولم يبدُ وَضَحٌ فى دُهْمتها ، و بين أيديهم شمعتان قدانعكس شعاعهما فى اللجة ، وزاد فى تلك البهجة ، فقال :

كأنما الشمعتان إذ سَمَتَا — خَدًّا غلام مُحَسَّنِ الغَيَدِ
وفى حشا النهر من شعاعهما — طريقُ نارِ الهوى إلى كَبِدِى

وكان معه غلام البكرى معاطياً للراح ، وجاريا فى ميدان ذلك المراح ، فلما جاء عبد الجليل بما جاء ، وحَلّى للابداع الجوانبَ والأرجاء ، حسده على ذلك الارتجال، وقال بين البطء والاستعجال :

أَعْجِبْ بمنظر ليلة ليلاء — تُجْنَى بها اللذاتُ فوق الماء
فى زورق يزهو بغرة أغيد — يختال مثل البانة الغَيْنَاءِ[3]
قرنت يداه الشمعتين بوجهه — كالبدر بين النَّسْر والجوزاء
والتاحَ تحت الماء ضَوْءُ جَبِينِهِ — كالبرق يخفق فى غمام سماء[4]

وصف الفتح لمجلس أنس بمنية المنصور

وقال الفتح رحمه الله : دعيتُ يوما إلى منية المنصور بن أبى عامر ببلنسية ، وهى منتهى الجمال ، ومزدهى الصبا والشمال ، على وَهْى بنائها ، وسكنى الحوادث برهة بفنائها ، فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه ، والحسن قد شرح بها عَوِيصه ،

---

(١) الصراة : اسم لنهرين فى بغداد ، أحدهما : الصراة الكبرى ، والآخر : الصراة الصغرى (٢) فى ا « بظلمتها » (٣) فى ا « يزهى بغرة أغيد » بالبناء للمجهول ، وفى ب «الغناء» والغيناء : الخضراء الكثيرة الاغصان (٤) التاح : لاح وظهر ، ووقع فى ب « أضوأ منهما» وفى أصل ا «ضوء منهما » وأثبتنا ما فى نسخة

وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه ، وتوشّحت بالأزر الذهبية أثوابه ، يخترقه جدول كالحسام المسلول ، وينساب فيه انسياب الأيم فى الطلول ، وضَفَّتاهُ بالأدواح محفوفة ، والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة ، وفيه يقول على بن أحمد أحد شعرائها ، وقد حله مع طائفة من وزرائها :

قم فاسقنى والرياضُ لابسةٌ وَشْياً من النَّوْر حاكه القَطْرْ (١)

فى مجلس كالسماء لاح به من وجه مَنْ قد هَوِيتُه بدر

والشمس قد عُصْفِرت غلائلُهَا والأرض تندى ثيابها الخضر

والنهر مثل المجر حف به من الندامى كواكب زُهُرْ

فحللت ذلك المجلس وفيه (٢) أخدان ، كأنهم الولدان ، وهم فى عيش لَدْن ، كأنهم فى جنة عَدْن ، فأنخت لديهم ركائبى وعقلتها ، وتقلدت بهم رغائبى واعتقلتها ، وأقمنا نتنعم بحسنه طولَ ذلك اليوم ، ووافى الليل فذُدْنا عن الجفون طروق النوم ، وظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود ، والأغصان تميس كأنها قُدود ، والمجرة تتراءى نهرا ، والكواكب تخالها فى الجو زهرا ، والثريا كأنها راحة تشير ، وعطارد لنا بالطرب بَشير ، فلما كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائرا ، فأفضنا فى الحديث إلى أن أفضى بنا إلى ذكر منتزهنا بالأمس ، وما لقينا فيه من الأنس ، فقال لى : ما بهجة موضع قد بان قَطِينه وذهب ، وسلب الزمان بهجته وانتهب ، وباد فلم يبق إلا رسمه ، ومحاه الحدثان فما كاد يلوح رسمه ، عهدى به عند ما فرغ من تشييده ، وتنوهى فى تنسيقه وتنضيده ، وقد استدعانى إليه المنصور فى وقت (٣) خلت فيه الشمس برج شرفها ، واكتست [فيه] الأرض بزخرفها ، فحللت به والدوح تميس معاطفه ، والنَّوْر يخجله قاطفه ، والمدام تطلع به وتغرب ، وقد حل فيه قَحْطَان ويَعْرُب ، وبين يدى المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ، ولا يحل غير الفؤاد من مَرْبَع ، وهم يديرون رحيقاً ، خلتها فى كأسها درًّا

(١) فى ا « قم سقنى » (٢) فى ب « وفيهم أخدان » والأخدان : جمع خدن ــ بكسر فسكون ــ وهو الصديق (٣) فى ا « فى يوم »

أو عقيقا ، فأقمنا والشهب تغازلنا ، وكأن الأفلاك منازلنا ، ووهب المنصور فى ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفا من صِلاَت متصلات ، وأقطع ضياعا ثم توجع لذلك العهد ، وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد ، وقال :

سَقْياً لمنزلة اللوى وكثيبها إذ لا أرى زمناً كأزمانى بها

كتاب من الفتح إلى بعض الملوك يصف متنزها

وما أحسن ما كتب به الفتح إلى بعض الملوك يصف نزهة ببعض متنزهات الأندلس المونقة ، ويذكر استضاءته فيها بشموس المسرة المشرقة ، وهو :

أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ، ومحيي الملة ، الذى حَسُنَ بلقياه العيش ، وتزين بمحياه الجيش ، وراق باسمه الملك ، وجَرَتْ بسعده الفلك ، وأنار به الليل الدامس [1] ، ولاح له الأثر الطامس [2] ، وجرى الدهر لسطوته خائفا ، وغدا السعد بعقوته طائفا ، والزمان ببرود عليائه ملتحف ، ولثغور نَدَاه مرتشف ، ولا زال للمجد يتملكه ، والسعد يحمله فلكه ، أما وقد وافقتنى أيامه أيده الله سبحانه وفاقا ، ورأيت للبيان عنده نَفَاقاً [3] ، فلابد أن أرسل كتائبه أفواجا ، وأفيض من بحره أمواجا ، وأصف ما شاهدته من اقتداره ، وعاينته من حسن إيراده و إصداره ، بمقال أفصح من شكوى المحزون ، وأملح من رياض الْحُزُون ، وقد كنت أيدكم الله تعالى كلفاً بالدول وبَهَائها ، لَهِجاً بالبلوغ إلى انتهائها ، لأجد دولة أرتضيها ، وحظوة علياء أقتضيها ، فكل مَلِك فاوضته سرا وجهرا ، وكل مُلْك قلبته بطنا وظهرا ، والنفس تصدُّ عنه صدود الجبان عن الحرب ، والملائكة الكرام عن الشرْب ، إلى أن حَصَلْت لديه ، ووصلت بين يديه ، فقلت : الآن أمكن من راح البغية الانتشاء ، وتمثلت (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء) وما زلْتُ أسايره حيث سار ، وآخذ اليمينَ تارة وتارة اليسار ، وكل ناحية تُسْفر لى عن خدّ روض أزهر ، وعِذَار نبتٍ أخضر ، وتبسم عن ثغر حباب ، فى نهر كالحباب ، وتَرْفَل من الربيع فى ملابس سندسيات ، وتُهْدِى إلينا نوافحَ

(١) الليل الدامس : الشديد الظلام (٢) الأثر الطامس : المتغير الذى انمحى وعفا

(٣) النفاق ــ بفتح النون ، بزنة السحاب ــ الرواج والقبول

مسكيات ، وَتزهى بهجتها بأحسن منظر ، وتتيه بجلباب أينعَ من بُرْدِ الشباب الأنضر[١] ، فجلنا فيها يميناً وشمالا ، واستخبرنا عن أسرارها صَباً وشمالا ، ثم مال بنا أيده الله تعالى عن هذه المسارح السنية ، والمنازل البهيّةِ ، إلى إحدى ضياعه الحالية ، و بقاعه العالية ، فحللناها والأيْمُ قد عَرِىَ من جلبابه ، واليوم قد اكتهل بعد شبَابه ، فنزلنا فى قصور يقصر عنها جَعْفَرِىُّ جعفر ، وقصور بنى الأصفر ، تهدى من لَبَّاتها برداً محبرا ، وتبدى من شَذَاها مسكا وعنبرا ، وقد لاحت من جوانبها نجومُ أكواس لو رآها أبو نواس لجعلها شعاره ، ووقف على نعتها أشعاره ، ولم يتخذ سواها نُجْعَة ، ولا نبه خَمَّاره بعد هجعة ، فتعاطيناها والسعد لنا خادم ، وما غير السرور علينا قادم ، وخدود سُقَاتها قد اكتست من سناها ، وقدودهم تتهيل علينا بجنَاها ، ونحن بين سكر وصحو ، و إثبات[لها]ومحو ، و إصاخة إلى بَمٍّ وزِير ، والتفاتة إلى ملك ووزير ، إلى أن ولى النهار فحيانا ، وأقبل الليل المميت فأحيانا ، فوصلنا بلَهْو وقصف ، وعيش يتجاوز كلَّ وصف ، فكأن يومنا مقيم ، أوكأن ليلنا من الظلام عقيم ، ولما سل الفجر حُسامه ، وأبدى لعبوس الليل ابتسامه ، وجاء يختال اختيالا ، و يمحو من بقايا الليل نيالا[٢] ، قمنا نتنادب للمسير ، وكلنا فى يد النشوة أسير ، فسِرْنا والملكُ الأجل يقدمُنا ، والأيام تخدمنا ، فلازالت الأيام به زاهية ، وعن سواه لاهية ، ما عمر وكراً عُقَاب ، وكان للشهور غُرَر وأعقاب ، انتهى .

من ترجمة الراضى بالله فى وصف قصر الشراجيب

وقال الفتح فى ترجمة الراضى بالله أبى خالد يزيد بن المعتمد بن عباد بعد كلام ما صورته : وأخبرنى المعتدّ بالله أن أباهُ المعتمد[٣] وَجَّهه — يعنى أخاه الراضى — إلى شِلْبَ واليا ، وكانت ملعبَ شبابه ، ومَألف أحبابه ، التى عمر نجودَهَا غلاما ، وتذكر عهودها أحلاما ، وفيها يقول يخاطب ابن عمار وقد توجه إليها :

---

(١) فى ا « برد الشباب الأخضر » (٢) فى ب ونسخة عند ا « من بقايا الليل نبالا » (٣) فى ا « وأخبرنى المعتز بالله أن أباه المعتمد » وفى ب « وأخبرنى المعتمد بالله أن أباه المعتد »

ألا حَيِّ أوطانى بشِلْبَ أبا بكر   وسَلْهُنّ هل عَهْدُ الوصال كما أدرى
وسَلِّم على قَصْر الشراجيب من فَتًى   له أبداً شَوْقٌ إلى ذلك القَصْرِ [١]

وقصر الشراجيب هذا مُتناهٍ فى البهاء والإشراق ، مُباهٍ لزَوْراء العراق ، ركضت فيه جياد راحاته ، وأومَضَتْ بُرُوقُ أمانيه فى ساحاته ، وجرى الدهر مطيعاً بين بُكَرِه ورَوْحاته ، أيام لم تحل عنه تمائمه ، ولا خلت من أزاهير [٢] الشباب كمائمه ، كاون يعتدها مشتهى [٣] آماله ، ومنتهى أعماله ، إلى بَهْجة جَنَبَاتِها ، وطيب نفحاتها وهَبَّاتها ، والتفاف خمائلها ، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها ، وفيها يقول ابن اللَّبَّانة :

أما عَلِمَ المعتــــدُّ بالله أنَّنِى   بحَضْرَته فى جَنَّـــةٍ شَقَّهَا نهر [٤]
وما هُوَ نهر أعْشَبَ النبتُ حَوْلَهُ   ولــكنه سَيْف حمائله خُضْرُ

فلما صدر عنها وقد حسنت آثاره فى تدبيرها ، وانسدلت رعايته على صغيرها وكبيرها ، نزل المعتمد عليه مشرفا لأو بته ، ومعرفا بسُمُوّ قدره لديه ورتبته ، وأقام يومَه عنده مستريحا ، وجرى فى ميدان الأنس بطلا مُشِيحا ، وكان واجداً على الراضى فجَلَتْ الحميَّا أفقه ، ومحت غيظه عليه وحنَقَه ، وصورته له عين حُنُوِّهِ ، وذكرته بعده فجنح إلى دنوّه ، و بين ما استدعى وأوفى ، مالت بالمُعْتَمد نَشْوَته وأغفى ، وألفاه صريعاً فى منتداه ، طريحا فى منتهى مَدَاه ، فأقام تجاهه ، يرتقب انتباهه ، وفى أثناء ذلك صنع شعرا أتقنه وجَوَّده ، فلما استيقظ أنشده :

ألآن تعودُ حيــاة الأملْ   ويَدْنو شفاء فؤادٍ مُعَلّ
ويُورقُ للعز غُصْنٌ ذَوَى   ويَطْلُع للسَّــعد نجمٌ أفَلْ
فقد وَعَدَتْــنِى سَحَابُ الرضا   بوَابِلِها حينَ جادت بطَلّ
أيا ملــكا أمرُهُ نافِـــذٌ   فمن شا أعزَّ ومَنْ شا أذَلّ
دَعَوْت فطَار بقلبى السرورُ   إليك ، و إن كان منك الوَجَلْ

---

(١) فى ا « عن فتى »   (٢) فى ب « من أزهار الشباب »
(٣) فى ا « محيا آماله »   (٤) فى ا « أما علم المعتز بالله أننى »

كما يَسْتَطِيرُكَ حُبُّ الْوَغَى إليها وفيها الظُّبَا والأَسَلْ
فلاغَرْوَ إن كان منك اغْتِفَارٌ و إن كان منا جميعا زَلَلْ
فمثلك ـ وهْوَ الذى لم نجِد ه ُعاد بحلم على من جَهِلْ

وصف مجلس أنس حدث بعد توالى جدب وتوبة

وقال فى ترجمة المتوكل على الله ابن الأفطس ، ما صورته : وأخبرنى الوزير أبو محمد بن عبدون ، أن الأرض توالى عليها الجدبُ بحضرته حتى جَفَّتْ مذانِبُها[1] ، واغبرَّت جوانبُهَا ، وغرد المكاءُ فى غير رَوْضه ، وخاض اليأسُ بالناس[2] أعظم خَوْضِه ، وأبدت الخمائلُ عبوسَهَا ، وشكت الأرضُ للسماء بوسَهَا ، فأقلع المتوكلُ عن الشرب واللهو ، ونزع ملابسَ الُخيَلاء والزَّهْوِ ، وأظهر الخشوع ، وأكثر السجود والركوع ، إلى أن غَيَّم الجوّ ، وانسجم النوّ ، وصاب الغمام ، وترنّمت الْحمام ، وسَفَرت الأنوار[3] ، وزَهت النجودُ والأغوار[4] ، واتفق أن وصل أبو يوسف المُغَنِّى والأرضُ قد لبست زخارفها ، ورقم الغمامُ مَطَارِفَهَا ، وتتوجت الغيطان[5] والربا ، وأرِجَتْ نفحات الصَّبَا ، والمتوكل ما فض لتوبته خِتاما ، ولا قوّض عن قلبه منها خياما[6] ، فكتب إليه :

أَلمَّ أبو يوسف والمَطَرْ فياليْتَ شِعْرِىَ ما يُنْتَظَرْ
ولَسْتُ بآبٍ وأنتَ الشهيدُ حضورَ نَدِيِّكَ فيمَنْ حَضَرْ
ولا مَطْلَعِى وسْطَ تلك السما ءِ بَيْنَ النجوم و بين القمَرْ
ورَكْضِىَ فيها جياد المُدَا مِ مَحْثُوثَةً بِسِياطِ الْوتَرْ

فبعث إليه مركوبا ، وكتب معه :

بَعَثْتُ إليكَ جَنَاحاً فَطِرْ عَلَى خِفْيَةٍ مِن عُيونِ الْبَشَرْ
على ذُلُلٍ من نِتَاجِ الْبُرُوق وفى ظُلَلٍ من نَسِيجِ الشَّجَرْ

(١) فى ب « جفت مذاهبها »
(٢) فى ا « وخاض الناس باليأس»
(٣) فى ب « وسفرت الأزهار »
(٤) فى ا « وزهت النجاد والأغوار »
(٥) فى ا « وتدبجت الغيطان »
(٦) فى ا « ولانفض عن قلبه منها قتاما »

فَحسْبِىَ ممن نأى مَنْ دَنَا ... ومَنْ غاب كان فِدَى مَنْ حَضَرْ

فوصل القَصَبَة(١) المطلة على البطحاء ، المزِرِية بمنازل الرَّوْحاء ، فأقام منها حيث قال عَدِىُّ بن زيد يصف صنعاء :

فى قبــاب حَوْلَ دَسْكَرَةٍ ... حَوْلها الزيتون قَدْ يَنَعَا(٢)

ومرَّ لهم من السرر يومٌ ما مر لذى رُعَين ، ولا تصوّر قبل عيونهم لعَيْن ، وأخبرنى أنه سايره إلى شَنْتَرين قاصية أرض الإسـلام ، السامية الذرا والأعلام ، التى لا يَرُوعُها صَرْف ، ولا يَفرَعُها طرف(٣) ، لأنها متوعِّرة المرَاقى ، مُعَقِّرة للراقى(٤) ، متمكنة الرَّوَاسى والقواعد ، من ضفة نهر استدار بهـا استدارة القُلْب بالساعد ، قد أطلّتْ على خمائلها ، إطلالَ العرُوس من مِنصَّتِهَا ، واقتطعت من الجوّ أكثر من حِصَّتها ، فمروا بأَلْبَشَ(٥) قطرٍ سالت به جداوله ، واختالت فيه خمائلُه ، فما يجول الطَّرف منه إلا فى حديقة ، أو بُقْعة أنيقة ، فتلقاهم ابنُ مَقانا قاضى حَضْرته وأنزلهم عنده ، وأورى لهم بالمبرة زَنْدَهُ ، وقدم لهم طعاما ، واعتقد قَبوله منًّا و إنعاما ، وعند ما طَعِمُوا قعد القاضى بباب المجلس رقيباً لا يبرح ، وعينُ المتوكل حياء منه لا تجول ولا تمرح ، فخرج أبو محمد وقد أبرمه [القاضى] بتثقيله ، وحَرَمه راحة رواحه ومَقيله ، فلقى ابن خَيْرُونَ منتظراً له وقد أعد لحلوله منزله ، فسار إلى مجلس قد ابتسمت ثغور نُوَّاره ، وخجلت خدود ورده من زُوَّاره ، وأبدت صدورُ أباريقه أسرارها ، وضمت عليه المحاسن أزرارَهَا ، ولمـا حضر له وقتُ الأنس وحِينُه ، وأرِجَتْ له رياحينُه ، وجَّهَ مَنْ يَرْقُب المتوكل حتى يقوم جليسُه ، و يزول مُوحِشه لا أنيسه ، فأقام رسوله وهو بمكانه لا يَرِيمُه ، قد لازمه كأنه غريمُه ، فما انفصل ، حتى ظن أن عارض الليل قد نَصَلْ ، فلما علم أبو محمد بانفصاله بعث إلى المتوكل قطيع راح وطبق ورد ، وكتب معهما :



---

(١) فى ب « فوصل القبة » وأثبتنا ما فى أصل ا (٢) فى ب « قد نبعا »

(٣) يفرعها : يعلوها ، ووقع فى ب ونسخة عند ا « ولا يقرعها طرف »

(٤) فى ب ونسخة عند ا « معفرة للراقى »

(٥) كذا فى ا وقلائد العقيان ، وفى ب « بأنفس قطر »

إلَيْكَهَا فاجتلِهَا منـيرة وقد خَبَا حتى الشهابُ الثاقبُ
واقفةً بالْبَاب لم يؤذَنْ لهـا إلا وقـد كاد ينامُ الحاجبُ
فَبَعْضُهَا من المخافِ جامِـدٌ و بعضهـا من الحيَـاءِ ذائِبُ

فقبلها منه رحمه الله تعالى [وعفا عنه] وكتب إليه :

قَدْ وَصلتْ تلك التى زَفَفْتَهَا بكراً وقد شابتْ لها ذَوَائِبُ
فَهُبَّ حتى نستـرد ذاهباً من أنسنا إنِ اسْتُرِدَّ ذاهبُ

فركب إليه ، ونقل معه ما كان بالمجلس[١] بين يديه ، و باتا ليلتهما لا يَرِيمَانِ السهر ، ولا يشيمان برقا إلا الكاس والزهر .

وصف روض

ثم قال بعد كلام : وأخبرنى الوزير الفقيه أبو أيوب بن أبى أمية أنه مرّ فى بعض أيامه بروْض مُفْتر المباسم ، مُعَطّر الرياح النواسم ، قد صَقَل الربيعُ حَوْذَانه[٢] ، وأنطق بلبله وَوَرَشَانه[٣] ، وألحف غصونه برودا مخضرة ، وجعل إشراقه للشمس ضرة ، وأزاهِره تتيه على الكواكب ، وتختال فى خِلَع الغمائم[٤] السواكب ، فارتاح إلى السكون به بقية نهاره ، والتنعم بِبَنَفْسَجِهِ وبَهَاره ، فلما حصل من أنسه فى وسط المدَى ، عَمَدَ إلى وَرَقة كُرُنبٍ قد بللها النَّدَى ، وكتب فيها بطرف غصن [ناعم] ، يستدعى الوزير أباطالب بن غانم ، أحد ندمائه ، ونجوم سمائه :

أقبِـل أبا طالب إلينـا وَقَعْ وقوعَ النَّدَى علينـا
فَنَحْنُ عقـدٌ بغير وُسْطى ما لم تَـكُنْ حاضراً لدينـا

وصف مجلس بالصمادحية

وقال فى ترجمة المعتصم بن صُمَادح ، ما صورته : وأخبرنى الوزير أبو خالد بن بَشْتَغَيْر[٥] أنه حضر مجلسه بالصمادحية فى يوم غيم وفيه أعيان الوزراء ، ونُبَهاء الشعراء ، فقعد على موضع يتداخل الماء فيه ، و يلتوى فى نَوَاحيه ، والمعتصم منشرح النفس ، مجتمع الأنس ، فقال :

---

(١) فى ا « ماكان فى المجلس » (٢) الحوذان : بقلة ذات نور أصفر لها شذى عبق
(٣) الورشان ـ بفتحات ـ طائر كالحمام مغرد
(٤) فى ا « الغمام السواكب » (٥) فى ب « بشتغين » وفى ا « يشتغير »

أُنْظُرْ إلى حُسْنِ هٰذَا الماءِ فى صَبَبِهْ ... كأنه أرْقَم قد جَـدَّ فى هَرَبِهْ

فاستبدعوه ، وتيموه به وأوْلعُوه ، فأسكب عليهم شآبيبَ نَداه ، وأغرب بما أظهره[١] من بشره وأبْدَاه .

ثم قال بعد كلام : وخرج إلى بَرْجَة ودَلاَية وهما مَنْظَران لم يَجُلْ فى مثلهما ناظر ، ولم تدع حسنهما الخدودُ النواضر ، غصون تُثَنِّيها الرياح ، ومياه لها انسياح ، وحدائق تهدى الأرَجَ والْعَرف ، ومنازه تبهجُ النفسَ وتمتع الطرف ، فأقام فيها أياما يتدرج فى مسارحها ، ويتصرف فى مَنَازهها ، وكانت نزهة أرْبَتْ على نزهة هشام بدير الرُّصَافة ، وأنافت عليها أى إنافة .

وصف مجلس صبوح

وقال فى ترجمة ابن رَزِين ، ما ملخصه : أخبرنى الوزيرُ أبو عامر [بن سنون][٢] أنه اصطبح يوما والجوّ سِماَ كى العَوَارِف[٣] ، لا زَوَرْدِىُّ المطارف ، والروض أنيقة لَبَّاته ، رقيقة هَبَّاته ، والنور مُبْتَلّ ، والنسيم مُعْتَلّ ، ومعه قومُه ، وقد راقهم يَوْمُه ، وصِلاَته تُصَافح معتفيهم ، ومَبَرَّاته تُشَافه مُوَاقيهم ، والراح تُشَعْشَعُ ، وماء الأمانى ينشع ، فكتب إلى ابن عمار وهو ضيفه :

ضَمَانٌ على الأيام أن أبْلُغَ الْمُنَى ... إذا كُنْتَ فى وُدِّى مُسِرًّا وَمُعْلِنَا

فلو تسأل الأيامُ : مَنْ هو مفرد ... بُودِّ ابنِ عَمَّارٍ ؟ لقلت لها : أنا

فإنْ حالَتِ الأيامُ بَيْنِى وبينه ... فكيف يَطِيبُ العيشُ أو يَحْصُلُ الْمُنَى[٤]

فلما وصلت الرقعة إليه تأخر عن الوصول ، واعتذر بعذر مختلّ المعانى والفُصُول ، فقال أحد الحاضرين : إنى لأعجب من قعود ابن عمار ، عن هذا المضمار ، مع مَيْله إلى السَّماع ، وكَلَفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال ذو الرياستين : إن الجواب تعذر ، فلذا اعتذر ، لأنه يُعانى قوله ويُعلّله ، وَيُرَوّيه ولا يرتجله ، ويقوله فى المدة ،

---

(١) فى ب « وأعرب بما ظهر » (٢) زيادة فى ا وهى ثابتة فى القلائد

(٣) فى ا « مسكى العوارف » وهى أحسن (٤) فى ا « أو يحسن الغنى »

والساعاتِ الممتدة ، فرأى أن الوصول بلا جواب إخجال لأدبه ، وإخلال لمنازلهِ فى الشعر ورُتَبه ، فلما كان من الغد وَرَدَ ابنُ عمار ومعه الجواب ، وهو :

هَصَرْتَ لىَ الآمالَ طيبةَ الجَنَى   وَسوَّغتَنِى الأحْوالَ مُقْبلة الدُّنى
وألبَسْتَنِى النعما أغضَّ مِنَ النَّدَى   وأجْمَلَ مِنْ وَشْيِ الرَّبيعِ وأحْسنَا
وكم ليلةٍ أحظيْتنى بحضُورِها   فَبتُّ سميراً للسَّناء وللسَّنَى
أُعَلّلُ نفسى بالمكارم والعُلاَ   وأُذْنى وكَفِّى بالغِنَاء وبالْغِنَى
سأقرن بالتمويل ذكرَكَ كلما   تعاوَرَتِ الأسماء غَيْرَكَ والكُنَى
لأوْسعْتَنِى قوْلا وطَوْلا كلاهُما   يُطوقُ أعناقاً ويُخْرِسُ ألسُنَا
وشَرَّفْتَنِى من قطعَةِ الروضِ بالتى   تناثر فيها الطّبْعُ وَرْدًا وسَوْسَنا(١)
تروق بجيدِ الملك عِقْدًا مُرَصَّعاً   وتزهو على عِطفيْهِ بُرْدًا مُزَيَّنَا
فَدُمْ هكذا يافارسَ الدَّسْتِ والوَغَى   لِتَطْعَنَ طَوْراً بالكلامِ وبالقَنَا

وصف مجلس صبوح آخر

وأخبرنى الوزير [أبو جعفر] بن سَعْدُون أنه اصطبح يوما بحضرته وللرذاذ رَشّ ، وللربيع على وجه الأرض فرش ، وقد صَقَلَ الغمامُ الأزهار حتى أذهب نَمَشَها ، وسقاها فَأرْوَى عَطشَها ، فكتب إليه :

فديناكَ لايسطيعُكَ النظمُ والنثرُ   فأنت مليكُ الأرض،وانفصل الأمر
مَرَيْنا نداكَ الغمر فانهلَّ صيِّباً   كما سكبت وَطْفاء أو سكب البحر(٢)
وجاء الربيع الطَّلْقُ يندى غضارة   فحيتك منه الشمس والروض والنهر(٣)

إلى أن قال : ثم وجه فيه إلى روضة قد أرجت نفحاتها ، وتدبجت ساحاتها ، وتفتحت كمائمها ، وأفصحت حمائمها ، وتجرَّدت جداولها كالبواتر ، ورمقت أزهارها

---

(١) فى ب « وشرفتنى عن قطعة الروض » وقطعة الروض : أبياته السابقة
(٢) فى ا « أوفتق الزهر » ومرينا نداك : تطلبنا جودك
(٣) فى ب ونسخة عندنا « وجاء الربيع الطلق يبدى غضارة »

بعيون(1) فوَاتر ، وأقاموا يُعْمِلون أكواسهم ، ويشتملون إيناسهم ، فقال ذو الرياستين :

وَرَوْضٍ كساه الطلُّ وَشْياً مجددا ... فأضحى مقيما للنفوس ومُقْعِدا

إذا صافحته الريح خلتَ غصونه ... رواقِصَ فى خضر من القُضْبِ مُيَّدَا

إذا ما انسكاب الماء عاينت خلته ... وقد كسرته راحة الريح مِبْرَدا

وإن سكنت عنه حسبت صفاءه ... حُسَاما صقيلا صافىَ المتن جُرِّدا

وغنَّتْ به وُرْقُ الحمائم بيننا ... غِناء يُنَسِّيك الغَريضَ ومَعْبَدَا

فلا تجفُوَنَّ الدهر مادام مسعداً ... ومد إلى ماقد حباك به يدا

وخذها مداماً من غزال كأنه ... إذا ماسقى بدر تحمّلَ فَرْقَدَا

وصف مجلس بمنية العيون

إلى أن قال : وأخبرنى الوزير [أبوعامر] ابن سَنُون ، أنه كان معه فى منية العيون ، فى يوم مُطرَّز الأديم ، ومجلس معزز النديم ، والأنس يغازلهم من كل ثنية ، ويواصلهم بكل أمنية ، فسكر أحد الحاضرين سكراً مثل له ميدان الحرب ، وسهل عليه مستوعر الطعن والضرب ، فقلب مجلس الأنس حربا وقتالا ، وطلب الطعن وحده والنزالا(2) ، فقال ذو الرياستين :

نفس الذليل تعز بالجِرْيَالِ ... فيقاتل الأقران دون قتال

كم من جبان ذى افتخار باطل ... بالراح تحسبه من الأبطال

كبشُ الندىِّ تخمُّطًا وعَرَامَةً ... وإذا تُشَبُّ الحربُ شاةُ نزالِ

وصف روضة بباب الحنش

وقال فى ترجمة ابن طاهر ، ماصورته : وجئته يوما وقد وقفت بباب الحنش ، فقال لى : من أين ؟ فأعلمته ، ووصفت له ماعاينته من حسنه وتأملته ، فقال لى : كنت أخرج إليه فى أكثر الليالى مع الوزير الأجل أبى بكر — يعنى ابن عبد العزيز — إلى روضته التى ودت الشمس أن يكون منها طلوعها ، وتمنى المسك

(1) فى ب « كالعيون الفوائر » وهى أتم ملاءمة للفقرة السابقة

(2) أخذ هذه الفقرة من قول أبى الطيب المتنبى :

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

أن تنضم عليه ضلوعها(١) ، والزمان غُلام ، والعيش أحلام ، والدنيا تحية وسلام ، والناس قد انتشروا فى جوانبه ، وقعدوا على مَذَانبه ، وفى ساقيته الكبرى دولاب يئن كناقة إثر حُوار ، أو كثكلى من حر الأوار ، وكل مغرم يجعل فيه ارتياحه ، بكرتَهُ ورَوَاحه ، ويغازل عليه حبيبه ، ويصرف إليه تشبيبه ، فخرجت عليه ليلة والمتنبى الجزيرى واقف وأمامه ظبى آنس ، تهيم به المكانس ، وفى أذنيه قرطان ، كأنهما كوكبان ، وهو يتأود تأود غصن البان ، والمتنبى يقول :

معشر الناس بباب الحنش ... بدرُ تِمٍّ طالع فى غَبَش

عَلّق القرْطَ على مَسْمَعِه ... مَنْ عليه آفة العين خشى

فلما رآنى أمسك ، وسبح كأنه تنسك .

وصف نزهة بالدمشق بقرطبة

وقال فى ترجمة ابن عمار ، ماصورته : وتنزه بالدمشق بقرطبة ، وهوقصر شيده بنو أمية بالصُّفَّاح والعَمَد ، وجروا من إتقانه إلى غاية وأمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحته وفناؤه ، واتخذوه مَيدان مَرَاحهم ، ومضمار الانشراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق ، فحله أبو بكر بن عمار على أثر بؤسه ، وابتسم له دهره بعد عبوسه ، والدنيا قد أعطته عَفْوَها ، وسقته صَفْوَها ، وبات فيه مع لُمَّةٍ(٢) من أتباعه ، ومتفيئى رِباعه ، وكلهم يحييه بكاس ، ويفديه بنفسه من كل باس ، فطابت له ليلته فى مشيده ، وأطربه الأنس ببسيطه ونشيده ، فقال :

كلُّ قصْرٍ بعد الدمشق يُذَمّ ... فيه طاب الجَنَى وفاح المشم

منظرٌ رائقٌ ، وماءٌ نميرٌ ... وثرًى عاطرٌ ، وقصر أشَمّ

بِتُّ فيه والليل والفجر عندى ... عنبر أشهب ومسك أحم

وعبر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله : تنزه ابن عمار بالدمشق بقرطبة ، وهو

---

(١) فى ب « أن تضم إليها ضلوعها »

(٢) لمة - بضم اللام وتشديد الميم مفتوحة — جماعة

قصر شيده خلفاء بنى أمية وزخرفوه ، ودفعوا صرف الدهر عنه وصَرَفُوه ، وأجروه على إرادتهم وصرَّفوه ، وذهبوا سُقُفَه وفضَّضُوها ، ورخَّموا أرضه وروَّضوها ، فبات به والسعد يلحظه بطرْفه ، والروض يحييه بعَرْفه ، فلما استنفدَ كافور الصباح مسك الغسق ، ورصع آبنوس الظلام نضار الشفق ، قال مرتجلا : « كل قصر بعد الدمشق يذم » إلخ ، انتهى .

وصف مجلس بقصر مربيطر

وقال فى ترجمة ذى الوزارتين أبى عيسى بن لَبُّون : أخبرنى الوزير أبو عامر بن الطويل أنه كان بقصر مُرْبَيْطَر بالمجلس الشرقى منها(١) ، والبطحاء قد لبست زخرفها ، ودبج الغمام مُطْرَفها ، وفيها حدائق ترنو عن مُقَل نرجسها ، وتبث طيب تنفسها ، والجلنار قد لبس أردية الدماء ، وراع أفئدة الندماء ، فقال :

قم يانديم أدر علىَّ القرقفَا ... أو ماترى زهر الرياض مُفوَّفَا

فتخال محبوبا مُدِلاًّ وردَهَا ... وتظن نرجسها محبا مُدْنفَا

والجلنار دماء قتلى معرك ... والياسمين حَبَابَ ماءٍ قد طفَا

إلى أن قال : وشرب مع الوزراء الكتاب ببطحاء لورقة [عند أخيه ، وابنُ اليسع غائب عنها](٢) فى عشية تجود بدمائها ، ويصوب عليها دمع سمائها ، والبطحاء قد خلع عليها سندسها ، ودُرُّها نرجسها ، والشمس تنفض على الربا زعفرانها ، والأنوار تغمض أجفانها ، فكتب إلى ابن اليسع :

لو كنت تشهد ياهذا عشيَّتنا ... والمزن يسكُبُ أحياناً وينحدر

والأرض مصفرة بالشمس كاسية ... أبصرت تبراً عليه الدر ينتثر(٣)

وصف إحدى جنات مرسية

وقال فى ترجمة ذى الوزارتين أبى بكر بن رُحَيم ، ماصورته : ووصل هو وابن وضاح صهر المرتضى ، وابن جمال الخلافة صاحب صقلية ، إلى إحدى جنات مُرْسية ، فخلوا منها فى قبة فوق جدول مُطّرد ، وتحت أدواح طيرها غَرِد ، فأقاموا

(١) فى ا « بالمجلس المشرف منها » (٢) زيادة فى أصل ا

(٣) فى ا « والأرض مصفرة بالمزن كاسية »

يتعاطون رحيقهم ، ويعمرون فى المؤانسة طريقهم ، إذا بالْجَنَّانِ(١) قد وقف عليهم وقال : كان بموضعكم بالأمس صاحب الموضع ومعه شعور منشورة ، وخدود غير مستورة ، قد رفعت عنها البراقع ، وما منها نظرة إلا ومعها سهم واقع ، فاستدعى فحما وكتب فى إحدى زوايا القبة :

قادنا ودُّنا إليك فجئنا ... بنفوس تفديك من كل بوس

فنزلنا منازلا لبدور ... وحللنا مطالعاً لشموس

وصف مجلس بقصر يابرة

وقال فى ترجمة الوزير الكاتب أبى محمد بن عبدون ، ما صورته : حللت بِيَابرة(٢) فأنزلنى واليها بقصرها ، ومكننى من جَنَى الأمانى وهَصْرها ، فأقمت ليلى ، أجُرُّ على المجرة ذيلى ، وتتطارد فى ميدان السرور خيلى ، فلما كان من الغد باكرنى الوزير أبو محمد مسلما ، ومن تَنَكبى عنه متألما ، ثم عطف على القائد عاتبا عليه ، فى كونى لديه ، ثم انصرف وقد أخذنى من يديه ، فحللت عنده فى رحب ، وهَمَتْ على من البر أمطار سحب ، فى مجلس كأن الدرارى فيه مصفوفة ، أو كأن الشمس إليه مزفوفة ، فلما حان انصرافى ، وكثر تطلعى إلى مابى واستشرافى ، ركب معى إلى حديقة نضرة ، مجاورة للحضرة ، فأنخنا عليها أيدىَ عِيسِنا ، ونلنا منها ماشئنا من تأنيسنا ، فلما امتطيت عزمى ، وسددت إلى غرض الرحلة سهمى ، أنشدنى :

سلامٌ يُنَاجى منه زَهْرَ الربا عَرْفُ ... فَلاَ سَمْعَ إلا وَدَّ لو أنه أنْفُ(٣)

حَنِينى إلى تلك السَّجَايا فإنها ... لآثارُ أعيانِ المَساعى التى أقفُو

ثم سَرَدَ القصيدة إلى أن قال : وله رحمه الله تعالى :

سَقَاها الحَيَا من مَغَانٍ فِساحْ ... فَكَمْ لى بها من مَعَانٍ فِصَاحْ

(١) الجنان : البستانى ، وفى ب « الجنانى »

(٢) كذا فى أصل ا ، وفى ب « حللت بأبرة » وفى نسخة عند ا « حللت يابرة » ، وفى أخرى « بايرة » ، ويابرة : مدينة من كور باجة

(٣) فى أصل ا « سلام كما حيا لزهر الربا عرف »

وحَلَّى أكاليلَ تلكَ الربا ووَشَّى معاطفَ تلكَ البِطَاحْ(١)
فَمَا أنسَ لا أنسَ عَهْدِى بها وجَرِّىَ فيها ذيولَ المِرَاحْ(٢)
ونومِي على حِبَرَاتِ الرِّيَاضِ يُجَاذب بُرْدَىَّ مَرُّ الرِّيَاحْ(٣)
ولم أعط أمرَ النهىَ طاعَةً ولم أُصْغِ سَمْعِى إلى قَوْلِ لاحْ(٤)
ولَيْلٍ كرَجْعَةِ طرفِ المُرِيب لَمَ اُدْرِ له شَفَقاً مِنْ صَبَاحْ

وقال فى ترجمة الوزير أبى محمد بن مالك بعد كلام له فيه و إنشاده بيتيه البديعين اللذين هما :

من ترجمة الوزير ابن مالك فى وصف روض

لا تَلُمْنِى بأنْ طربْتُ لشَجْوٍ يَبْعَثُ الأُنْسَ فالكريمُ طَرُوبُ
لَيسَ شَقُّ الجُيُوب حَقًّا عَلَيْنَا إنما الشأنُ أن تُشَقَّ القلوبُ(٥)

ماصورته : وخرجْتُ من إشبيلية مشيِّعاً لأحد زعماء المرابطين ، فألفيته معه مسايراً له فى جملة من شيعه ، فلما انصرفنا مال بنا إلى مُعَرَّس أمير المسلمين أدام الله تعالى تأييده الذى ينزله عند حلوله بإشبيلية(٦) ، وهو مَوْضع مستبدع ، كأن الحسن فيه مُودَع ، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم ، وروض كما وشت البرد يدُ راقم ، وزهر يحسد المسكُ ريَّاه ، و يتمنى الصبح أن يَسِمَ به مُحَيَّاه ، فقطف غلام وسيم من غلمانه نَوْرة ومديده إلىَّ وهى فى كفه ، فعزم على أن أقول بيتاً فى وَصْفه ، فقلت :

و بَدْرٍ بَدَا والطَّرْفُ مَطْلعُ حُسْنِهِ وفى كَفِّه من رائق النَّوْرِ كَوْكَبُ

فقال أبو محمد :

يَرُوحُ لتَعْذِيبِ النُّفوسِ ويَغْتَدِى ويَطْلُعُ فى أفقِ الجَمالِ و يَغْرُبُ
ويَحْسُدُ منه الغصنُ أىَّ مُهَفْهَفٍ يَجِىءُ على مِثْلِ الكثيبِ ويَذْهَبُ

وقال فى ترجمة الوزير أبى القاسم بن السَّقَّاط بعد كلام كثير ، ماصورته :

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « معاطيف تلك البطاح »
(٢) فى ب ونسخة عند ا « فلم أنس لم أنس » (٣) فى ا « راح الرياح »
(٤) فى ا « بحيث لم اعط النهى طاعة . . . سمعا إلى لحى لاح »
(٥) فى ا « إنما الحق أن تشق القلوب » (٦) فى ا « حلوله إشبيلية »

من ترجمة ابن السقاط فى وصف ضيعة

وحملنا الوزيرُ القاضى أبو الحسن بن أضحى إلى إحدى ضِياعه بخارج غرناطة ، ومعنا الوزيرُ أبو محمد بن مالك ، وجماعة من أعيان تلك الممالك ، فحللنا بضَيْعة لم ينحتِ المحلُ أثلها ، ولم ترمق العيون مِثْلها ، وجُلنا بها فى أكناف ، جناتٍ ألفاف ، فما شئت من دَوْحة لَفَّاء ، وغصن يميس كمعطفى هَيْفاء ، وماء ينساب فى جداوله ، وزهرٍ يُضَمِّخُ بالمسك راحة متناوله ، ولما قضينا من تلك الحدائق أرَبا ، وافتضضنا منها أترابا عُرُبا[1] ، ملنا إلى مَوْضع المقِيل ، ونزلنا[2] بمَنازه تُزْرِى بمنازه جذيمة مع مالك وعَقيل[3] ، وعند وصولنا بدا لى من أحد الأصحاب تقصيرٌ فى المبرة ، عرض لى منه تكدير لتلك العين الثرة[4] ، فأظهرت التثاقُلَ أكثر ذلك اليوم ، ثم عدَلت عنهم إلى الاضطجاع والنوم ، فما استيقظت إلا والسماء قد نُسِخَ صَحْوُها ، وغِيمَ جوها ، والغمام منهمل ، والثرى من سقياه ثمل ، فبَسَطنى بتحفيه ، وأبهجنى ببرله [لم يزل] يتممه ويوفيه ، وأنشدنى :

يَوْمٌ تجهَّم فيه الأفقُ وانتثرت مَدَامِعُ الغيثِ فى خَدِّ الثرى هَمَلاَ
رأى وُجومَك فار بَدَّتْ طلاقَتُه مُضَاهياً لك فى الأخلاق مُمْتَثِلاً[5]

من ترجمة ابن أضحى فى وصف ضيعة أيضا

وقال فى ترجمة الوزير القاضى أبى الحسن بن أضحى ، مانصه : وكان لصاحب البلد الذى كان يتولى القضاء به ابنٌ من أحسن الناس صورة ، وكانت محاسن [الأفعال و] الأقوال عليه مقصورة ، مع ما شئت من لَسَن ، وصوت حسن ، وعَفاف ، واختلاط بالنُّبهَاء والتفاف ، فحملنا إلى إحدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نَهْر ، أحسن من شاذمِهْر[6] ، تشقها جداولُ كالصِّلال ، ولا ترمُقُها الشمس من تكاثف الظلال ، ومعنا جملة من أعيانها فأحضرَنا من أنواع الطعام ، وأرانا من فرط الإكرام والإنعام ، مالا يطاق ولا يحد ، ويقصر عن

(١) فى نسخة « أبكاراً عربا » (٢) فى ا « وزلنا عن منازه »
(٣) جذيمة : هو جذيمة الأبرش ، أو الوضاح ، ومالك وعقيل : نديماه
(٤) فى ا « العيون الثرة » والثرة : الكثيرة فيض الماء
(٥) فى ب ونسخة « فارتدت طلاقته » (٦) شاذمهر : موضع نزه أنيق بنيسابور

بعضه العد ، وفى أثناء مُقامنا بَدَالى من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام اعتقده ، ومَلاَم أحْقَده(١) ، فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابه ، ولم أرمنه ماعهدته من الإنابة ، فكتبت إليه مُداعباً ، فراجعنى بهذه القطعة :

أَتَتْنِى أبا نَصْرٍ نتيجَـةُ خاطرٍ سَريعٍ كَرَجْعِ الطَّرْفِ فى الخَطَرَاتِ
فأعْرَبْتَ عن وَجْدٍ كمينٍ طَوَيْته بأَهْيَفَ طاوٍ فاترِ اللحظَاتِ
غَزَال أحَـــمَّ المقلتين عَرَفْتَهُ بخَيفِ مِنًى للحَيْنِ أو عَرَفَاتِ(٢)
رَمَاكَ فأَصْمَى والقُلوبُ رَمِيَّةٌ لكلِّ كَحِيلِ الطَّرْفِ ذى فتَكَاتِ
وظَنَّ بأن القلبَ منك مُحَصَّبٌ فلبَّاكَ من عَيْنَيْهِ بالجَمَرَاتِ
تقَرَّبَ بالنُّسَّاك فى كل مَنْسِكٍ وضَحَّى غَدَاةَ النَّحْرِ بالمُهجَاتِ
وكانت له جَيَّانُ مَثْوًى فأصبحت ضُــلوعُك مَثْوَاه بكل فَلاَةِ
يَعِزُّ عَلَيْنَا أن تَهِيمَ فَتَنْطَوِى كئيباً على الأشجان والزفَرَاتِ
فلو قُبِلَت للنّاسِ فى الحبِّ فِدْيَةٌ فَدَيْنَاكَ بالأمْوَال والبَشَرَاتِ

من ترجمة ابن خفاجة فى التفجع على معاهد الشباب

وقال فى ترجمة أديب الأندلس وشاعرها أبى إسحاق بن خفاجة بعد كلام ، ماصورته : وقال يندب معاهدَ الشباب ، ويتفجَّع لوفاة الإخوان والأحباب ، بعقب سَيْل أعاد الديار آثاراً ، وقضى عليها وَهْياً وانتثاراً :

ألا عَرِّسَ الإخْوانُ فى ساحة البِلَى وما رَفَعُوا غيْرَ القبــورِ قِبَابَا
فدَمْع كما سَحَّ الغَمام ولَوْعَـــة كما أضْرَمَتْ ريحُ الشمالِ شِهَابَا(٣)
إذا استَوْقفتنى فى الديار عَشِيَّةٌ تَلَدَّدْتُ فيها جَيْـــأة وذهَابَا
أُكَرُّ بطَرْفِى فى مَعَاهد فِتْيَـــةٍ ثَـكِلْتهمُ بيضَ الوجوه شَبَابَا
فَطَال وُقوفى بينَ وَجْدٍ وفُرْقَةٍ أنَادِى رُسوماً لا تُحِيرُ جَوَابَا(٤)

---

(١) فى أصل ا « بكلام أحقده ، وملام اعتقده »

(٢) فى ب ونسخة عند ا «للحسن أو عرفات» (٣) فى ا « كاضرمت » بتشديد الراء

(٤) في ا « وجد وحرقة » وفي نسخ عندها « وعبرة » و « زفرة »

وأمحو جميلَ الصَّبرِ طَوْرًا بعَبْرةٍ أخُطُّ بها فى صَفْحَتَىَّ كِتابَا
وقد دَرَسَتْ أجسامُهُمْ وديارُهُمْ فَلَمْ أرَ إلاَّ أعْظُماً وَيبَابَا
وحَسْبِى شَجْوًا أن أرى الدارَ بَلْقَعاً خَلاء وأشْلاَءَ الصَّدِيقِ تُرَابَا

ولقد أحلَّنى بهذه الديار(١) المندوبة وهى كعهدها فى جَوْدة مَبْناها ، وعودة سَنَاها ، فى ليلة اكتحلنا ظلامها إثْمِدًا ، ومَحَوْنا بها من نفوسنا كَمَدًا ، ولم يزل ذلك الأنس يبسطه ، والسرور ينشطه ، حتى نشر لى ما طَواه ، وبثَّ مكتومَ لوعته وجوَاه ، وأعلمنى بلياليه فيها مع أترابه ، وما قضى بها من أطرابه .

انتهى ما وقع عليه اختيارى من كلام أبى نصر الفتح بن عبيد الله رحمه الله تعالى فى وصف بعض منتزهات الأندلس البديعة ، ورياضها المونِقة المريعة .

رسالة للفتح فى التهنئة بالتمكين والنصر

وما أحسن رسالة له مختصرة كَتبها مهنئاً بعضَ ملوك الأندلس بما منحه الله تعالى من التمكين الذى أيده الله به ونصره ، وقد جوَّد أوصافه ، واستطرد منها إلى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عَمَرَا الزهراء والرُّصافة ، ونصها :

أدام الله تعالى أيام الأمير(٢) للأرض يتملَّكها ، ويستدير بسعده فَلَكها ، وقد استبشر الملك أيدك الله وحُقَّ له الاستبشار ، فقد أومأ إليه السعدُ وأشار ، بما اتفق له من تَوْليتك ، وخَفَق عليه من ألويتك ، فلقد حُبِى منك بملك أمضى من السهم المسدَّد ، طويل نِجَاد السيف رَحب المقلّد ، يتقدَّم حيث يتأخر الذابل ، ويتكرم إذا بخل الوابل ، ويَحْمى الحِمَى كربيعة بن مُكَدَّم(٣) ، ويسقى الظبا نجيعاً كلون العَنْدَم ، فهنيئاً للأندلس فقد استردت عهد خلفائها ، واستجدَّت رسوم تلك الإمامة بعد عَفَائها ، فكأن لم تمت أعاصرُهَا ، ولم يمت حَكَمُها ولا ناصرها ، اللذان عمرا الرصافة والزهرا ، ونكحا عقائل الروم وما بذلا غير المشْرَفية مَهْرا ، والله سبحانه أسأله

---

(١) فى ا « أحلنى هذه الديار » (٢) فى ا « أطال الله بقاء الأمير »
(٣) ربيعة بن مكدم : فارس من فرسان الجاهلية المشهورين ، وأبطالها المغاوير المعدودين .

إظهار أيامك ، و به أرجو انتشار أعلامك ،حتى يكون عصرُكَ أجمل من عصرهم، ونصرك أغرب من نصرهم ، بمنه [وكرمه] ويمنه .

من ترجمة ابن عطية فى وصف روض نرجس

وقال رحمه الله تعالى فى ترجمة الفقيه القاضى الحافظ أبى محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير بعد كلام كثير ، ما صورته : ومررنا فى إحدى نُزَهِنَا(١) بمكان مُقفِر ، وعن المحاسن مُسْفِر ، وفيــه بكير نرجس كأنه عيون مِرَاض ، يسيل وسطه ماء رَضْرَاض ، بحيث لا حس إلا للهام ، ولا أنس إلا ما يتعرض للأوهام ، فقال :

نرجسٌ باكَرْتُ منه رَوْضَة ... لذ قطع الدَّهْـر فيها وعَذُبْ

حَثَّتِ الريحُ بها خَمْـرَ حَيَاً ... رقَصَ النبتُ لها ثُمَّ شَرِبْ

فَغَدَا يُسْفِرُ عَنْ وَجْنَتِهِ ... نَوْرُهُ الغَضُّ ويهْتَزُّ طَرَبْ

خِلْتُ لمع الشمْسِ فى مَشْرِقِهِ ... لَهَباً يخمُدُ منــه فى لَهَبْ

وبَياضَ الطــلِّ فى صُفْرَتِهِ ... نُقَطَ الفضة فى خَطِّ الذهَبْ

وسيأتى إن شاء الله تعالى كثير من وصف بلاد الأندلس ومنتزهاتها ، وما اشتملت عليه من المحاسن ، فى كلام غــير واحد ممن يجرى ذكره فى هذا الـكتاب ، وخصوصاً أديب زمانه غير مُدَافع ، من اعترف له أهل الشرق ، بالسبق ، وأهلُ المغرب ، بالإبداع المُغْرب ، النورُ أبو الحسن على بنُ سعيد العَنْسى ، فإنه لما اتصل بمصر(٢) ودخلها اشتاق إلى تلك المواطن الأندلسية الرائقة ، ووصَفَها بالقصائد والمقطوعات الفائقة ، وقد أسْلَفْنا أيضاً فيما مر من هذا الـكتاب بعض ما يتعلق بمحاسن الأندلس ، فليراجع فى محله من هذا الـكتاب .

قلت : وماذا عسى أن نذكر من محاسن قُرْطُبة الزهراء والزهرا(٣) ، [أ]و نصف من محاسن الأندلس التى تبصر بكل موضع منها ظلا ضافياً ونهرا صافيا وزَهْرا ،

(١) فى ب « إحدى نزهتنا » (٢) في ا « فانه لما دخل مصر اشتاق»

(٣) كذا فى ب ، وفى ا «محاسن قرطبة والزاهرة والزهرا» وهو أدق وأجمع

ويرحم الله تعالى أديبها المشهور ، الذى اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور ،
أبا إسحاق بن خفاجة ، إذ قال :

وصف ابن خفاجة للأندلس

يا أهْـلَ أندلُسٍ لله دَرُّكُمُ ماءٌ وظِـلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جَنَّةُ الخلدِ إلا فى دِيَارِكُمُ ولو تَخَيَّرْتُ هٰذا كُنْتُ أخْتَارُ
لا تَحْسَبُوا فى غدٍ أن تَدْخُلواسَقَرا فلَيْسَ تُدْخَلُ بعدَ الجنةِ النارُ (١)

ويروى مكان قوله * ولو تخيرت هذا كنت أختار *
ما مثاله * وهذه كنت لو خيرت أختار *
وكذا رأيت بخط الحافظ التَّنَسى (٢)، والأول رأيته بخط العلامة الوانْشَرِيشى (٣) ،
رحمهما الله تعالى ! .

اعتراض على كلام ابن خفاجة والرد عليه

وحكى أن الخليلىّ لما قدم من الأندلس رسولا إلى سلطان المغرب أبى عِنان
فارس ابن السلطان أبى الحسن المَرِينى أنشد بحضرة السلطان المذكور أبياتَ
ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الأندلس ، فقال السلطان أبو عنان : كذب هذا
الشاعر ، يشير إلى كونه جعلها جنة الخلد ، وأنه لو خير لاختارها على ما فى الآخرة ،
وهذا خروج من رِبْقة الدين ، ولا أقلّ من الكذب والإغراق ، وإن جرت
عادة الشعراء بذلك الإطلاق ، فقال الخليلىّ : يا مولانا ، بل صدق الشاعر ، لأنها
مَوْطن جهاد ، ومُقَارعة للعدو وجِلاَد ، والنبى صلى الله عليه وسلم [الرؤف الودود
الرحيم العطوف ، يقول « الجنة تحت ظلال السيوف » ، فاستحسن منه هذا
الكلام ، ورفع عن قائل الأبيات الملام ، وأجزل صِلَته ، ورفع منزلته ، ولعمرى
إن هذا الجواب ، لجدير بالصواب ، وهكذا ينبغى أن تكون رسُلُ الملوك فى

---

(١) فى ب ونسخة عندا « لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا »
(٢) فى ب « بخط العلامة الشمنى » محرفا ، والتنسى : منسوب إلى تنس ، وهى قرية بساحل إفريقية .
(٣) فى نسخة عندا « الوانشريسى » بالسين المهملة قبل ياء النسب .

الافتنان ، روّح الله تعالى أرواح الجميع فى الجنان !.

وأبو إسحاق بن خفاجة كان أوحَدَ الناس فى وصف الأنهار والأزهار والرياض [والحياض] والرياحين والبساتين ، وقد سبق بعضُ كلامه ، ويأتى أيضاً منه بعض [فى] أثناء الكتاب ، ومن ذلك قوله :

بعض أشعار ابن خفاجة فى وصف الرياض

وكِمَامةٍ حَدَرَ الصباحُ قناعَهَا ... عن صَفْحة تَنْدَى من الأزهارِ

فى أبْطحٍ رَضَعَتْ ثغورُ أقاحِهِ ... أخْلافَ كلِّ غمامةٍ مِدْرَارِ

نثرت بحِجْرِ الأرض فيه يَدُ الصَّبَا ... دُرَرَ النَّدَى ودَرَاهِمَ النُّوَّارِ

وقَد ارتَدَى غُصْنُ النقا، وتقلَّدَتْ ... حَلْىَ الحَبَابِ سَوالِفُ الأنْهَارِ

فَحَلَتْ حَيْثُ الماء صَفْحة ضاحكٍ ... جَذِلٍ وحيث الشَّطُّ بَدْءُ عِذَارِ

والريحُ تنفضُ بُكْرَةً لمم الرُّبَا ... والطَّلُّ يَنْضَحُ أوْجُهَ الأشْجَارِ

مُتَقَسِّم الألْحَاظِ بَيْنَ مَحَاسِنٍ ... مِنْ رِدْفِ رَابيةٍ وخَصْرِ قَرَارِ (١)

وَأَرَاكَةٍ سَجَعَ الهَديلُ بفَرْعِها ... والصبْحُ يُسْفِرُ عن جبين نَهَارِ

هَزَّتْ له أعْطَافَهَا ولرُبَّمَا ... خَلَعَت عَلَيْهِ مُلاءة الأنوارِ

وقوله :

سَقْياً ليَوْم قد أنَخْتُ بسَرْحَةٍ ... رَيّا تلاعِبُهَا الرياحُ فتلعَبُ

سَكْرَى يُغَنِّيها الحَمَام فَتَنْثَنِى ... طَرَباً ويَسْقِيها الغمامُ فَتَشْرَبُ

يَلْهُو فترْفَعُ للشبيبة رايَةٌ ... فيه ، ويَطْلع للبَهارة كَوْكَبُ

والروضُ وَجْه أزْهَرٌ ، والظلُّ فرْ ... عٌ أسْوَد ، والماء ثغْرٌ أشْنَبُ

فى حَيْثُ أطْرَبَنَا الحمامُ عشيّةً ... فشَدَا يغنينا الحمامُ المُطْرِبُ

واهتز عطفُ الغصن مِن طَرَب بنا ... وافْتَرّ عن ثغر الهلال المَغْرِبُ

فكأنه والحسْنُ مُقْتَرِنٌ به ... طَوْقٌ على بُرْد الغَمامة مُذْهَبُ

---

(١) فى ا «ردق رابية » محرفا

فى فتيةٍ تَسْرِى فينصدِعُ الدُّجى عَنْهَا ، وتنزل بالجديب فيُخْصِبُ
كَرُمُوا فلا غيث السَّماحةِ مُخْلِف يَوْماً ، ولا بَرْقُ اللطافة خُلَّبُ
من كل أزْهَرَ للنعيم بوَجْهِهِ ماءٌ يُرَقْرِقه الشَّبابُ فيَسْكبُ

وقال يمدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم :

سَمح الخيالُ على النَّوَى بمزارِ والصبحُ يَمْسَحُ عَنْ جبين نَهَارِ
فَرَفعْت من نارِى لضَيْفٍ طارقٍ يعْشُو إليها من خَيَال طَارِى
ركب الدُّجى أحْسِنْ به من مَرْكبٍ وَطَوَى السُّرى أحْسِنْ به من سارِى
وأناخ حيث دموعُ عينى مَنْهل يُرْوِى،وحيث حَشَاىَ مَوْقدُ نارِ
وسَقَى فأرْوَى غُلَّة من ناهل أوْرَى بجَانحتيْهِ زَنْدَأُوارِ
يَلْوِى الضلوعَ من الولُوع لخَطْرَة من شَيْم بَرْق أو شَميم عَرارِ (١)
والليلُ قد نضح النَّدَى سِرْبَالَهُ فانهلّ دَمْعُ الطَّلِّ فوق صِدَارِ
مُترقبٌ رسُل الرياحِ عشيةً بمَسَاقِطِ الأنواء والأنْوارِ
وَمَجَرّ ذَيْل غَمَامة لَبِستْ به وَشْىَ الحَباب مَعاطفُ الأنْهارِ
خفقت ظلالُ الأيك فيه ذوائباً وارْتجَّ رِدْفاً مائجُ التَيَّارِ (٢)
وَلوَى القضيبُ هناك جيداً أتْلعاً قد قبلتْهُ مَباسِمُ النُّوَّارِ
باكرْتُه والغَيْمُ قطعة عَنْبَرٍ مشبُوبَةٌ والبرقُ لَفحة نارِ
والريحُ تَلطُمُ فيه أرداف الرُّبَا لَعباً وتلثِمُ أوجُهَ الأزهارِ
ومَنابر الأشجار قد قامَتْ بها خُطَباء مُفْصِحة من الأطْيارِ
فى فتية جَنَبُوا العَجاجة لَيْلَةً ولرُبَّمَا سَفرُوا عنِ الأقمارِ

(١) فى ا « من الولوع بخطرة » والشيم : النظر ، والشميم : طيب الرائحة ، والعرار — بزنة سحاب — نبت طيب الرائحة

(٢) فى ب « مائل التيار » وأثبتنا ما فى ا

ثار القَتامُ بهم دُخانا وارْتمى ... زَنْدُ الحَفيظَةِ منهمُ بشَرارِ
شَاهَدْتُ من هَيْآتِهم وهِبَاتِهم ... إشْرَافَ أطْوَادٍ وفَيْضَ بحارِ (١)
مِنْ كُلِّ مُنْتَقِبٍ بوَرْدَةِ خَجْلَةٍ ... كَرَمًا ومُشْتَمِلٍ بثَوْبِ وَقَارِ
فى عِمَّـــةٍ خُلِعَتْ عليه لِلِمَّةٍ ... وذُؤَابة قُرِنَتْ بها لِعِذَارِ
ضافِي رِدَاءِ المجدِ طمَّاح العُلاَ ... طامِي عُبَابِ الجود رَحْب الدارِ
جَرَّار أذيالِ المعـــالى والقَنَا ... حَامِي الحقيقة والحِمَى وَالجارِ
طردَ القنيصَ بكلِّ قَيْدِ طريدَةٍ ... زَجِلِ الجناحِ مُوَرَّد الأظفَارِ
مُلتفَة أعْطَافُهُ بحَبِيرَةٍ ... مكحولة أجفانُه بنُضَـــارِ
يُرْمَى به الأملُ القصىُّ فيَنْثَنى ... مَخْضُوبَ مَرْأى الظُّفْرِ والمِنْقارِ (٢)
و بكل نائى الشَّوْطِ أشْدَقَ أخْزَر ... طاوى الحشى حالى المقلَّد ضارى
يفتر عن مثل النِّصال ، وإنما ... يَمْشِي على مِثْل القَنَا الخَطّارِ
مُسْتَقْرِيًا أثَرَ القنيصِ على الصَّفا ... والليلُ مُشْتَمِل بِشَمْـــلَةِ قَارِ
من كل مُسْوَدٍّ تلهَّبُ طَرْفِهِ ... تَرْميك فَحْمَتُه بشُعْـــلة نارِ
ومُوَرَّسِ السِّربال يُخْلَع قيْدُهُ ... عَنْ نَجْم رَجْمٍ فى سَمَاء غُبَارِ (٣)
يَسْتَنُّ فى سَطْر الطريق وقد عَفَا ... قِدْمًا فتقرأ أحْـــرُفَ الآثارِ
عَطَف الضمورُ سَرَاتَه فكأنه ... والنَّقْعُ يَحْجُبُه هــلالُ سِرَارِ
ولربَّ رَوَّاغٍ هُنَـــالِكَ أنْبطٍ ... ذَلِقِ المسامع أطلس الأطْمَارِ
يَجْرِى على حَذَر فيَجمَع بَسْطَه ... يَهْوِى فينعَطِف انعطاف سِوَارِ
ممتدِّ حَبْل الشأو يَعْسِلُ رائغًا ... فيكاد يُفْلِتُ أيدىَ الأقدارِ

(١) فى أصل ا « شاهدت من هماتهم وهباتهم » وفى نسخة عندها « هيباتهم وهباتهم »
(٢) كذا فى ا ، وفى ب ونسخة عند ا « مخضوب راء الظفر »
(٣) فى ا « يخلع قده » وفى نسخة عندها « يخلع نده »

مُتَرَدِّدٍ يرمى به خَوْفُ الرَّدَى كُرَةٍ تهادَتْها أكفُّ قِفَارِ
ولربَّ طيارٍ خفيفٍ قد جرَى فَشِلاً بجارٍ خَلْفَه طَيَّارِ
من كل قاصرة الخُطا مختالة مَشْىَ الفتاة تجرُّ فَضْلَ إزارِ
مَخْضُوبة المِنْقار تحسَبُ أنها كَرَعتْ على ظَمَإٍ بكأسِ عُقَارِ
ولو استجارَتْ مِنْهما بِحِمَى أبى يَحْيَى لأَمَّنَها أعزَّ جِوَارِ (١)
خَدَمَ القضاءُ مرادَهُ فكأنما مَلَكَتْ يداه أعِنَّةَ الأقدارِ
وعَنَا الزمانُ لأمره فكأنما أصغَى الزمانُ به إلى أمَّارِ
وجَلا الإمارةَ فى رفيفِ نضارة جَلَتِ الدُّجَى فى حُلَّةِ الأنوارِ
فى حَيْث وَشَّحَ لَبَّة بقِلادَةٍ منها وحَلَّى مِعْصَماً بِسِوَارِ
جَذْلانَ يَمْلأُ مِنْحةً وبَشَاشَةً أيْدِى العُفَاةِ وأعْيُنَ الزوَّارِ
أرِجَ النَّدِىُّ بذكْرِه فكأنهُ متنفِّسٌ عن رَوْضَةٍ مِعْطَارِ
بَطَلٌ جرَى الفلكُ المحيطُ بسَرْجِهِ واسْتَلَّ صارمَه يَدُ المِقْدَارِ
بيمينِهِ يومَ الوَغَى وشِمَالِهِ ما شاء مِنْ نارٍ ومن إعْصَارِ
والسُّمْرُ حُمْرٌ ، والجيادُ عَوابِسٌ والجوُّ كاسٍ ، والسيوف عَوَارِى (٢)
والخيلُ تَعْثُرُ فى شبَا شَوْكِ القَنَا قصداً وتَسْبَحُ فى الدم الموَّارِ
والبيضُ تُحْنَى فى الطلَى فكأنما تلْوَى عُراً منها على أزْرَارِ
والنقعُ يكسر من سَنَى شمسِ الضحَى فكأنه صَدَأٌ على دِينَارِ
صَحِبَ الحسامَ النَّصْرُ صحبةَ غِبْطَةٍ فى كفِّ صَوَّالٍ به سَوَّارِ
لو أنه أوْمَى إليه بنَظْرَةٍ يوماً لثارَ ولَمْ ينمْ عَنْ ثارِ (٣)

(١) فى ا « لآمنها أعز جوار »
(٢) في نسخة عند ا « والشمس خمر »
(٣) أومى : أصله أومأ — بالهمز — فقلب الهمزة ألفاً لانفتاح ما قبلها ، ومعناه أشار .

ومَضَى وقد مَلكته هِزَّةُ عِزَّةٍ … تحت العَجَاجِ وضحكة استِبْشَارِ (١)

وقال رحمه الله تعالى :

وأراكة ضَربَتْ سماء فوْقنا … تَنْدَى وأفلاكُ الكؤس تُدارُ
حَفَّتْ بدَوْحتها مجرَّةُ جدولٍ … نَثَرتْ عليه نجومها الأزهارُ
وكأنها وكأن جَدْوَلَ مائها … حَسْناء شُدَّ بخَصْرها زُنَّارُ
زَفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ … تُجْلَى ونُوَّارُ الغصون نِثارُ
فى روْضة جنح الدجى ظلٌّ بها … وتجسَّمت نوراً بها الأنوارُ
غنَّاء ينشُرُ وَشْيَه البزَّازُ لى … فيها ويفتقُ مِسْكه العَطّارُ
قام الغِناء بها وقد نَضَحَ النَّدَى … وَجْهَ الثرى واستيقظ النُّوَّارُ
والماء فى حَلْى الحُباب مُقلَّدٌ … زرَّتْ عليه جيوبَهَا الأشجارُ

وقال ملتزما ما لا يلزم :

خُذْهَا إليك و إنها لنَضيرة … طَرأت إليك قليلة النُّظَراء
حملت وحَسْبُك بهجةً من نَفْحةٍ … عَبَقُ العروس وخَجْلة العَذْراء (٢)
من كل وَارِسَةِ القَمِيص كأنما … نَشَأتْ تعلّ بريقَةِ الصَّفْراء
نجمت تروق بها نجوما حسبها … بالأيكة الخضراء من خضراء (٣)
وأتتك تسْفرُ عَنْ وُجُوهٍ طَلْقَةً … وتَنُوبُ من لُطْفٍ عن الشُّقْراء (٤)
يَنْدَى بها وَجْهُ النَّدَى ولرُبَّمَا … بَسَطت هنالك أوجُهَ السرّاء (٥)
فاستضحكت وَجهَ الدجى مقطوعة … حملَتْ جَمَالَ الغرَّة الغرَّاء

---

(١) فى ب « وقضى وقد ملكته » (٢) فى ا « حملت وحسبك نفحة فى بهجة »

(٣) كذا فى أصل ا وفى ب « يروق بها نجوم حسنها » وفى نسخة عند ا « تروق بها نجوم حسنها ».

(٤) فى ب « عن الشعراء » وفى ا « عن الصفراء »

(٥) فى ا « هناك أسرة السراء »

وقال أيضا :

وصدر نادٍ نَظَمْنَا له القوافِيَ عقدا
فى منزل قد سَحَبْنَا بظله العزَّ بُردَا
تذكو به الشُّهبُ جَمْراً ويَعْبَقُ الليل ندَّا
وقد تأرَّج نَوْرٌ غَضٌّ يُخَالِطُ وَرْدَا
كما تَنَفَّسَ ثَغْرٌ عَذْبٌ يقبِّلُ خدَّا(١)

وقال من قصيدة يصف منتزها :

يا رُبَّ وضَّاحِ الجبين كأنما رَسْمُ العِذَارِ بصفحتيه كتابُ
تعْرَى بطلعته العيون مهابةً وتبيتُ تَعْشَقُ عقلهُ الألْبَابُ(٢)
خُلِعتْ عليه من الصَّباح غِلالةٌ تَنْدَى ومن شَفَقِ المساء نِقابُ(٣)
فكرعْتُ من ماء الصِّبا فى مَنْهَلٍ قد شَفَّ عنه من القميص سَرابُ
فى حيْثُ للريح الرُّخَاء تَنَفُّسٌ أرِجٌ ، وللماء الفُرات عُبابُ
ولربَّ غَضِّ الجسْم مدّ بحوضه سَبْحًا كما شَقَّ السَّماءَ شهابُ
ولقد أنختُ بشاطِئيْه يهزُّنى طربًا شبابٌ راقَنِي وشرابُ
وبكَيْتُ دِجلتَهُ يُضاحكُنى بها مَرَحًا حبيبٌ شاقَنِي وحَبَابُ(٤)
تُجْلَى من الدنيا عَرُوسٌ بيْننَا حَسْناء ترشف والمدَامُ رُضَابُ
ثم ارتَحَلْتُ وللنهار ذُؤابةٌ شَيْبَاء تخضب والنهارُ خِضَابُ
تَلْوِى مَعَاطِفِيَ الصبابةُ والصِّبا والليلُ دون الكاشحين حِجَابُ

---

(١) فى ا « كما تبسم ثغر »
(٢) فى ا « تغرى بطلعته العيون ملاحة »
(٣) فى ب ونسخة عند ا « ومن شفق السماء نقاب »
(٤) فى ا « وعبرت دجلته »

وقال :

مَرَّ بنا وَهْوَ بدرُ تِمٍّ ... يَسْحَبُ من ذيله سَحَابَا

بِقَامَةٍ تَنْثَنِي قَضِيباً ... وغُرَّةٍ تلتظى شِهَابَا

يَقرَأ والليلُ مُدْلهِمٌّ ... لنورِ إجلائه كِتَابَا

ورُبَّ ليل سَهِرْتُ فيه ... أزْجُرُ من جُنْحِهِ غُرَابَا[1]

حتى إذا الليلُ مال سُكْراً ... وَشَقَّ سِرْبَالَهُ وجابَا

وحام من سَدْفِهِ غُرَابٌ ... طالت به سِنُّهُ فشابَا

ازْدَدْتُ من لَوْعَتِي خَبالاً ... فحُثَّ من غُلَّتِي شَرَابَا[2]

وما خطا قادماً فَوَافَى ... حتى انثنى ناكصاً فآبَا

وَبَيْنَ جَفْنَيَّ بحرُ شَوْقٍ ... يَعُبُّ فى وَجْنَتِي عُبَابَا

قد شَبَّ فى وَجْهه شُعَاع ... وشَبَّ فى قلبىَ التهابَا

ورَوْضة طَلْقة حَيَاء ... غنَّاء مُخْضَرَّة جَنَابَا

ينجابُ عن نَوْرِها كِمامٌ ... يَحُطُّ عن وَجهه نِقَابَا

بات بها مَبْسِمُ الأقاحى ... يرشف من طلها رُضَابَا

ومِنْ خُفُوق البُروق فيها ... ألْوِيَةٌ حُمِّرَتْ خِضَابَا

كأنها أنْمُلٌ وِرَادٌ ... تحصر قَطْرَ الحيا حِسابَا

وله [أيضاً] :

رَحَلْتُ عنكم ولى فُؤَادٌ ... تُنْقِضُ أضلاعُه حَنِينَا

أجُودُ فيكم بعلق دَمْعٍ ... كُنْتُ به قبلكم ضَنِينَا

---

(١) فى ب ونسخة عند ا «أزجر من جنحه نكابا»

(٢) فى ا «جئت من غلتى شرابا» وفى نسخة عندها «حث من علق»

يَثُورُ فى وَجْنَتَىَّ جيشاً وكان فى جفنهِ كَمِينَا
كأنّنِى بعدكم شِمَالٌ قد فارَقتْ منكم يمينَا

وقال :

فيا لشَجَا قلبٍ من الصبر فارغٍ ويا لَقَذَى طَرْفٍ من الدمع مَلآنِ(١)
ونَفْس إلى جوِّ الكنيسة صَبَّة وقلبٍ إلى أفق الجزيرة حنَّانِ
تعوَّضت من واهاً بآهٍ ومن هَوًى بهُونٍ ومن إخوان صدق بخُوَّانِ
وما كلُّ بيضاء تَرُوق بشحْمةٍ وما كل مَرْعًى تَرْتَعيه بسَعْدَانِ(٢)
فيالَيْتَ شِعْرِى هل لدهرى عَطْفة فتجْمعَ أوطارى عَلَىَّ وأوطانى
مَيَادين أوطارى ولذة لَذّتى ومَنْشأ تهيَامى ومَلْعَبُ غِزْلانى
كأن لم يَصِلْنِى فيه ظَبْىٌ يقومُ لى لَماه وصُدْغاه براحى وريْحانى
فَسَقْياً لواديهم وإن كنتُ إنما أَبِيتُ لذكراه بغُلّة ظمْآن
فكَمْ يومِ لهوٍ قد أدرْنا بأفقه نجومَ كئوسٍ بين أقمارِ نَدْمان
وللقُضْب والأطيار مَلْهًى بجزْعهِ فماشئتَ من رقصٍ على رَجْعِ ألحان
وبالحَضْرة الغَرَّاء غِرٌّ عَلِقْتُه فأحببتُ حُبًّا فيه قُضْبَان نعْمان
رقيقُ الحواشى فى محاسن وجهه ومَنْطِقه مَسْلًى قلوبٍ وآذان
أغار لخدَّيْهِ على الوردِ كلَّما بَدَا ولِعطْفَيْه على أغْصُن البان(٣)
وهَبْنِىَ أجْنِى وَرْدَ خَدٍّ بناظرى فمن أين لى منه بتُفّاح لُبْنان
يعلِّلنى منه بموعدِ رَشْفةٍ خيال له يُغْرى بمَطْلٍ وليّان(٤)

---

(١) فى ا « فيالشجا صدر » وفى نسخة عندها « ويالقذى جفن »
(٢) صدر هذا البيت يشير إلى قولهم فى مثل « ما كل بيضاء شحمة » وعجزه يشير إلى قولهم فى مثل « مرعى ولا كالسعدان »
(٣) فى ا « ولعطفيه على غصن البان » بضم الغين والصاد
(٤) الليان : المطل والتسويف

حبيب عليـــه لجة من صوارم — علاها حَبَابٌ من أسِـنَّةِ مُرَّان
تراءى لنا فى مثل صورة يوسُفٍ — تراءى لنا فى مثـل مُلْكِ سُليمان (١)
طَـــوَى بردُهُ منها صحيفة فتنةٍ — قرأنا له من وجهـه سطرَ عُنوان
محبّتُه دينى ومَثْـــواه كعبتى — ورُؤيَتُـه حَجِّى وذكراه قرآنى

وقال :

وليـــلٍ تعَاطَيْنَا المدامَ وَبيْنَنَا — حديث كما هبَّ النسيمُ على الورد
نُعَاوِدُه والكاسُ يعبق نفْحُه — وأطيَبُ منها مانُعِيدُ وما نُبْدِى (٢)
وَنَقْلِى أقاحُ الثغر أوسَوْسَنُ الطُّلى — ونرجِسَةُ الأجفان أو وردة الخــدِّ
إلى أن سَرَت فى جسمه الكاسُ والكَرى — ومالا بعِطفَيْه فمال على عضدى
فأقبلْتُ أسْتَهْدِى لمـا بين أضْلُعِى — من الحرِّ مابين الضلوع من البَرْد
وعايَنْتُه قد سُلَّ من وَشْيِ بُرْدِه — فعانَقْتُ منه السيف سُلَّ من الغمد (٣)
لِيـَانَ مَجَسٍّ واستقامة قامةٍ — وهزَّة أعطافٍ وروْنَقُ إفْرِنْدِ
أغازل منه الغصْنَ فى مَغْرِسِ النّقا — وألْثِمُ وجه الشمس فى مطلع السعد
فإن لم يَكُنْها أو تــكُنْه فإنه — أخوها كما قُدَّ الشراكُ من الجـلد
تسافر كلتا راحَتَىَّ بجِسْـــمِه — فطوْراً إلى خَصْرٍ وطوْراً إلى نَهْد
فتهبِطُ من كَشْحَيْه كفى تِهامةً — وتصعَد من نهْدَيْه أخرى إلى نجد

وقال أيضاً :

ورداء ليـــل بات فيه مُعانقى — طيفٌ ألم بظبية الوَعْساء
فجمعْتُ بين رُضابه وشرابه — وشَرِبْتُ من ريق ومن صَهْباء

---

(١) فى ا « تراءت لنا » فى أول صدر البيت وأول عجزه

(٢) فى ا « نعانقه والـكأس تعبق نفحة »

(٣) فى ب ونسخة عند ا « فعاينت منه السيف »

ولثمت فى ظلماء ليلةِ وفْرةٍ — شفقاً هناك لِوَجنةٍ حمراء
والليلُ مُشْمَطُّ الذوائب كبرةً — خرف يدبُّ على عصا الجوزاء(١)
ثم انثنى والصبح يسحب فرعه — ويجرُّ من طرب فضول رداء
تندى بفيه أقْحُوانةُ أجرعٍ — قد غازلتها الشمسُ غبَّ سماءِ
وتميسُ فى أثوابه ريْحَانة — كَرَعَتْ على ظمإ بجدول ماء
تُفَّاحةُ الأنفاس إلا أنها — حَذَرَ الندى خفَّاقة الأفْياء
فلويْتُ مِعْطَفَها اعتناقاً حسبُنا — فيه بقطر الدَّمع من أنواء

لابن سعيد قصيدة فى وصف وادى الطلح

وكان المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى كثيرا ما ينتاب وادى الطلح مع رُمَيْكيته(٢)، وأولى أنسه ومسرته، وهو واد بشرفِ(٣) إشبيلية مُلْتفّ الأشجار، كثير ترنم الأطيار، وفيه يقول نور الدين بن سعيد :

سائل بوادى الطَّلْح ريح الصَّبا — هل سُخِّرَت لى فى زمان الصِّبا(٤)
كانت رسولاً فيه ما بيننا — لنْ نأمَنَ الرُّسْلَ ولن نكْتُبا
ياقاتل الله أناساً إذا — ما اسْتُؤْمِنُوا خانوا فما أعجبا
هلاَّ رعوْا أنّاَ وثِقْنا بهم — وما اتخذنا عنهمُ مذهبا
ياقاتل الله الذى لم يَتُبْ — من غدرهم من بعد ما جرَّبا
واليمُّ لا يعرف ما طعمُه — إلا الذى وافى لأن يشرَبا
دعنى من ذكر الوُشاة الألى — لمَّا يزَل فكرى بهم مُلهبا
واذكر بوادى الطلح عهداً لنا — لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الأغصان والزهر يبُثُّ الصَّبا

(١) فى ا « والليل مشمط الذؤابة »
(٢) فى ب « مع زملته »
(٣) في ب « بشرق إشبيلية » .
(٤) فى ب « من زمان الصبا »

والطيرُ مازَتْ بين ألحانها وليس إلا مُعْجِباً مُطْرِبا

وخاننى من لا أسمِّيه من شُحٍّ أخافُ الدهر أن يسلبا

قد أترع الكأسَ وحيَّا بها وقلت أهلاً بالمُنَى مَرْحبا

أهلاً وسهلا بالذى شئتُه يابدرَ تِمٍّ مُهْدِياً كوكبا

لكننى آليت أُسْقَى بها أو تُودِعَنْهَا ثغركَ الأشنبا

فمجَّ لى فى الكأس من ثغره ماحبَّبَ الشرب وما طيبا

وقال ها لَثْمِىَ نقْلاً ولا تشم إلا عَرْفِىَ الأطيبا[1]

واقْطُفْ بخدِّى الورد والآس والنَّسرين لا تحْفِلْ بزهر الرُّبا

أُسْعِفتُه غصناً غداً مُثْمِراً ومن جَنَاه مَيْسُه قرّبا

قد كنتُ ذا نهيٍ وذا إمرةٍ حتى تبدَّى فحللت الحُبا

ولم أصُنْ عِرْضِىَ فى حبه ولم أُطِعْ فيه الذى أنّبا

حتى إذا ما قال لى حاسدٌ ترجوه والكوكب أن يقرُبا

أرسلت من شعرىَ سحراً له ييسِّرُ المرغَبَ والمَطْلَبَا

وقال عرِّفْهُ بأنى سأحْتال فما أجتنب المكتبا

فزاد فى شوقى له وعده ولم أزل مُقْتَعِداً مَرْقبا

أمُدُّ طرْفى ثم أثنيه من خوف أخى التنغيص أن يرقبا

أصدِّق الوعد وطوراً أرى تكذيبَه والحرُّ لن يكذبا

أتى ومن سخَّره بعد ما أيأس بطء كاد أن يغضبا[2]

---

(١) في ا «فقال ها لثمى» وها : اسم فعل معناه خذ ، والنقل ـ بفتح فسكون ـ ما يتنقل به بين الشربين ، والعرف ـ بالفتح ـ ذكى الرائحة .

(٢) فى ا «آيس بطء» وفى نسخة «أيأس بطئا»

قبَّلْتُ فى الترب ولم أستطِع — من حصَرِ اللُّقيا سوى مرحبا
هنأت ربعى إذ غدا هالةً — وقلت يا من لم يُضِع أشْعَبا[١]
بالله مِل معْتَنقاً لاثما — فمال كالْغُصْن ثَنَتْه الصَّبا
فقال ماترغبُ قلتُ اتَّئد — أدركت إذ كلمتنى المَرْغَبا
فقال لامَرْغَب عن ذكر ما — ترغَبُه قلت إذن مركبا[٢]
وكان ما كان فوالله ما — ذكرته دهرىَ أو أُغْلبا

وستأتى هذه القصيدة بكمالها فى جملة من نظم ابن سعيد المذكور .

قصيدة لابن سعيد يتشوق فيها إلى إشبيلية

وقال يتشوق إلى إشبيلية ، وهى حمص الأندلس :

أنَّ الخليجُ وغنّت الورقاء — هل بُرِّحا إذ هاجت البُرَحاء
أنا منكما أولى بحلية عاشق — أفنى وما نمَّتْ بىَ الصُّعداء
أخْشى الوُشاة فما أفوهُ بلفظةٍ — والكتمُ عند العاشقين عَناء
لولا تشَوُّقُ أرضِ حِمْصٍ ماجَرَى — دمعى ولا شَمِتَتْ بىَ الأعداء
لم أستطِعْ كتماً له فكأنَّنى — ما كان لى كتْمٌ ولا إخفاء
والبدرُ مهما رام كتماً مَنْ سَرَى — فيه ينمُّ على سُراهُ ضياء
بلدٌ متى يَخْطُرْ له ذكر هفا — قلبى وخان تصبُّرٌ وعزاء
من بعده ما الصبح يشرق نورُهُ — عندى ، ولا تتبدَّل الظلماء
كم لى به من ذى وفاء لم يَخُنْ — عهدى ، وينمو بالوداد وفاء
فتراه إذ مامر ذكرى سائلا — عن حالتى إن قلّتِ الأنباء[٣]

(١) أشعب : رجل من أهل المدينة ، يقال : إنه مولى آل الزبير ، وهو مضرب المثل فى الطمع والشره .

(٢) في نسخة عند ا « لا مذهب عن ذكر ما »

(٣) فى ا « فترى إذا ماود ذكرى سائل »

يُمسى ويُصْبح فى تذكُّر مدة … يرضى بها الإصباح والإمساء

مع كل مَبْذول الوصال ممنَّعٍ … من غيرنا تَسْمُو به الخُيلاء[(1)]

كالظبى كالشمس المنيرة كالنَّقا … كالغُصن يثنى مَعْطِفَيْه رُخاء

يسعى براح كالشهاب ، براحة … كالبدر ، والوجهُ المنيرُ ذُكاء[(2)]

مالان نحو الوصْلِ حتى طال منهُ الهجرُ واتَّصَلَتْ به البَلْوَاء[(3)]

خير المحبة ما تَأَتَّتْ عن قِلًى … تُدْرَى ببؤسِ الفاقةِ النعماء

مازلْتُ أرْقِى بالقريض جُنُونَهُ … حتى استكان ، وكان منه إباء

فظَفِرْتُ منه بمدة لو أنها … دامت لدامت لى بها السَّرَّاء

صفو تكدر بالتحرُّك ، ليته … مازال ، لكن لا يُرَدُّ قضاء[(4)]

إنْ الفراق هو المنيّة ، إنما … أهل النَّوَى ماتوا وهم أحياء

لولا تذكر لَذَّةٍ طابت لنا … بذَرَى الجزيرة حيث طاب هواء

وجرى النسيمُ على الخليج مُعَطَّرًا … وتبددت فى الدَّوْحَة الأنداء

ما كابدَتْ نفسى ألِيمَ تفكر … ألوى به عن جَفْنِيَ الإغْضَاء[(5)]

يانهر حمص لا عَدَتْكَ مسَرَّةٌ … ماء يسيلُ لديك أم صَهْباء

كل النفوس تَهَشُّ فيك كأنما … جَمَعَتْ عليك شَتَاتَهَا الأهواء

وُدِّى إليك مع الزمان مُجَدَّدٌ … ما إن يحُولُ تذكُّرٌ وعناء

---

(١) الخيلاء ـ بضم ففتح ـ مثل المخيلة ، وهو الكبر وإعجاب المرء بنفسه

(٢) ذكاء : اسم الشمس

(٣) فى ب «مالان تحت الوصل» وأثبتنا ما فى ا

(٤) وقع هذا البيت فى ا هكذا :

صفو تكدر بالتحرك لينه … مازلت لكن لا يرد قضاء

(٥) فى ا « ألوى به عن جفنى الإغفاء » والإغفاء : النوم

ولَوَ أُننى لم أُحْيِ ذكراً لِلّذى أوليته ما كان فىّ حياء
ما كنت أطمعُ فى الحياة لوأُننى أيقنتُ أن لايُسْتَرَدّ لقاء
غيرى إذا ما بان حان ، و إنما أبقى حياتى حين بِنْتُ رجاء(١)

وسيأتى إن شاء الله تعالى لهذا النمط وغيره مزيد أثناء الكتاب ، بحسب ما اقتضته المناسبة ، والله تعالى المرجو فى حسن المتاب ، وهو سبحانه لاإله إلاهو الموفق للصواب .

---

(١) بنت : فارقت وبعدت ، ووقع فى ب « أبقى حياتي حين بان »

البابُ الخامِسُ

فى التعريف ببعض مَنْ رَحَل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية العَرَار والبَشَام[١] ، ومَدْح جماعة من أولئك الأعلام ، ذَوِى العقول الراجحة والأحلام[٢] ، لشامة وَجْنَة الأرض دِمَشْق الشام[٣] ، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها ، وأرباب بيانها ، ذوى السؤدد والاحتشام ، ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حَلَّها سنة ألف وسبع وثلاثين للهجرة ، وشاهَدَ برق فضلها المبين وَشَام[٤]

اعلم — جعلنى الله تعالى و إياك ممن له للمذهب الحق انتحال[٥] ! — أنَّ حَصْر أهل الارتحال ، لايمكن بوجه ولا بحال ، ولا يَعْلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المِحَال[٦] ، ولو أطلنا[٧] عِنَان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء [العلماء][٨]

---

(١) العرار — بزنة سحاب — نبت طيب الرائحة ، ويقال : هو النرجس البرى، وفيه يقول الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

والبشام — بزنة سحاب أيضاً — شجر ذكى الريح طيب المذاق ، له ساق وأغصان ، وورقه أكبر من ورق الصعتر ، وفيه يقول جرير بن عطية :

أتذكر يوم تصقل عارضيها   بعود بشامة ؟ سقى البشام!

(٢) الأحلام : جمع حلم ، والمراد به هنا العقل .

(٣) الشامة : العلامة ، والوجنة — بفتح فسكون — الخد ، يريد أن دمشق من البلاد بمنزلة الشامة من الوجنة .   (٤) شام : نظر

(٥) انتحل المذهب : قال به واتخذه

(٦) المحال — بكسر الميم ، بزنة الكتاب — القوة والكيد والتدبير ، وورد فى التنزيل الكريم (وهو شديد المحال)

(٧) العنان — بكسر العين بزنة الكتاب — ماتقاد به الدابة ، وأطلناه : أرخيناه ووقع فى ا « ولو أطلقنا »   (٨) كلمة « العلماء » لاتوجد فى ا

الأعلام ، لطال الكتاب وكثر الكلام ، ولكنا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الملال واختصار مؤدٍّ للملام ، فنقول مستمدين من واهب العقول :

منهم عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السُّلمى .

ترجمة عبدالملك بن حبيب السلمى

وقد عرف به القاضى عِيَاض فى المدارك وغير واحد ، ورأيت فى بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفاً ، ومن أشهرها كتاب « الواضحة » فى مذهب مالك ، كتاب كبير مفيد ، ولابن حبيب مذهب فى كتب المالكية مسطور ، وهو مشهور عند علماء المشرق ، وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما .

ومن نظمه يخاطب سلطان الأندلس :

لا تَنْسَ لا يُنْسِكَ الرحمنُ عاشورا ... واذكره لازلت فى التاريخ مذكورا

قال النبىُّ صلاة الله تشمَله ... قولا وجدنا عليه الحق والنورا

فيمن يوسِّع فى إنفاق موسمه ... أن لا يزال بذاك العام ميسورا

وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن إذ طال عهدى به ، والله تعالى أعلم .

وقال الفتح فى المطمح : الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمى ، أى شرف لأهل الأندلس و [أى] مَفْخَر (١) ، وأى بحر بالعلوم يَزْخَر (٢) ، خلدت منه الأندلس فقيهاً عالماً ، أعاد مجاهل أهلها (٣) معالما ، وأقام فيها للعلوم أسواقاً نافقة (٤) ، ونشر منها ألويةً خافقة ، وجلا عن الألباب صَدَأ الكسل ، وشَحَذها شحذ

---

(١) مفخر : مصدر ميمى بمعنى الفخر ، وكلمة « أى » لا توجد فى ا

(٢) يزخر : مصارع زخر البحر ، أى اضطرب موجه وارتفع وعلا . وبابه فتح .

(٣) فى ا « أعاد مجاهل جهلها معالما »

(٤) فى ا « سوقا نافقة » ونفقت السوق : راجت واشتدت الرغبة فيما يعرض فيها .

الصَّوارم والأسل(١)، وتصرف فى فنون العلوم ، وعرف كل معلوم، وسمع بالأندلس وتفقه ، حتى صار أعلم مَنْ بها وأفْقَهَ ، ولقى أنجاب مالك ، وسلك فى مُناظرتهم(٢) أوْعَر المسالك ، حتى أجمع عليه الاتفاق ، ووقع على تفضيله الإصْفَاق(٣)، ويقال : إنه لقى مالكا آخر عمره ، وروى عنه عن(٤) سعيد بن المسَيَّب أن سليمان بن داود صلى الله عليهما وسلم كان يركب إلى بيت المقدس فيتغدّى به ، ثم يعود فيتعشّى بإصْطَخْر ، وله فى الفقه [كتاب] « الواضحة » ومن أحاديثه غرَائب ، قد تحلت بها للزمان نحورٌ وتَرَائب .

وقال محمد بن لبابة (٥) : فقيه الأندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبدُ الملك ابن حبيب ، وراويها يحيى بن يحيى.

وكان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب ،وتصرف فى فنون الآداب ، وكان له شعر يتكلم به متبحراً ، ويُرَى (٦) ينبوعُه بذلك متفجرا ، وتوفى بالأندلس فى رمضان سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعد ما جال فى الأرض ، وقطع طولها والعَرْض ، وجال فى أكنافها(٧) ، وانتهى إلى أطرافها .

ومن شعره قوله :

قد طاح أمرى والذى أبتغى ... هَيْنٌ على الرحمن فى قُدْرَتِهْ
ألفٌ من الحُمْر وأقلِلْ بها ... لِعَالِمٍ أرْبَى على بُغْيَتِهْ
زِرْيَاب قد أُعْطِيهَا جملَةً ... وحِرْفَتِى أشرفُ من حِرْفَتِهْ (٨)

---

(١) الصوارم : جمع صارم ، وأراد به السيف ، والأسل : الرماح .

(٢) فى ا « وسلك من مناظراتهم » (٣) الإصفاق : الإجماع

(٤) فى نسخة عند ا « وروى عنه عن ربيعة عن سعيد بن المسيب »

(٥) فى نسخة عند ا « محمد بن لبانة »

(٦) فى ب « وسرى ينبوعه » وفى نسخة « ومرى ينبوعه » .

(٧) أكنافها : جوانبها ونواحيها، واحدها كنف، بفتح الكاف والنون جميعا

(٨) زرياب : رجل مغن ، قدم الأندلس فلقى قبولا ونفاقا ، وانظر ج ١ ص ٣٢٢

وكتب إلى الزجالى[١] رسالة وصلها بهذه الأبيات :

كيف يُطيقُ الشِّعْرَ مَنْ أصْبحَتْ حالَتُهُ اليومَ كحالِ الغَرقْ
والشعرُ لا يُسْلِسُ إلاَّ عَلَى فَرَاغِ قلبٍ واتِّسَاعِ الخلق
فاقْنَعْ بهذا القول من شاعرٍ يَرْضَى من الحظ بأدنى العَنَق[٢]
فَضْلُك قد بَان عليه كما بانَ لأهل الأرض ضَوْءُ الشَّفَقْ
أمَّا ذِمامُ الودِّ منى لكُمْ فهْوَ من المَخْتُومِ فيما سَبَقْ

ولم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من مُعْتَله، ويفرق[٣] مستقيمه من مُخْتله، وكان غرضه الإجازة، وأكثر رواياته غير مستجازة، قال ابن وضاح : قال إبراهيم بن المنذر : أتى صاحبكم الأندلس - يعنى عبد الملك هذا - بغِرَارة مملوءة، فقال لى : هذا علمك، قلت له : نعم، ما قرأ على منه حرفاً ولا قرأته عليه، وحكى أنه قال فى دخوله المشرق وحضر مجلس بعض الأكابر فازدراه من رآه :

لا تنظُرَنَّ إلى جسمى وقِلَّتهِ وانْظُرْ لِصَدْرِى وَمَا يَحْوى من السُّنَن
فَرُبَّ ذِى مَنْظَرٍ من غير مَعْرِفة ورُبَّ مَنْ تزدريه العينُ ذو فِطَنِ
ورُبَّ لؤلؤةٍ فى عين مزبلة لم يُلْقَ بالٌ لها إلا إلى زمن

انتهى ما فى المطمح الصغير .

قلت : أمّا ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مُسَلم، وقد نقل عنه غير واحد من جَهَابذة المحدِّثين، نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين، حتى إن فى شِفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النقّاد مخرجها، مع اعترافهم بجلالة حفاظ الأندلس الذين نقلوها كبَقِىّ بن مَخْلد وابن حبيب وغيرهما على ما هو معلوم .

---

(١) فى نسخة عند ا « وكتب إلى محمد بن سعيد الترحالى » وفى ب « الزجانى » وفى نسخة « البرحالى » وكل ذلك تحريف ما أثبتناه عن أصل ا

(٢) العنق - بفتح العين والنون جميعاً - السير السريع .

(٣) فى ا « ولا يفرق بين مستقيمه ومختله »

وأما ما ذكره عنه بالإجازة بما فى الغرارة فذلك على مذهب مَنْ يرى الإجازة ، وهو مذهب مستفيض ، واعتراضُ من اعترض عليه إنما هو بناء على القول بمنع الإجازة ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه الموفق .

ترجمة يحيي ابن يحيي الليثى المحدث

ومن الراحلين من الأندلس الفقيهُ المحدِّث يحيي بن يحيي الليثى راوى الموطّأ عن مالك رضى الله تعالى عنه ، ويقال : إن أصله من برابر مَصْمودة(١) ، وحُكى أنه لما ارتحل إلى مالك لازمه ، فبينما هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل : [قد] حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك كلهم ، ولم يخرج يحيي ، فقال له مالك : مالك لم تخرج وليس الفيل فى بلادك ؟ فقال : إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك ، وأتعلم من هَدْيك وعلمك ، ولم أكن لأنظر إلى الفيل ، فأعجب به مالك ، وقال : هذا عاقل الأندلس، ولذلك قيل: إن يحيي هذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها ، وعبدُ الملك بن حبيب عالمها ، ويقال : إن يحيي راويها ومحدثها ، وتوفى يحيي بن يحيي سنة ٢٣٤ فى رجب ، وقبره يستسقى به بقُرْطُبة ، وقيل : إن وفاته فى السنة التى قبلها ، والله تعالى أعلم .

وروايته الموطأ مشهورة ، حتى إن أهل المشرق الآن يُسْندون الموطأ من روايته كثيراً ، مع تعدّد رواة الموطأ ، والله أعلم .

وكان يحيي بن يحيي روى الموطأ بقُرْطُبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخْمِىِّ المعروف بشَبَطون(٢)، وسمع من يحيي بن مُضَر القَيْسى الأندلسى ، ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فسمع من مالك بن أنس الموطأ غيرَ أبواب فى كتاب الاعتكاف ، شَكَّ فى سماعها ، فأثبت روايته فيها عن زياد ، وذلك مما يدلّ على وَرَعه .

---

(١) مصمودة : قبيلة من قبائل البربر بالغرب ، مشهورة بالشوكة والعدد .

(٢) فى ب « المعروف بشطون » وستأتى ترجمته ، واتفقت النسخ هناك على « شبطون »

وسمع بمصر من اللَّيْث بن سعد ، و بمكه من سُفْيان بن عُيَينة ، وتفقه بالمدنيين والمصريين كعبد الله بن وَهْب وعبد الرحمن بن القاسم العُتَقى(١) ، وسمع منهما ، وهما من أكابر أصحاب مالك ، بعد انتفاعه بمالك وملازمته له .

وانتهت إليه الرياسة بالأندلس ، و به اشتهر مذهب مالك فى تلك الديار ، وتفقه به جماعة لا يُحْصَوْن عدداً ، وروى عنه خلق كثير ، وأشهر رواة الموطأ وأحسنهم رواية يحيي المذكور ، وكان ـ مع أمانته ودينه ـ مُعَظَّما عند الأمراء ، يكنى عندهم ، عفيفاً عن الولايات ، متنزها ، جلت رتبته عن القضاء ، وكان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الأمر بالأندلس لزهده فى القضاء وامتناعه .

سبب اشتهار مذهب مالك بالأندلس عند ابن حزم

قال الحافظ ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بَدْء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة ، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيي بن يحيي كان مَكيناً عند السلطان مقبول القول فى القضاء ، وكان لا يلى قاضٍ فى أقطار [بلاد](٢) الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومَنْ كان على مذهبه ، والناسُ سراع إلى الدنيا ، فأقبلوا على ما يَرْجُون بلوغَ أغراضهم به ، على أن يحيي لم يَلِ قضاء قط ، ولا أجاب إليه ، وكان ذلك زائدا فى جَلاَلته عندهم ، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم ، انتهى .

وذكرنا فى غير هذا الموضع قولا آخر فى سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس ، والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر .

وقال ابن أبى الفياض : جمع الأمير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء فى قصره ، وكان وقع على جارية يحبها فى رمضان ، ثم ندم أشدّ ندم ، فسألهم عن التوبة

---

(١) فى نسخة عند ا « المعتلى » وفى أخرى « العتلى » وكل ذلك تحريف ، وانظر ترجمته وضبط هذه النسبة وسببها فى ابن خلكان (الترجمة رقم ٣٣٥ فى الجزء الثانى ص ٣١١ بتحقيقنا)

(٢) كلمة « بلاد » ساقطة من ا

والكفارة ، فقال يحيى : تكفر بصوم شهرين متتابعين ، فلما بادر يحيى بهذه الفُتْيَا سكت الفقهاء حتى خرجوا ، فقال بعضهم له : لم لم تُفْتِ بمذهب مالك بالتخيير ؟ فقال : لوفتحنا له [هذا] الباب سَهُلَ عليه أن يطأ كل يوم و يعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود .

وقال بعض المالكية : إن يحيى وَرَّى بهذا ، ورأى أنه لم يملك[1] شيئاً إذ هو مستغرق الذمّة فلا عتق له ولا إطعام ، فلم يبق إلا الصيام ، انتهى .

ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل إلى مصر رأى ابنَ القاسم يُدَوّن سماعه من مالك ، فنَشِط للرجوع إلى مالك ليسمع منه المسائل التى رأى ابنَ القاسم يُدَوّنها ، فرحل رحلة ثانية ، فألفى مالكا عليلا ، فأقام عنده إلى أن مات وحضر جنازته ، فعاد إلى ابن القاسم وسمع منه سماعه من مالك ، هكذا ذكره ابن الفرَضى فى تاريخه ، وهو مما يرد الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكا عن زكاة التين ، فقال [له] : لا زكاة فيها، فقال : إنها تُدَّخر عندنا ، ونَذَر إن وصل إلى الأندلس أن يرسل لمالكٍ سفينة مملوءة تيناً ، فلما وصل أرسلها فإذا مالك قدمات ، انتهى .

قال ابن الفرَضى : ولما انصرف يحيى إلى الأندلس كان إمامَ وقته ، وواحد بلاده ، وكان ممن اتهم بالهَيْج فى وقعة الرَّبَض المشهورة ففر إلى طُلَيْطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانا ، وانصرف إلى قرطبة[2] .

وقيل : لم يعط أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطى يحيى من الحُظْوة ، وعظم القدر ، وجلالة الذكر .

وقال ابن بَشْكوال : إن يحيى بن يحيى كان مجاب الدعوة ، وإنه أخذ فى سَمْته وهيئته ونفسه ومَقْعده هيآت[3] مالك .

---

(١) فى ا «وإنه لم يرأنه يملك شيئا»

(٢) انظر الجزء الأول ص ٣١٨ و ٣٢٢ من هذه الطبعة (٣) فى ا «هيأة مالك»

ويحكى عنه أنه قال : أخذت بركاب(١) الليث بن سعد ، فأراد غلامه أن يمنعني ، فقال : دَعْه ، ثم قال لى الليث : خَدَمَكَ العلم ! فلم تزل بى الأيام حتى رأيت مالكا ، انتهى .

ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى .

ترجمة أبى عبدالله محمد بن عيسى

قال فى المطمح : من بنى يحيى بن يحيى الليثى ، وهذه ثَنِيَّةُ علمٍ(٢) وعقل ، وصحة(٣) ضبط ونقل ، كان عَلَمَ الأندلس ، وعالمها النَّدُسَ(٤) ، ولى القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق ، وجمع فيها من الروايات والسماع كل مفترق ، وجال فى آفاق ذلك الأفق ، لا يستقر فى بلد ، ولا يستوطن فى جَلَد(٥) ، ثم كر إلى الأندلس فسمت رتبته ، وتحلَّتْ بالأمانى لَبَّته ، وتصرف فى ولايات أُحْمِدَ فيها مَنابه ، واتصلت بسببها بالخليفة أسبابه ، وولاه القضاء بقرطبة فتولاه بسياسة محمودة ، ورياسة فى الدين مُبرمَة القوى(٦) مجهودة ، والتزم فيها الصَّرامة فى تنفيذ الحقوق ، والحزامة فى إقامة الحدود ، والكشف عن البيان فى السر ، والصَّدْع بالحق فى الجهر ، لم يَسْتَمِلْه مخادع ، ولم يكده مخاتل ، ولَمْ يهَبْ ذا حرمة ، ولا داهن ذا مرتبة ، ولا أغضى لأحد من أرباب السلطان(٧) وأهله ، حتى تحامَوْا [حدة] جانبه ، فلم يجسر أحد منهم عليه ، وكان له نصيب وافر من الأدب ، وحظ من البلاغة إذا نظم وإذا كتب .

ومن ملح شعره ما قاله عند أَوْبَته عن غربته :

كأن لم يكنْ بَيْنٌ ولم تكُ فرقة إذا كان من بَعْد الفراق تلاقِ
كأن لم تؤرِّقْ بالعِراقَيْنِ مُقْلَتِي ولم تَمْرِ كفُّ الشوق ماءَ مآقى

---

(١) في ا «أخذت ركاب الليث .. الخ» (٢) فى نسخة عند ا «وهذه بيتة» وفى أخرى «وهذه تثنية» (٣) فى نسة «وحجة ضبط ونقل» (٤) الندس - بفتح فضم - العظيم الفطنة ، وفى ب ونسخة عند ا «وعالمها المندس» محرفا .

(٥) جلد - بفتح الجيم واللام جميعا - الأرض المستوية ، ووقع فى نسخة عند ا «ولا يستوطن فى مظلومة جلد» (٦) كذا فى المطمح (ص ٤٦) ووقع فى ا ، ب «مبرقة القوى» (٧) فى ا «أسباب السلطان» وفى نسخة عندها «أصحاب السلطان»

ولم أزرِ الأعرابَ فى جَنْبِ أرضهم بذاتِ اللِّوَى من رَامَةٍ و بَرَاقِ
ولم أصْطَبِحْ بالبيد من قَهْوَةِ النَّدَى وكأسٍ سَقَاهَا فى الأزاهِرِ ساقِ

وله أيضا :

ماذا أكابد من وُرْق مُغَرِّدَةٍ على قضيبٍ بذاتِ الجزعِ مَيَّاسِ
رَدَّدْنَ شَجْواً شَجِى قلب الخلىِّ فهل فى عَبْرة ذرفتْ فى الحب من باس
ذكَّرْنَه الزمَنَ الماضى بقُرْطُبة بين الأحبّة فى أمْنٍ وإيناسِ
هُمُ الصبابة لولا هِمّة شرفت فصيَّرتْ قلبَه كالجندل القاسى

وله أخبار تدل على رقة العراق(١) والتغذى بماء تلك الآفاق :

فمنها أنه خرج إلى حضور جنازة بمقابر قريش ، ورجل من بنى جابر كان يواخيه له منزل هناك ، فعزم عليه فى الميل إليه ، وعلى أخيه ، فنزل عليه ، فأحضرلهما طعاما ، وأمر جارية له بالغناء ، فغنت :

طابَتْ بطيبِ لِثَاتِكَ الأقْدَاحُ وزَهَتْ بحُمْرة خدّكَ التفّاحُ
وإذا الربيعُ تَنَسَّمَتْ أرواحُه طابت بطيب نسيمِكَ الأرواحُ(٢)
وإذا الحنادسُ ألبسَتْ ظَلْمَاءَها فضِياءُ وجهك فى الدُّجى مِصْبَاحُ

فكتبها القاضى فى ظهر يده ، وخرج من عنده ، قال يونس بن عبد الله : فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على ظهر كفه .

وكان رحمه الله تعالى فى غاية اللطف ، حكى بعض أصحابه قال : ركبنا معه فى موكب حافل من وُجوه الناس ، إذ عرض لنا فتًى متأدب قد خرج من بعض الأزِقَّة سكران يتمايل ، فلما رأى القاضىَ هابه ، وأراد الانصراف ، فخانته رجلاه ، فاستند إلى الحائط ، وأطرق ، فلما قرب القاضى رفع رأسه وأنشأ(٣) يقول :

ألا أيها القاضى الذى عَمَّ عَدْلُه فأضحى به بين الأنام فَرِيدَا

(١) العراق : القطر المعروف ، ويضرب بأهله المثل فى الرقة والظرف ، فيقال « ظرف عراقى » .
(٢) فى ا « تنسمت أدواحه .. الأدواح » وفى نسخة « تبسمت أرجاؤه » .
(٣) فى ا « ثم أنشأ يقول »

قرأتُ كتاب الله تسعين مرة — فلَمْ أرَ فيـــه للشراب حُدُودَا

فإن شئت جَلْداً الى فدونكَ مَنْكباً — صَبُوراً على ريب الزمان جليدَا

و إن شئت أن تَعْفُو تكن لك مِنّة — تروحُ بهـا فى العالمين حَمِيـدَا

و إن أنت تختار الحديدَ فإن لى — لِسَانا على هَجْو الزمان حَدِيدَا

فلما سمع شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ، ومضى لشأنه ، انتهى ملخصا من المطمح .

محمد بن عبدالله ابن يحيى بن يحيى

ورأيت بخطى فى بعض مُسَوَّداتى ماصورته : محمد بن عبدالله بن يحيى [بن يحيى] الليثى قاضى الجماعة بقرطبة ، سمع عم أبيه عبيدالله بن يحيى ومحمد بن عمر بن لبابة وأحمد ابن خالد ، ورحل من قرطبة سنة ٣١٣ ، ودخل مصر ، وحج ، وسمع بمكة من ابن المنـذر والعقيلى وابن الأعرابى ، وكان حافظا ، معتنيا بالآثار ، جامعا للسُّنَن ، متصرفا فى علم الإعراب ، ومعانى الشـعر ، شاعرا مطبوعا ، وشاوره القاضى أحمد بن بقى ، واستقضاه الناصرُ عبدالرحمن بن محمد عَلَى إلبيرة و بجَّانَةَ (١) ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبى طالب سنة ٣٢٤ (٢) ، وجمعت له مع القضاء الصلاة ، وكان كثيرا ما يخرج إلى الثغور ، ويتصرف فى إصلاح ما وَهَى منهـا ، فاعتل فى آخر خرجاته ، ومات فى بعض الحصون المجاورة لطلَيْطلة سنة ٣٣٧ ، ومولده سنة ٢٨٤ ، انتهى وأظن أنى نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ ، والله أعلم .

ترجمة عتيق بن أحمد الأندلسى الدمشقى

ومنهم عتيق بن أحمد بن عبد الباقى الأندلسى ، الدمشقى وفاة ، يكنى أبا بكر نزيل دمشق ، كان مشهورا بالصلاح ، وانتفع به جماعة من الفقراء ، وولد على ماقيل سنة ٥١٦ ، وتوفى سنة ٦١٦ (٣) ، بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية ، فيكون عمره على هذا مائة سنة ، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته و بركات أمثاله ! .

ومنهم أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف ، الأنصارى ، الأندلسى ،

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب ونسخة عند ا « إلبيرة وبجاية »

(٢) فى أصل ا « سنة ٣٢٦ »

(٣) فى ب « سنة ٦١٤ » ولا يتفق مع ماحدده بعد من سنه .

ترجمة أبى إبراهيم إسماعيل بن محمد الأنصارى الأبذى

الأبَّذِى ، الملقب فى البلاد المشرقية ببرهان الدين ، وأبذة - بضم الهمزة ، وتشديد الباء الموحدة وفتحها ، وبعدها ذال معجمة - بلد بالأندلس ، سمع المذكور بمكة وغيرها من البلاد ، وبدمشق من الحافظ ابن طبرزذ ، وأمَّ بالصخرة ، وكان فاضلا صالحا شاعرا ، توفى سنة ٦٥٦ ، وأخبر عن بعض الأولياء المجاورين ببيت المقدس أنه سمع هاتفا يقول لما خرب القدس :

إنْ يَكُنْ بالشآم قَلَّ نَصِيرى ثم خُرِّبْتُ واستمرَّ هُلوكى

فلقد أثبتَ الغداةَ خرابى سمر العار فى حياة الملوكِ(١)

هكذا رأيته بخط الصفدى « فى حياة » ويحتمل أن يكون « فى جباه » جمع جَبْهة ، والله أعلم .

ترجمة القاضى منذر بن سعيد البلوطى

ومنهم القاضى مُنْذِر بن سعيد البلوطى ، قاضى الجماعة بقُرْطُبَة ، وقد قدمنا جملة من أخباره فى الباب الثالث والرابع من هذا القسم ، وكان لا يخاف فى الله لومَةَ لائم(٢).

ومن مشهور ما جرى له فى ذلك قصته(٣) فى أيتام أخى نَجْدَةَ ، وحدث بها جماعة من أهل العلم والرواية ، وهى أن الخليفة الناصر احتاج إلى شراء دار بقُرْطُبَة(٤) لحظِيَّة من نسائه تَكْرُم عليه ، فوقع استحسانُه على دار كانت لأولاد زكريا أخى نَجْدَةَ ، وكانت بقرب النشارين فى الرَّبَض الشرقى منفصلة عن دوره ، ويتصل بها حَمَّام له غلة واسعة ، وكان أولاد زكريا أخى نَجْدة أيتاماً فى حجر القاضى ، فأرسل الخليفةُ من قوَّمها له بعدد ما طابت نفسه ، وأرسل ناساً أمَرَهُم بمداخله وصى الأيتام فى بَيْعها عليهم ، فذكر أنه لا يجوز إلا بأمر القاضى ، إذ لم يجز بيع الأصل إلا عن رأيه ومَشُورته ، فأرسل الخليفة إلى القاضى منذر فى بيع هذه الدار ، فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوَهْى

---

(١) فى ا « فلقد أثبث العداة » محرفا

(٢) انظر الجزء الأول ص ٣٤٥-٣٥٢ وانظر الجزء الثانى أيضا ص ١٠٧-١٠٩

(٣) فى ا « قصة فى أيتام » (٤) فى ب « من قرطبة »

الشديد ، ومنها الغبطة[١] ، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء[٢] الأيتام إلى البيع ، وأما الوَهْى فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فإن أعطاهم أميرُ المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع ، و إلا فلا ، فنقل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعا أن يتوخّى رغبته فيها ، وخاف القاضى أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام ثورتها ، فأمر وصىَّ الأيتام بنقض الدار و بيع أنقاضها ، ففعل ذلك وباع الأنقاض ، فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان ، فاتصل الخبر به ، فعز عليه خرابها ، وأمر بتوقيف الوصى على ما أحدثه فيها ، فأحال الوصى على القاضى أنه أمره بذلك ، فأرسل عند ذلك للقاضى مُنْذِر ، وقال له : [أ] أنت أمرت بنقض دار أخى نَجْدَة ؟ فقال له : نعم ، فقال : ومادعاك إلى ذلك ؟ قال : أخذت فيها بقول الله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) مُقَوِّموك لم يقوموها[٣] إلا بكذا ، وبذلك تعلق وَهْمُك ، فقد نَضَّ[٤] فى أنقاضها أكثر من ذلك ، و بقيت القاعة والحمام فَضْلا ، ونظر الله تعالى للأيتام ، فصبر الخليفة عبدُ الرحمن على ماأتى من ذلك ، وقال : نحن أولى مَنِ انقاد[٥] إلى الحق ، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا !.

قالوا : وكان — على متانته وجزالته — حسنَ الخلق ، كثير الدُّعابة ، فربما ساء ظنٌّ من لايعرفه ، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضارى ، فمن ذلك ما حدث به سعيدٌ ابنه قال : قعدنا ليلة من ليالى شهر رمضان المعظم مع أبينا للأفطار بداره البرانية ، فإذا سائل[٦] يقول : أطعمونى مِنْ عشائكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة ، هذه الليلة ، و يكثر من ذلك ، فقال القاضى : إن استُجِيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا أحد[٧] .

(١) الغبطة : أراد الحظ والمنفعة الظاهرة ، كأن يكون الثمن أكثر من ثمن المثل بكثير ، سمى بذلك لأنه مما يغبطهم الناس عليه .

(٢) فى ب « فلا حاجة بهذه الايتام » (٣) فى ا « لم يقدروها »

(٤) نض : حصل ، وهو بالضاد المعجمة كما فى ا

(٥) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « نحن أول من انقاد »

(٦) فى ا « فاذا بسائل » (٧) فى ا « واحد »

وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهنى أنه ركب يوما لحيازة أرض مُحَبَّسة فى رَكْبٍ من وُجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم اللؤلؤى ونظراؤه ، قال : فسرنا نَقْفُوه[1] وهوأمامنا ، وأمامه أمناؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار ، وكانت القضاة حينئذ لاتراكب ولا تماشى ، فعرض له فى بعض الطريق كلاب مع مُسْتَوْحِمة[2] ، والكلاب تلعق هَنَهَا وتدور حولها ، فوقف وصرف وجهه إلينا وقال : ترون يا أصحابنا ما أبرَّ الكلاب بالهن الذى تلعقه وتكرمه ، ونحن لانفعل ذلك ، ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا ، و بقينا متعجبين من هَزْله .

وحضر عند الحكم المستنصر بالله يوما فى خلوة له فى بستان الزهراء على بِرْكة ماء طافحة ، وسط روضة نافحة[3] ، فى يوم شديد الوَهَج[4] ، وذلك إثر مُنْصَرَفه من صلاة الجمعة ، فشكا إلى الخليفة من وَهَج الحرّ والجهد ، و بث منه ما تجاوز الحدّ ، فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن جسمه ، ففعل ، ولم يُطْفِ ذلك مابه ، فقال له : الصواب أن تنغمس فى وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك ، وليس مع الخليفة إلا الحاجب جعفر الخادم الصقلبى أمين الخليفة الحكم ، لا رابع لهم ، فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقارا ، وأقصر عنه إقصارا ، فأمر الخليفةُ حاجبَه جعفرا بسَبْقه إلى النزول فى الصهريج ليسهل عليه الأمر فيه ، فبادر جعفر لذلك ، وألقى نفسه فى الصهريج ، وكان يحسن السِّباحة ، فجعل يجول يميناً وشمالاً فلم يسع القاضى إلا إنفاذ أمر الخليفة ، فقام وألقى بنفسه خلف جعفر ، ولاذ بالقعود فى دَرَج الصهريج ، وتدرَّج فيه بعض تدريج ، ولم ينبسط فى السباحة ، وجعفر يمر مُصَعِّدا ومصوبا[5] فدسَّه الحكم على القاضى[6] ، وحمله على مساجلته فى العَوْم ،

---

(١) نقفوه : نتبعه (٢) مستوحمة : تظهر الرغبة فى اللقاح

(٣) نافحة : ذات ريح ذكية أرجة ، تنتشر فى الجو

(٤) الوهج : شدة الحر (٥) صعد ـ بتشديد العين ـ انحدر ، وصوب: ضده

(٦) يريد أنه أغراه به ، ووقع فى نسخة « فغمزه »

وهو يعجزه فى إخلاده إلى القعود ، و يعابثه[1] بإلقاء الماء عليه ، والإشارة بالجذْب إليه ، وهو لا ينبعث معه ، ولا يفارق موضعه ، إلى أن كلمه الحكم وقال له : مالك لاتساعد الحاجب فى فعله وتتقبل[3] صنعه ؟ فمن أجْلِكَ نزل ، و بسببك تبذّل ، فقال له : يا سيدى ، يا أمير المؤمنين ، الحاجب سلمه الله تعالى لا هوجل معه ، و إنما هذا[2] الهوجل الذى معى يعقلنى و يمنعنى من أن أجول معه مجالَهُ ، يعنى أن الحاجب خَصِىٌّ لاهوجل معه ، والهوجل : الذكر ، فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر ، وخجل جعفر من قوله ، وسبه سب الأشراف ، وخرجا من الماء ، وأمر لهما الخليفة بخلع ، ووصلهما بصلات سنية تشا كل كل واحد منهما .

وحكى أن الخليفة الحكم قال له يوما : لقد بلغنى أنك لاتجتهد للأيتام ، وأنك تقدم لهم أوصياء سوء يأ كلون أموالهم ، قال : نعم ، و إن أمكنهم نَيْك أمهاتهم لم يعفُّوا عنهنّ ، قال : وكيف تقدم مثل هؤلاء ؟ قال : لست أجد غيرهم ولكن أحِلْنى على اللؤلؤى وأبى إبراهيم ومثل هؤلاء ، فإن أبوا أجْبَرْتهم بالسَّوْط والسجن ، ثم لاتسمع إلا خيرا .

وقال القاضى منذر : أتيت وأبو جعفر بن النحاس فى مجلسه بمصر يملى فى أخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول :

خليلَىَّ هـل بالشام عَيْنٌ حزينةٌ تبكِّى على نجـد لَعَلِّى أُعِينُهَا
قدَ أسلمها البا كون إلا حمـامة مُطَوَّقة باتَتْ وبات قرينُهَـا
تُجَاوِبها أخْرَى على خَيْزُرانةٍ يكاد يُدَنِّيها من الأرض لِينُهَا

فقلت له : يا أبا جعفر ، ماذا أعزك الله تعالى باتا يصنعان ؟ فقال لى : وكيف تقول[4]

---

(١) فى ا « ويعاتبه »
(٢) فى ا « وتقبل صنعه »
(٣) فى ا « وأنا بهذا الهوجل »
(٤) فى ا « وكيف تقوله »

أنت يا أندلسى ؟ فقلت له : بانت وبان قرينها ، فسكت ، وما زال يستثقلنى بعد ذلك ، حتى منعنى كتاب العين ، وكنت ذهبت إلى الانتساخ من نسخته ، فلما قطع بى قيل لى : أين أنت من أبى العباس بن وَلاَّ د ؟ فقصدته ، فلقيت رجلا كامل العلم حسن المروءة ، فسألته الـكتابَ ، فأخرجه إلىَّ ، ثم ندم أبو جعفر لما بلغه إباحة أبى العباس الـكتابَ إلى[1] ، وعاد إلى ما كنت أعرفه منه .

قال : وكان أبو جعفر لئيم النفس ، شديد التقتير على نفسه ، وربما وُهِبت له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم ، وكان يأبى شراء حوائجه بنفسه ، ويتحامل[2] فيها على أهل معرفته ، انتهى .

وأبو جعفر هذا يقال : إن تواليفه تزيد على خمسين ، منها شرح عشرة دواوين للعرب ، وإعراب القرآن ، ومعانى القرآن ، وشرح أبيات الـكتاب[3] ، وغير ذلك .

رجع ــ وقال منذر بن سعيد : كتبت إلى أبى على البغدادى أستعير منه كتابا من الغريب ، وقلت :

بحَقِّ رِيمٍ مُهَفْهَفْ ... وصُدْغه المُتَعَطِّفْ[4]

أبْعَثْ إلىَّ بجُزْءٍ ... منَ الغَريبِ المُصَنَّفْ

فقضى حاجتى ، وأجاب بقوله :

وحَقِّ دُرٍّ تألّفْ ... بفيكَ أىَّ تَأَلُّفْ

لأبعَثَنَّ بمـا قـدْ ... حَوَى الغريبُ المُصَنَّفْ

ولو بَعَثْتُ بنفسِى ... إليك ما كنت أُسْرِفْ

فرحم الله تعالى تلك الأرواح الطاهرة !.

---

(١) فى ا « إباحة أبى العباس الـكتاب لى »

(٢) يريد أنه يجشمهم القيام له بها

(٣) الـكتاب عند النحاة إذا أطلق انصرف إلى كتاب سيبويه ، وهو المراد هنا

(٤) الريم ــ بكسر الراء ــ الظبي الأبيض الخالص بياضه ، ومهفهف : أى ضامر البطن ، دقيق الخصر

وذكر ابن أصبغ الهمدانى عن منذر أنه خطب يوما ، وأراد التواضع ، فكان من فصول خطبته أن قال : حتى متى و إلى متى أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا أنزجر[١] ، أدل الطريق إلى[٢] المستدلين ، وأبقى مُقيماً مع الحائرين ؟ كلا إن هذا لهو البلاء المبين ، إن هى إلا فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ـ الآية ، اللهم فرغْنِى لما خلقتنى له ، ولا تشغلنى بما تكفَّلْتَ لى به ، ولا تحرمنى وأنا أسألك ، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين .

وسمع منذر بالأندلس من عُبَيدالله بن يحيى [بن يحيى] ونظرائه ، ثم رحل حاجاسنة ثمان وثلثمائة فاجتمع بعدّة أعلام ، وظهرت فضائله بالمشرق ، وممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابورى ، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء المسمى « بالإشراف » وروى بمصر كتاب « العين » للخليل عن أبى العباس ابن وَلاَّد ، وروى عن أبى جعفر بن النحاس ، وكان منذر متفنناً فى ضروب العلوم وغلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الأصبهانى المعروف بالظاهرى ، فكان منذر يؤثر مذهبه ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به فى نفسه وذَوِيه ، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه ، وهو الذى عليه العمل بالأندلس ، وحمل السلطانُ أهلَ مملكته عليه ، وكان خطيباً ، بليغاً ، عالما بالجدل ، حاذقا فيه ، شديد العارضة ، حاضر الجواب عتيدهُ[٣] ، ثابت الحجة ذا شارَةٍ[٤] عجيبة ، ومنظر جميل ، وخلق حميد ، وتواضع لأهل الطلب ، وانحطاط إليهم ، و إقبال عليهم ، وكان ـ مع وقاره التام ـ فيه دُعابة[٥] مستملحة ، وله نوادر مستحسنة ، وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر فى شهر ربيع الآخر سنة تسع

---

(١) فى ا « ولا أزدجر » (٢) فى ا « على المستدلين »
(٣) عتيده : مهيأه حاضره معده (٤) فى ا « ذا إشارة »
(٥) الدعابة — بضم الدال — المزاح

وثلاثين وثلثمائة ، ولبث قاضياً من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته ، ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفى رحمه الله تعالى عقب ذى القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبر عنه فى المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاماً كاملة ، لم يُحْفَظ عليه فيها جور فى قضية ، ولا قسم بغير سَوِيَّة ، ولا ميل لهوى[1] ، ولا إصغاء إلى عناية ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ! ودُفِن بمقبرة قريش بالربَض الغربى من قرطبة أعادها الله تعالى ! جوفىَّ مسجد السيدة[2] الكبرى ، بقرب داره .

وله رحمه الله تعالى تواليف مفيدة : منها كتاب «أحكام القرآن» و « الناسخ والمنسوخ » وغير ذلك فى الفقه والكلام فى الرد على أهل المذاهب ، تغمده الله تعالى برضوانه ! .

وكتب بعض الأدباء إلى القاضى منذر بقوله :

مسألة جئتك مُستفتياً ... عنها ، وأنت العالم المستشار
علام تحمرُّ وجوه الظِّبَا ... وأوجُهُ العشاقِ فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله :

احْمَرَّ وجهُ الظَّبْى إذ لحظهُ ... سيفٌ على العشاق فيه احْوِرَار
واصْفَرَّ وجهُ الصَّبِّ لما نأى ... والشمسُ تبقى للمغيب اصفرار

أبو محمد القاسم الشاطبي الرعيني المقرى

وممن رحل إلى المشرق من الأندلس فشهد له بالسبق ، كل أهل المغرب والشرق ، الإمام العلامة أبو القاسم[3] الشاطبى ، صاحب « حرز الأمانى » و « العقيلة » وغيرهما .

---

(١) فى ا « ولا ميل بهوى » (٢) فى ب «مسجد السدة الكبرى» محرفا

(٣) فى ب وأصل ا « أبو القاسم الشاطبى » وفى نسخة عند ا « أبو محمد القاسم الشاطبى » وهو المعروف ، وانظر ابن خلكان (ج ٣ ص ٢٣٤ ، الترجمة رقم ٥١٠ بتحقيقنا) .

وسينص المؤلف فيما بعد (ص ٢٣٢) على أنه يقال : إن كنيته « أبو محمد » فدل ذلك على أن وقوع « أبو القاسم » مقصود هنا

وهو أبو القاسم[١] بن فِيُّره بن خلف بن أحمد ، الرُّعَيْنى ، الشاطبى ، المقرى ، الفقيه ، الحافظ ، الضرير ، أحد العلماء المشهورين ، والفضلاء المشكورين[٢] ، خطب ببلدِه[٣] شاطِبة مع صغر سنه ، ودخل الديار المصرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وحضر عند الحافظ السِّلَفى وابن بَرِّى وغيرهما ، وولد بشاطبة آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وتوفى بالقاهرة يوم الأحد الثامن والعشرين ، وقيل: الثامن عشر ، من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة ، بعد العصر ، ودُفِن من الغد بالتربة الفاضلية بسَفْح المقطم .

وحكى أن الأمير عز الدين موسك[٤] الذى كان والدُ ابنِ الحاجب حاجباً له بعث إلى الشيخ الشاطبى يدعوه إلى الحضور عنده ، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب إليه :

قل للأمـــير مقالَةً ... من ناصح فَطِنٍ نبيه

إن الفقيه إذا أتى ... أبْوَابكم لاخير فيـــه

ومن نظمه رحمه الله تعالى :

خَالَقْتُ أبناء الزمان فلم أجِـدْ ... مَنْ لم أرُمْ منه ارْتيادى مَخْلَصى[٥]

رَدُّ الشـباب وقد مضى لسبيله ... أهْيا وأمكن من صديق مخلص[٦]

وكان رحمه الله تعالى قرأ بشاطبة القراءات ، وأتقنها على النَّفْزى[٧] ، ثم انتقل إلى بَلَنْسِية فقرأ بها التيسير من حفظه على ابن هُذَيل ، وسمع الحديث منه ومن ابن النعمة وابن سَعَادة وابن عبد الرحيم وغيرهم ، وارتحل إلى المشرق فاستوطن القاهرة ، واشتهر اسمُه ، وبَعُد صِيته ، وقصده الطلبة من النواحى ، وكان إماماً ،

---

(١) فى أصل ا هنا «أبو القاسم القاسم بن فيره» وانظر ص ٢٢٩ السابقة، وص ٢٣٢
(٢) فى ا « المذكورين »
(٣) فى أصل ا « بيلدة شاطبة »
(٤) فى أصل ا «موشك»
(٥) فى ا «خالصت .. من لم أر منه»
(٦) أهيا : أسهل وأقرب ، لأنه متهيئ ممكن
(٧) فى ب ، ا « النفرى » بالراء مهملة ــ محرفا

علامة ، ذكياً ، كثير الفنون ، منقطع القرين ، رأساً فى القراءات ، حافظاً للحديث ، بصيراً بالعربية ، واسع العلم ، وقد سارت الركبانُ بقصيدته « حرز الأمانى » و « عقيلة أتراب الفضائل » اللتين فى القراءات والرسم ، وحَفِظهما خلق [كثير] لا يُحْصَون ، وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذاق القراء ، ولقد أوجز وسَهَّل الصعب .

وممن روى عنه أبو الحسن ابن خَيْرَة(١) ، ووصفه من قوّة الحفظ بأمر [عجيب] معجب ، وممن قرأ عليه بالروايات الإمام الشهير محمد بن عمر القُرْطُبى .

وتصدر الشاطبى رحمه الله تعالى للإقراء بالمدرسة الفاضلية ، وكان موصوفاً بالزهد والعبادة والانقطاع .

وقبره بالقرافة يُزَار ، وتُرْجَى استجابة الدعاء عنده ، وقد زرته مراراً ، ودعوت الله بما أرجو (٢) قبوله .

وترك أولادا : منهم أبو عبد الله محمد ، عاش نحو ثمانين سنة .

وقال السبكى فى حق الإمام الشاطبى : إنه كان قوى الحافظة ، واسع المحفوظ ، كثير الفنون ، فقيها ، مقرئا ، محدثا ، نحويا ، زاهدا ، عابدا ، ناسكا ، يتوقد ذكاء ، قال السخاوى : أقطع أنه كان مكاشفاً ، وأنه سأل الله كتمان حاله ، ما كان أحد يعلم أى شىء هو ، انتهى .

وترجمته واسعة ، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين ! .

وقال ابن خَلِّكَان : إنه أبدع(٣) فى « حرز الأمانى » وهى عمدة قرّاء هذا الزمان فى تعلمهم(٤) ، فقلَّ من يشتغل بالقراءات إلا ويقدّم حفظها ومعرفتها ، وهى

---

(١) فى نسخة عند ا « ابن حيرة » بالحاء مهملة

(٢) فى ا « نرجو قبوله »

(٣) فى ا « ولقد أبدع كل الإبداع » موافقا لما فى ابن خلكان

(٤) فى ا « فى نقلهم » موافقا لما فى ابن خلكان

مشتملة على رموز عجيبة و إشارات لطيفة ، وما أظنه سُبق إلى أسلوبها ، وقد روى عنه أنه كان يقول : لا يقرأ أحد قصيدتى هذه إلا و ينفعه الله عز وجل ، لأنى نظمتها لله تعالى مخلصاً ، وكان عالما بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيرا ، و بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبرزا فيه ، وكان إذا قرئ عليه صحيحا البخارى ومسلم والموطأ يُصَحح النسخ من حفظه ، ويُمْلى النكت على المواضع المحتاج إليها ، وكان أوحد فى علم النحو واللغة ، عارفاً بتعبير الرؤيا[1]، حسن المقاصد ، مخلصاً فيما يقول و يفعل ، وكان يجتنب فُضُولَ الكلام ، ولا ينطق فى سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه الحاجة[2] ، ولا يجلس للقراءة إلا على طهارة فى هيئة حسنة وتخشع واستكانة ، وكان يعتلّ العلة الشديدة فلا يشتكى ولا يتأوّه ، و إذا سُئل عن حاله قال : العافية ، لا يزيد على ذلك ، وكان كثيراً ما ينشد هذا اللغز فى النعش ، وهو لأبى زكريا يحيى بن سلامة الخطيب :

أتعرف شيئاً فى السماء نظيرُه ... إذا سار صاح الناسُ حيث يسيرُ
فتلقاه مركوباً وتلقاه راكباً ... وكل أميرٍ يعتليه أسيرُ
يحضّ على التقوى ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستزر عن رغبة فى زيارة ... ولكن على رغم المَزُورِ يزور

وكان يقول[3] عند دخوله إلى مصر : إنه يحفظ وِقْرَ بعير من العلوم ، وكان نزيل القاضى الفاضل ، ورَتَّبه بمدرسته بالقاهرة ، وقيل : إن كنيته أبو محمد[4] حسبما وجد فى بعض إجازاته ، رحمه الله تعالى ! .

ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام القاضى : أبو بكر بن العربى .

---

(١) فى ا « بتفسير الرؤيا »
(٢) فى ا « إلا بماتدعو إليه ضرورة »
(٣) فى ا « وكان يقال عند دخوله »
(٤) انظر ص ٢٢٩ و ٢٣٠

أبو بكر بن العربى القاضى

قال ابن سعيد : هو الإمام العالم القاضى الشهير فخر المغرب[١] ، أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربى المَعَافرى ، قاضى قضاة كورة إشبيلية ، ذكره الحِجَارى فى المسهب ، طبق الآفاق بفوائده ، وملأ الشام والعراق بأوابده ، وهو إمام فى الأصول والفروع وغير ذلك .

ومن شعره وقد ركب مع أحد أمراء الملثَّمين[٢] ، وكان ذلك الأمير صغيراً ، فهز عليه رمحاً كان فى يده مداعباً له ، فقال :

يَهُزُّ عَلَىَّ الرُّمْحَ ظَبْىٌ مُهَفْهَفٌ لَعُوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحا واحداً لاتقَّيْتُهُ ولكنه رمح وثان وثالث[٣]

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة فى لباس خشن :

لبس الصوف لكى أنكره وأتانا شاحباً قد عَبَسَا
قلت إيهٍ قد عَرَفْنَاكَ وذا جُلُّ سوءٍ لايعيبُ الفرَسَا
كل شىء أنت فيه حسن لايبالى حَسَنٌ مالَبِسَا

وزعم بعض أن الأبيات ليست له ، و إنما تمثل بها ، فالله تعالى أعلم .

ومن عَرَّف بابن العربى وذكره ابنُ الإمام فى سمط الجُمَان ، والشَّقَنْدِى فى الطرف ، وكان قد صحب المهدى محمد بن تُومَرْتَ بالمشرق ، فأوصى عليه عبد المؤمن وكان مكرما عنده ، وحكى أنه كتب كتاباً فأشار عليه بعض[٤] من حضر أن يَذُرَّ عليه نشارة ، فقال : قف ، ثم فكر ساعة ، وقال : ا كتب :

لاتَشِنْهُ بما تَذُرُّ عليه فكفاه هبوبُ هذا الهواء
فكأنَّ الذى تذر عليه جُدَرِىٌّ بوجنةٍ حسناء

---

(١) فى ا « فخر العرب » (٢) فى ا « الأمراء الملثمين »
(٣) انظر ص ٢٣٧ الآتية
(٤) فى أصل ا « أحد من حضر »

ولقى أبا بكر الطُّرْطوشى ، وما برح معظما إلى أن تولى خطة القضاء ، ووافق ذلك أن احتاج سور إشبيلية إلى بنيانِ جهةٍ منه ، ولم يكن بها[١] مال متوفر ، ففرض على الناس جلود ضحاياهم ، وكان ذلك فى عيد أضحى ، فأحضروها كارهين ، ثم اجتمعت العامة العمياء ، وثارت عليه ، ونهبوا داره ، وخرج إلى قرطبة .

وكان فى أحد أيام الجمع قاعداً ينتظر الصلاة ، فإذا بغلام رومى وَضِيء قد جاء يخترق الصفوف بشمعة فى يده وكتاب مُعَتَّق ، فقال :

وشمعة تحملها شمعة يكاد يُخْفِى نورُها نارَهَا[٢]

لولا نُهَى نفس نَهَتْ غَيَّها لقبلته وأتت عارها[٣]

ولما سمعهما أبو عمران الزاهد قال : إنه لم يكن يفعل ، ولكنه هزته أريحية الأدب ولو كنت أنا لقلت :

لولا الحياء وخوف الله يمنعنى وأن يقال صبا موسى على كبره

إذا لمتَّعْتُ لحظى فى نواظره حتى أوفى جفونى الحق من نظره

رجع إلى أخبار ابن العربى — فنقول : إنه سمع بالأندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزنى وأبا عبد الله السَّرَقُسْطى ، و ببجاية أبا عبد الله الكُلاَعى ، و بالمهدية أبا الحسن بن الحداد الخَوْلاَنى ، وسمع بالإسكندرية من الأنماطى ، و بمصر من أبى الحسن الخلعى وغيره ، و بدمشق غير واحد كأبى الفتح نصر المقدسى ، و بمكة أبا عبد الله الحسين الطبرى وابن طلحة وابن بُنْدَار ، وقرأ الأدب على التبريزى ، وعمل رحمه الله تعالى على مدينة إشبيلية سورا بالحجارة والآجر بالنورة من ماله ، وكان — كما فى الصلة — حريصاً على آدابها وسيرها ، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب

---

(١) فى ا « ولم يكن فيها مال متوفر »

(٢) أراد بالشمعة المحمولة الشمعة المعروفة ، وبالشمعة الحاملة ظبيا وضىء الوجه

(٣) النهى — بضم النون مقصوراً — العقل ، ونهت غيها : كفته ومنعته وحظرته

فيها ، و يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ، ولين الكَنَفِ ، وكثرة الاحتمال ، وكرم النفس ، وحسن العهد ، وثبات الود .

وذكره ابن بَشْكُوَال فى الصلة وقال فيه : [هو] الإمام الحافظ ، ختام علماء الأندلس ، رحل إلى المشرق مع أبيه مستهلَّ ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، ودخل الشام والعراق و بغداد ، وسمع بها من كبار العلماء ، ثم حج فى سنة تسع وثمانين ، وعاد إلى بغداد ، ثم صدر منها .

وقال ابن عساكر : خرج من دمشق راجعاً إلى مقره[1] سنة ٤٩١ ، ولما غَرَّبَ[2] صنف « عارضة الأحوذى » ولقى بمصر والإسكندرية جملة من العلماء ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين ، وقدم إشبيلية بعلم كثير ، وكان موصوفا بالفضل والكمال ، وولى القضاء بإشبيلية ، ثم صُرف عنه ، ومولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة ، وتوفى بمغيلة بمقربة[3] من مدينة فاس ، ودفن بفاس فى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخصاً .

وما وفى ابن سعيد حافظَ الإسلام أبا بكر بن العربى حقه ، فلنعزه بما حضرنا من التعريف به ، فنقول : إنه لقى ببغداد الشاشى [الإمام] أبا بكر[4] والإمام أبا حامد الطوسى الغزالى ، ونقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلا الباجى ، أو كلاما هذا معناه ، وكان من أهل التفنن فى العلوم ، متقدماً فى المعارف كلها ، متكلماً على أنواعها ، حريصاً على نشرها ، وقام بأمر القضاء أحمد قيام ، مع الصرامة فى الحق ، والقوّة والشدة على الظالمين ، والرفق بالمساكين ،

---

(١) فى ا « راجعاً من مقره » (٢) غرب : سار إلى الغرب

(٣) فى ب « بمقيله بمقبرة من مدينة فاس » وفى ا « بمقيله بقرية من مدينة فاس » وكلاهما تحريف

(٤) فى ا « الشاشى أبا بكر » وفى ب « الشاشى ، والإمام أبا بكر » والواو فى هذه زائدة لا موضع لها

وقد روى عنه أنه أمر بثَقْب أشداق زَامر ، ثم صُرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم و بثّه ، وقرأ عليه الحافظ ابن بَشْكُوال بإشبيلية .

وقال ابن الأبَّار : إن الإمام الزاهد العابد أبا عبد الله بن مجاهد الإشبيلى لازم القاضى ابن العربى نحواً من ثلاثة أشهر ، ثم تخلف عنه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كان يدرس و بغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان ، انتهى .

وذكره ابن الزبير فى صلته ، وقال : إنه رحل مع أبيه أبى محمد عند انقراض الدولة العَبَّادية[1] ، وسنه نحو سبعة عشر عاما ، إلى أن قال : وقيد الحديث ، وضبط ما روى ، واتسع فى الرواية ، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمة هذا الشأن ، ومات أبوه ـ رحمه الله تعالى ! ـ بالإسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين فانصرف حينئذ إلى إشبيلية ، فسكنها ، وشُووِرفيها ، وسمع ودرس الفقه والأصول ، وجلس للوعظ والتفسير ، وصنف فى غير فن تصانيف مَليحة حسنة مفيدة ، وولى القضاء مدّة أوّلها فى رجب من سنة ثمان وعشرين ، فنفع الله تعالى به لصَرَامته ونفوذ أحكامه ، والتزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى أوذى فى ذلك بذَهاب كتبه وماله ، فأحسن الصبر على ذلك كله ، ثم صُرِف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم و بثّه وكان فصيحاً ، حافظاً ، أديباً ، شاعراً ، كثير الملح ، مليح المجلس .

ثم قال : قال القاضى عِياض ـ بعد أن وصفه بما ذكرته ـ : ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناسُ فيه الكلام ، وطعنوا فى حديثه ، وتوفى مُنْصَرَفه من مراكش من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحِّدين مدينة إشبيلية ، فحبسوا بمراكش نحو عام ، ثم سرحوا ، فأدركته منيته ، وروى عنه خلق كثير ، منهم القاضى عياض وأبو جعفر ابن الباذَش وجماعة ، انتهى ملخصا .

---

(١) منسوبة إلى عباد ، ومن رجالات هذه الدولة : المعتضد بن عباد ، والمعتمد ابن عباد

ووقع فى عبارة ابن الزبير تبعاً لجماعة أنه دفن خارج باب الجيسة بفاس ، والصواب خارج باب المحروق ، كما أشبعت الكلام على ذلك فى «أزهار الرياض» وقد زُرْتُه مرارا ، وقبره هنالك مقصود للزيارة خارج القصبة ، وقد صرح بذلك بعضُ المتقدمين الذين حَضَروا وفاته ، وقال : إنه دفن بتربة القائد مظفر خارج القصبة ، وصلى عليه صاحبه أبوالحَكَم بن حجاج ، رحمه الله تعالى ! .

ومن بديع نظمه[1] :

أتتنى تؤنبنى بالبكاء ... فأهْــلاً بهاو بتأنيبهـا
تقولُ وفى نفسها حَسْرة : ... أتبْكى بعين ترانى بها ؟
فقلت:إذااستحسنتْغيرَكُمْ ... أمرتُ جفونى بتعذيبها !

وقال رحمه الله تعالى : دخل على الأديبُ ابن صارة و بين يدى نار علاها رماد ، فقلت له : قل فى هذه ، فقال :

شابتْ نواصى النار بعدسَوَادها ... وتَسَتَّرتْ عنا بثَوْبِ رمادِ

ثم قال لى : أجز ، فقلت :

شابت كما شِبْنَا وزال شَبَابُنَا ... فكأنمــا كُنَّا على ميعــادِ

وقد اختلف حُذاق الأدباء فى قوله : « ولـكنه رمح وثان وثالث »[2] ماهو الثانى والثالث ؟ فقيل : القدّ واللحظ ، وقيل غيرذلك .

ولماذكر رحمه الله تعالى فى كتابه « قانون التأويل » ركوبَه البحرفى رحلته من إفريقية قال: وقد سبق فى علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله[3] ، و يغرقنافى هَوْله[4] ،

---

(١) هذه الأبيات تنسب إلى سلم الخاسر ، وتروى بتغيير فى بعض ألفاظها

(٢) يريد فى البيت الذى قاله في أحد أمراء الملثمين ، وذلك قوله :

ولو كان رمحا واحدا لاتقيته ... ولـكنه رمح وثان وثالث

وانظر ص ٢٣٣ السابقة

(٣) الزول : العجب

(٤) الهول : المخافة والفزع

فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خَطْب طويل إلى بيوت بنى كعب بن سُلَيم ، ونحن من السَّغَب[١] ، على عَطَب ، ومن العُرْى ، فى أقبح زى ، قد قذف البحر زِقَاق زيت مزقت الحجارة مُنيئتها[٢] ، ودسَّمت الأدهانُ وَبَرَهَا وجلدتها ، فاحتزمناها أزُرًا ، واشتملناها لِفافا ، تمجُّنا الأبصار ، وتَخْذُلُنا الأنصار ، فعطف أميرهم علينا ، فأوَيْنا إليه فآوانا ، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا ، وأكرم مَثْوَانا ، وكسانا بأمر حقير ضعيف ، وفنّ من العلم طريف ، وشرحُه أنا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدبِّرُ أعواد الشاه[٣] ، فِعْلَ السامد اللاه ، فدنوت منه فى تلك الأطمار ، وسمح لى بياذقته إذ كنت من الصغر فى حـــدّ يُسْمَح فيه للأغمار ، ووقفت بإزائهم ، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم ، إذ كان عَلِق بنفسى بعضُ ذلك من بعض القرابة فى خُلَس البَطَالة ، مع غلبة الصَّبْوة والجهالة ، فقلت للبياذقة : الأمير أعلم من صاحبه ، فلمحونى شَزْرًا ، وعظمت فى أعينهم بعد أن كنت نَزْرا ، وتقدّم إلى الأمير مَنْ نَقَلَ إليه الكلام ، فاستدنانى ، فدنوت منه ، وسألنى : هل لى بما هم فيه بَصَر ؟ فقلت : لى فيه بعض نظر ، سيبدو لك ويظهر ، حرّك تلك القطعة ، ففعل [كما أشرت] وعارضه صاحبه ، فأمرته أن يحرّك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تَتْرَى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير ، فقالوا : ما أنت بصغير ، وكان فى أثناء تلك الحركات قد ترنم ابنُ عم الأمير منشداً :

وأحْلَى الْهَوَى ماشك فى الوصل رَبُّه ... وفى الهَجْر فَهْوَ الدهْرَ يَرْجُو ويَتَّقى

فقال : لعن الله أبا الطيب ! أو يشك الربُّ ؟ فقلت [له] فى الحال : ليس كما ظنّ صاحبُك أيها الأمير ، إنما أراد بالرب هٰهنا الصاحب ، يقول : ألذ الهوى ما كان

---

(١) السغب ــ بفتح السين والغين جميعا ــ الجوع ، وفي نسخة عندا « الشغب » وفى أخرى « الشعب »

(٢) فى ا « مزقت الحجارة هيئتها » محرفا ، والمنيئة : الجلد أول عهده بالدباغ

(٣) فى ب ونسخة عند ا « يدير أعواد الشاه » والمراد يلعب الشطرنج

المحبُّ فيه من الوصال ، و بلوغ الغرض من الآمال(١) ، على رَيْب ، فهو فى وقته كله على رجاء لما يؤمله ، وتُقَاة(٢) لما يقع(٣) به ، كما قال :

إذا لم يكن فى الحبِّ سُخْطٌ ولا رِضاً فأينَ حَلاوَاتُ الرسائلِ والكُتْبِ

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض ، فى طَرَفَىْ إبرام وانتقاض(٤) ، ما حرّك منهم إلى جهتى دواعى الانتهاض ، وأقبلوا يتعجبون منى ويسألوننى كم سنى ، ويستكشفوننى عنى ، فبَقَرْتُ(٥) لهم حديثى، وذكرت لهم نَجِيثى(٦) ، وأعلمت الأمير بأن أبى معى ، فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة إلى مَثْوَاه ، فخلع علينا خلعه ، وأسبل علينا أدمعه ، وجاء كل خِوَان ، بأفنان وألوان(٧)

ثم قال بعد المبالغة فى وصف ما نالهم من إكرامه : فانظر إلى هذا العلم الذى هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصُّبابه اليسيرة من الأدب ، كيف أنقذا من العطب ؟ وهذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب ، وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر ، انتهى مختصرا .

والزول : العجب ، ونجيث الخبر : ما ظهر من قبيحه ، يقال: بدا نجيثُ القوم ، إذا ظهر سرهم(٨) الذى كانوا يخفونه ، قاله الجوهرى .

وذكر ــ رحمه الله تعالى ــ! فى رحلته عجائب :

منها: أنه حكى [فى] دخوله بدمشق بيوت بعض الأكابر أنه رأى فيه النهر جاريا إلى موضع جلوسهم ، ثم يعود من ناحية أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبلِ إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم الأوانىَ وما معها فى النهر الراجع ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية ، فعلمت السر ، و إن هذا لعجيب ، انتهى بمعناه .

(١) فى ا « وبلوغ الغرض والآمال»
(٢) تقاة : حذر وخوف
(٣) فى ب ونسخة عند ا « لما يقطع به»
(٤) فى ا « طرفى الإبرام والانتقاض»
(٥) بقرت لهم حديثى : كشفته وأوضحته
(٦) النجيث : السر الخفى
(٧) فى ا « بأفنان الألوان »
(٨) فى ا « إذاظهر شرهم »

وقال فى « قانون التأويل » : ورد علينا دَانَشْمَنْد – يعنى الغزالى – فنزل برباط أبى سعد بإزاء المدرسة النظامية ، مُعْرضا عن الدنيا ، مُقْبلا على الله تعالى ، فمشينا إليه ، وعرضنا أمنيتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالَّتُنَا التى كنا ننشد ، وإمامنا الذى به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة ، وتحققنا أن الذى نُقِل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم ولو رآه علىُّ بن العباس لما قال :

إذا ما مَدَحْتَ امرأً غائباً فلا تَغْلُ فى مَدْحِه واقْصِدِ
فإنك إنْ تَغْلُ تغل الظنو نُ فيه إلى الأمد الأبْعَدِ
فيصْغُرُ من حَيْثُ عَظَّمْته لفَضْلِ المغيب على المَشْهَدِ

وكنت نقلت من المطمح فى حقه ما صورته : [الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربى] علم الأعلام الطاهر الأثواب ، الباهر الألباب[1] ، الذى أنسى ذكاء إياس[2] ، وترك التقليد للقياس ، وأنتج الفرع من الأصل ، وغدا فى [يد][3] الإسلام أمضى من النَّصْل ، سقى الله تعالى به الأندلس بعد ما أجدبت من المعارف ، ومد عليها منه الظلَّ الوارف ، وكساها رَوْنَقَ نُبْله ، وسقاها رَيِّقَ وَبْله ، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرا فى فَلَكها ، وصدرا فى مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بنى عَبّاد ، اصطفاء المأمون لابن أبى دُوَاد[4] ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوّأه المراتب المنيفة ، فلما أقفرت حمص من ملكهم وخَلَتْ ، وألقتهم منها وتخلّت[5] ، رَحَل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخائف الفَرِق ، فجال فى أكنافه ، وأجال قِدَاح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه ، فلم يسترد ذاهباً ، ولم يَجِدْ كمعتمده باذلاله وواهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وما استفاد من آمال تلك الأطماع ، وأبو بكر

---

(١) كذا فى أصل ا وفى ب ونسخة عند ا « الباهر الأبواب »
(٢) إياس : هو ابن معاوية ، مضرب المثل فى الذكاء والزكانة
(٣) كلمة « يد » لا توجد فى ب ، ووقعت فى ا والمطمح « بدء الإسلام » محرفة . والنصل : السيف (٤) المأمون : أراد به الخليفة العباسى ابن هارون ، وابن أبى دؤاد : القاضى أحمد بن أبى دؤاد (٥) فى نسخة « وألقت ما فيها وتخلت »

إذذاك فى ثرى الذكاء قضيبٌ مادوَّح(١)، وفى روض الشباب زهر ماصوَّح(٢)، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً إليها وحادياً ، حتى استقرت به مجالسه ، واطَّردت له مَقايسه ، فجدَّ فى طلبه ، واستجد به أبوه متمزق أربه ، ثم أدركه حِمَامُه ، ووارته هناك رِجامه(٣)، وبقى أبو بكر متفردا ، وللطلب متجردا ، حتى أصبح فى العلم وحيدا ، ولم تجد عنه رياسته محيدا ، فكر إلى الأندلس فحلَّها والنفوسُ إليه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة ، فناهيك من حُظْوَة لقى ، ومن عزة سُقِى ، ومن رفعة سما إليها ورَقِى ، وحسبك من مفاخر قَلَّدها ، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخَلَّدها ، وقد أثبتُّ من بديع نظمه مايهز أعطافا ، وترده الأفهام نطافا(٤)، فمن ذلك قوله يتشوق إلى بغداد ، ويخاطب فيها أهل الوداد :

أمِنْكِ سَرَى والليل يُخدع بالفجر ... خيال حبيب قد حوى قَصَبَ الفَخْرِ؟
جـلا ظُلَمَ الظلماء مُشْرِقُ نورِهِ ... ولم يَخْبِط الظلماء بالأنجم الزُّهْرِ
ولم يَرْضَ بالأرض البسيطة مسحبا ... فسار على الجَوْزَا إلى فَلَك يجرى
وحَثَّ مطايا قد مَطَاهَا بعــزِّه ... فأوْطأها قَسْرًا على قُنَّة النَّسْر
فصارت ثِقَالاً بالجَـلالة فوْقَهَا ... وسارت عجالاً تتَّقِى ألم الزَّجْرِ
وجَرَّتْ على ذَيْل المجرَّةِ ذَيْلَهَا ... فمن ثَمَّ يبدو ما هُنَاك لمن يَسْرِى
ومرَّت على الجَوْزَاء تُوضِعُ فوقَهَا ... فآثارُ مامرت به كَلَفُ البدر
وساقَتْ أريجَ الخلد من جَنَّة العُلاَ ... فدَعْ عنك رَمْلاً بالأنيْعِم يَسْتَذْرِى
فما حَذِرَتْ قَيْسًا ولا خَيْلَ عامرِ ... ولا أضْمَرَتْ خَوْفًا لِقَاءَ بَنِى ضَمْرِ
سقى اللهُ مصراً والعراقَ وأهلَهَا ... و بغدادَ والشامَيْن منهملَ القَطْرِ

ومن تآليف الحافظ أبى بكر بن العربى المذكور كتاب « القبس ، فى شرح

(١) دوح – بالتضعيف – أى صار دوحة ، والدوحة – بفتح فسكون – الشجرة العظيمة الباسقة الممتدة الوارفة الغصون ، يريد أنه كان فى غرارة الشبيبة لم يكتمل

(٢) صوح النبت : ذوى وذبل وجف ويبس (٣) رجام : جمع رجم ، وهو القبر

(٤) نطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى النمير

موطأ مالك بن أنس » وكتاب « ترتيب المسالك ، فى شرح موطأ مالك» وكتاب «أنوار الفجر » وكتاب «أحكام القرآن» وكتاب «عارضة الأحْوَذِىّ[1]، فى شرح الترمذى» والأحوذى ـ بفتح الهمزة ، وسكون الحاء المهملة ، وفتح الواو ، وكسر الذال المعجمة ، وآخره يا مشددة . وكتاب « مراقى الزُّلَف » وكتاب « الخلافيات » وكتاب « نواهى الدواهى » وكتاب « سراج المريدين » وكتاب « المشكلين : مشكل الكتاب[2] ، والسنة » وكتاب « الناسخ والمنسوخ فى القرآن » وكتاب « قانون التأويل » وكتاب « النيرين ، فى الصحيحين » وكتاب « سراج المهتدين» وكتاب «الأمد الأقصى ، بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا » وكتاب فى الكلام على مشكل حديث السبُحَات والحجاب ، وكتاب « العقد الأكبر ، للقلب الأصغر » و «تبيين الصحيح ، فى تعيين الذبيح»[3] و «تفصيل التفضيل ، بين التحميد والتهليل » ورسالة « الكافى ، فى أن لا دليل على النافى » وكتاب « السباعيات» وكتاب «المسلسلات» وكتاب «المتوسط فى معرفة صحّة الاعتقاد ، والرد على من خالف أهل السنة من ذوى البِدَع والإلحاد » وكتاب «شرح غريب الرسالة » وكتاب « الإنصاف ، فى مسائل الخلاف » عشرون مجلداً ، وكتاب «حديث الإفك» وكتاب «شرح حديث جابر فى الشفاعة » وكتاب « شرح حديث أم زَرْع » وكتاب « ستر العورة » وكتاب «المحصول ، فى علم الأصول» وكتاب « أعيان الأعيان » وكتاب « ملجأة المتفقهين ، إلى معرفة غوامض النحويين » وكتاب « ترتيب الرحلة » وفيه من الفوائد مالا يوصف .

ومن فوائد القاضى أبى بكر بن العربى رحمه الله تعالى قوله : قال علماء

---

(١) العارضة : قوة الحجة مع القدرة على الكلام ، والأحوذي : الرجل المشمر فى حاجته ، السريع النشيط .

(٢) فى ا « مشكل القرآن والسنة »

(٣) يريد أى ابنى إبراهيم خليل الله هو الذبيح : إسماعيل أم إسحاق ؟ وفى ذلك خلاف طويل الذيل بين العلماء ، والأرجح أنه إسماعيل .

الحديث : مامن رجل يطلب الحديث إلا كان على وَجْهه نَضْرَة(١)، لقول النبى صلى الله عليه وسلم «نَضَّر الله أمرأً سمع مقالتى فوَعَاها فأدَّاها كما سمعها ـ الحديث» قال : وهذا دعاء منه عليه الصلاة والسلام لحملة علمه ، ولا بدّ بفضل الله تعالى من نيل بركته ، انتهى .

وإلى هذه النَّضْرَة أشار أبو العباس الْعَزْفى(٢) بقوله :

أهلُ الحديثِ عِصابة الحقِّ ... فَازُوا بدَعْوَةِ سيد الْخَلْقِ

فوُجُوهُهُمْ زُهْرٌ مُنَضَّرة ... لألاؤها كتألقِ البرق

يا لَيْتَنِى مَعَهُم فيُدرِكَنِى ... ما أدركوه بها من السَّبْق

ولا بأس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبى بكر بن العربى رحمه الله تعالى :

فمنها قوله فى تصريف المحصنات : يقال : أحْصَنَ الرجل فهو مُحْصن ـ بفتح العين فى اسم الفاعل ـ وأسْهَبَ فى الكلام فهو مُسْهَب ، إذا أطال البحث فيه ، وألفج فهو مُلْفَج ، إذا كان عديما ، لا رابع لها(٣) ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

ومنها قوله : سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشى وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر يقول : يقال فى اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا ـ بفتح الراء ـ أى لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لاتَدْنُ من الموضع، وهذا الذى قاله صحيح مسموع ، انتهى .

ومنها قوله : شاهدت المائدة بطورزيتا(٤) مرارا ، وأكلت عليها ليلا ونهاراً ، وذكرت الله سبحانه فيها سراً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشفَّ من القامة بنحو الشبر ،

---

(١) النضرة : حسن الوجه وبريقه ولمعانه ، وفى القرآن الكريم (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) . (٢) فى نسخة عندنا « الغرفى » وفى أخرى « العرفى » .

(٣) ههنا أمران : الأول أن هذه الألفاظ جاءت بفتح العين كاسم المفعول ، وبكسرها كاسم الفاعل ، على اختلاف فى الملحظ ، والثانى أن العلماء قدزادوا على ثلاثتها ، قالوا : أهتر الرجل فى كلامه فهو مهتر ، إذا كثر الخطأ فى كلامه .

(٤) طور زيتا : جبل قريب من رأس عين ، يقال : إنه مات فيه سبعون نبيا .

وكان لها دَرَجان قبلى وجنوبى ، وكانت صخرة صَلُودًا لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناسُ يقولون: مسخت صخرة إذ مسخ أربابها قردة وخنازير(١)، والذى عندى أنها كانت صخرة فى الأصل قطعت من الأرض محلا للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها حجارة مثلها ، وكان ما حولها محفوفاً بقصور ، وقد نحتت فى ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها ، مقطوعة فيها ، وحناياها فى جوانبها، و بيوت خدمتها قد صوّرت من الحجر كما تصوّر من الطين والخشب ، فإذا دخلت فى قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار [ثقل] ثمن درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض ، و إذا هَبَّتِ الريحُ وحَثَتْ تحته التراب لم يفتح إلا بعد صب الماء تحته والإكثار منه حتى يسيل بالتراب ، و ينفرج مُنْفَرَجُ الباب ، وقد بار بها قومٌ بهذه العلة ، وقد كنت أخلو فيها كثيرا للدرس ، ولكنى كنت فى كل حين أكنس حول الباب ، مخافة مما جرى لغيرى فيها ، وقد شرحت أمرها فى كتاب « ترتيب الرحلة » بأكثر من هذا ، انتهى .

ومنها قوله رحمه الله تعالى : تذاكرتُ بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبى بكر الفِهْرى الطرطوشى حديثَ أبى ثعلبة المرفوع « إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم » فقالوا : بل منهم ، فقال : « بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون عليه أعواناً » وتفاوضنا كيف يكون أجر مَنْ يأتى من الأمّة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسّسوا الإسلام ، وعضدو الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البَيْضَة ، ومَهّدوا الملة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح « لو أنفق أحَدُكم كلَّ يوم مثلَ أحُدٍ ذهباً مابلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه » فتراجعنا القولَ ، وتحصل ما أوضحناه فى شرح الصحيح ،

(١) يشير إلى قوله جلت كلمته (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عندالله ؟ من لعنه الله ، وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) وقد حكت هذه الآيات صنيع الله تعالى فى عصاة بنى إسرائيل .

وخلاصته: أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، ولا يُدَانيهم فيها بَشَر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها فى الأجر مَنْ أخلص إخلاصهم، وخلّصها من شوائب البِدَع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بابٌ عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضاً انتهاؤه، وقد كان قليلا فى ابتداء الإسلام، صَعْب المرام، لغلبة الكفار على الحق، وفى آخر الزمان [أيضاً] يعود كذلك، لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفَسَاد الزمان، وظهور الفتن، وغلبة الباطل، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق، وركوب مَنْ يأتى سَنَن(١) من مضى من أهل الكتاب، كما قال صلى الله عليه وسلم «لتركَبُنَّ سنن مَنْ قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ خرب لدخلتموه» وقال صلى الله عليه وسلم «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ» فلا بد والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الإسلام إلى واحد، كما بدأ من واحد، ويضعف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه(٢) بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى فى الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكناً منه مُعَانا عليه بكثرة الدُّعَاة إلى الله تعالى، وذلك قوله «لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً» حتى ينقطع ذلك انقطاعاً باتًّا لضعف اليقين وقلة الدين، كما قال صلى الله عليه وسلم «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله» يروى برفع الهاء ونصبها، فالرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن المنكر يقول: أخاف الله، وحينئذ يتمنى العاقلُ الموتَ، كما قال صلى الله عليه وسلم

---

(١) سنن الطريق — بفتح السين والنون جميعا — نهجه وجهته، وتقرأ أيضا «سنن من مضى» بضم السين وفتح النون — وهى جمع سنة، والسنة أيضا: الطريقة.

(٢) احتواشه بالمخاوف: يريد إحاطة أسباب المخافة به والتفافها حوله، حتى لكأنه فى قيد منها لا يستطيع الخلاص منه.

«لاتقوم الساعة حتى يمر الرجلُ بقبر الرجل فيقول : ياليتنى كنت مكانه » انتهى

وأنشد رحمه الله تعالى لبعض الصوفية :

امتَحَنَ اللهُ بذا خَلْقَهُ فالنارُ والجنـة فى قَبْضَتِهْ

فهَجْرُهُ أعظمُ من نارِه وَوَصْلُه أطيبُ من جَنَّتِهْ

ومن فوائد ابن العربى رحمه الله تعالى أنه قال : كنت بمجلس الوزير العادل أبى منصور بن جَهِير على رتبة بيناها فى كتاب «الرحلة، للترغيب فى الملة» فقرأ القارىء (تحيَّتُهم يوم يَلْقَوْنَهُ سلام) وكنت فى الصف الثانى من الحلقة بظهر أبى الوفاء على بن عقيل إمام الحنبلية بمدينة السلام ، وكان معتزلى الأصول(١)، فلما سمعت الآية قلت لصاحب لى كان يجلس على يسارى: هذه الآية دليل على رؤية الله فى الآخرة : فإن العرب لاتقول « لقيت فلاناً » إلا إذا رأته ، فصرف وجهه أبو الوفاء مُسْرعا إلينا ، وقال ينتصر لمذهب الاعتزال فى أن الله تعالى لايُرَى فى الآخرة : فقد قال الله تعالى (فأعْقَبَهُمْ نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَه) وعندك أن المنافقين لايرون الله تعالى فى الآخرة ، وقد شرحنا وجه الآية فى المشكلين ، وتقدير الآية : فأعقبهم هو نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، فيحتمل ضمير يلقونه أن يعود إلى ضمير الفاعل فى (أعقبهم) المقدر بقولنا هو ، ويحتمل أن يعود إلى النفاق مجازاً على تقدير الجزاء ، انتهى .

ومنها مانقله عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « لايقل أحدكم انصرفنا من الصلاة » فإن قوما قيل فيهم (ثم انْصَرَفُوا صرف الله قلوبَهُمْ) وقد أنبأنا محمد

---

(١) من العجيب أن يكون إمام الحنبلية معتزليـا ، فبين الطريقين مسافات تنقطع فيها أكباد السائرين ، والمعتزلة يرون أن الله تعالى لايراه فى الآخرة أحد من خلقه ، مؤمنهم وكافرهم وعاصيهم فى ذلك سواء ، وقال جماعـة أهل السنة : إن الله تعـالى يمن على من آمن به واتقاه ، بأن يتجلى له فيراه بلا كيف ، ويدل له قوله تعالى : (وجوه يومئـذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) وتمسك المعـتزلة بشبه واهيـة ، منحنا الله تعالى رضاه ، والنظر إلى وجهه الـكريم ، يوم نلقاه فى جنات النعيم ، آمين .

ابن عبد الملك القَيْسى الواعظ ، أنبأنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله تعالى ، فقال : لايقل أحدكم انصرفوا فإن الله تعالى قال فى قوم ذمهم (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) ولكن قولوا : انْقَلِبُوا رحمكم الله ، فإن الله تعالى قال فى قوم مدحهم (فانْقَلَبُوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) انتهى .

ومنها ، وقدذكرالخلاف فى شاهد يوسف ، ماصورته : فإذا قلنا إنه القميص ، فكان يصح من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقدم مقاله ، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال فى بعض الأمور ، وقد تُضِيف العرب الكلام إلى الجمادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات ، ومن أحلاه قول بعضهم : قال الحائط للوتد : لم تَشقُّنى ؟ قال : سل من يَدُقنى ، مايتركنى ورائى[1] ، هذا الذى ورائى ، لكن قوله تعالى بعد ذلك (من أهلها) فى صفة الشاهد يبطل أن يكون القميص ، وأما من قال إنه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فإنه يحتمل ، لكن قوله (من أهلها) يعطى اختصاصها من جهة القرابة ، انتهى .

ومنها قوله : إنه كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأى إمام ، يعرف بابن عطاء ، فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته ممانسب إليه[2] من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : ياشيخ ، ياسيدنا ، فإذن يوسف هَمَّ وما تم ، فقال : نعم ، لأن العناية من ثَمَّ ، فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلم وفطنة العامى فى سؤاله ، والعالم فى اختصاره واستيفائه ، ولذا قال علماؤنا الصوفية : إن فائدة قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) إن الله تعالى أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة ، انتهى .

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « مايتركنى ودائى » ورائى الذى فى ا معناه رأيى ، أى مايتركنى ويخلى بينى وبين رأيى ، بل يريد أن يقهرنى على مايراه هو

(٢) فى نسخة عند ا « مما ينسب إليه » .

ومنها قوله : كنت بمكة مقيما فى ذى الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وكنت أشرب [من] ماء زمزم كثيرا ، وكل ماشربته نويت به العلم والإيمان ، ففتح الله تعالى لى ببركته فى المقدار الذى يَسَّرَه لى من العلم ، ونسيت أن أشربه للعمل ، وياليتنى شربته لهما، حتى يفتح الله تعالى لى فيهما ، ولم يُقَدَّر فكان صَغْوى للعلم أكثر منه للعمل ، وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته .

ومنها قوله : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم فى المالية وصار بحكمها فى الرق والحرية لأنه انفصل عن الأب نُطْفة لاقيمة له ، ولامالية فيه ، ولامنفعة مبتوتة عليه[1]، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها ، فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة ، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذه من البدائع ، انتهى .

ومنها قوله : ومن نوادر أبى الفضل الجوهرى ما أخبرنا عنه محمد بن عبدالملك الواعظ وغيره أنه كان يقول : إذا أمسكت علاقة الميزان بالإبهام والسبابة ، وارتفعت سائر الأصابع كان شكلها مقروأ[2] بقولك الله ، فكأنها إشارة منه سبحانه فى تيسير الوزن [كذلك] إلى أن الله سبحانه مطلع عليك ، فاعدل فى وزنك ، انتهى .

ومنها قوله : كان ابن الكازرونى يأوى إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ فى مهد عيسى عليه السلام فيسمع من الطور ، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته ، إلا الإصغاء إليه ، انتهى .

---

(١) مبتوتة : مقطوع بها ، متيقن بثبوتها ، وفى ب ونسخة عند ا « مبثوثة » بثاءين مثلثتين :

(٢) فى نسخة عند ا « مقررا بقولك الله » .

ومنها قوله فى تفسير قوله تعالى (فى أيام نَحِسَاتٍ) قيل : إنها كانت آخر شوال ، من الأربعاء إلى الأربعاء ، والناس يكرهون السفر يوم الأربعاء لأجل هذه الرواية ، حتى إنى لقيت يوما مع خالى الحسن بن أبى حَفْص رجلا من الكتاب ، فودعنا بنية السفر ، فلما فارقنا قال لى خالى : إنك لاتراه أبدا لأنه سافر فى يوم أربعاء لايتكرر ، وكذا كان ، مات فى سفره ، وهذا ما لا أراه ، لأن يوم الأربعاء يوم عجيب ، بما جاء فى الحديث من الخلق فيه والترتيب ، فإن الحديث ثابت بأن الله تعالى خلق يوم السبت التربة ، ويوم الأحد الجبال ، ويوم الاثنين الشجر ، ويوم الثلاثاء المكروه ، ويوم الأربعاء النور ، وروى النون ، وفى غريب الحديث أنه خلق يوم الأربعاء التِّقْنَ[1] ، وهو كل شىء تتقن به الأشياء ، يعنى المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فاليوم الذى خلق فيه المكروه لايعَافُه الناس ، واليوم الذى خلق فيه النور والتِّقْنَ[1] يعافونه[2] ، إن هذا لهو الجهل المبين ! . وفى المغازى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على الأحزاب من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء بين الظهر والعصر ، فاستجيب له ، وهى ساعة فاضلة ، فالآثار الصِّحاح تدل على فضل هذا اليوم ، فكيف يدعى فيه التحذير والنحس بأحاديث لا أصل لها ، وقد صور قوم أياما من الأشهر الشمسية ادعوا فيها الكراهية لايحل لمسلم أن ينظر إليها ولا يشغل بها بالاً ، فحسبهم الله ، انتهى .

ومنها : وكان يقرأ معنا برباط أبى سعيد على الإمام دانشمند من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ، فربك أعلم به ، ومع طول الصحبة عَقَلنى الحياء عن سؤاله ، وبودى اليوم لو كاشفته عن حاله ، انتهى .

---

(١) التقن — بكسر التاء وسكون القاف — فى الأصل : الطبيعة ، يقولون : « الفصاحة والبلاغة من تقن فلان » يريدون أن ذلك من طبيعته وسوسه وخيمه ، وهو أيضا الرجل الحاذق فى عمله ، وهو أيضا اسم رجل بعينه يضرب به المثل فى جودة الرمى ، يقال « فلان أرمى من تقن » .

(٢) يعافونه : يكرهونه وينفرون منه .

ومن شعر ابن العربى(١) مما نسبه له الشيخ أبو حيان قوله :

لَيْتَ شِعْرِى هل دَرَوْا أىَّ قلب ملكوا
وفُؤَادى لو دَرَى أىَّ شِعْبٍ سَلَكوا
أتراهُمْ سَلِمُوا أم تراهم هَلَكُوا
حار أربابُ الهْوى فى الهْوَى وارْتَبَكُوا

ومن فوائده : أخبرنى المَهَرة من السّحَرة بأرض بابل أنه مَنْ كَتَبَ آخر آية من كل سورة و يعلقها لم يبلغ إليه سحرنا ، قال : هكذا قالوا ، والله تعالى أعلم بما نقلوه .

وقال رحمه الله تعالى : حذقت القرآن ابن تسعِ سنين ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية والحساب ، فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الأحرف نحوا من عشرة بما يتبعها من إظهار و إدغام ونحوه ، وتمرنت فى العربية(٢) واللغة ، ثم رحل بى أبى إلى المشرق ، ثم ذكر تمام رحلته ، رحمه الله تعالى ! .

أبو بكر محمد بن أبى عامر الغافقى

ومنهم أبو بكر محمد بن أبى عامر بن حَجّاج ، الغافقى ، الإشبيلى .

ومن نظمه بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

لم يَبقَ لى سُؤلٌ ولا مَطْلَب مذ صِرْتُ جاراً لحبيب الحبيب(٣)
لا أبتغى شَيْئاً سوى قربه وها أنا منه قريب قريب
مَنْ غاب عن حَضْرَةِ محبوبه فلست عن طَيْبَةَ ممن يغيب
لا تَسْألِ المغبوط عن حاله جار كريم ومحل خصيب
العيش والموت هنا طيب بطيبة لى كل شىء يطيب

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى شيخ المتصوفين ، الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربى ، وقد ذكرها هو فى مطلع كتابه المسمى « ترجمان الأشواق » فإما هو انتقال ذهن من المؤلف ، أو من أبى حيان ، سببه اشتراك « ابن العربى » فيهما .

(٢) كذا فى ا ، والذى فى ب « وتمرنت فى الغريب والشعر واللغة » .

(٣) كذا فى ا ، وفى ب « جارا للحبيب الحبيب » .

ومن روى عنه هذه الأبيات الأشرف بن الفاضل .

ترجمة جمال الدين ابن ذى النون

ومنهم الشيخ الأديب الفاضلُ البارع جمالُ الدين أبو عبد الله محمدُ ابن الفقيه الخطيب أبى الحسن محمد بن أبى عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن على بن ذى النون ، الأنصارى ، المالَقِى ، من أشياخ أبى حَيَّان ، لقيه ببُلْبَيْس من ديار مصر ، قال : وأنشدنى لشيخه أبى عبد الله(١) الإسْتِجِى من قصيدة :

ما للنسيم سَرَى يهبُّ عليلا أتراه يشكو لَوْعَةً وغَليلا(٢)

جر الذُّيول على ديار أحبتى فأتى يجُرُّ من السَّقام ذُيُولا

وأنشد رحمه الله تعالى لرضوان المخزومى :

إن كنت يُوسُفَ حُسْناً وكنتُ عبد العزيز

فإن يوسف من قبلُ كان عبدَ العزيز

وأخذ ابنُ ذى النون المذكور عن أبى عبد الله بن صالح ، وقرأ للسبعة على أبى جعفر الفحام(٣) وأبى زيد القُمَارِشى ، وعلى أبى جعفر السُّهَيلى ، وولد ابن ذى النون سنة ٦١٨(٤) بمالَقَة ، ومن تواليفه « نفح المسك الأذفر ، فى مدح المنصور بن المظفر » و« أزهار الخميلة ، فى الآثار الجميلة » و« استطلاع البشير » و« محض اليقين » و« روض المتقين » .

ترجمة زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشبطون

ومنهم زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمِىُّ ، المعروف بشَبَطُون ، يكنى أبا عبد الله ، كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس ، وكانوا قبله يتفقّهون على مذهب الأوزاعى ، وأراده الأميرُ هشام على القضاء بقُرْطُبة وعزم عليه ، فهرب ، فقال هشام : ليت الناس كلهم كزياد حتى

---

(١) فى ا « لشيخه عبد الله الإستجى » .

(٢) فى ا « ما للنسيم جرى الأصيل عليلا » .

(٣) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « أبى جعفر العجام » .

(٤) فى ا « سنة ٦١٧ » .

أ كفى الرغبة فى الدنيا ، وأرسل إلى زياد فأمّنه حتى رجع إلى داره .

ويحكى أنه لما أراده للقضاء كلمه الوزراء فى ذلك عن الأمير ، وعرفوه عزمه عليه ، فقال لهم : أما إن أكرهتمونى على القضاء فزوجتى فلانة طالق ثلاثا لئن أتانى مُدّع فى شىء مما فى أيديكم لأخرِجَنَّه عنكم (١) ثم أجعلكم مدَّعين فيه ، فلما سمعوا منه ذلك علموا صدقه ، فتكلموا (٢) عند الأمير فى مُعَافاته .

سمع من مالك الموطأ ، ويُعْرَف سماعه بسماع زياد ، وسمع من معاوية بن صالح ، وكانت ابنة معاوية تحته ، وروى يحيي بن يحيي الليثى عن زياد هذا الموطأ قبل أن يرحل إلى مالك ، ثم رحل فأدرك مالكا فرواه عنه إلا أبوابا فى كتاب الاعتكاف ، شك فى سماعها من مالك ، فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالك .

وتوفى سنة أربع ومائتين ، وقيل : سنة ١٩٣ ، وقيل : فى التى بعدها ، وقيل : سنة ١٩٩ ، والأول أولى بالقبول ، والله تعالى أعلم .

ورحل فى ذلك العصر جماعة من أمثال شَبَطون (٣) ، كفرغوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبى هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج أيام هشام بن عبد الرحمن والد الحكم ، فلما رجعوا وَصَفُوا من فضل مالك وَسَعة علمه وجَلَالَة قدره ما عظم به صيته بالأندلس ، فانتشر يومئذ (٤) رأيه وعلمه بالأندلس ، وكان رائد الجماعة فى ذلك شَبَطون .

وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملا متقنا ، فأخذه عنه يحيي ابن يحيي كامر ، وهو إذ ذاك صَدْر فى طلاب الفقه ، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « لأخرجنه منه ثم أجعلكم مدعين فيها » .
(٢) فى ب ونسخة عند ا « فعملوا عند الأمير » وأثبتنا ما فى أصل ا .
(٣) فى أصل ا « نظراء شبطون » وفى نسخة عندها « أنظار شبطون » .
(٤) فى ا « فانتشر حينئذ رأيه » .

مالك ما دام حيا ، فرحل سريعا ، وأخذ يحيى عن زياد هذا الكتبَ العشرة المنسوبة إلى يحيى .

ولقى أيضا عبدَ الله بن وَهْب صاحبَ مالك ، وسمع منه الموطأ[(١)] ، ولقى أيضا عبدَ الله بن نافع المدنى صاحب مالك ، وسمع منه ومن ا يث بن سَعْد فقيه مصر ، ومن سفيان بن عُيينة بمكة ، وقدم يحيى الأندلس أيام الحَكَم ، فانتشر به و بزياد و بعيسى بن دينار عِلْم مالك بالأندلس ، رضى الله تعالى عن الجميع !.

وقد قدمنا الحديث الذى رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك ، فليراجع فى الباب الثالث .

ترجمة سوار ابن طارق مؤدب الحكم

ومنهم سِوَار بن طارق مولى عبد الرحمن بن معاوية ، قرطبى ، حج ودخل البصرة ، ولقى الأصمعى ونظراءه ، وانصرف إلى الأندلس ، وأدَّبَ الحكم ، ومن ولده محمد بن عبدالله بن سِوَار ، حج أيضاً ، ولقى أباحاتم بالبصرة والرياشى وغيرهما ، وأدخل الأندلس علماً كثيراً ، رحم الله تعالى الجميع !

ترجمة بقى بن مخلد

ومنهم بقى بن مخلد ، الشهير الذكر ، صاحب التآليف التى لم يؤلف مثلها فى الإسلام ، ولقى مائتين وأربعة وثمانين شيخا ، وكانت له خاصة من الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، وستأتى جملة فيما[(٢)] يتعلق ببقى بن مخلد فى رسالة ابن حزم فى الباب السابع ، و بقىّ على وزن عَلِيّ ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ! وقد عرف ببقى بن مخلد غير واحد من العلماء كصاحب النبراس وغيره .

قاسم بن أصبغ

ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف ، أبو محمد ، البيَّانى ، و بيَّانة : من أعمال قرطبة[(٣)] ، وأصل سَلَفه من موالى الوليد بن عبدالملك ، وسمع المذكور بقرطبة من بقى

---

(١) فى ب « وسمع منه موطأه » (٢) فى ا « ممـا يتعلق ببقى بن مخلد »

(٣) قال في الروض : « بيانة من أعمال قرطبة ، وهى من مدن قبرة ، وعلي يمين الذاهب إلى قرطبة ، وشرقى قبرة ، بينهما عشرة أميال ، وهى على ربوة من الأرض ، طيبة التربة ، كثيرة المياه السائحة ، ولها حصن منيع ، ثم ذكر من أهلها قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء ، البيانى » وهو هذا المترجم .

ابن مخلد ومحمد بن وضاح ومطرِّف بن قيس وأصبغ بن خليل وابن مسرة وغير واحد، ورحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن ومحمد بن زكريا بن عبد الأعلى سنة أربع وسبعين ومائتين ، فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ وعلى بن عبد العزيز ، ودخل العراق ، فلقى من أهل الكوفة إبراهيم بن أبى العنبس قاضيها و إبراهيم بن عبد الله القصار [١] ، وسمع ببغداد من القاضى إسماعيل وأحمد بن زهير بن حرب وغيرهما كعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل والحارث بن أبى أسامة وكتب عن ابن أبى خَيْثَمة تاريخه ، وسمع من ابن قتيبة كثيرا من كتبه ، وسمع من المبرد وثعلب وابن الجهم فى آخرين ، وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمرى ومطلب بن شعيب وغيرهما ، وسمع بالقَيْرَوان من أحمد بن يزيد المعلم و بكر ابن حماد التاهَرْتى الشاعر ، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير ، فمال الناسُ إليه فى تاريخ أحمد بن زهير وكتب بن قتيبة ، وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد الأعلى ، وكان بصيراً بالحديث والرجال ، نبيلا فى النحو والغريب والشعر [٢] ، وكان يشاوَرُ فى الأحكام ، وصنف على كتاب السنن لأبى داود كتاباً فى الحديث ، وسببه أنه لما قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد بن أيمن ، فوجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما بيسير ، فلما فاتهما عمل كل واحد منهما مصنفا فى السنن على أبواب كتاب أبى داود ، وخرجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما وهما مصنفان جليلان ، ثم اختصر قاسم ابن أصبغ كتابه وسماه « المجتنى » بالنون ـ وابتدأ اختصاره فى المحرم سنة أربع وعشرين وثلثمائة ، وجعله باسم الحكم المستنصر ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائه وتسعون حديثا فى سبعة أجزاء .

---

(١) ب ونسخة عند ا « القصاد » محرفا .

(٢) فى ا « فى النحو والعربية والشعر » .

ومولده يوم الإثنين عاشر ذى الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين ، رحمه الله تعالى !.

وحكى القرطبى فى تفسيره عند قوله تعالى (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) : إن قاسم بن أصبغ قال : لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان ، فأخذت عن بكر بن حماد حديث مُسَدَّد[1] ، فقرأت عليه يوما فيه حديث النبى صلى الله عليه وسلم «أنه قدم عليه قوم من مُضَر مجتابى النمار» فقال : إنما هو مجتابى الثمار ، فقلت : إنما هو مجتابى النمار ، هكذا قرأته على [كل] من لقيته بالأندلس والعراق ، فقال لى : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ؟ أو نحو هذا ، ثم قال لى : قم بنا إلى ذلك ، لشيخ كان فى المسجد ، فإن له بمثل هذا علماً ، فقمنا إليه وسألناه عن ذلك ، فقال : إنما هو مجتابى النمار كما قلتُ ، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم ، والنمار : جمع نَمِرَة ، فقال بكر بن حماد ، وأخذ بأنْفِهِ : رَغِمَ أنفى للحق ، وانصرف ، انتهى .

وهذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين ، رحمهما الله تعالى ورضى عنهما ، ونفعنا بهما !.

أبو محمد قاسم ابن ثابت السرقسطى العوفى

ومنهم قاسم بن ثابت ، أبو محمد ، العوفى ، السَّرَقُسْطى ، رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شُعَيب النسائى وأحمد بن عمرو البزار ، و بمكة من عبدالله بن على ابن الجارود ومحمد بن على الجوهرى ، واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه ، فأدخلا إلى الأندلس علماً كثيراً ، و يقال: إنهما أوّل من أدخل كتاب العَيْن إلى الأندلس، وألف قاسم فى شرح الحديث كتابا سماه « الدلائل » ، بلغ فيه الغاية فى الإتقان ، ومات قبل إكماله ، فأكمله أبوه ثابت[2] بعده ، وقد روى عن أبى على

(١) فى ا « أخذت عن بكر بن حماد حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه قدم عليه قوم من مضر — إلخ » .

(٢) فى ب « فأكمله ابن ثابت بعده » وفى ا « فأكمله أبو ثابت بعده » .

البغدادى أنه كان يقول : كتبتُ كتاب الدلائل ، وما أعلم أنه وضع بالأندلس مثله ، وكان قاسم عالماً بالحديث واللغة ، متقدماً فى معرفة الحديث والنحو والشعر، وكان مع ذلك ورعاً ناسكا ، وأريد على القضاء بسَرَقُسْطة ، فأبى ذلك ، فأراد أبوه إكراهه عليه ، فسأله أن يتركه ينظر فى أمره ثلاثة أيام ، ويستخير الله تعالى ، فمات فى هذه الثلاثة الأيام ، فيروون[1] أنه دعا لنفسه بالموت ، وكان مجاب الدعوة ، توفى سنة ٣٠٣ بسَرَقُسْطة ، رحمه الله تعالى !.

ترجمة علم الدين قاسم بن أحمد اللورقى ، المرسى

ومنهم علم الدين أبو محمد المُرْسِيُّ اللُّورقى ، وهو قاسم بن أحمد بن موفق ابن جعفر ، العلامة ، المقرىء ، الأصولى ، النحوى ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبى جعفر الحصار وأبى عبد الله المُرَادى وأبى عبد الله بن نوح الغافقى ، وقدم مصر فقرأبها على أبى الجود غياث بن فارس، وبدمشق على التاج زيد الكندى ، وسمع ببغداد من أبى محمد بن الأخضر، وأخذ العربية عن أبى البقاء ، ولقى الجزُولى[2] بالمغرب ، وسأله عن مسألة مشكلة فى مقدمته ، فأجابه ، وبرع فى العربية وفى علم الكلام والفلسفة ، وكان يقرىء ذلك ويحققه ، وأقرأ بدمشق ، ودرس ، وشرح المفصل فى النحو فى أربع مجلدات فأجاد وأفاد ، وشرح الجزُولية والشاطبية ، وكان مليح الشكل ، حس البزة ، موطَّأ الأكناف ، قرأ عليه جماعة ، وتوفى سابع رجب سنة ٦٦١ ، وكان معمرا مشتغلا بأنواع العلوم ، وسماه بعضهم أبا القاسم ، والأوّل أصح .

ترجمة قاسم بن محمد بن سيار القرطبى

ومنهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار ، أبو محمد ، من أهل قُرْطُبة ، وجَدُّه مولى الوليد بن عبد الملك ، رحل فسمع بمصر من محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم والمزنى والبرقى والحارث بن مسكين ويونس بن عبد الأعلى

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « فيرون » من رأى يري بمعنى علم .

(٢) للجزولى ترجمة فى ابن خلكان (الترجمة رقم ٤٨٦ فى الجزء الثالث ص ١٥٧ بتحقيقنا) وقد نص ابن خلكان على أن الجزولى ـ بضم الجيم نسبة إلى جزولة ، وهى بطن من البربر ؛ قال : ويقال لها أيضا : كزولة ، بالكاف .

وإبراهيم بن المنذر وغيرهم ، ولزم ابنَ عبد الحكم للتفقه ، وتحقق به وبالمزنى ، وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ويميل إلى مذهب الشافعى ، ولما قال له ابنه محمد بن القاسم : يا أبت أوْصِنِى ، قال : أوصيك بكتاب الله ، فلا تنس حظك منه ، واقرأ منه كل يوم جزأ ، واجعل ذلك عليك واجباً ، وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظ ، يعنى الفقه ، فعليك برأى الشافعى ، فإنى رأيته أقل خطأ ، قال أبو الوليد بن الفَرَضى : ولم يكن بالأندلس مثله فى حسن النظر والبصر بالحجة ، وقال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة : ما رأينا أفقه من قاسم بن محمد فيمن[1] دخل الأندلس من أهل الرحلة ، وقال أسلم بن عبد العزيز : سمعت عن ابن عبد الحكم أنه قال : لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم ابن محمد ، ولقد عاتبته فى حين انصرافه إلى الأندلس ، وقلت له : أقم عندنا فإنك تعتقد[2] ههنا رياسة ويَحْتاج الناس إليك ، فقال : لابدّ من الوطن ، وقال سعيد بن عثمان : قال لى أحمد بن صالح الكوفى : قدم علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد ، فرأيت رجلا فقيها .

وألف رحمه الله تعالى كتاباً نبيلا فى الرد على ابن مُزَيْن وعبد الله بن خالد والعتبى يدل على علمه ، وله كتاب فى خبر الواحد .

وكان يلى وثائق الأمير محمد طول أيامه .

روى عنه ابن لبابة وابن أيمن والأعناقى وابنه محمد بن قاسم [فى آخرين][3] توفى سنة ست - أو سبع ، أو ثمان - وسبعين ومائتين ، رحمه الله تعالى !.

أبو بكر محمد ابن إبراهيم الغسانى

ومنهم أبو بكر الغسانى ، وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود ، من أهل المرية ، قدم إلى مصر ولقى بها أبا بكر الطرْطوشى ، ثم عاد إلى بلده ، وشُووِر ،

---

(١) فى ا « ممن دخل الأندلس » (٢) فى ا « فانك تقتعد »
(٣) هذه الكلمة لا توجد فى ا

واستُقْضِي بمُرْسِية مدة طويلة ، ثم صُرِف ، وسكن مراكش ، قال ابن بَشْكُوال: توفى بمراكش فى رجب سنة ٦٣٦ ، وقال أبو جعفر بن الزبير : إن له كتاب تفسير القرآن ، وبيته بيت علم ودين .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم ابن حيون

ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن حَيُّون ، من أهل وادى الحِجَارة ، قال ابن الفرضى : سمع من ابن وضاح والخشنى [1] ونظرائهما بالأندلس ، ورحل إلى المشرق ، فتردد هنالك ، نحواً من خمس عشرة سنة ، وسمع بصنعاء ومكة و بغداد ولقى جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل : منهم عبد الله بن أحمد ، وسمع بمصر من الخفاف [2] النيسابورى و إبراهيم بن موسى وغيرهما ، و بالمصيصة والقيروان ، وكان إماماً فى الحديث ، عالماً ، حافظاً [للعلل] بصيراً بالطرق ، ولم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه ، وهو ضابط متقن ، حسن التوجيه [3] للحديث ، صدوق ، ولم يذهب مذهب مالك ، وممن روى عنه ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ووَهْب ابن مسرة وأحمد بن سعيد بن حزم ، وقال خالد بن سعيد : لو كان الصدق لساناً لكان ابن حَيُّون ، وكان يُزَنّ بالتشييع [4] لشىء كان يظهر منه فى حق معاوية ، رضى الله تعالى عنه ! وكان شاعراً ، وتوفى بقرطبة سنة ٣٠٥ ، سامحه الله تعالى ! .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم المالقى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن غالب ، المالَقِىّ ، قال ابن نقطة : سمع بالإسكندرية من أبى الحسن بن المقدسى ، وكان فاضلا ، رأيت بخطه إجازة بمصر لبعض المصريين فى رجب سنة ٦٠٤ ، وسمع بمصر شيئاً من الخِلَعِيَّات ، قال ابن فُرْتُون الفاسى فى ذيل تاريخ الأندلس : روى بمالَقَة ، ورحل إلى المشرق ، وحج ، ولقى أبا الحسن على بن المفضل [5] المقدسى ، وأخذ عنه

(١) فى نسخة عند ا « والختنى » بالثاء المثلثة — محرفا
(٢) في أصل ا « من الحفاظ النيسابورى — إلخ »
(٣) فى ا « حسن التوجه للحديث » (٤) يزن — بالبناء للمجهول — يتهم
(٥) كذا فى ا ، وفى ب ونسخة عندا « علي بن الفضل »

كتاب « تحقيق الجواب ، عمن أجيز له ما فاته من الكتاب » من تآليفه ، ورجع إلى الأندلس ، ثم نهض إلى مراكش فتوفى فى أقصى بلاد السُّوسِ فى حدود سنة ٦٤٥ ، رحمه الله تعالى !.

ترجمة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم اليقورى

ومنهم اليَقُّورى ، وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم مصنف كتاب « إكمال الإكمال » للقاضى عياض على صحيح مسلم ، وكتب على كتاب الشهاب القرافى فى الأصول ، وسمع الحديث ، وقدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة ، ثم عاد بعد حجه ، ومات بمراكش سنة ٧٠٧ ، وقد زرت قبره [بها] مرارا ، قال الحافظ المقريزى: واليَقُّورى نسبه إلى يَقُّورة[1] - بياء آخر الحروف مفتوحة ، وقاف مشددة ، وراء مهملة - بلد بالأندلس ، انتهى .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن إبرهيم الأنصارى

ومنهم أبو عبد الله الأنصارى ، وهو محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام ، ويعرف بابن شق الليل ، من أهل طُلَيْطُلة ، سمع بمصر أبا الفرج الصوفى وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد بن النحاس وأبا القاسم بن مَيْسَرة وأبا الحسن بن بشر وغيرهم ، وسمع بطليطلة من جماعة ، وحدث عن جماعة من المحدثين كثيرة .

قال ابن بَشْكوال : وكان فقيها عالما ، وإماما متكلما ، حافظا للفقه والحديث ، قائما بهما ، متقنا لهما ، إلا أن المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعلله كان أغلب عليه ، وكان مليح الخط ، جيد الضبط ، من أهل الرواية والدراية والمشاركة فى العلوم ، وكان أديبا شاعرا مجيدا لغويا دينا فاضلا ، كثير التصانيف والكلام على علم الحديث ، حلو الكلام فى تآليفه ، وله عناية بأصول

---

(١) يقورة - لم يذكره ياقوت ، وذكر صاحب الروض « يبورة » بالباء الموحدة مكان القاف ، وضبطت ضبط قلم بضم الباء مخففة - وقال « مدينة بالأندلس بينها وبين مدينة القصرين مرحلتان » اهـ .

الديانات وإظهار الكرامات ، توفى بِطَلَبيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥، رحمه الله تعالى ! .

ترجمة أبى عبدالله الهاشمى الأندلسى

ومنهم الشيخ الإمام الشهير الكبير الولى العارف بالله سيدى أبو عبد الله القرشى الهاشمى الأندلسى ، شيخ السالكين ، وإمام العارفين ، وقدوة المحققين ، قدم مصر بعد ما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهاد ، وكان يقول : صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة : الشيخ أبى الربيع ، والشيخ أبى الحسن ابن طَريف ، والشيخ أبى زيد القرطبى ، والشيخ أبى العباس الجوزى ، وسلك على يده جماعة : منهم الشيخ أبو العباس القسطلانى ، فإنه أخذ عنه كلامه وجمعه فى جزء ، وخرج سيدى أبو عبد الله القرشى من مصر إلى بيت المقدس فأقام به إلى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذى الحجة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة ، ودفن هناك ، وقبره ظاهر يُقْصَد للزيارة زُرْته أول قَدَماتى[2] على بيت المقدس سنة ١٠٢٨ ، ومن كلامه : من لم يدخل فى الأمور بلطف الأدب[1] لم يدرك مطلوبه منها ، وقوله : العاقل يأخذ ما صفا ويدع التكلف ، فإنه تعالى يقول (وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقال : مَنْ لم يراع حقوق الإخوان بترك حقوقه حُرِم بركة الصحبة ، وقال : سمعت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم[3] بن طَرِيف يقول : لما حضرت الشيخَ أبا الحسن بن غالب الوفاةُ قال لأصحابه : اجتمعوا وهللوا سبعين ألف مرة ، واجعلوا ثوابها لى ، فإنه بلغنى أنها فداء كل مؤمن من النار ، قال : فعملناها ، واجتمعنا عليها ، وجعلنا ثوابها له .

ثم حكى عن شيخه أبى زيد القرطبى ما حكاه السنوسى عنه فى أواخر شرح

---

(١) كذا فى ب ونسخة عندا ، وفى أصل ا « أول قدمانى إلى بيت المقدس »

(٢) فى ا « من لم يدخل فى الأمور بالأدب »

(٣) ذكر من قبل فى شيوخه « أبا الحسن بن طريف »

صُغْراه : وقد أنكر غير واحد من الحفاظ كابن حجر وغيره كون ما ذكر حديثا ، ولعل هؤلاء أخذوه من جهة الكشف ونحوه ، والله تعالى أعلم .

وقال رحمه الله تعالى: دخلت على الشيخ أبي محمد عبدالله المغاورى [١] ، فقال لى: أعلمك شيئاً تستعين به ، إذا احتجت لشىء فقل: ياواحد يا أحد [ياواحد] يا واجد ياجواد ، انفَحْنامنك بنفحة خير ، إنك على كل شىء قدير، قال: فأنا أنفق منها منذ سمعتها ، وقال رحمه الله تعالى : ما من حال ذكر فى رسالة القشيرى إلا وقد شاهدته نفسى ، وتزوج رحمه الله تعالى بنساء حدثن عنه بكرامات ، ومنهن أم القطب القسطلانى ، وحكت أنها خرجت عنه يوما لحاجتها ، ثم عادت فسمعت عنده فى طبقته حِسَّ رجل ، فتوقفت وتفقدت الباب [٢] فوجدته مُغْلقا، فلما انقطع الكلام دخلت إليه ، فإذا هو وحده كما تركته ، وسألته [٣] عن ذلك ، فقال : هو الخضر دخل على وفى يده حية فقال: هذه [حيتك] [٤] جئتك بها من أرض نجد، وفيها شفاء مَرَضك ، فقلت : لا أريد ، أُذهب أنت وحيتك لا حاجة لى بها ، ودخل عليه بعض نسائه يوما ، فوجدته بصيرا نقى الجسم من الجُذَام ، فلما نظرته قال لها : أتريدين أن أبقى لك هكذا ؟ فقالت له : يا سيدى كن كيف شئت ، إنما مقصودى خدمتك و بركتك ، وقيل له ، وقد تكاثرت منه رؤية الأشياء و إخباره بها ، مع كونه ضريرا ، عن ذلك ، فقال : كلى أعين [٥] ، بأى عضو أردت أن أنظر به نظرت ، وقال : هممت أن أدعو برفع الغلاء ، فقيل لى : لاتدع فما نسمع لأحد منكم فى هذا الأمر دعاء ، فسافرت إلى الشام ، فلما وصلت إلى بلد الخليل عليه السلام تلقانى رسول [الله] [٤] الخليل حين ورودى عليه، فقلت له:يارسول الله اجعل ضيافتى عندك أهل مصر، فدعا لهم ففرج الله عنهم، ومناقبه رحمه الله تعالى و كراماته لا يفى بها

---

(١) فى أصل ا « المغاور » بدون ياء ؟ وفى نسخة عندها « المفاوز »

(٢) فى ا « وافتقدت الباب » (٣) فى ا « فسألته »

(٤) هذه الكلمة لاتوجد فى ا (٥) فى ا « كلى عين »

هذا المختصر ، وإنما قصدنا بذكره البركة وكفارة ما وقع فى هذا الكتاب من الإحماض ، والله المرجو فى العفو .

ومن فوائده ما نقله عن شيخه أبى الربيع المالَقِى أنه قال له : ألا أعلمك كنزا تنفق منه ولا ينفد؟ قلت : بلى ، قال : قل : يا ألله ، يا أحد ، يا واحد ، ياموجود ، يا جَوَاد ، يا باسط ، يا كريم ، يا وهاب ، ياذا الطَّوْل ، يا غنى ، يا مُغْنى ، يا فتاح ، يا رزاق ، يا عليم ، يا حى ، يا قيوم ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حنان ، يا منان ، انفحنى منك بنفحة خير تغنينى بها عمن سواك ، إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، نصر من الله وفتح قريب ، اللهم يا غنى يا حميد ، يا مبدئ يا معيد ، [يا رحيم] يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعالا لما يريد ، اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك ، واحْفَظْنى بما حفظت به الذكر [الحكيم] ، وانصرنى بما نصرتَ به الرسل ؛ إنك على كل شىء قدير ، فمن داوم على قراءته بعد كل صلاة خصوصا صلاة الجمعة حفظه الله تعالى من كل مَخُوف ، ونصره على أعدائه ، وأغناه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ويَسَّر عليه معيشته ، وقضى عنه دينه ، ولو كان عليه أمثال الجبال دينا ، بكرمه وإحسانه ، انتهى ، نقله عنه العلامة ابن داود البَلَوى[1] الأندلسى ، ومن خطه نقلت ، رحم الله تعالى الجميع ! ونقله اليافعى كما ذكر رحمه الله تعالى ، إلا أنه لم يقل فيه « يا ودود » ، واتفقا فيما عدا ذلك ، والله سبحانه أعلم .

وقال ابن خلكان فى حقه : محمد [بن أحمد][2] بن إبراهيم القرشى الهاشمى العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء ، كانت له كرامات ظاهرة ، ورأيت

---

(١) هكذا فى ا ، وفى ب « البلورى » بزيادة راء قبل ياء النسبة

(٢) هذه الكلمة لا توجد فى ا

أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة ، ولقيت جماعة ممن صحبه ، وكل منهم يُثنى [١] عليه من بركته ، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية ، وأنها صحت كلها ، وكان من السادات الأكابر والطراز الأول ، وهو مغربى صحب بالمغرب أعلام الزهاد ، وانتفع بهم ، فلما وصل إلى مصر انتفع به مَنْ صحبه أو شاهده ، ثم سافر إلى الشام قاصدا زيارة بيت المقدس ، وأقام بها إلى أن مات ، وصلى عليه بالمسجد الأقصى ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقبره ظاهر للزيارة والتبرك [به] [٢] .

والجزيرة الخضراء فى بلاد الأندلس : مدينة تقابل سَبْتَة من [بر] [٢] العُدْوة .

ومن جملة وصاياه لأصحابه : سيروا إلى الله تعالى عُرْجاً ومكاسير فإن انتظار الصحة بِطَالة ، انتهى ببعض اختصار .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن على القرطبى

ومنهم أبو عبدالله محمد بن على بن الحسين [٣] بن أبى الحسين القرطبى ، سمع من قاسم بن أصبغ وغيره ، وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبى الموال [٤] والبارودى وابن السكَن فى آخرين ، وسمع بالرملة و بيت المقدس ، وكان ضابطا بصيرا بالنحو واللغة فصيحا بليغا طويل اللسان ، ولى الشرطة ببلاد المغرب ، توفى سنة ٣٧٣ [٥] .

ترجمة أبى بكر محمد ابن علي الجيانى

ومنهم أبو بكر [الجَيَّانى] محمد بن على بن خلف التُّجِيبى الإشبيلى الحافظ الكاتب ، روى عن ابن الجد وغيره ، ومر بمصر حاجا فلقى بمكة أبا حفص الميَانَشِيَّ وأبا الحسن المكناسى ، ولقى بالإسكندرية السِّلَفِى وابن عوف وغيرهما ، وكان مدرسا للفقه ، فقيها جليلا ، متقدما فيه عارفا فاضلا سَنِيا ، توفى بعد امتحان

---

(١) فى ا « وكل منهم قد نمى عليه من بركته »

(٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ب ، وهى فى ا وفى ابن خلكان

(٣) فى ا « محمد بن على بن الحسن بن أبى الحسين »

(٤) فى ا « وابن أبى الموت »   (٥) فى ا « سنة ٣٧٢ »

من منصور بنى عبد المؤمن[1] سنة ٥٩٦ ، وذلك أنه وشى به للمنصور أيام عزم على ترك التقليد والعمل بالحديث .

ترجمة أبى بكر محمد بن على الأنصارى الجيانى

ومنهم أبو بكر الأندلسى الجَيَّانى محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن ياسر، [الأنصارى، الجَيَّانى][2] سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وماوراء النهر ، ولقى أئمتها ، وتفقه ببخارى حتى تمهر فى المذهب والخلاف والجدل ، ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصل منه كثيرا ، ثم سكن بلخ مدة ، وعاد إلى بغداد ودخلها سنة ٥٥٩ ، وتوجه إلى مكة فحج ، ورجع إلى الشام ، واستوطن حلب ، إلى أن توفى بها ، ووقف كتبه ، وكان متدينا صدوقا حافظا عالما بالحديث ، وفيه فَضْل ، ولد بجَيَّان سنة ٤٩٢ ، ومات بحلب سنة ٥٦٣ .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن على التجيبي

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على التُّجِيبى الدهان الغَرْناطى[3] ، كان حَسَنَ السَّمْت بارع الخط والخَلْق والخُلُق ، رحل إلى الحج ، وجال فى البلاد فى حدود سنة ست وستمائة فأخذ بمكة والشام ومصر والإسكندرية عن جماعة كثيرة ، وكان عدلا[4] فاضلا على خير ودين ، وكان متحرفاً بالتجارة بغَرْناطة ، ثم خرج منها آخر عمره فمات بقوص بعد ماحج سنة ٦٥٠ ، وصدر من مكة سنة ٦٥٣ فمات قبل منتصف السنة ، رحمه الله تعالى ! .

ترجمة أبى عمر محمد بن على الإشبيلى

ومنهم أبو عمر محمد بن على بن محمد بن أبى الربيع القرشى العثمانى الأندلسى الإشبيلى النحوى ، ولد سنة ٦١٧ بإشبيلية ، وقدم مصر فسمع الكثير بها ، وبدمشق وغيرها ، وكان إماما عالما نحويا فاضلا ، كتب عنه أبو محمد الدمياطى والقطب عبد الكريم ، وناهيك بهما [علماً] .

ومنهم أبو بكر[5] أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن على بن هُذَيل

---

(١) فى ب « منصور بن عبد المؤمن » وأثبتنا ما فى ا
(٢) هذه الزيادة ليست في ب (٣) فى ا « الأغرناطى »
(٤) فى ا « وكان عادلا » (٥) كذا فى ا ، وفى ب « أبو بكر بن عبد الله »

ترجمة أبى بكر محمد بن على البلنسى

البَلَنْسِي ، رحل وسمع من السِّلفى ، وحج ، قال أبو الربيع بن سالم : هو شيخ صدوق متيقظ ، سمع أباه وأبا الوليد ابن الدباغ وأبا الحسن طارق بن موسى بن يعيش وجماعة ، وأخذ بمكة سنة ٥٣٩ عن أبى على حسن المُقْرِى ، وقَفَلَ إلى الأندلس سنة ٥٤٦ ، فأُخِذ عنه بها ، وسمع منه جماعة ، قال ابن الأبار : كان غاية فى الصلاح وأعمال البر والورع ، توفى ببعض قرى بلنسية سنة ٥٨٣[1] ، ومولده سنة سبع أو تسع عشرة وخمسمائة ، وله حظ من علم التعبير واللغة ، رحمه الله تعالى !.

ترجمة أبى عبد الله محمد بن على البياسي

ومنهم أبو عبد الله ، ويقال : أبو سَلَمة ، محمد بن على البَيَّاسى الغرناطى الأنصارى ناصر الدين ، روى عن الحافظ أبى جعفر[2] بن الزبير وغيره ، وقدم إلى القاهرة واستوطنها بعد الحج ، حتى مات بها سنة ٧٠٣[3] ، وكان عارفا بعلم الحديث وكتب منه كثيراً ، ومال إلى مذهب الظاهرية ، وانتفع به جماعة من طلبة الحديث وكان ثقة ، رحمه الله تعالى ! .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن على الشامى الاندلسي الغرناطى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على بن يحيى بن على [بن] الشامى الأندلسى ، الغرناطى ، قدم مصر حاجا ، وأقام بمكة والمدينة ، وكان إماما فاضلا عالما متفننا[4] فى علوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقراءات ونظم ونثر ، ومع معرفته بمذهب مالك ينقل كثيراً من مذهب الشافعى ، وسمع الموطأ بتونس من أبى محمد بن هرون القرطبى ، ومولده بغرناطة سنة ٦٧١ ، وتوفى سنة ٧١٥ .

ومن شعره رضى الله تعالى عنه :

إذا كنتُ جارًا للنبىِّ وصحبه ... ومكَّةُ بيتُ الله منى على قُرْبِ
فما ضَرَّنى أن فاتنى رَغْدُ عيشةٍ ... وحسبى الذى أوتيتُه نعمةً حسبى

---

(١) كذا فى أصل ا ، وفى نسخة عندها « سنة ٥٣٨ » وفى ب « ٥٤٨ » وليس شىء منهما بصحيح وفى نسخة « ٥٨٨ »
(٢) فى ا « أبى حفص أبن الزبير »
(٣) فى نسخة عند ا « سنة ٦٠٣ »
(٤) فى نسخة « متقنا »

وقوله :

نزيلُ الكرام عزيزُ الجوار وإنى نزيلٌ عليكم وجار
حللت ذَرَاك وأنت الكريم ومن حَلَّ مَثْوَى كريم يُجَار

ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمار الميورقى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمار الكلاعى المَيُورَقى ـ قدم مصر ، وروى عن [أبي محمد] ابن الوليد بها ، وكان عالما ، وله قصيدة طويلة فيها حكم ومواعظ يوصى ابنه بها ، منها[1] قوله :

وطاعةَ مَنْ إليه الأمرُ فالْزَمْ وإن جاروا وكانوا مُسْلِمينا
فإن كفروا ككفر بنى عُبَيْدٍ فلا تَسْكُنْ دِيارَ الكافرينا

واسم ابنه حسن ، وسمع من المذكور الحافظُ القاضى أبو بكر بن العربى فى رحلته سنة ٤٨٥ ، ووصفه بالعلم ، وعَمَّار : بالراء .

ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر القرطبي الحافظ

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفَخَّار القرطبى الحافظ ـ روى عن عيسى الليثى وابن عون الله أبى جعفر[2] التميمى وأبى محمد الباجى ، وقدم مصر ، وحج ، وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ، وأفتى بها ، وافتخر بذلك على أصحابه ، وقال : لقد شُووِرْتُ بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم دار مالك بن أنس ومكان شوراه ، ولقى جماعة من العلماء وأخذ عنهم ، وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم ، عارفاً بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء ، ذاكراً للروايات ، يحفظ المدونة والنوادر لابن أبى زيد ، ويوردها من صدره دون كتاب .

قال ابن حيان مؤرخ الأندلس : توفى الفقيه المشاور الحافظ المستبحر[3] الرواية الطويل الهجرة فى طلب العلم الناسك المتقشف بمدينة بَلَنْسية فى ربيع الأول سنة

---

(١) فى ا « ومن أبياتها قوله »
(٢) فى ب « وابن عون الله وأبي جعفر » وأبو جعفر هو أحمد بن عون الله
(٣) فى ا « المتبحر »

٤١٧ لعشر خلون من الشهر، وكان الحفل فى جنازته عظيما، وعاين الناس فيها آية من ظهور أشباه الخطاطيف بها تجللت[1] الجمع زافَّةً فوق النعش لم تفارق نعشه إلى أن وُورِيَ، فتفرقت، ومكث مدة ببَلَنْسية مطاعا عظيم القدر عند السلطان والعامة.

وذكر جُماهِرُ بن عبد الرحمن حديث الطير، وكذا ذكر الحسن بن محمد القُبَّشى خبر الطير.

قال : وكانت سنه نحو الثمانين سنة، وكان مجاب الدعوة، وظهرت فى دعوته الإجابة.

وقال أبو عمرو الدانى : إن وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وأربعمائة، ودفن يوم الأحد بمدينة بَلَنْسية، وبلغ نحو ست وسبعين سنة، وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العاملين[2] بالكتاب والسنة بالأندلس، رحمه الله تعالى !.

ترجمة أبى عبد الله محمد ابن عمروس القرطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عُمروس القرطبى ـ سمع على بن مفرج[3] وغيره من شيوخ قرطبة، وقدم مصر فأخذ بها عن ابن المهندس وغيره، وحج ودخل العراق، وسمع من أبى بكر الأبهرى والدارقطنى وجماعة، وعاد إلى الأندلس، وشُهر بالعلم والمال، وولى الأحباس بقرطبة، حدث عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره، ومات فى جمادى الآخرة سنة أربعمائة، رحمه الله تعالى!.

محمد بن عيسى ابن نجيح المعافرى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح، المعافرى، المعروف بالأعشى، القرطبى ـ رحل سنة ١٧٩[4] فسمع سفيان بن عُيَينة ووكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن وهب وجماعة، وكان الغالب عليه

(١) الخطاطيف : جمع خطاف، بزنة رمان، وهو طائر أسود، فى حجم العصفور، وتجللت : أى غطت، وذلك كناية عن كثرتها، وزافة ـ بالزاى كما فى ا ـ أى لها صوت، ووقع فى ب « رافة » بالراء المهملة (٢) فى ا « العالمين »

(٣) كذا فى ا، وفي ب ونسخة عند « مفرح » بالحاء المهملة

(٤) فى نسخة « سنة ١٧٦ »

الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحا عاقلا سَرِيا جوادا يذهب إلى مذهب أهل العراق ، وتوفى سنة ٢٢١ ، ذكره ابن يونس وغيره .

ترجمة أبى عبد الله محمد ابن فطيس الغافقى الإلبيرى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن فُطَيْس الغافقى ، الإلبيرى ، الزاهد - قال الحميدى فى حقه : هو من أهل الحديث والحفظ والفهم والبحث عن الرجال ، وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخى عبد الله بن وَهْب وغيرهما ، وروى بالأندلس عن جماعة منهم بَقِي بن مَخْلد وابن وضاح ، وسمع بمكة وغيرها من مائة شيخ ، قال ابن الفَرَضى : كان شيخا[1] نبيلا ، ضابطا لكتبه ، ثقة فى روايته ، صدوقاً فى حديثه ، وكانت الرحلة إليه بإلبيرة ، وبها مات فى شوال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة ، رحمه الله تعالى ! .

ترجمة أبى عبد الله محمد ابن قاسم القرطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سَيَّار ، القرطبى - من موالى بنى أمية سمع من أبيه ومن بَقِي بن مَخْلد وغيره ، ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائى ، ومن أحمد بن حماد زغبة[2] ، وسمع بمكة والبصرة والكوفة و بغداد ودمياط والإسكندرية والقَيْروان من مائة وستين رجلا ، قال أبو محمد الباجى : لم أدرك بقرطبة أكثر حديثا منه ، وكان عالما بالفقه ، متقدما فى علم الوثائق ، رأسا فيها ، وكان مشاورا ، سمع من الناس كثيرا ، وكان ثقة صدوقا ، وغزا سنة ٣٢٧ ، ومات ثالث ذى الحجة منها ، ومولده سنة ٢٦٣ ، وقيل : توفى سنة ٣٢٨[3] ، قاله ابن يونس والحميدى .

ترجمة أبى عبد الله محمد ابن قاسم ابن رمان الغرناطى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم [بن محمد بن قاسم][4] القرشى الفهرى ، عُرِف بابن رمان ، الغرناطى - قرأ على أبى جعفر بن الزبير بها ، وقدم إلى القاهرة سنة ٧٢٢ ، ومات بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧٢٩ .

---

(١) فى ب « كان شيخنا نبيلا » ولا تعقل صحته فإن ابن الفرضى المتحدث ولد سنة ٣٥١ مع أن وفاة الغافقى سنة ٣١٩ ، وقد أثبتنا ما فى ا

(٢) كذا فى نسخة عندا وهو الصواب ، وفى ب وأصل ا « رغبة » بالراء المهملة

(٣) فى نسخة عندا « سنة ٣١٨ » (٤) هذه الزيادة لا توجد فى ب

ومن شعره قوله :

فدِيتم خبّرونى كيف صَحّتْ ... فريضة هالك من غير مَيْنِ
لزيد زوجة ولها ابن أم ... فماتَتْ عنهما لا غير ذين
فحاز البعل ما تركته إرثا ... وولّى غيرُه صِفرَ اليدين
ولا رِقٌّ فُديتَ على أخيها ... وليس بكافر يُرْمَى بشَيْنِ
وليس مُعَجِّلا إرثاً بقتل ... مخافة أن ينال شقاوتين

ترجمة أبى عبد الله محمد بن لب الشاطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن لُبٍّ الشاطبى – حدث بالقاهرة ، وتوفى قريبا من سنة ٦٤٠ ، وهو أحد أصحاب الشيخ أبى الحسن بن الصباغ ، ومن كلامه : اشتغالُكَ بوقتٍ لم يأتِ تضييعٌ للوقت الذى أنت فيه، ولعمرى لقد صدق :

ترجمة أبى عبد الله محمد بن سراقة الشاطبى

ومنهم أبو عبد الله[1] [محمد] بن سُرَاقة الشاطبى بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سُرَاقة ، محيى الدين ، ويكنى أيضا أبا القاسم وأبا بكر ، الأنصارى الشاطبى ، المالكى – ولد بشَاطِبَة سنة ٥٩٢ ، وسمع من أبى القاسم بن بَقِى ، ورحل فى طلب الحديث ، فسمع ببغداد من الشيخ أبى حفص عمر السهْرَوَرْدِى وأبى طالب القُبَّيْطِى[2] وأبى حفص[3] الدينورى وجماعة، وسمع بحلب من ابن شداد وغيره ، وتولى مشيخة دار الحديث البهادية[4] بحلب ، ثم قدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصرى سنة ٦٤٢ ، وبقى بها إلى أن توفى بالقاهرة فى شعبان سنة ٦٦٣[5] ، ودفن بسفح المقطم ، وكان الجمع كبيرا ، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل ، وأحد المشايخ الصوفية ، له فى ذلك إشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيدة بمعانى الشعر[6] ، وكان صالح

(١) فى نسخة عند ا « أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة ، محيى الدين »
(٢) كذا فى أصل ا ، وفى ب « الغبيطى » وفى نسخة عند ا « القبطى »
(٣) فى ب « وأبى جعفر الدينورى » (٤) فى نسخة « البهلوية »
(٥) فى ا « سنة ٦٦٢ » (٦) فى نسخة « بمعالى الشعر »

الفكرة فى حل التراجم ، مع ما جُبِل عليـــه من كرم الأخلاق ، واطراح التكلف ، ورقة الطبع ، ولين الجانب .

ومن شعره قوله :

نَصِبْتُ ومثلى للمكارم يَنْصَبُ ورُمْتُ شروق الشمس وهى تغرِّبُ
وحاولتُ إحياء النفوس بأسرها وقد غَرْغَرَتْ يا بُعْدَ ما أنا أطلب
وأتعَبُ إن لم تمنح الخلق راحة وغيرىَ إن لم تتعب الخلق يتعب
مُرادىَ شىء والمقاديرُ غـيره ومَنْ عاند الأقدار لاشك يغلب

وقوله :

إلى كم أُمَنِّى النفسَ ما لاتنَالُهُ فيذهبَ عمرى والأمانىُّ لاتُقْضَى
وقد مَرَّ لى خمسٌ وعشرون حِجَّةً ولم أرْضَ فيها عِيشَتِى فمتى أرضى
وأعْلَمُ أنِّى والثــلاثون مُدَّتِى حَرٍ بمَغَانِى اللهو أوسعُها رفضا
فماذا عَسَى فى هذه الخمس أرْتَجِى ووَجْدِى إلى أوْبٍ من العشر قد أفْضَى
فيَارَبِّ عجِّلْ لِى حَيَاةً لذيذَةً وإلا فبادِرْ بِى إلى العَمَلِ الأرْضَى

وقال رحمه الله تعالى :

وصاحبٍ كالزُّلاَلِ يَمْحُــو صَفَاؤُهُ الشَّكَّ باليقين
لم يُحْصِ إلا الجميــلَ مِنِّى كأنَّهُ كاتبُ اليمينِ

وهذا عكس قول المنازى[1] :

وصاحب خِلْتُه خَليــلاَ وما جَرَى غَـدْرُه ببالِى
لم يُحْصِ إلا القبيح مـنى كأنه كاتبُ الشمالِ

---

(١) المنازى : هو أبو نصر أحمد بن يوسف السليكى — بفتح السين — المنازى نسبة إلى منازجرد مدينة عندخرت برت حصن زياد المشهور ، كان من أعيان الفضلاء وأماثل الشعراء ، وزر لأبى نصر أحمد بن مروان الكردى صاحب ميا فارقين وديار بكر (انظر ابن خلكان ـ الترجمة رقم ٥٨ في الجزء الأول ص ١٢٦ بتحقيقنا)

ترجمة أبى عبد الله محمد بن أحمد الفريشى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن[١] أحمد الفرِّيشى ـ بكسر الفاء ، وتشديد الراء المهملة ، بعدها شين معجمة ـ نسبه إلى فِرِّيشَ إحدى مدائن قُرْطُبة .

ولد بغَرْناطَة سنة ٥٥٧ ، وقرأ بالروايات على أبى القاسم بن غالب ، وسمع عليه وعلى أبى القاسم بن بَشْكُوال وغيره ، وسمع بمكة ، وحدث بمصر ، وعاد إلى الأندلس فمات بقرطبة سنة ٦٣٣ ، وكان مشهوراً بالصلاح ، معروفاً بإجابة الدعاء ، ورعا ثقة زاهداً فاضلا ، رحمه الله تعالى !.

ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد ابن خيرون

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن خَيْرُون ، وقيل : محمد بن عمر بن خيرون .

أندلسى ، سكن القيروان ، ورحل إلى المشرق ، وأخـذ القراآت بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطى وغيره كعبد الله بن رَجَاء[٢] وأبى الحسن إسماعيل[٣] ابن يعقوب الأزرق المدنى ، ودخل العراق ، وسمع به من أصحاب على بن المدنى ويحيى بن مَعِين ، وعاد إلى القَيْرَوَان ، وسمع بها و بقرطبة ، وقدم بقراءة نافع على أهل إفريقية ، وكان الغالبُ على قراءتهم حرفَ حمزة ، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا الخواص ، حتى قدم بها فاجتمع إليه الناس ، ورحل إليه أهل القيروان من الآفاق ، وكان يأخذ أخذا شديدا على مذهب المشيخة من أصحاب وَرْش ، وتُوُفى بشعبان سنة[٤] ٣٠٦ ، وكان رجلا صالحا فاضلا كريم الأخلاق إماما فى القراآت ، مشهورا بذلك ، ثقة ، مأمونا ، واحـد أهل زمانه [وأئمتهم] فى علم القرآن ، رحمه الله تعالى ! .

ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بُنْدَار ، القيسى ، الأندلسى ، المالَـقِى .

---

(١) فى ا « أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الفريشى »

(٢) فى ا « كعبيد بن رجاء »

(٣) فى ب « وأبى الحسن بن إسماعيل »   (٤) فى ا سنة « ٣٥٦ »

ضياء الدين محمد ابن محمد بن بندار القيسى

ولد بمالَقَة سنة ٦٢٥ وسمع الكثير ، وقدم القاهرة حاجا فسمع بها و بدمشق وكتب بخطه كثيرا ، وكان سريع الكتابة ، سريع القراءة ، كثير الفوائد ، دينا ، خيرا ، فاضلا ، له مشاركة جيدة فى عدة علوم ، توفى شابا بالقاهرة سنة ٦٦٢ رحمه الله تعالى !.

ومنهم أبو بكر محمد الزُّهْرِى ، المعروف بابن محرز ، البَلَنْسِى .

ترجمة أبى بكر ابن محرز البلنسى

ولد بها سنة ٥٢٩ ، وقدم مصر فسمع ابنَ الفضل وغيره ، وروى عنه جماعة ، وكان أحد رجال الكمال علما وإدراكا وفصاحة وحفظا للفقه وتفننا فى العلوم ومتانة فى الأدب ، حافظا للغة والغريب ، وله شعر رائق ، ودين متين ، وأخذ الناسُ عنه ببلده و بمُرْسِيَه و إشبيلية ومالَقَة ، وغَرْناطة فى اجتيازه عليها ، و بغيرها من البلاد ، وعلا صيته ، وعرف بالدين والعلم والفضل ، وكان أبو الخطاب يثنى على علمه ودينه ، توفى ببِجَاية سنة ٦٥٥ عن سنّ عالية ، رحمه الله تعالى !.

ترجمة أبى الوليد الباجى ، القاضى

ومن الراحلين (١) من الأندلس إلى المشرق القاضى أبو الوليد الباجى صاحب التصانيف المشهورة .

وقال ابن ما كولا فى حقه : إنه فقيه ، متكلم ، أديب ، شاعر ، سمع بالعراق ، ودرس [الكلام] (٢) وصنف إلى أن مات ، وكان جليلا رفيع القدر والخطر .

وقال غير واحد : إنه ولد سنة ٤٠٣ ، وارتحل سنة ٤٢٦ ، وجاور ثلاثة أعوام ملازما لأبى ذر [الهَرَوِى] الحافظ يخدمه ، ورحل إلى بغداد ودمشق ، ولقى فى رحلته غير واحد ، وتفقه بالقاضى أبى الطيب الطّبَرى وغيره .

وقال أبو على بن سكرة : ما رأيت مثل أبى الوليد الباجى ، وما رأيت أحدا على هيئته وسَمْته وتوقير مجلسه ، ولما كنتُ ببغداد قدم ولدُه أبو القاسم ، فسرت

(١) فى ا « وممن ارتحل من الأندلس »
(٢) هذه الكلمة لا توجد فى ب

معه إلى شيخنا قاضى القضاة الشاشى ، فقلت له : أدام الله تعالى عزك ! هذا ابنُ شيخ الأندلس ، فقال : لعله ابنُ الباجى ، فقلت : نعم ، فأقبلَ عليه .

قال القاضى عياض : وكثرت القالَةُ فى القاضى أبى الوليد لمداخلته الرؤساء ، وولى قضاء أماكن تصغر عن قدره ، وكان يبعث إلى تلك النواحى خلفاءه ، وربما أتاها المرة ونحوها ، وكان فى أول أمره مُقِلا حتى احتاج إلى القَصْد بشعره ، واستأجر نفسه مدة مقامه ببغداد فيما سمعته مستفيضا لحراسة دَرْبٍ ، وقد جمع ابنه شعره .

قال : ولما قدم الأندلس وَجَد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجا عن المذهب ، ولم يكن بالأندلس مَنْ يشتغل بعلمه ، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مُجَادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل ، وحل بجزيرة مَيُورْقَة ، فرأس فيها ، واتبعه أهلُها ، فلما قدم أبو الوليد كلموه فى ذلك ، فدخل إليه ، وناظره وشهر باطله ، وله معه مجالس كثيرة .

ولما تكلم أبو الوليد فى حديث الكتابة يوم الحديبية الذى فى البخارى قال بظاهر لفظه ، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ وكفره بإجازة الكَتْب [1] على الرسول الأمى صلى الله عليه وسلم ، وأنه تكذيب للقرآن ، فتكلم فى ذلك مَنْ لم يفهم الكلام ، حتى أثاروا عليه الفتنة وقَبَّحوا عليه عند العامة ما أتى به ، وتكلم به خطباؤهم فى الجمع ، وقال شاعرهم :

برئْتُ ممن شرَى دُنْياً بآخرةٍ وقال : إن رسول الله قد كتبَا

فصنف أبو الوليد رحمه الله تعالى رساله بين فيها أن ذلك غير قادح فى المعجزة ،

---

(١) الكتب — بفتح الكاف وسكون التاء المثناة — مصدر كتب يكتب ، والموضوع الذى يدور عليه الكلام هو ما حدث فى صلح الحديبية حين كتب على « هذا ماصالح عليه رسول الله » فقال سهيل بن عمرو : لو شهدت أنك رسول الله ماحاربتك ، اكتب اسمك واسم أبيك ، فأمر النبى عليا أن يمحو كلمة « رسول الله » ويكتب مكانها « محمد بن عبد الله » فأكبر على ذلك ، فأخذ منه رسول الله الرق ، وكتب بيده اسمه ، ومعلوم أنه أمى ، والأمى لا يقرأ ولا يكتب (وأنظر ص ٢٧٧ الآتية)

فرجع بها جماعة ؛ إذ ليس مَنْ عَرَف أن يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه أمّيا لأنه لا يُسَمَّى كاتبا ، وجماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة العلامة وهم أمّيون ، والحكم للغالب لا للصور النادرة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « إنا أمّة أمّيون» أى : أكثرهم كذلك ، لندور الكتابة فى الصحابة ، وقال تعالى (هو الذى بعث فى الأمّيين رسولا منهم) انتهى ، و بعضه بالمعنى .

وذكر ابنُ بَسَّام أن أبا الوليد الباجى نشأ وهمته فى العلم ، وأنه بدأ بالأدب ، فبرز فى ميادينه ، وجعل الشعر بضاعته ، فنال به من كل الرغائب ، ثم رحل فما حل بلدا إلا وَجَده ملآن بذكره [1] ، نَشْوَان من قَهْوَتَىْ نظمه ونثره [2] ، فمال إلى علم الديانة ، فمشى بمقياس ، و بنى على أساس ، حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه ، و يرتاحون للأخذ عنه ، ثم كر واستُقْضِى فى طريقه بحلب ، فأقام بها نحواً من عام .

قال : و بلغنى عن ابن حزم أنه كان يقول : لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى بعد عبد الوهاب إلا مثل أبى الوليد الباجى لكفاهم .

وصنف أبو الوليد كتباً كثيرة منها كتاب « التسديد ، إلى معرفة التوحيد » وكتاب « سنن المنهاج ، وترتيب الحِجَاج » وكتاب « إحكام الفصول ، فى أحكام الأصول » وكتاب « التعديل والتجريح ، لمن خرَّجَ عنه البخارى فى الصحيح » وكتاب « شرح الموطأ » وهو نسختان : نسخة سماها الاستيفاء ، ثم انتقى منها فوائد سماها « المنتقى » فى سبع مجلدات ، وهو أحسن كتاب ألف فى مذهب مالك ، لأنه شرح فيه أحاديث الموطأ ، وفرع عليها تفريعاً حسناً ، وأفرد منه شيئاً سماه «الإيماء» ، وقال بعضهم : إنه صنف كتاب « المعانى ، فى شرح الموطأ » فجاء عشرين مجلداً عديم النظير ، وكان أيضاً صنف كتاباً كبيراً جامعاً

---

(١) هذه كناية عن ذيوع صيته واستفاضة خبره وامتلاء الدنيا بآثاره

(٢) النشوان — بفتح فسكون — السكران ، والقهوة : اسم من أسماء الخمر

بلغ فيه الغاية سماه « الاستيفاء » وله كتاب « الإيماء » فى الفقه ، خمس مجلدات ، انتهى .

ومن تصانيفه « مختصر المختصر » فى مسائل المدونة ، وله كتاب « اختلاف الموطأ » وكتاب « الإشارة ، فى أصول الفقه » وكتاب « الحدود » وكتاب « سنن الصالحين » وكتاب « التفسير » لم يتمه ، وكتاب « شرح المنهاج » وكتاب « التبيين ، لسبيل المهتدين » فى اختصار فرق الفقهاء ، وكتاب « السراج » فى الخلاف ، ولم يتم ، وغير ذلك .

وحَجَّ الباجى رحمه الله تعالى أربع حجج جاور فيها ثلاثة أعوام ملازما لأبى ذر [عبد][1] بن أحمد الهَرَوى ، وكان يُسَافر معه للسَّرَوَات[2] لأن أبا ذر تزوّج من العرب ، وسكن بها .

أبو ذر الهروى عبد بن أحمد

وأبو ذر المذكور هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير[3] الأنصارى المالكى ، ويعرف بابن السماك ، سمع بهَرَاة وسَرَخسَ وبَلخ ومَرْو والبصرة وبغداد ودمشق ومصر ، وجاور بمكة ، وألف معجما لشيوخه ، وعمل الصحيح ، وصنف التصانيف ، قال الخطيب : قدم أبو ذر بغداد وأنا غائب ، فحدث بها ، ثم حج وجاور ، ثم تزوّج فى العرب ، وسكن السَّرَوَات[2] ، وكان يحج كل عام ويحدث ثم يرجع[4] ، وكان ثقة ضابطا دينًا ، وقال الحسن بن بقى المالقى : حدثنى شيخى قال : قيل لأبى ذر : مِنْ أين تمذهبت بمذهب مالك ورأى الأشعرى مع أنك هَرَوى ؟ فقال : قدمت بغداد ، وكنت ماشيًا مع الدارقطنى ، فلقينا أبا بكر ابن الطيب ، فالتزمه الدارقطنى ، وقَبَّلَ وجهه وعينيه ، فلما افترقنا قلت : مَنْ هذا ؟ قال : هذا إمام المسلمين ، والذابُّ عن الدين ، القاضى أبو بكر بن الطيب ،

(١) هذه الكلمة لاتوجد فى ب هنا ، وهى ثابتة في جميع النسخ فيما بعد

(٢) السروات : جمع سراة ، وهى علم على الأرض الحاجزة بين تهامة واليمن ، وهى ثلاث سروات ، فواحدة بين تهامة ونجد ، وواحدة فى بلاد عدوان ، وواحدة تمتد على البحر من المغرب وعلى نجد من المشرق ، وفى نسخة « الهروات »

(٣) فى أصل ا « عقير » (٤) فى ا « ويرجع »

فمن ذلك الوقت تكررت إليه وتمذهبت بمذهبه ، انتهى .

الباقلانى والأشعرى مالكيان

قلت : هذا صريح فى أن القاضى أبا بكر الباقلانى مالكى ، وهو الذى جزم به غير واحد ، ولذا ذكره عياض فى المدارك فى جملة المالكية ، وكذلك شيخُ السنة الإمام أبوالحسن الأشعرى(١) مالكى المذهب فيما ذكره غير واحد من الأئمة ، وذكر بعض الشافعية أنهما شافعيان ، والله تعالى أعلم .

وقال عبد الغافر فى تاريخ نيسابور : كان أبو ذر زاهدًا ، ورعا ، عالما ، سخيا لا يدخر شيئاً ، وصار كبير مشيخة الحرم ، مشاراً إليه فى التصوف ، خَرَّجَ على الصحيح تخريجاً حسناً ، وكان حافظاً ، كثير الشيوخ ، توفى سنة ٤٣٥(٢) ، وقال أبو على بن سُكرة : توفى عقب شوّال سنة ٤٣٤ ، وقال الخطيب : فى ذى القعدة من سنة أربع وثلاثين ، رحمه الله تعالى ! وأكثر نسخ البخارى الصحيحة بالمغرب إمّا من رواية الباجى عن أبى ذر عبد بن أحمد الهروى المذكور ، وإمّا من رواية أبى على الصَّدَفى الشهير المعروف بابن سكرة بسنده .

هراة أبى ذر بالحجاز

واعلم أن هَرَاة المنسوب إليها الحافظ أبو ذر ليست بهَرَاة التى وراء النهر نظيرة بَلْخَ ، وإنما هى هَرَاة بنى شيمانة بالحجاز ، وبها كان سكنى أبى ذر ، والله تعالى أعلم .

عود إلى ترجمة الباجى

رجع إلى القاضى أبى الوليد الباجى رحمه الله تعالى – ثم إنه – أعنى الباجى – قدم بغداد ، وأقام بها ثلاثة أعوام يُدَرِّس الفقه ، ويقرأ الحديث ، فلقى بها عدّة من العلماء كأبى الطيب الطبرى والإمام الشهير أبى إسحاق الشيرازى والصَّيْمَرى وابن عُمْروس المالكى ، وأقام بالموصل سنة مع أبى جعفر السِّمنانى يأخذ عنه علم الكلام ؛ فبرع فى الحديث وعِلَله ورجاله ، وفى الفقه وغوامضه وخِلَافه ،

(١) هو أبوالحسن على بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله ابن موسى بن بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى ، القائم بنصرة مذهب أهل السنة والجماعة ، ولد فى سنة ٢٧٠ وتوفى فى سنة ٣٣٠ ببغداد

(٢) فى نسخة عندنا « توفى سنة ٤٢٥ »

وفى الكلام ومضايقه ، وتدبج مع الحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى بحيث روى كل واحد منهما عن الآخر ، رضى الله تعالى عنهما ونفع بهما ! ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جَمٍّ حَصَّله مع الفقر والتَّعَفُّف .

ومما يفتخر به أنه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر بن عبد البر والخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادى ، وناهيك بهما ، وهما أسنّ منه وأكبر ، وأبو عبد الله الحميدى ، وعلى بن عبد الله الصِّقِلى ، وأحمد بن على بن غَزْلُون ، وأبو بكر الطرطوشى ، وأبو على بن الحسين السَّبْتى ، وأبو بحر سفيان بن العاصى ، وممن روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد ، وكان لما رجع إلى الأندلس فشا علمه ، وتهيأت الدنيا له ، وعظم جاهه ، وأُجْزِلت له الصِّلات ، فمات عن مال وافر ، وترسل للملوك ، وولى القضاء بعدة مواضع ، رحمه الله تعالى ! .

وأما ما تقدم عن القاضى أبى الوليد الباجى من إجراء حديث الكتابة على ظاهره فهو قول بعض ، والصوابُ خلافه ، قال القاضى أبو الفضل عياض : حدّثنا محمد بن على المعروف بابن الصيقل[1] الشاطبى من لفظه ، قال : حدثنى أبو الحسن بن مُفَوز قال : كان أبو محمد بن أحمد بن الحاج الهوّارى من أهل جزيرة شُقْر ممن لازم الباجى وتفقه عنده ، وكان يميل إلى مذهب الباجى فى جواز مباشرة النبى صلى الله عليه وسلم الكتابة بيده فى حديث المقاضاة فى الحديبية على ماجاء فى ظاهر بعض رواياته ، ويعجب به ، وكنت أنكر ذلك عليه ، فلما كان بعد بُرْهَة أتانى زائراً على عادته ، وأعلمنى أن رجلا من إخوانه كان يَرَى فى النوم أنه بالمدينة ، وأنه يدخل المسجد ، فيرى قبر النبى صلى الله عليه وسلم أمامه ، فتحدث[2] له قُشَعْرِيرَة وهيبة عظيمة ، ثم يراه ينشَقُّ ويميد ، ولا يستقر ، فيعتريه

---

(١) فى نسخة عند ا « المعروف بابن الصقيل » محرفا .

(٢) فى ا « فيجد له قشعريرة »

منه فزَع عظيم ، وسألنى عن عبارة رؤياه ، فقلت : أخشى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير صفته ، أو ينحله ماليس له بأصل[1] ، أو لعله يفترى عليه ، فسألنى [بالله] من أين قلت هذا ؟ قلت له : من قول الله عز وجل (تكاد السموات يتفطرن منه ـ إلى قوله تعالى : ولداً) فقال لى : لله درك يا سيدى ! وأقبل يقبل رأسى وبين عينى ، ويبكى مرة ويضحك أخرى ، ثم قال لى : أنا صاحب الرؤيا ، واسمع تمامها يشهد لك بصحة تأويلك ، قال : إنه لما رأيتُنى فى ذلك الفزع العظيم كنت أقول : والله ما هذا إلا أننى أقول وأعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَتَبَ ، فكنت أبكى وأقول : أنا تائب يارسول الله ، وأكرّر ذلك مراراً ، فأرى القبر قد عاد إلى هيأته أوّلا ، وسكن ، فاستيقظت ، ثم قال لى : وأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كتب قط حرفا ، وعليه ألقى الله تعالى ، فقلت : الحمد لله الذى أراك البرهان ، فاشْكُر له كثيراً ، انتهى .

وقال ابن الأبار : حدثنى بهذه الحكاية أبو الربيع ابن سالم بقراءتى عليه ، عن الكاتب أبى بكر عبدالرحمن بن مُغَاور قراءةً عليه ، عن القاضى أبى جعفر[2] أحمد بن عبدالرحمن بن جَحْدر[3] ، عن أبى الحسن طاهر بن مُفَوز قال : كان أبو محمد ـ إلى آخرها ، وهى أتم من هذه ، انتهى .

رجع إلى الباجى ـ ذكر أبو العرب عبد الوهاب البقسانى بسنده إلى القاضى أبى الوليد الباجى أنه كان يقول ، وقد ذكرت له صحبة السلطان : لولا السلطان لنقلتنى الذر من الظل إلى الشمس ، أو ما هذا معناه ، انتهى .

ومن فوائد الباجى أنه حكى أن الطلبة كانوا يتناوَبُون[4] مجلس أبى على

---

(١) فى نسخة « ماليس له بأهل »

(٢) فى ا « القاضى أبى حفص »

(٣) فى أصل ا « بن جحد » بدون راء ، وأثبتنا ما فى ب ونسخة عند ا

(٤) فى ا « ينتابون » ومعناها يترددون عليه ويختلفون إليه

البغدادى ، واتفق أنه كان يوم مَطَر[1] ووَحَل ، فلم يحضر من الطلبة سوى واحد ، فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال و إتيانه فى تلك الحال أنشده :

دَببْتَ للمجْدِ والساعُونَ قد بَلَغُوا حَدَّ النفوسِ وألقَوْا دُونَه الأُزُرَا

وكابدوا المجدَ حتّى مَلَّ أكثرهم وعَانَق المجد من وافى ومَنْ صَبَرَا

لا تحسَبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلُه لَنْ تَبْلغ المجدَ حتى تَلْعقَ الصَّبِرَا[2]

وروى عن القاضى أبى الوليد الباجى رحمه الله تعالى الخطيبُ البغدادى قوله رحمه الله تعالى :

إذا كُنْتُ أعلم عِلْمَ اليقينِ بأنَّ جميعَ حياتى كساعَهْ

فلِمْ لا أكونُ ضَنيناً بها وأجْعَلُها فى صلاحٍ وطاعهْ

وقد ذكرناهما فيما يأتى قريبا من كلام الفتح ، لكوننا نقلنا كلامه بلفظه ، رحمه الله تعالى ، ورضى عنه !.

وقال فى القلائد فى حق الباجى رحمه الله تعالى ، ما صورته : بدرُ العلوم اللائح ، وقَطْرُها الغادى الرائح ، وثبيرها الذى لا يُزْحم ، ومُنيرها الذى ينجلى به ليلها الأسحم ، كان إمام الأندلس الذى تُقْتَبس أنواره ، وتُنْتجَع نجُودُه وأغْوارُه ، رحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهرا ، وقَطفَ من العلم أزاهرا ، وتفنن فى اقتنائه ، وثنى إليه عِنانَ اعتنائه ، حتى غدا مملوء الوِطاب ، وعاد بَلَحُ طلبه إلى الإرطاب ، فَكَرَّ إلى الأندلس بحراً لا تخاض لُجَجُه ، وفجرا لا يُطْمس منهجه ، فتهادته الدول ، وتلقته الخيل والخَوَل ، وانتقل من مَحْجِر إلى ناظر ، وتبدل من من يانع بناضر ، ثم استدعاه المقتدر بالله فصار إليه مرتاحا ، و بَدَا بأفقه[3] مُلْتاحا ، وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعه ، و بدا وخْدُه فى سُبُل الهدى[4] و إيضاعه ، وكان

(١) فى ب ونسخة عندنا « يوما مطر ووحل »

(٢) فى نسخة عندنا « تمرا أنت تأكله »

(٣) فى ا « وبدا فى أفقه » وبدا : ظهر ، وملتاحا : ساطعا مشرقا مضيئا

(٤) في ا والقلائد « فى سبل العلم » والوخد والإيضاع : ضربان من السير السريع.

المقتدر يباهى بانحياشه إلى سلطانه ، و إيثاره لحضرته باستيطانه ، و يحتفل فيما يرتبه [له] ويُجْرِيه ، وينزله فى مكانه متى كان يُوافيه ، وكان له نَظْم يوقفه(١) على ذاته ، ولا يصرفه فى رفث القول و بذاته(٢) .

فمن ذلك قوله فى معنى الزهد :

إذا كنتُ أعلمُ علم اليقين ... بأن جميعَ حياتى كساعَهْ
فلِمْ لا أكون ضنيناً بها ... وأجْعلها فى صلاح وطاعَهْ

وله يرثى أبنيه وماتا مغتربين ، وغربا كوكبين ، وكانا ناظرى الدهر ، وساحرى النَّظْمِ والنثر :

رعى الله قبرَيْنِ استكانا ببلدة ... هما أُسكناها فى السَّواد من القلبِ
لئن غُيِّبَا عن ناظرى وتبوَّآ ... فؤادى لقد زاد التباعدُ فى القرْبِ
يَقرُّ بعَيْـــنى أن أزور ثراهما ... وألْصِق مَكنونَ الترائب بالتُّربِ
وأبْكِى وأبْكِى ساكنيها لعلَّنِي ... سأنجدُ من صَحْب وأسعد من سُحْبِ
فما ساعَدَتْ وُرْقُ الحَمام أخا أسًى ... ولا روَّحَتْ ريحُ الصَّبا عن أخى كرْب
ولا استَعْذبَتْ عيناى بَعْدَهُما كرًى ... ولا ظمئَتْ نفسى إلى البارد العَذْب
أحِنُّ و يثنى اليأسُ نفسى عن الأسى ... كما اضْطُر محمولٌ على المركب الصَّعْب

وله يرثى ابنه محمداً :

أمحمداً ، إن كُنْتُ بعدكَ صابراً ... صَـبْرَ السليمِ لما به لا يسلم
ورُزِئْتُ قبلكَ بالنبىِّ محمدٍ ... ولَرُزْؤه أدْهَى لدىَّ وأعظمُ
فلقد علمت بأننى بك لاحقٌ ... من بعد ظنِّى أننى مُتقدِّمُ
لله ذكرٌ لا يزالُ بخاطرى ... متصرِّفٌ فى صــبره متحكم(٣)

---

(١) فى ب و نسخة عندنا « نظم يوقف . . ولا يصرف » بدون هاء ، و يقرآن بالبناء للمجهول

(٢) بذاته — بفتح الباء — أصله بذاءته ، فسهل الهمزة وحذفها ، وفى أصل ا « بذاذاته »

(٣) فى ا « متصرف فى صبره مستحكم »

فإذا نظرْتُ فشخْصُهُ مُتخَيَّل و إذا أصخْتُ فصوته مُتوَهَّمُ

و بكل أرضٍ لى مِنَ أجلك لوعة و بكل قبر وقفة وتلوُّمُ[١]

فإذا دعوْتُ سواكَ حادَ عن اْسمِه ودعاه باسْمِكَ مُعْول بك مُغْرَمُ

حُكْمُ الردَى ومناهج قد سَنَّهَا لأولى النهَى والحزن قبلُ مُتمِّمُ[٢]

ولعمرى إنه لم يوف القاضى أبا الوليد الباجى حقه الواجب المفترض، ووددت أنه مدّ النفسَ فى ترجمته بعبارة يعترف[٣] ببَراعتها مَنْ سَلَّم له ومن اعترض ، فإن ترجمة المذكور مما سطره أفسحُ مجالا ، وأفصح رويّةً وارتجالا ، وبالجملة فهو أحد الأعلام بالأندلس[٤] ، وهو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التُّجيبى، وذكره ابنُ بَسَّام فى الذخيرة وابن خَلِّكان وغيرُ واحد ، وأصله من بَطَلْيَوْس ، وانتقل جده إلى بَاجَةَ قرب إشبيلية ، وليس هو من باجة القيروان ، ومولده سنة ٤٠٣ ، ورحل سنة ٤٢٦ ، فقدم مصر ، وسمع بها ، وأجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب ، وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب ، ويعقد الوثائق ، إلى أن فشا علمه ، وتهيأت له الدنيا ، وشهرته تغنى عن وصفه .

ومن نظمه قوله :

ما طال عهدى بالديار ، و إنما أنْسَى مَعَاهِدَهَا أسًى وتبلُّدُ

لو كُنْتُ أنبأت الديار صَبَابتى رَقَّ الصَّفا بفنائها والجَلْمَدُ

وله فى المعتضد بن عباد والد المعتمد :

عَبَّادٌ اُسْتعْبَدِ الْبَرَايَا بأنْعُمٍ تَبْلُغُ النعائم

مَديحُهُ ضِمْن كل قلبٍ حتى تغنت به الحمائم

---

(١) التلوم : التمكث والتمهل والتريث والانتظار

(٢) متمم : هو متمم بن نويرة اليربوعى ، الذى أكثر من رثاء أخيه مالك ابن نويرة ، ولعله يشير إلى قول متمم فى إحدى مراثيه ، وهى من مختار أبى تمام فى الحماسة:

فقلت لهم إن الأسى يبعث الأسى دعونى فهذا كله قبر مالك

(٣) فى ا « بعبارته التى يعترف ببراعتها ـ إلخ » (٤) فى ا « أحد أعلام الأندلس »

ومن أشهر نظمه قوله :

* إذا كنت أعلم ـ البيتين ، وقد سبقا *

وممن ذكره أيضا الحِجَارى فى المسْهب ، وابن بَشْكُوَال فى الصِّلة ، وأنه حج أربع حجج ، رحمه الله تعالى ! وتوفى فى المَرِيَّة لإحدى عشرة بقيت من رجب ، وقيل: ليلة الخميس [تاسع رجب ، وقيل][١] : تاسع عشر صفر ، سنة أربع وسبعين وأربعمائه .

ومن تواليفه « المنتقى ، فى شرح الموطأ » ذهب فيه مذهب الاجتهاد و إيراد الحجج ، وهو مما يدل على تبحره فى [العلوم و] الفنون ، ولما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاما وجد ملوك الطوائف أحزابا مفترقة ، فمشى بينهم فى الصلح ، وهم يُجِلّونه فى الظاهر ، و يستثقلونه فى الباطن ، و يستبردون نزعته ، ولم يفد شيئاً ، فالله تعالى يجازيه عن نيته ، ولما ناظر ابنَ حزم قال له الباجى : أنا أعظم منك همة فى طلب العلم، لأنك طلبته وأنت مُعَان [عليه][١] تسهر بمشكاة الذهب وطلبتهُ وأنا أسهر بقنديلٍ بائتَ السوقِ ، فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبتَ العلم وأنت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى ، وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجُ به إلا علوّ القدر العلمى فى الدنيا والآخرة ، فأفحمه .

قال عياض : قال لى أصحابه : كان يخرج إلينا للإقراء ، وفى يده أثر المِطْرَقة ، إلى أن فشاعلمه ونوهت الدنيا به[٢] ، وعظم جاهه ، وأجزِلَتْ صِلاَته[٣] ، حتى مات عن مال وافر ، وكان يستعمله الأعيان فى ترسُّلهم ، و يقبل جوائزهم ، وولى القضاء بمواضع من الأندلس .

---

(١) مابين المعقوفين ساقط من ا

(٢) نوهت به : هذه كناية عن اشتهار أمره وارتفاع ذكره

(٣) الصلات ـ بكسر الصاد ـ جمع صلة ، وهى العطية

ترجمة ابن حزم الظاهرى

وابن حزم المذكور هو أبو محمد بن حزم الظاهرى ، قال ابن حيان وغيره : كان ابنُ حَزْم صاحبَ حديث وفقه وجَدَل ، وله كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة لم يَخْلُ فيهما من غلط ، وكان شافعى المذهب ، يُنَاضل الفقهاء[1] عن مذهبه ثم صار ظاهريا ، فوضع الكتب فى هذا المذهب ، وثبت عليه إلى أن مات ، وكان له تعلق بالأدب ، وشَنَّع عليه الفقهاء ، وطَعَنوا فيه ، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه ، وتوفى بالبادية عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وقال صاعد فى تاريخه : كان ابن حَزْم أجمعَ أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه فى علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار ، أخبرنى ابنه الفضل[2] أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مجلد ، نقله عن تاريخ صاعد الحافظُ الذهبى .

قال الذهبى : وهو العلامة أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب ابن صالح ، الأموى ، مولاهم ، الفارسى الأصل ، الأندلسى ، القرطبى ، الظاهرى ، صاحبُ المصنفات ، وأول سماعه سنة ٣٩٩ ، وكان إليه المنتهى فى الذكاء وحدَّة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنِّحَل والعربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانه والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

قال الغزالى رحمه الله تعالى : وجدتُ فى أسماء الله تعالى كتابا لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسَيَلان ذهنه ، انتهى باختصار .

---

(١) يناضل : أراد يجادل ويكافح

(٢) هو أبو رافع — كما يذكر المؤلف قريبا (ص ٢٨٨) — الفضل بن على بن أحمد ، روى عن أبيه وغيره من العلماء ، وكان أديبا نبيه القدر موفور الذكاء ، وتوفى فى عام ٤٧٩ هـ

وعلى الجملة فهو نَسِيجُ وَحْدِهِ ، لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد ، والوقوع فى السلف الذى أثار عليه الانتقاد ، سامحه الله تعالى ! .

وذكر الذهبى أن عمره اثنتان وسبعون سنة ، وهو لاينافى قول غيره « إنه كان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر » لأنه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقى فى رَبَض[1] مُنْية المغيرة قبل طلوع الشمس و بعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان ، سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، بطالع العقرب ، وتوفى ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦ ، وكان كثيرَ المواظبة على التأليف ، ومن جملة تآليفه كتاب « الفِصَل ، بين أهل الأهواء والنحل » وكتاب « الصادع والرادع ، على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد » وكتاب « شرح حديث الموطأ ، والكلام على مسائله » وكتاب « الجامع ، فى [حد][2] صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها » وكتاب « التلخيص [والتخليص][2] ، فى المسائل النظرية وفروعها التى لانص عليها فى الكتاب والحديث » وكتاب « منتقى الإجماع ، وبيانه من جملة ما لايعرف فيه اختلاف » وكتاب « الإمامة والخلافة ، فى سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها » وكتاب « أخلاق النفس » وكتاب « الإيصال ، إلى فهم كتاب الخصال » وكتاب « كشف الالتباس ، ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس » انتهى .

وقال ابن سعيد فى حق ابن حزم ، ماملخصه : الوزير العالم الحافظ أبو محمد على بن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسى ، وشهرته تُغْنى عن وصفه وتوفى مَنْفِيًّا بقرية من بلده[3] لَبْلَةَ ، ووصله من ابن عمه أبى المغيرة رسالةٌ فيها ما أوجب

---

(١) فى ب « من ربض منية المغيرة » (٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ا

(٣) فى ا « بلدلبلة »

أنْ جاوَ بهِ بهذه الرسالة ، وهى : سمعت وأطعت ، لقوله تعالى : (وَأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ) وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام : « صِلْ مَنْ قَطَعَك، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَك» ورضيت بقول الحكماء : كفاك انتصاراً ممن تعرض لأذاك إعْرَاضُك عنه ، وأقول :

تتبَّعْ سِوَايَ امرأً يبتغى ... سِبابك إنَّ هواك السِّباب
فإنى أبيتُ طِلابَ السفاه ... ونزَّهتُ عِرْضِى عمَّا يُعاب(١)
وقُلْ مابدالك من بعد ذا ... وأكثر فإن سكوتى خطاب

وأقول :

كفانى بذكر الناس لى ومآثرى ... ومالَكَ فيهم يا ابن عمىَ ذاكِرُ
عدوِّى وأشياعى كثير كذاك من ... غدا وهو نفَّاع المساعى وضائر
وإنى وإن آذيتنى وعَقَقْتَنى ... لمحتمل ماجاءنى منك صابر

فوقَّع له أبو المغيرة على ظهر رقعته : قرأت هذه الرقعة العاقَّة ، فحين استوعبتها أنشدتنى :

نحْنحَ زيد وسَعَلْ ... لما رأى وَقعَ الأسل

فأردت قطعها ، وترك المراجعة عنها ، فقالت لى نفسى : قد عرفت مكانها ، بالله لاقطعتها إلا يده ، فأثبت على ظهرها مايكون سبباً إلى صونها ، فقلت :

نَعقْتَ ولم تدر كيف الجوابُ ... وأخطأت حتى أتاك الصواب
وأجْرَيْتَ وَحْدَكَ فى حَلْبة ... نأتْ عنك فيها الجِيادُ العِراب
وبتَّ من الجهل مُسْتَصْحِباً ... لغير قِرًى فأتتك الذئاب(٢)
فكيف تبيَّنْتَ عُقْبى الظلوم ... إذا ماانقضت بالخميس العقاب

(١) فى ا « وصنت محلى عما يعاب »

(٢) فى أصل ا « وبت من الجهل مستنبحا » وفى نسخة عندها «... مستنحيا» وفيها « فأتتك الذباب » محرفا .

لعمرى مالى طباع تُذَمُّ ولا شيمة يوم مجد تُعَابُ(١)

أُنيلُ المنى والظبا سُخَّطٌ وأعطى الرضا والعوالى غضاب(٢)

وأقول :

وغاصبِ حق أو بقته المقادر يذكرنى حاميم والرمح شاجر(٣)

غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر

ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى برغمك ناه منذ عشر وآمر

تذلُّ لى الأملاك حُرَّ نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر

وأبعث فى أهل الزمان شواردا تُلينهمُ وهى الصعاب النوافر

فإن أثوِ فى أرض فإنى سائر وإن أنا عن قوم فإنى حاضر

وحسبك أن الأرض عندك خاتم وأنك فى سطح السلامة عاثر

ولا لوم عندى فى استراحتك التى تنفست عنها والخطوب فواقر

فإنىَ للحلف الذى مر حافظ وللنزعة الأولى بحاميم ذاكر

هنيئاً لكلٍّ ما لديه فإننا عطية من تُبلَى لديه السرائر

ومن شعر أبى محمد بن حزم يخاطب قاضى الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكنَّ عَيْبى أن مَطْلَعِىَ الغربُ

ولو أننى من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرىَ النهبُ

ولى نحو آفاق العراق صبابة ولا غرو أن يَسْتَوْحش الكلِفُ الصب

فإن ينزل الرحمن رحلىَ بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب

فكم قائل أغفلتُهُ وهو حاضر وأطلب ما عنه تجىء به الكتب

هنالك يدرى أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب

---

(١) فى ا « لعمرك مالى طباع تدم » (٢) فى ا « أنيل المنى والظبا سخطة »

(٣) عجز هذا البيت من قول شريح بن أوفى العبسى ، ويقال : الأشتر النخعى ، فى مقتل محمد بن طلحة بن عبيد الله :

يذكرنى حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

فيا عَجَباً مَنْ غاب عنهُمْ تَشَوَّقُوا ... له ، ودُنُوُّ المرءِ من دارهم ذنب

وإنَّ مكاناً ضاق عنِّى لَضَيِّقٌ ... على أنه فِيحٌ مَهَامِهُهُ سُهْبُ(١)

وإنَّ رجالاً ضَيَّعُونى لَضُيَّعٌ ... وإن زماناً لم أَنَلْ خِصْبَهُ جَدْبُ

ومنها فى الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكنَّ لى فى يوسفٍ خيرَأُسوةٍ ... وليس على مَنْ بالنبىِّ ائتسى ذنب(٢)

يقولُ مقالَ الصِّدْقِ والحقِّ إننى ... حفيظٌ عليمٌ ، ماعلى صادقٍ عتبُ

وقوله :

لايشمتنْ حاسدى إن نكبة عرضَتْ ... فالدهر ليس على حال بمُتَّرِكِ

ذو الفضل كالتبرِ يُلقى تحت متربة ... طورًا، وطورًا يُرى تاجا على ملك

وقوله لما أحرق المعتضد بن عباد كتبه بإشبيلية :

دَعُونىَ من إحْراقِ رَقٍّ وكاغدٍ ... وقولوا بعلم كى يرى الناس مَنْ يدرى

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى ... تضمنه القرطاس، بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلّت ركائبى ... وينزلُ إن أنزل ويُدفنُ فى قبرى

وقوله :

لئن أصبحتُ مرتحلاً بشخصى ... فقلبى عندكم أبدا مقيم

ولكن للعيان لطيفُ معنًى ... لذا سأل المعاينةَ الكَليمُ

وقوله :

وذى عَذَلٍ فيمن سبانى حُسْنُه ... يطيلُ ملامى فى الهوى ويقولُ

أمن أجل وجهٍ لاحَ لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسمُ أنت عليل(٣)

فقلت له أسرفت فى اللوم فاتئِدْ ... فعندى رَدٌّ لو أشاء طويل

---

(١) فيح : جمع فيحاء ، وأراد الواسعة ، والمهامه : جمع مهمه ، وهى الصحراء ، ووقع فى ب « فسح مهامهه سهب » محرفا ، وأثبتنا مافي ا

(٢) ائتسى : اقتدى وتأسى (٣) فى ا « أمن حسن وجه »

ألم تر أنى ظاهـــرى ، وأننى على ما أرى حتى يقوم دليـــل

وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد بن حَزْم بن غالب بن مزْيَد ، القرطبى .

قال ابنه أبو رافع الفضل : اجتمع عندى بخط أبى من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة ، انتهى .

وأبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور بن أبى عامر ، وتوفى ــ كما قال ابن حيان ــ بذى القعدة سنة اثنتين وأربعمائة ، وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية .

وحكى أن الحافظ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامر بن شُهَيد فى يوم غزير المطر والوَحَل شديد الريح ، فلقيه أبو عامر ، وأعظم قصده على تلك الحال ، وقال له : ياسيدى ، مثلك يقصدنى فى مثل هذا اليوم ، فأنشده أبو محمد بن حزم بَديهاً :

فلو كانت الدنيا دُوَيْنَكَ لجة وفى الجوِّ صَعْق دائم وحريق

لسهل وُدِّى فيك نحوكَ مسلكا ولم يتعذر لى إليـــك طريق

قال الحافظ ابن حزم : أنشدنى الوزير أبى فى بعض وصاياه لى :

إذا شئت أن تَحْيَا سعيدا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها[1]

وهذا كاف فى فضل الفرع والأصل ، رحم الله الجميع[2] .

قال ابن حزم فى «طَوْق الحمامة» : إنه مر يوما هو وأبو عمر[3] بن عبد البر صاحب «الاستيعاب» بسكة الحطابين من مدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه ، فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم نَرَ إلا الوجـه ، فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالا * وذى عذل فيمن سبانى حسنه * الأبيات المتقدمة .

---

(١) فى ا « إذا شئت أن تحيا غنيا ــ إلخ » (٢) فى ا «سامح الله الجميع»

(٣) فى ا « وأبو يوسف بن عبد البر » مع اتفاق النسخ كلها على « فقال أبو عمر » فيما يلى بعد سطر واحد

ولابن حزم أيضاً قوله :

لا تَلمْــنِي لأن سَبْقَةَ لحْظٍ فَاتَ إدراكَهَا ذَوِى الألبابِ (١)
يَسْبِقُ الكلبُ وثبةَ الليثِ فى العَدْوِ وَيَعْلو النُّخَالُ فوق اللُّبَابِ

ولأبى بكر بن مُفَوِّز جزء يردُّ فيه على أبى محمد بن حزم ، وفيه قال معرضاً :

يا مَنْ تُعَانِى أموراً لَنْ تُعَانيها خَلِّ التعانى وأعْطِ القوس بَارِيهَا
تَرْوِى الأحاديثَ عن كلّ مُسامَحَةً وإنما لِمُعَانيها مَعَــانِيهَا

وقيل : إنه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم .

عود إلى ذكر القاضى أبى الوليد الباجى

رجع إلى القاضى أبى الوليد الباجى – ومن نظمه قوله من مرثية :

أحِنّ ويَثْنِى اليأسُ نفسِى عَلَى الأسى كما اضْطرَّ محمُولٌ عَلَى المرْكبِ الصَّعْب

ومن جيد نظمه قوله :

أسرّوا على الليل البهيم سُراهمُ فنمّتْ عَلَيْهِمْ فى الشَّمالِ شَمائِلُ (٢)
مَتَى نزَلُوا ثاوِينَ بالخيْفِ من مِنًى بَدَتْ للهوَى بالمأزِمَيْنِ مَخَايِلُ
فللهِ ما ضمّتْ مِــنًى وشِعَابُهَا وَمَا ضُمِّنتْ تلك الرُّبَا والمنَازِلُ
وَلَمَّا التقَيْنَا للجِمَارِ وأبرزت أكُفٌّ لتقبيل الحَصَى وأناملُ
أشَارَتْ إلَيْنَا بالغرَامِ محَاجِرٌ وَبَاحَتْ به منّا جُسُوم نَوَاحِلُ

وقال الباجى أبو الوليد رحمه الله تعالى :

مَضَى زَمَنُ المـكَارِمِ والكِرَامِ سَقَاه اللهُ مِنْ صَوْب الغمَامِ
وَكَانَ البِرُّ فِعْــلاً دُونَ قولٍ فَصَار البِرُّ نُطْقاً بالكَلَامِ

وذيله بعضهم بقوله :

وَزَالَ النُّطْقُ حَتَّى لَسْتَ تَلْقَى فَتًى يَسْخُو برد للسَّــلَامِ

---

(١) فى ا « فات إدراكه » باستفادة المضاف التذكير من المضاف إليه
(٢) فى ا « فنمت عليه »

وَزَادَ الأَمْرُ حَتَّى لَيْسَ إلا سَخِىٌّ بالأذَى أوْ بالمَلاَمِ

ترجمة أبى بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى

ومنهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب الفِهْرِى الطرطوشى صاحب «سراج الملوك» ، ويعرف بابن أبى رَنْدَقة – بالراء المهملة المفتوحة ، وسكون النون – وكفى بسراج الملوك دليلا على فضله .

ذكره ابن بَشْكُوال فى الصلة ، وتوفى بالإسكندرية فى شعبان ، وقيل : جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة[1] ، وزرت قبره بالإسكندرية ، وممن أخذ عنه الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى وغيره .

ومن نظم الطرطوشى قوله من رسالة :

أقَلِّبُ طَرْفى فى السَّماءِ تَرَدُّدًا لَعلِّى أرى النَّجْمَ الذى أنْتَ تَنْظُرُ

وأستعرِضُ الرُّكْبَانَ من كل وجْهَةٍ لَعلِّى بمن قَدْ شمَّ عَرْفَكَ أظْفَرُ

وأستقبل الأرْواحَ عند هُبُوبها لَعَلَّ نسيمَ الريح عنك يُخَبِّرُ[2]

وأمْشِى وَمَالِى فى الطَّرِيق مَآرِبٌ عَسَى نَغْمةٌ باسْمِ الحبيبِ سَتُذْكرُ

وألمح من ألقاه من غير حاجة عَسَى لمحة من نور وَجْهِك تُسْفِرُ

ومن نظمه أيضاً قوله :

يقولون ثَكْلَى ومَنْ لم يَذُقْ فِراقَ الأحبّةِ لم يَثْكلِ

لقد جرَّعَتْنِى لَيالِى الفِرَاقِ كؤساً أمرَّ من الحَنْظَلِ

ومما يُنْسَبُ إليه [وكان كثيراً ما ينشده][3] :

إذا كنت فى حاجة مُرْسِلاً وأنت بإنجازها مُغْرَمُ

فأرْسِلْ بأكمه جَلاَّبة به صَمَمٌ أغْطَشُ أبْكَمُ

وَدَعْ عَنْكَ كُلَّ رَسُولٍ سِوَى رَسُولٍ يقال لَهُ الدرهَمُ

---

(١) فى نسخة عند ا « سنة ٥٤٠ »

(٢) فى أصل ا « الأرياح » والذى أثبتناه عن ب ونسخة عند ا

(٣) هذه الزيادة لاتوجد فى أصل ا ، ولعلها مذكورة هنا انتقالا مما سيذكر بعد

وكان كثيراً ما ينشد :

إن لله عباداً فُطَنَا   طَلَّقوا الدُّنيا وخَافُوا الفِتنَا
فَكَّروا فيها فلما علموا   أنها لَيْسَتْ لحيٍّ وَطَنَا
جَعَلوها لجنةً واتّخذوا   صالح الأعمال فيها سُفُنَا

وقال رحمه الله تعالى : كنت ليلة نائماً بالبيت المقدس إذ سمعت فى الليل صوتا حزيناً ينشد :

أخَوْفٌ ونَوْمٌ ، إن ذا لعجِيبُ   ثكِلتُكَ من قَلْبٍ فأنتَ كذوبُ
أما وجَلَالِ الله لو كُنْتَ صادقاً   لما كان للإغماض فيكَ نَصِيبُ

قال : فأيقظ النوّام ، وأبكى العيون .

وكان رحمه الله تعالى زاهداً ، [عابداً] ، متورعاً ، متقللا من الدنيا ، قوّالا للحق .

وكان يقول : إذا عرض لك [أمران][1] أمرُ دنيا وأخرى ، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى ، وله طريقة فى الخلاف .

ودخل مرة على الأفضل بن أمير الجيوش فوعظه ، وقال له : إن الأمر الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموتِ من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله عز وجل سائلك عن النقير والقِطْمير والفَتِيل ، واعلم أن الله عز وجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحوش[2] والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عز من قائل : (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) فما عَدَّ ذلك

---

(١) هذه الكلمة لاتوجد فى غير أصل ا

(٢) فى أصل ا « والوحش »

ذلك نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل ، فقال : (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم .

وكان إلى جانب الأفضل رجل نصرانى فأنشده :

ياذا الذى طاعتُه قُرْبَةٌ وحَقه مفترَضٌ واجبُ
إن الذى شَرُفْتَ مِنْ أجله يَزْعُم هذا أنه كاذبُ

وأشار إلى النصرانى ، فأقامه الأفضل من مكانه .

والطرطوشى ـ بضم الطاءين ـ نسبة إلى طُرْطُوشة من بلاد الأندلس (١) ، وقد تفتح الطاء الأولى .

وعبر عنه [ابن] الحاجب فى مختصره الفقهى فى باب العتق بالأستاذ .

وكان رحمه الله تعالى صحب القاضى أبا الوليد الباجى رحمه الله تعالى بسرَقسْطة ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه ، وأجازه ، وقرأ الفرائض (٢) والحساب بوطنه ، وقرأ الأدب على أبى محمد بن حَزْم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة ، ودخل بغداد والبصرة فتفقه [هناك] عند أبى بكر الشاشى وأبى محمد الجرجانى ، وسمع بالبصرة من أبى على التُّسْتَرى ، وسكن الشام مدّة ، ودرس بها ، وكان راضياً باليسير .

وقال الصفدى فى ترجمة الطرطوشى : إن الأفضل بن أمير الجيوش أنزله فى مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد ، وكان يكرهه ، فلما طال مُقامه به ضجر ، وقال لخادمه : [إلى] متى نصبر ؟ اجمع لى المباح ، فجمعه ، وأكله ثلاثة أيام ، فلما

(١) طرطوشة : مدينة بينها وبين بلنسية مائة ميل ، وتقع على سفح جبل ، ولها سور حصين ، وبها أسواق وعمارات وضياع وإنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها ، وبجبالها خشب الصنوبر الذى لايوجد له نظير فى الطول والغلظ ، ومنه تتخذ صوارى السفن ، قاله صاحب الروض

(٢) فى ب « وقرأ الفرائض عليه والحساب بوطنه »

كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : رميته الساعة ، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقُتِلَ ، وولى بعده المأمون بن البطائحى فأكرم الشيخ إكراماً كثيراً ، وله ألف الشيخ « سراج الملوك » انتهى .

ومقامه ـ أعنى الطرطوشى ـ مشهور ، وهذه الحكاية تكفى فى ولايته .

ومن تآليفه مختصر تفسير الثعالبى ، والكتاب الكبير فى مسائل الخلاف ، وكتاب فى تحريم جبن الروم ، وكتاب « بدع الأمور ومحدثاتها » وكتاب « شرح رسالة الشيخ ابن أبى زيد » .

وولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريباً ، ولما توفى صلى عليه ولده محمد ، ودفن رحمه الله تعالى قبل الباب الأخضر باسكندرية ، وزرت قبره مراراً ، رحمه الله تعالى ، ورضى عنه ، ونفعنا به !

وكان القاضى عياض ممن استجازه فأجازه ولم يلقه ، وشهرته رضى الله تعالى عنه تغنى عن الإطناب [فيه] .

وحكى أنه كتب على « سراج الملوك » الذى أهداه لولى الأمر بمصر :

النَّاسُ يُهْدُونَ على قَدْرِهِمْ ... لكننى أُهْدِى على قَدْرِى
يُهْدُونَ ما يَفْنَى وأهدى الذى ... يَبْقَى على الأيام والدَّهْرِ

وحكى أنه [لما] سمع رضى الله تعالى عنه منشداً ينشد للوأواء [الدمشقى] :

قَمَرٌ أَتَى من غير وَعْدِ ... فى لَيْلَةٍ طَرَقَتْ بسَعْدِ
بات الصَّبَاح إلى الصبا ... ح مُعَانقى خَدًّا بخَدِّ
يَمْتَارُ فِىَّ وناظِرِى ... ما شئت من خَمْرٍ وشَهْدِ [(١)]

فقال : أو يظن هذا الدمشقى أن أحداً لا يحسن ينظم الكذب غيره ؟ لو شئنا لكذبنا مثل هذا ، ثم أنشد لنفسه يعارضه [(٢)] :

قمر أتى من غير وعد ... حُفَّتْ شمائلُه بسَعْدِ [(٣)]

---

(١) فى ا « من خمر وورد » ويمتار : يحصل الميرة ، وهى الطعام ، مجاز

(٢) فى ا « ثم أنشد لنفسه معارضة » (٣) فى ا « قمر بدا من غير وعد »

قبلتُهُ ورَشَفْتُ ما في فِيهِ من خمر وشَهْدِ
فَمزَجْتُ مُزْنَ السلسبيـــلِ بزَنجبيلٍ مُسْتَعَدِّ(١)
ولثمت فاه مِنَ الغُرُو بِ إلى الصَّبَاحِ المُسْتجِدِّ
وسَكِرْتُ من رَشْفِ العَقِيـــقِ على أقاحٍ تحت رَنْدِ(٢)
فنزَعْتُ عن فمِهِ فمِي ووَضَعْتُ خدا فوق خَدِّ
وشَمِمْتُ عَرْفَ نسيمه الـــجارى عَلَى مِسْك وندّ
وصحَوْتُ من رَبَّا القَرَنْـــفُلِ بين رَيْحانٍ ووَرْدِ
وألذ من وَصْلِي به شكواه وَجْداً مثل وَجْدِي

ومن نظم الطرطوشى قوله أيضاً :

كأن لِسانِيَ والمُشْكِلاَتِ سَنَى الصُّبْح يَنْحَرُ لَيْلاً بَهِيماً(٣)
وغيرىَ إن رام ما رُمْتُهُ خَصِيٌّ يحاول فَرْجًا عقيما

وقوله أيضا :

أُعْمَلْ لمعادك يا رَجُلُ فالنَّاسُ لدُنياهُمْ عَمِـــلُوا
واذخر لمسيرك زادَ تُقًى فالْقَوْمُ بلا زادٍ رَحَـــلُوا(٤)

محمد بن عبد الجبار الطرطوشى

ومنهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشى(٥) ـ وفد إلى المشرق ، وذكره العماد فى « الخريدة » وله فى الآمدى العلى(٦) بمصر ، وكان يخضب بسواد الرمّان قوله :

أُخلِطْ العَفْصَ فيـه يا أحْوَجَ النَّا سِ إلى العَفْصِ حين يُعْكَسُ عَفْصُ

ترجمة أبى على الصيرفى القاضى

ومنهم القاضى الشهير الشهيد أبو على الصيرفى ، وهو حسين بن محمد بن فِيُّره بن حَيُّون ، ويعرف بابن شُكَّرة ، وهو من أهل سَرَقُسْطة ، سكن مُرْسِية ، وروى بسَرَقُسْطه عن الباجى وأبى محمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل وغيرهما ، وسمع

---

(١) فى ا « فرشفت مزن السلسبيل » (٢) فى أصل ا « من رشفى العتيق »
(٣) فى أصل ا « ينجر ليلا بهيما » بالجيم (٤) فى أصل ا « وادخر لمسيرك من زاد »
(٥) في نسخة عند ا « الطرسوسى » وفى نسخة « محمود بن عبد الجبار الطرسوسى »
(٦) فى ب ونسخة عند ا « الأمد العجلى »

بِبَلَنْسِيَةَ من أبى العباس العذرى ، وسمع بالمَرِيَّةِ من أبى عبد الله محمد بن سعدون القروى وأبى عبد الله بن المرابط وغيرهما ، ورحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وحج من عامه ، ولقى بمكة أبا عبد الله الحسن بن على الطبرى وأبا بكر الطرطوشى وغيرهما ، ثم سار إلى البصرة فلقى بها أبا يعلى[١] المالكى وأبا العباس الجرجانى وأبا القاسم بن شعبة وغيرهم ، وخرج إلى بغداد فسمع بواسط من أبى المعالى محمد بن عبد السلام الأصبهانى وغيره ، ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، فأطال الإقامة بها خمس سنين كاملة ، وسمع بها من أبى الفضل بن خَيْرُون[٢] مُسْنِدِ بغداد ، ومن أبى الحسين المبارك ابن عبد الجبار الصيرفى ، وطراد الزينبى ، والحميدى ، وغيرهم ، وتفقه عند أبى بكر الشاشى وغيره ، ثم رحل منها سنة سبع وثمانين ، فسمع بدمشق من أبى الفتح نصر المقدسى وأبى الفرج الإسفراينى وغيرهما ، وسمع بمصر من القاضى أبى الحسن الخِلَعى وأبى العباس أحمد ابن إبراهيم الرازى ، وأجاز له الحبال مُسْنِدِ مصر فى وقته ومكثرها ، وسمع بالإسكندرية من أبى القاسم الوراق وشعيب بن سعيد وغيرهما ، ووصل إلى الأندلس فى صفر من سنة سبعين وأربعمائة[٣] ، وقصد مُرْسِية ، فاستوطنها ، وقعد يُحَدِّث الناس بجامعها ، ورحل الناس من البلدان إليه ، وكثر سماعهم عليه ، وكان عالما بالحديث وطرقه ، عارفا بعلله ، وأسماء رجاله ونَقَلَته ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، وكتب بخطه علما كثيرا ، وقيَّده ، وكان حافظا لمصنفات الحديث ، قائما عليها ، ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورُوَاتها[٤] ، وكتب منها صحيح البخارى فى سِفْر ، وصحيح مسلم فى سِفْر ، وكان قائما على الكتابين مع مُصَنَّف أبى عيسى

---

(١) فى ا « ثم صار » وفى نسخة عند ا « أبا على المالكى »

(٢) فى نسخة عند ا « ابن حيزون »

(٣) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « سنة ٤٩٠ »

(٤) فى نسخة عند ا « وروايتها »

الترمذى ، وكان فاضلا ، دَيِّنًا ، متواضعا ، حلوما ، وقورا ، عالما ، عاملا ، واستُقضى بمُرْسِية ، ثم استعفى فأعفى ، وأقبل على نَشْر العلم و بَثِّه .

وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه لدخوله الشام ، قال : و بعد أن استقرت به النوى ، واستمرت إفادته بما قيد ورَوَى ، رفعته ملوك أوانه ، وشَفَّعَتْه فى مطالب إخوانه ، فأوسعته رعيا ، وأحسنت فيه رأيا ، ومن أبنائهم من جعل يقصده ، لسماع يُسْنده ، وعلى وقاره الذى كان به يعرف ، نَدَر له مع بعضهم ما يستطرف[1] ، وهو أن فَتًى يسمى يوسف لازم مجلسه ، معطرا رائحته ومنظفا مَلْبَسه ، ثم غاب لمرض قطعه ، أو شغل منعه ، ولما فرغ أو أبلّ ، عاود ذلك النادى المبارك والمحل ، وقبل إفضائه إليه ، دلّ طيبُه عليه ، فقال الشيخ على سلامته من المجون ، وخَلاَصه[2] من الفتون (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدُون) وهى من طُرَف نوادره[3] ، رحمة الله عليه .

ولما قُلِّد قضاء مُرْسِية وعزم عليه صاحب الأمر فيه فر إلى المَرِية فأقام بها سنة خمس و بعض سنة ست وخمسمائة ، وفى سنة ست قَبِلَ قضاءها على كره إلى أن استخفى آخر سنة سبع فى قصة يطول إيرادها ، ولطول مقامه[4] بالمرية أخذ الناس عنه بها ، فلما كانت وقعة كُتَنْدَة كان ممن حضرها فَفُقِدَ فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة ، رحمه الله تعالى! .

وقال القاضى عياض : ولقد حدثنى الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر أنه قال له : خذ الصحيح ، واذكر أى متن شئت منه أذكر لك سنده ، أو أى سند شئت أذكر لك متنه ، انتهى .

---

(١) فى ا « مايستظرف » وفى نسخة عندها « على مايستطرف »

(٢) فى ا « وسلامته من الفتون » مكررا كلمة «سلامته» مع الفاصلة قبله

(٣) فى ا « ظرف نوادره »

(٤) فى ا « وبطول مقامه »

وذكر غير واحد أنه حدث ببغداد بحديث واحد ، والله أعلم [وهو من أبناء الستين](١) .

ابن أبى روح الجزيرى

ومنهم ابن أبى روح الجزيرى — ومن شعره لما تغرب بالمشرق [قوله] :

أحِنّ إلى الخضراء فى كلّ موْطِنٍ حَنِينَ مَشُوقٍ للعناق وللضّمِّ
وما ذاك إلا أن جِسْمِي رضيعُهَا ولا بُدَّ من شوقِ الرضيع إلى الأمِّ

ترجمة أبى حفص عمر ابن حسن الهوزنى

ومنهم العالم أبو حَفْصٍ عمر بن حسن الهوزنى ، الحسيب العالم المحدّث — [ذكره ابن بسام فى «الذخيرة» والحِجَارى فى «المسهب»] وسبب رحلته للمشرق أنه لما تولى المعتضد بن عبّاد خاف منه ، فاستأذنه فى الحج سنة ٤٤٤ ، ورحل إلى مصر ، ثم إلى مكة ، وسمع [فى طريقه كتاب] صحيح البخارى ، وعنه أخذه أهلُ الأندلس ، ورجع ، وسكن إشبيلية وخدم المعتضد ، فقتله [ومن من شىء سلط عليه ، وكان قتله يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول] سنة ستين وأربعمائة .

ومن شعره يُحرّضه على الجهاد :

أعَبَّاد جَلَّ الرزْء والقومُ هُجَّعُ على حالة من مِثْلها يُتَوَقّعُ
فَلَقِّ كتابى من فَرَاغكَ ساعة وإن طال فالموصُوف للطول موْضِعُ
إذا لم أُبُثَّ الداء رَبَّ شِكاية أضَعْتُ ، وَأهْلٌ للمَلاَمِ المضَيِّعُ

[ووصله بنثر ، وهو :] وما أخطأ السبيل مَنْ أتى البيوت من أبوابها ، ولا أرجأ الدليل من ناط الأمور بأربابها ، ولرب أمل بين أثناء المحاذير مُدْمج ، ومحبوب فى طى المكاره مُدْرَج ، فانتهز فرصتها فقد باز [لك] من غيرك العجز ، وطَبِّق مضاربها(٢) فقد أمكنك الحزّ ، ولا غرو أن يُسْتَمْطر الغمام فى الجدْب ، ويستصحب الحُسَام فى الحرب .

وله (٣) :

صرح الشر فلا يستقلُّ إن نَهَلْتُمْ جاءكم بعدُ عَلُّ
بدء صَعْقِ الأرض رَشٌّ وطَلٌّ ورياحٌ ثم غَيْمٌ أَبَلُّ
خفِّضُوا فالداءُ رُزْء أجَلّ واغمدوا سَيْفاً عليكم يُسَلّ

(١) هذه الجملة لا توجد في أصل ا (٢) فى ا «وطبق مفاصلها فكأن قد أمكنك الحز»
(٣) أثبتنا هذه الأبيات كما فى ا ، وهى توازن بحر المديد

وابنه أبو القاسم هو الذى كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل المعتضد والدَهُ كما مرّ(١) !.

ترجمة أبى عمر عثمان ابن الحسين

ومنهم أبو عمرو عثمان بن الحسين ، أخو الحافظ أبى الخطاب بن دِحْيَة الآتى [ذكره] كان أسنّ من أخيه أبى الخطاب ، وكان حافظا للغة العرب ، قيما بها ، وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التى أنشأها بين القصرين ورتب مكانه أخاه أبا عمرو المذكور ، ولم يزل بها إلى أن توفى سنة ٦٣٤ ، بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم كأخيه ، وكان موت أبى عمرو بعد أبى الخطاب بسنة ، رحمهما الله تعالى ! .

ترجمة أبى بكر محمد بن القاسم اشكنهادة الحجارى

ومنهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم ـ من أهل وادى الحِجَارة ، ويعرف باشكنهادة ، وارتحل إلى المشرق لما نَبَتْ به حضرة قرطبة عند تقلب دُوَلها ، وتحول ملوكها وخَوَلها ، فجال فى العراق ، وقاسى ألم الفراق ، واجتاز بحَلَب ، وأقام بها مقام غريب لم يَصْفُ له حَلَب ، وقال :

أين أقْصَى الغَرْب من أرض حَلَب ... أمَلٌ فى الغَرْب مَوصُول التَّعَبْ
حنّ من شَوْقٍ إلى أوطانه ... مَنْ جَفاه صَبْرُه لما اغْتَرَبْ(٢)
جال فى الأرض لجاجا حائراً ... بين شَوْقٍ وعَناَء ونَصَبْ
كلّ مَنْ يلقاه لايَعْرِفُه ... مُسْتغيثا بين عُجْمٍ وَعَرَبْ
لهفَ نَفسِى أين هاتيك العُلاَ ... وا ضَيَاعاه ويا غَبْنَ الحسَبْ
والذى قدْ كان ذُخْراً وبه ... أرْتَجى المالَ وَإدْراكَ الرتَبْ
صار لى أبْخَسُ ما أعْدَدْته ... بين قومٍ ما دَرَوْا طَعْمَ الأدَبْ(٣)

(١) وضع بين قوسين فى ا مكان هذا الكلام ، مايلي « وبسبب قتل بنى عباد لأبى حفص الهوزنى المذكور تسبب ابنه أبو القاسم فى فساد دولة المعتمد بن عباد ، وحرض عليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب حتى أزال ملكه ، ونثر سلكه ، وسبب هلكه ، كما ذكرناه فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب غير مرة ، فليراجعه من اراده فى محاله . وبيت بنى الهوزنى بالأندلس بيت كبير مشهور ، ومنهم عدة علماء وكبراء ، رحم الله الجميع » (٢) فى أصل ا « مذ جفاه صبره »
(٣) فى أصل ا « صار لى أنجس ما أعددته »

يا أحبَّاىَ اسْمَعُوا بعْضَ الذِى يتلقَّاهُ الطَّرِيد المُغْـــترِبْ
وليَكنْ زَجْراً لـكم عن غُرْبَةٍ يَرْجِعُ الرأسُ لديها كالذنب
واحْمِـلوا طَعْناً وضَرْباً دائماً فهوَعِنْدِى بَيْنَ قَوْمِى كالضَّرَبْ
ولئن قاسَيْتُ ما قاسَيْتُه فَمَا أبْصَرَ لحظى من عَجَبْ
ولقـــد أخبركم أن ألتقى بكم حتى تقولوا قـــد كَذَبْ

واجتاز بدمشق فقال من أبيات رحمه الله تعالى :

دمَشْقُ جَنَّـــةُ الدنيا حقيقاً ولـكن ليس تَصْلُحُ للغَرِيبِ
بهـا قومٌ لهم عَـدَدٌ ومَجْـد وصُحْبَتُهُم تؤلُ إلى حُرُوبِ

ثم إنه ودع الشرق بلا سَلام ، وحَل بحضرة دَانِيَةَ لدى ملـكها مجاهد العامرى فى بُحْبُوحة عزٍّ لا يخشى فيه الملام ، واستقبل الأندلس بخاطر جديد ، ونال بها بعدُ من بلوغ الآمال ما ليس له عليه مزيد ، وقال :

وكم قد لقيتُ الجَهْدَ قبل مجاهد وكم أبْصَرَتْ عينى وكم سَمِعَتْ أُذْنى
ولاقيت من هرى وصَرْف خطو به كما جَرَتِ النكباء فى معطف الغصن
فلا تسألونى عن فراق جهــنم ولـكن سلونى عن دخولى إلى عَدْن

وله من كتاب : وحامل كتابى ــ سلمه الله تعالى وأعانه ! ــ ممن أخنى عليه الزمان ، وأدار عليه وما صحا إلى الآن كؤسَ الهوان ، وقد قصدَ على بعدٍ جنابكَ الرحيب الخصيب ، قَصْدَ الحسن محلّ الخصيب[1] ويمم جناب ابن طاهر حبيب[2] ، وإنى لأرجو أن يرجع منك رجوع نصيب عن سليمان[3] ، ويستعين فى شكرك بكل لسان ، وأنت عليم بأن الثناء هو الخلف ، وقد قال الأول :

أرى الناس أحْدُوثة فكونى حديثاً حسَنْ

---

(١) الحسن : أراد به أبا نواس الحسن بن هانى ، والخصيب : ممدوحه ، وكان والى مصر من قبل الرشيد الخليفة العباسى (٢) ابن طاهر : هو عبد الله بن طاهر بن الحسين والى خراسان ، وحبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى (٣) سليمان : هو ابن عبد الملك المروانى ، ونصيب : شاعر أموى مشهور كان كثير المدح لسليمان هذا .

وأنا القائل :

فلا تزهدن فى الخير قدمات حاتم وأخباره حتى القيامة تُذكَرُ

ومع هذا فهو عليه بقدر مايحتمل من التكليف هذا الأوان ، عارف وجوه الأعذار غير ذى عَجَل فى العتب قبل البيان ، وعند سيدى من التهدى للايفاء ، مايحقق فيه جميل الرجاء[١] ، دامت أرجاؤه مؤملة ، ولا برحت نعمه سابغة مكملة .

ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد ربه المالقى

ومنهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالَقِى — وقال بعضهم : إنه من الجزيرة الخضراء ، له رحلة إلى الديار المصرية ، صنع فيها مَقامة يقول فيها :

وفى جَنَبات الروض نهر ودوحة يروقك منها سندس ونضار
تقول وضوء البدر فيه مغربا ذراع فتاة دار فيه سوار

ومن شعره :

ما كلُّ إنسان أخٌ منصف ولا الليالى أبداً تسعف
فلا تضع إن أمكنت فرصَةً واصحب من الإخوان من ينصف
وانتف من الدهر ولو ريشَةً فإنما حظك ما تَنْتِفُ

وقوله يرثى السيد أباعمران[٢] ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن على ملك المغرب والأندلس :

بجيد المعالى أىُّ عقدٍ تبدَّدَا وصدر العوالى أى رمح تَقَصَّدَا
ولما دهت خيلُ الشقىِّ فجاءةً وسال العدا بحرا من الموت مزْبِدَا
شهدت بوجه كالغزالة مشرقاً وإن كان وجه الشمس بالنَّقْع مر بدا[٣]
عزائم صدقٍ ليس تصرف هكذا إلى الموت تسعى أو على الموت يُعْتَدَى

وكان السيد أبو عمران المرثى قتله المَيُورقى صاحب فتنة إفريقية فى الهزيمة المشهورة

---

(١) فى ا « من التهدى للايصاء ، مايحقق فيه جميع الرجاء »
(٢) فى ب «أباعمر»
(٣) الغزالة : الشمس ، ووقع فى نسخة «بالنقع مز بدا »

على تاهَرْت[١] ، وجمع ابن عبد ربه المذكور شعر السيد أبى الربيع بن عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، وكان ابن عبد ربه المذكور كاتباً للسيد أبى الربيع سليمان المذكور ، ولما أنشد لبعض الشعراء :

حاكَتْ يمينُ الرِّياح محكمة ... فى نَهَرٍ واضـح الأسارير

فكلماضـعفت به حلقاً ... قام لها القَطْـرُ بالمسامير

أنشد لنفسه :

بين الرياض و بين الجو معترك ... بيض من البرق أو سمر من السمر

إن أوتَرَتْ قَوْسَها كف السماء رمت ... نبلا من الماء فى زَغْفٍ من الغُدُرِ

لأجـل ذاك إذا هبت طلائعها ... تدرع النهر واهتزت قنا الشجر

واجتمع ابن عبد ربه المذكور فى رحلته بالسعيد بن سناء الملك ، وأخذ عنه شيئاً من شعره ، ورواه بالمغرب .

ترجمة أبى محمد عبد المنعم بن عمر المالقى

ومنهم الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان ، المالَقِيُّ .

ومن نظمه فى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة رحمه الله تعالى :

وفى صَهَوَاتِ المُقْرَبَاتِ وفى القَنَا ... حُصُونُ حِمًى لافى هِضَابِ المَعَاقِلِ[٢]

ومنها :

ولا ملك يأتى كيُوسُفَ آخراً ... كما لم يَجِيء مِثْلٌ له فى الأوائل

ترجمة أبى الخطاب عمر بن الحسن ابن دحية الحافظ

ومنهم الحافظ أبو الخطاب بن دِحْيَة[٣] ، وهو مجد الدين عمر بن الحسن بن على بن محمد بن فرح بن خلف ، الظاهرى المذهب ، الأندلسى .

كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثِّقَات الأثبات المحصلين ، استوطن

(١) فى نسخ عند ا « تلوت » وكذلك هى فى ب ، و «تلهوت» و «تلهوت»
(٢) فى نسخة عند ا « لا فى حصون المعاقل » (٣) له ترجمة في ابن خلكان (٣ / ١٢٢ بتحقيقنا) استوفى فيها ذكر نسبه ، وضبط أسماء آبائه

بِجاية فى مدة أبى عبد الله بن يومور(١)، وروى بها ، وأسمع ، وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حُوشِيُّ اللغة(٢) عنده مستعملا غالبا ، ولا يحفظ الإنسان من اللغة حُوشِيَّهَا إلا وذلك أضعاف محفوظه من مستعملها ، وكان قصده ــ والله تعالى أعلم ــ أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب وانفردوا بالطريق الآخر ، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس ، وكذا الشيخ أبو الخطاب ابن دِحية له رسائل ومخاطبات كلها مُغْلَقَات مقفلات ، وكان ــ رحمه الله تعالى ! ــ إذا كتب اسمه فيما يجيزه أوغيرذلك يكتب «ابن دَحْية ودِحْية معا المتشبِّه به جبريلُ وجبرائيل» ، ويذكر ما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة فى جبريل ، ويقول عند فاطر السموات والأرض ، وهذا فرع انفرد به عمن عداه من أهل العلم .

قال صاحب عنوان الدراية : رأيت له تصنيفا فى رجال الحديث لا بأس به ، وارتحل إلى المشرق فى دولة بنى أيوب ، فرفعوا شأنه ، وقربوا [له] مكانه ، وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلسا أقروا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولى الضبط والإتقان والتفهم ، وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها ، فأعاد المتون المحولة ، وعَرَّفَ عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هى عليه من متونها الأصلية ، ومثل هذه الحكاية اتفق لأبى عمر بن عات فى كتاب مسلم بمراكش ببيت الطلبة منها .

ومن شعر أبى الخطاب ما كتب به إلى الكامل بن العادل بن أيوب :

مالى أسائل بَرْق بارق عَنْكُمُ ... من بَعْد ما بَعُدَتْ ديارى مِنْكُمُ
فمحلّكم قَلْبى وأنتم بالحَشَا ... لا بالعَقِيق ولا بِرَامَةَ أنْتُمُ
وأنا المقيم على الوَفَاء بعَهْدِكم ... يا مالكين ، وَفَيْتُمُ أو خُنْتُمُ

(١) كذا فى أصل ا ، وفى ب « تومور » وفى نسخة عند ا « تومرت »

(٢) فى نسخة عند ا « صار وحشى اللغة »

وهى طويلة ، ومنها :

رَفَعَتْ له الأملاكُ مِنهُ سجيةً ملكَ السِّماكُ الرمحَ وهو محرم

ومنها [أيضاً] :

لذوى النُّهى والفهم سِرٌّ حكومة قـد حار فيها كاهنٌ ومُنَجِّمُ
فاقصِدْ مُرادَكَ حيث سِرْتَ مُظفَّرا والله يَكْلَأُ والكواكِبُ نُوَّمُ
وليهنك الشهرُ السعيدُ تَصُومُه وتفوز فيـــه بالثواب وتَغْنَمُ
فلأنْتَ فى الدنيا كلَيْـلة قَدْرِهِ قَدْرًا ، فقَدْرُكَ فى الملوك مُعَظَّمُ

فأجابه السلطان مكافأةً بنثر ونظم ، فمن النظم :

وهَيَّجْنَ شوقى للأجارِع باللِّوَى وأيْن اللِّوَى منى وأيْن الأجارِعُ
مَرَابعُ لو أنَّ المرابعَ أنجـمٌ لكان نجومَ الأرض تلك المرابعُ
رعَى الله أياماً بهـا ولَو أنها إلى وقَـدْ ولَّى الشبابُ رَوَاجعُ(١)
ليالى لا لَيْلَى إذا رُمْتُ وَصْلَها يلوحُ لها من صُبْح شيبى مَوَاقِعُ

فى جملة أبيات .

ومن النثر : الحمد لله ولى الحمد ، وقف ولده على الأبيات التى حَسُنَ شعرها ، وصفا دُرُّها ، وليس من البديع أن يقذف البحر درا ، أو ينظم الخليلُ شِعْرًا ، وقد أخذت الورقة لأتنزه فى معانيها ، وأستفيد بما أودعه(٢) فيها ، فالله تعالى لا يخلينا من فوائد فكرته ، وصالح أدعيته ، والسلام .

فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الأبيات بقوله من قصيدة :

شَجَتْنى شَوَاجٍ فى الغُصُونِ سَوَاجعُ ففاضتْ هَوَامٍ للجفون هَوَامعُ

وأكثر فيها من التغزل ، إلى أن قال :

---

(١) فى ا « رعى الله أياما لها »

(٢) فى ا « بما أودعته فيها »

ولا حاكم أرْضاه بينى وبَيْنَهَا سِوَى حاكمٍ دَهْرِى له الْيَومَ طائعُ
يُدَافعُ عنى الضَّيْمَ قائمُ سَيْفِه إذا عز مَنْ للضيم عَنّى يُدَافِعُ
هو الكاملُ الأوصافِ والملكُ الذى تشير إليه بالكمال الأصابعُ
وبيضُ أياديه الكريمة فى الوَرَى قلائدُ فى الأعناق وهْىَ الصَّنائعُ
وَيَوْماه يوْماه اللذانِ هُما هُما إذا جَمَعَتْ غُلْبَ الملوكِ المجامعُ(١)

ومنها :

فما روضةٌ غَنًّا بها مَرَّت الصَّبَا ونَشْرُ شذاها الطَّيِّبِ النَّشْرِ ذائعُ(٢)
له من شَذِىِّ الزهر بُرْدٌ مُفَوَّفٌ أتيح له من أرضِ صَنْعَاء صانعُ
فَرَاقَكَ منها أخضرُ الثوب ناضرٌ وشاقك منها أصفرُ اللون فاقعُ
وأحمرُ قانٍ للخدود مُوَرَّد وأبْيضُ كالثغر المفلّج ناصعُ
بأحسنَ من توشيع مدْحى الذى لهُ بدائعُ من وشْى البديع وشائعُ
وماضائع من نشر شُكرى الذى به تأرجت الأرجاء عندك ضائعُ
ولو لم يُقيِّدْنى نَدَاكَ لكان لى مجال فسيح فى البسيطةِ واسعُ
فأنت الذى لى والأعادى كثيرة فُوَيق مكان النجم فى الأفق دافعُ

ومنها :

بقيتَ لعبدٍ جدُّه دِحْيَةُ الذى يُشابه جبريلٌ له ويُضارعُ
وجَدَّته الزهراء بنتُ محمدٍ عليه السلام الدائم المتتابعُ
ولا عدمتْ منك الممالكُ مالكاً يُقرِّبُ للآمال ما هو شاسعُ
ومنك عُيُونٌ للمهمَّات يُقّظٌ وعنك عيونُ الحادثات هواجعُ

(١) فى أصل ا « إذا جمعت فيه الملوك المجامع » وفى نسخة « إذا جمعت علب الملوك »

(٢) غنا : أصله غناء ، فقصره حين احتاج لإقامة الوزن ، والروضة الغناء : التى كثرت فيها أصوات الطير لالتفاف أغصانها ، والصبا : ريح الشمال ، والشذى : طيب الرائحة وأريجها ، وذائع : متفرق

وقال المقريزى فى ترجمة الملك الكامل : إنه كان مشغوفا بسماع الحديث النبوى ، وتقدم عنده أبو الخطاب بن دِحْيَة ، و بنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة ، انتهى .

من شعر السهيلى

وقال أبو الخطاب بن دِحية : أنشدنى أبو القاسم السُّهيلى لنفسه ، وذكر أنه ما سأل الله تعالى بها [شيئا] إلا أعطاه :

يا من يرى ما فى الضمير و يسمعُ ... أنت المعَدُّ لكلِّ ما يُتوقّعُ
يا من يُرَجَّى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزعُ
يا من خزائنُ رزقِهِ فى قول كن ... أُمْنُنْ فإن الخير عندك أجمعُ
مالى سوى فقرى إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرِىَ أدفعُ[1]
مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رُدِدْتُ فأىَّ بابٍ أقرعُ
ومن الذى أدْعُو وأهتفُ باسْمهِ ... إن كان فضلُكَ عن فقيرك يُمْنعُ
حاشا لجودك أن يُقنِّط عاصياً ... الفضلُ أجزل والمواهبُ أوْسعُ

ومن نظم السُّهيلى رضى الله تعالى عنه :

أُسَائِلُ عن جيرانه من لقيته ... وأعْرِضُ عن ذكراه والحال تنطِقُ[2]
ومالى إلى جيرانه من صبابةٍ ... ولكنَّ نفسى عن صبوح ترقِّقُ

وله :

لما أجاب بلا طمعتُ بوَصْله ... إذ حرف لا حرفان معتنقان
وكذا نعَمْ بنعيم وصل آذنَتْ ... فنعم ولا فى اللفظ متفقان

ولد أبو الخطاب بن دِحية فى ذى القعدة سنة سبع - أو ثمان - وأربعين وخمسمائة[3]

---

(١) فى ا « وبالافتقار إليك فقرى أدفع »

(٢) فى ا « والحال ينطق »

(٣) فى ابن خلكان (ج ٣ ص ١٢٢ بتحقيقنا) أن ولادته فى سنة ٥٤٤ ويقال : سنة ٥٤٦ ، ويقال : سنة ٥٤٨

وتوفى [فى] انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة(١) بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم .

وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار ، وقدره أجل مما ذكروه ، وقد روى رحمه الله تعالى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم ، وكل ذلك فى طلب الحديث ، وسمع بالأندلس من ابن بَشْكُوال وابن زرقون فى جمع كثير(٢) ، و ببغداد من أبى الفرج بن الجوزى ، و بأصبهان من أبى جعفر الصيدلانى معجم الطبرانى ومن غيره ، و بنيسابور من أبى سعيد(٣) بن الصفار ومنصور بن الفراوى والمؤيد الطوسى ، وحصل الكتب والأصول ، وحدث ، وأفاد ، وكان من أعيان العلماء ، ومشاهير الفضلاء ، مُتْقِناً لعلم الحديث ومايتعلق به ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها .

وصنف كتباً كثيرة مفيدة جدا ، منها كتاب « التنوير ، فى مولد السراج المنير » صنفه عند قدومه إلى إربل سنة أربع وستمائة ، وهو متوجه إلى خراسان لما رأى ملك إربل مظفر الدين كوكبرى(٤) معتنيا بعمل المولد النبوى فى شهر ربيع الأول كل عام ، مهتما به غاية الاهتمام ، وكمله وقرأه عليه بنفسه ، وختمه بقصيدة طويلة ، فأجازه بألف دينار ، وصنف أيضاً « العلم المشهور ، فى فضائل الأيام والشهور » ، و « الآيات البينات ، فى ذكر مافى أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات » وكتاب « شرح أسماء النبى صلى الله عليه وسلم » وكتاب « النبراس ، فى أخبار خلفاء بنى العباس » وكتاب « الإعلام المبين ، فى المفاضلة بين أهل صِفِّين » .

وولى قضاء بلد أصوله دَانِيَة مرتين ، ثم صرف عن ذلك لسيرة نسبت إليه(٥) ،

---

(١) فى نسخة عند ا « سنة ٦٢٣ » وما أثبتناه عن ب وأصل ا يوافق ما في ابن خلكان (٢) فى أصل ا « فى جمع كبير »

(٣) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « من أبى سعد »

(٤) هكذا فى ا ، ب ، وفى نسخة عند ا « كوكيرى » محرفا ، وفى ابن خلكان وتاريخ أبى الفداء « كوكبورى » (٥) فى ا « نعيت عليه »

فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٥ ، ثم حج وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور، وعاد إلى مصر ، فاستأدبه العادل لولده الكامل ، وأسكنه القاهرة ، فنال بذلك دنيا عريضة ، ثم زادت حظوته عند الكامل ، وأقبل عليه إقبالا عظيما وكان يعظمه ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، حتى كان يسوى له المداس حين يقوم ، وهو بَلَنسى كما قاله ابن خلكان وغيره ، وبَلَنْسِية مشهورة بشرق الأندلس [ثلث سنة بالتصحيف][1] .

ترجمة خلف ابن القاسم (ابن الدباغ) الاندلسى

ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ ، الحافظ ، الأندلسى .

رحل إلى المشرق ، وكان حافظاً فهماً عارفاً بالرجال ، حدث حديث مالك وشعبة وأشياء فى الزهد ، وسمع بمصر أبا الحسن بن الورد البغدادى ومسلم بن الفضل والحسن بن رشيق وجماعة ، وسمع بدمشق على بن أبى العقب وأبا الميمون بن راشد وبمكة من بكير الحداد وأبى الحسن الخزاعى والآجرى ، وبقرطبة من أحمد بن يحيى بن الشاهد ومحمد بن معاوية ، وتوفى سنة ٣٩٣[2] .

ترجمة خلف ابن سعيد (المبرقع) الكلبى

ومنهم خلف بن سعيد بن عبد الله بن زرارة أبو القاسم بن المرابط ، الكلبى ، من ذرية الأبرش الكلبى ، ويعرف بالمبرقع ، المحتسب ، القرطبى .

رحل إلى المشرق مرتين ، أولاهما سنة ٣٣٣[3] ، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة وسمع أبا سعيد بن الأعرابى وابن الورد[4] وأبا بكر الآجرى، وروى عنه أبو إسحاق ابن شِنْظِير وأبو جعفر الزهراوى ، وقال ابن شنظير : إنه توفى فى نحو الأربعمائة رحمه الله تعالى ، ورضى عنه !.

أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الإشبيلي

ومنهم سابق فضلاء زمانه ، أبو الصَّلْت أُمَيّة بن عبد العزيز بن أبى الصَّلْت الإشبيلى .

---

(١) هذه الكلمة لاتوجد فى ا (٢) فى نسخة عند ا «سنة ٣٩٢»
(٣) كذا فى ب ، ونسخة عند ا ، وفى أصل ا «٣٣٢»
(٤) فى أصل ا «وابن الوردى»

يقال : إن عمره ستون سنة ، منها عشرون فى بلده إشبيلية ، وعشرون فى إفريقية عند ملوكها الصِّنهاجيين ، وعشرون فى مصر محبوساً فى خزانة الكتب ، وكان وَجَّهه صاحب المهدية إلى ملك مصر فسجن بها طول تلك المدة فى خزانة الكتب ، فخرج فى فنون العلم إماما ، وأمتَنُ علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وله فى ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته ، وكان يكنى بالأديب الحكيم ، وهو الذى لحن الأغانى الإفريقية .

قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن ، وذكره العماد فى « الخريدة » وله كتاب « الحديقة » على أسلوب « يتيمة الثعالبى[1] » وتوفى سنة ٥٢٠[2] ، وقيل : سنة ٥٢٨ ، بالمهدية ، وقيل : مستهل السنة بعدها ، ودفن بها .

وله فيمن اسمه واصل :

يا هاجراً سموه عَمْداً واصلاً ... وبضدها تتبين الأشياء
ألغيتنى حتى كأنك واصل ... وكأننى من طول هجرى الراء[3]

وقوله ، وهو من بدائعه :

لا غَرْوَ أن سبقت لُهَاكَ مدائحى ... وتدفقت جدواك ملء إنائها
يكسى القضيبُ ولم يَحِنْ إثماره ... وتطقطق الورقاء قبل غنائها[4]

وقال فى الأفضل :

تَرْدَى بكل فتى إذا شهد الوغى ... نثر الرماح على الدروب كعوبا[5]
قد لوحته يد الهواجر فاغتدى ... مثل القناة قضافة وشحوبا[6]
تخِذُوا القنا أشطانهم واسْتَنْبَطُوا ... فى كلِّ قلبٍ بالطِّعان قليبا

---

(١) فى ا « يتيمة الدهر للثعالبى » (٢) في ب « سنة ٥٢٣ »
(٣) فى أصل ا « ألفيتنى » وفى نسخة عندها « ألقيتنى » وكلاهما تحريف
(٤) فى نسخة عند ا « وتطوق الورقاء قبل غنائها » وهى أظرف
(٥) فى ا « تردى بكل قنا » وفى نسخة عندها « نثر الرميح »
(٦) لوحته : غيرته ، والهواجر : شدة القيظ ، والقضافة : الهزال ودقة الجسم

ومنها :

تعطى الذى أعْطَتْكَهُ سُمْرُ القنا أبدا فتغدو سالباً مسلوبا

ومنها :

وأنا الغريب مكانه و بيانه فاجعل صنيعك فى الغريب غريبا

وله :

ومهفهف شَرِبَتْ محاسنُ وجهه مامجه فى الكاس من إبريقه(١)

ففعالها من مقلتيه ، ولونها من وجنتيه ، وطعمها من ريقه

أخذه من ابن حَيُّوس ، وقصر عنه ، فى قوله :

ومهفهف يغنى بلحظ جفونه عن كاسه الملأى وعن إبريقه

فعل المدام ولونها ومذاقها فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

ولأبى الصلت فيمن اسمه مُحْسِن :

أيها الظالم المسى ء مدي دهره بنا

مالهم أخطؤا الصوا ب فسَمَّوْكَ محسنا

وله فى لابس قرمزية حمراء :

أقبلَ يَسْعَى أبو الفوارسِ فى مَرْأى عجيبٍ ومَنْظَرٍ أنِقِ

أقْبَل فى قرمُزِيَّةٍ عَجَبٍ قد صبغت لون خدِّه الشرقِ

كأنما جِيدُهُ وغُرَّته من دُونِهَا إذ بَدَوْنَ فى نَسَقِ

عَمُودُ فجر من فَوْقِهِ قَمرٌ دَارَتْ به قِطْعَة من الشَّفَقِ

وله فى ثقيل [وقد أجاد](٢) :

لى جليسٌ عَجِبْتُ كيفَ اسْتَطَاعَتْ هٰذِهِ الأرْضُ وَالْجبَالُ تُقِلُّهْ

---

(١) كذا فى ب ، ا ، وفى ابن خلكان « ومهفهف شركت محاسن وجهه »

(٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ا

أنا أرْعَاهُ مُكْرَهاً وبقَلْبِي منْهُ ما يُقْلِقُ الجبالَ أَقَلُّهْ(١)
فَهوَ مِثْلُ المشيب أكْرَهُ مرآ ه ولَكِنْ أصُونه وَأجِلُّهْ

أخذه من قول أبى الحسن جعفر بن الحاج المَيُورقى ، وهما فى عصر واحد :

لى صاحِبٌ عميَتْ علىّ شؤنهُ حَرَكاته مَجْهُولة وسُكُونهُ
يرْتاب بالأمر الجلىّ توَهُّماً فإذا تيقَّن نازَعَتْهُ ظُنُونهُ
إنى لأهواه عَلَى شرَقِى به كالشيْبِ تكرهُه وأنْتَ تَصُونهُ

وأوصى أن يكتب على قبره أبو الصلت(٢) المذكور مما نظمه قبل موته :

سكنتك يا دارَ الفنَاءِ مُصدّقا بأنى إلى دار البقاء أَصِيرُ
وأعْظَم ما فى الأمر أنِّىَ صائرٌ إلى عادلٍ فى الحكم ليس يجُورُ
فَيا لَيْت شعرى كيف ألقاه عِنْدَها وزَادِى قليلٌ والذنوب كثيرُ
فإن أكُ مَجْزِيًّا بِذَنبى فإنَّنى بشرِّ عقاب المذنبين جديرُ
وإن يك عَفْوٌ ثَمَّ عنى ورحمة فثَمَّ نعيمٌ دائم وسُرُورُ

وله [أيضا] :

إذا كان أصْلى من تُراب فكُلُّها بلادى ، وكُلُّ العالمين أقاربى
ولا بدّ لى أن أسألَ العِيسَ حَاجَةً تشقُّ على شُمِّ الذّرا والغوارب

وقال :

دبَّ العذارُ بخدّه ثم انْثَنَى عَنْ لثْم مَبْسمِه البَرُود الأَشْنب
لا غرْوَ أن خشى الرَّدى فى لثمه فالريقُ سُمٌّ قاتلٌ للعَقْرَب

وقد ذكروا أن من خواصّ ريق الإنسان أنه يقتل العقرب ، وهو مجرب .

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا « مايتلف الجبال أقله »

(٢) فى ا « وأوصى أبو الصلت المذكور أن يكتب على قبره مما — إلخ » بتقديم وتأخير فى العبارة ، كما ترى

وقال :

لا تَدْعُنى ولْتَدْعُ مَنْ شئْتَهُ إلَيْك من عُجْم ومن عَرَب
فنحْنُ أكالون للسُّحت فى ذراك سمَّاعُون للكذب

وقال :

لا تسألنِّى عن صنيع جُفُونها يوْم الْوداع وسل بذلك مَنْ نجا
لو كُنت أملك خَدّها للثمْتُهُ حتى أعيد به الشقيق بنفْسَجا(١)
أو كُنْتُ أهجع لاحتضنْتُ خيالها وَمنعْتُ ضوْء الصبح أن يتبلَّجا
و بثثْتُ فى الظلماء كُحْل جُفُونها وَعقدْتُ هاتيك الذوائب بالدجا

وقال مهنئاً بمولود :

يَلُوح فى المهْد على وَجهِه تجهُّمُ البأس و بُشْرى النَّدى
والشمْسُ والبَدر إذا استجْمعَا لم يَلْبثا أن يَلدا فرْقدا
فابق له حتى ترى نجله و إن عرا خطبٌ فنحنُ الْفدا

قال ابن سعيد : وهذا البيت الأخير من أثقل الشعر يُتطير من سماعه ، وتركه أولى

وقال رحمه الله تعالى فى الرصد :

فذاغديرٌ، وذارَوْضٌ، وذاجَبَل، فالضَّبُّ والنُّونُ والملاّحُ وَالحَادى

أبو محمد عبد الله ابن يحى السرقسطى

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول السَّرَقُسطى .
ذكره العماد الأصبهانى فى « الخريدة » وذكره السمعانى فى الذيل ، وأنه دخل بغداد فى حدود سنة ست عشرة وخمسمائة(٢) .

ومن شعره :

أيا شَمْسُ إنى إنْ أتتْكَ مَدائحى وَهُنَّ لآلٍ نُظِّمَتْ وقلائدُ

(١) الشقيق : نور أحمر ، شبه به خدها في الحمرة ، والبنفسج : أزرق اللون ، شبه به ما يحدثه التقبيل فى خدها من اللون ، يريد أنه يقبل خدها الأحمر حتى يعيده أزرق

(٢) فى نسخة عند ا « سنة ٥١٠ »

فلستُ بمَنْ يَبْغى على الشِّعْرِ رِشْوَةً أبَى ذاكَ لى جَدٌّ كريمٌ ووَالِدُ[(١)]
وأنى مِنْ قوم قَدِيماً ومُحْـدَثا تباعُ عليهم بالألوف القصَائِدُ

أبو عامر التيارى الفقيه

ومنهم الفقيه المقرئ أبو عامر التيارى[(٢)] .

من رجال « الذخيرة » رحل إلى المشرق ، وقرأ على أبى جعفر الديباجى كتابَه فى العروض وسائر كتبه ، ولقى شيخ القيروان فى العربية ابن القزاز وأديبَهَا الحُصْرى .

وأخبر عن نفسه أنه كان بين يديه تلميذ له وَسيم ، فمر به أبو جعفر التجَانى بسَحَاءة[(٣)] كتب له فيها وخلاها بين يديه ، وهو قد غلب النومُ عليه ، فقال :

يا نائماً متعمِّـداً إبْصَارَ طيف حَبيبهِ
هُوَ جَـوْهَرٌ فاثقُبْهُ إن الطيبَ فى مَثْقوبهِ
أو أَرْكِبَنِّى ظَهْرَهُ إن لم تقُلْ برُكُوبهِ

فلما قرأها علم أنها للتجَانى ، فـكتب تحتها :

يا طالبا أضْحَى حجا ب دُونَ ما مَطْلُوبه
لو لم يَكُنْ فى ذاكَ إثْـمٌ لم أكن أسْخُو به
إنى أغارُ عَليه منْ أثوابه ورَقيـبِهِ

وأنشد يوماً فى حلقته لابن الرومى فى خَبّاز :

إن أنس لا أنس خَبَّازاً مَرَرْتُ به يَدْحُو الرقاقَةَ وشْكَ اللمح بالبَصَر[(٤)]
ما بيْنَ رؤيتها فى كفه كُرَةً وبين رؤيتها قَوْرَاء كالقمَر
إلا بمقـدار ما تَنْدَاحُ دائرة فى صَفحَة الماء يُرْمى فِيه بالحجر

فقال بعض تلامذته : أما إنه لا يُقْدَر على الزيادة على هذا ، فقال :

---

(١) فى ا « فلست بمن يبغي عن الشعر رشوة » و «أبى ذاك بى »
(٢) فى ا « المتبارى » وفى ب « البارى »
(٣) أراد بالسحاءة ورقة رقيقة صغيرة
(٤) فى أصل ا « لم أنس لم أنس »

فكاد يَضْرُط إعجاباً برُؤيتِهَا ومَنْ رأى مثْل ما أبصرْتُ منه خَرِى

فضحك مَنْ حضر ، وقال : البيت لائق بالقطعة ، لولا ما فيه من ذكر الرجيع ، فقال :

إن كان بيتىَ هٰذا لَيْسَ يُعْجبكم فعجلوا محْوَه أو فالْعَقوه طَرى

أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى الأديب الطبيب

ومنهم الأديب الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى .

مطبوع فى الشعر والتوشيح ، قال ابن سعيد : اجتمعت به فى القاهرة مراراً بمجلس الأمير جمال الدين أبى الفتح موسى بن يغمور [1] بن جَلْدَك وفى غيره ، وتوفى فى مارستان القاهرة .

ومن شعره :

أمّا الغُرَابُ فإنه سَببُ النَّوى لا ريْبَ فيه وللنَّوى أسبابُ

يَدْعُو الغُرابُ و بعْدَ ذاك يُجيبُه جمل وتَعْوى بعْدَ ذاكَ ذئابُ

لا تكذبن فهٰذه أسْبابُهُ لٰكنّ منْها بداة وجوابُ

جمال الدين أبو بكر محمد ابن يوسف (ابن مسدى)

ومنهم الإمام المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى ، الأندلسى ، المعروف بابن مُسْدِى [2] .

وهو من الأئمة المشهورين بالمشرق والمغرب ، قال رحمه الله تعالى : أنشدنى رئيس الأندلس وأديبها أبو الحسن سهل بن مالك الأزدى الغرناطى لنفسه سنة ٦٣٧ فى شوّال بداره بغرناطة :

مُنغَّصُ العيْش لا يأوِى إلى دَعَةٍ منْ كان ذا بلدٍ أو كان ذا ولد [3]

والسَّاكنُ النفسِ مَنْ لم ترض همَّته سُكْنى مكانٍ ولم يسْكُنْ إلى أحد

---

(١) فى نسخة عندنا « يعمور » بالعين مهملة

(٢) فى نسخة « المعروف بابن المسدى »

(٣) الدعة ــ بفتح الدال والعين ــ لين العيش وسهولته

أبو عبد الله محمد ابن فتوح الحميدى

ومنهم الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتُّوح بن عبد الله الأزدى الحميدى، نسبة لجده حُمَيد الأندلسى .

ولد أبوه بقرطُبة ، وولد هو بالجزيرة بليدة بالأندلس ، قبل العشرين وأربعمائة ، وكان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥ ، فأول ما سمع من الفقيه أبى القاسم أصبغ[١] ، قال : وكنت أفْصح من يقرأ عليه ، وكان قد لقى ابن أبى زيد وقرأ عليه وتفقه ، وروى عنه رسالته ومختصر المدوّنة ، ورحل سنة ٤٤٨ ، وقدم مصر وسمع بها من الضَّرَّاب والقُضَاعى[٢] وغير واحد ، وكان سمع بالأندلس من ابن عبد البر وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنفاته وأكثر من الأخذ عنه[٣] وشهر بصحبته وصار على مذهبه إلا أنه لم يكن يتظاهر به ، وسمع بدمشق وغيرها، وروى عن الخطيب البغدادى وكتب عنه أكثر مصنفاته ، وسمع بمكة من الزنجانى ، وأقام بواسط مدّة بعد خروجه من بغداد ، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيراً من الحديث والأدب وسائر الفنون ، وصنف مصنفات كثيرة ، وعلق فوائد ، وخرج تخاريج للخطيب ولغيره ، وروى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنفاته وابن ماكولا ، وكان إماماً من أئمة المسلمين فى حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونُبله وديانته وورعه ونزاهته ، حتى قال بعض الأكابر ممن لقى الأئمة : لم تر عيناى مثل أبى عبد الله الحميدى فى فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه فى أهله ، وكان ورعا ثقة إماماً فى علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورُوَاته ، محققاً فى علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، مُتَبَحِّراً فى علم الأدب والعربية ، ومن تصانيفه كتاب « جذْوة المقتبس ، فى أخبار علماء الأندلس » وكتاب « تاريخ الإسلام » وكتاب « من ادعى الأمان ، من

---

(١) فى نسخة « أبى القاسم الأصبغ »

(٢) فى ب « والقراعى » محرفا

(٣) في ا « الأخذ منه »

أهل الإيمان » وكتاب « الذهب المسبوك ، فى وعظ الملوك » وكتاب « تسهيل السبيل ، إلى علم الترسيل » وكتاب « مخاطبات الأصدقاء ، فى المكاتبات واللقاء » وكتاب « ماجاء من النصوص والأخبار ، فى حفظ الجار » وكتاب « ذم النميمة »(١) وكتاب « الأمانى الصادقة » وغير ذلك من المصنفات ، و « الأشعار الحسان ، فى المواعظ والأمثال » وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل فى الحر ويجلس فى إجانة ماء يتبرد به ، ومن مشهور مصنفاته كتاب « الجمع بين الصحيحين » .

وذكره الحِجَارى فى المُسْهب وقال عنه : إنه أظهر العلم فى طرق ميُورقة(٢) بعد ما كانت عطلاء من هذا الشأن ، وترك لها فخراً تبارى به خواص البلدان ، وهو من علماء أئمة الحديث ، ولازم أبا محمد بن حزم فى الأندلس واستفاد منه ، ورحل إلى بغداد ، وبها ألف كتاب الجذوة ، ومن شعره قوله رضى الله تعالى عنه :

أَلِفْتُ النَّوَى حتى أنسْتُ بوَحْشِها ... وصِرْتُ بها لا فى الصَّبَابة مُولَعَا
فلم أُحْصِ كم رافقته من مُرَافِقٍ ... ولم أُحْصِ كم خَيَّمْتُ فى الأرض مَوْضِعَا
ومن بعد جَوْبِ الأرض شرقاً وغرباً ... فلا بد لى من أن أوافى مَصْرَعا(٣)

وقال رحمه الله تعالى :

لقاءُ الناس ليس يُفِيدُ شيئاً ... سوى الهذيان من قِيلٍ وقالِ
فأَقْلِلْ من لقاء الناس إلا ... لأخذِ العلم أو إصلاحِ حالِ

وذكره ابن بَشْكُوال فى الصِّلة ، وتوفى ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى ! .

قال ابن ماكولا : أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدى ، وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ ، لم أر مثله فى عِفَّته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم ، وكان أوصى

(١) فى ا « وكتاب النميمة »

(٢) فى ا « إنه طرق ميورقة بعد ما كانت عطلا »

(٣) جوب الأرض : قطع المسافات البعيدة منها ، والمصرع : المكان الذى يصرع فيه أو هو نفس الصرع

مظفر بن رئيس الرؤساء[١] أن يدفنه عند قبر بشر الحافى ، فخالف وصيته ودفنه فى مقبرة باب أبرز[٢] ، فلما كانت مدة رآه مظفر فى النوم كأنه يعاتبه على مخالفته ، فنقل فى صفر سنة ٤٩١ إلى مقبرة باب حرب ، ودفن عند قبر بشر ، وكان كفنه جديدا وبدنه طريا تفوح منه رائحة الطيب ، ووقف كتبه على أهل العلم ، رحمه الله تعالى ! .

ومن مناقبه أنه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ : تعديت بعين إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت ، انتهى .

ومن شعر الحميدى أيضا قوله :

طريق الزُّهْد أفضلُ ما طريقٍ … وتقوى الله تاليـــةُ الحقوقِ
فَثِقْ بالله يكفِكَ ، واُسْتَعِنْهُ … يُعِنْكَ ، ودَعْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيق

وقوله :

كلامُ الله عَز وجل قَوْلى … وما صحت به الآثارُ دينى
وما اتفق الجميعُ عليه بدْءاً … وعوداً فهْوعن حقٍّ مبين
فدَعْ ما صَدَّ عن هذا وهذا … تكن منها على عَيْنِ اليقين[٣]

أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى

ومنهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشى ، وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن ، القيسى ، من أهل شَرِيشَ ، روى عن أبى الحسن بن لَبَّال[٤] وأبى بكر بن أزهر وأبى عبد الله بن زَرْقُون وأبى الحسين بن جبير وغيرهم ، وأقرأ العربية ، وله تواليف أفاد بما حشد[٥] فيها : منها شرح الإيضاح للفارسى ، والجمل للزجاج ، وله فى العروض تواليف ، وجمع مشاهير قصائد العرب ، واختصر نوادر أبى على القالى .

---

(١) فى ا « ابن رائس الرؤساء » (٢) فى ب ونسخة عند ا « بباب البزر »
(٣) فى ا ورد هذا البيت هكذا :
فدع ماصد عن هذى وخذها … تكن منها على عين يقين
(٤) فى ب ونسخة عند ا « ليال » وفى نسخ أخرى « نبال » و « نيال »
(٥) فى ا « بما حشر فيها »

قال ابن الأبار : لقيته بدار شيخنا أبى الحسن بن حريق من بلنسية ، قبل توجهى إلى إشبيلية فى سنة ست عشرة وستمائة ، وهو إذا ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات ، فسمعت عليه بعضه ، وأجاز لى سائره مع رواياته وتواليفه ، وأخذ عنه أصحابنا ، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية ، انتهى .

ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام :

يا جيرَةَ الشامِ هَلْ من نحوكم خبر ... فإن قلبى بنار الشوق يستعرُ
بَعُدْتُ عنكم فلا والله بعدكم ... ما لذَّ للعين لانوم ولا سهر
إذا تذكرت أوقاتاً نأت ومضت ... بقربكم كادت الأحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بالنيرَبَيْنِ ضحى ... والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر(1)
والورق تنشد ، والأغصان راقصة ... والدوح يطرب بالتصفيق والنهر(2)
والسفح أين عَشِيَّاتى التى سلفت ... لى منه فهى لعمرى عندى العمر
سقاك يا سفحُ سفحُ الدَّمْعِ مُنْهملاً ... وقلَّ ذاك له إن أعوز المطرُ

وله رحمه الله تعالى شروح لمقامات الحريرى : كبير ، ووسط ، وصغير ، وفى الكبير من الآداب ما لا كفاء له ، وكان رحمه الله تعالى مُعْجبا بالشام .

وقال ابن الأبار عند ما ذكره : إنه شرح مقامات الحريرى فى ثلاث نسخ : كبراها الأدبية ، ووسطاها اللغوية ، وصغراها المختصرة ، انتهى .

وتوفى بشَرِيشَ بلده سنة تسع عشرة وستمائة ، رحمه الله تعالى !.

أبو بكر يحيى ابن سعدون

ومنهم أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد ، الأزدى ، القرطبى ، الملقب بضياء الدين .

---

(1) النيربين : مثنى نيرب ، بزنة جعفر ، وهى قرية قريبة من دمشق ، ووقع فى ب « بالنيرين » محرفا ، وأثبتنا مافى أصل ا

(2) فى نسخة « والدوح يطرب بالتصفيق والوتر »

أحد الأئمة المتأخرين فى القراآت وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك .

قال القاضى الشمس بن خلكان : إنه رحل من الأندلس فى عُنْفُوان شبابه وقدم مصر فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازى ، وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدنى المصرى وأبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهانى المعروف بالسِّلَفى وغيرهم ، ودخل بغداد سنة ٥١٧ ، وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبى محمد عبد الله بن على المقرى المعروف بابن بنت الشيخ أبى منصور الخياط ، وسمع عليه كتبا كثيرة منها كتاب سيبويه ، وقرأ الحديث على أبى بكر محمد بن عبد الباقى البزار[1] المعروف بقاضى المارستان وأبى القاسم بن الحصين وأبى العز[2] وغيرهم ، وكان دينًا ورعا عليه وقار[3] وسكينة ، وكان ثقة صدوقا ثبْتاً نبيلا قليل الكلام كثير الخير مفيداً ، أقام بدمشق مدة ، واستوطن الموصل ، ورحل منها إلى أصبهان ، ثم عاد إلى الموصل ، وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر ، وذكره الحافظ ابنُ السمعانى فى كتاب الذيل ، وقال : إنه اجتمع به بدمشق ، وسمع عنه مشيخة أبى عبد الله الرازى ، وانتخب عليه أجزاء ، وسأله عن مولده فقال : ولدت سنة ٤٨٦ فى مدينة قرطبة ، ورأيت فى بعض الكتب أن مولده سنة ٤٨٧ ، والأول أصح ، وكان شيخنا القاضى بهاء الدين [أبو المحاسن] يوسف بن رافع ابن تميم المعروف بابن شداد قاضى حلب رحمه الله تعالى يفتخر بروايته وقراءته عليه ، وقال : كنا نقرأ عليه بالموصل ، ونأخذ عنه ، وكنا نرى رجلا يأتى إليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ، ثم يمد يده إلى الشيخ بشىء ملفوف ، فيأخذه الشيخ من يده ، ولا نعلم ماهو ، ويتركه ذلك الرجل ويذهب ، ثم تقفينا ذلك فعلمنا[4] أنها

(١) فى نسخة عند ا « البزاز »

(٢) فى ابن خلكان « أبى العز بن كادس »

(٣) فى ابن خلكان « وقار وهيبة وسكينة »

(٤) فى ب ونسخة عند ا « فقلنا »

دجاجة مسموطة كانت ترسم[1] للشيخ فى كل يوم ، يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها ، وإذا دخل الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده .

وذكر فى كتاب[2] «دلائل الأحكام» أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة ، آخرها سنة ٥٦٧ .

وكان الشيخ أبو بكر القرطبى المذكور كثيرا ما ينشد مسندا إلى أبى الخير الكاتب الواسطى :

جَرى قلمُ القضاء بما يكونُ فسيَّان التحرُّك والسكونُ

جُنون منك أن تسعى لرزق ويُرزق فى غشاوته الجنين

وتوفى القرطبى المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧ ، رحمه الله تعالى !.

انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار .

أبو عبدالله محمد ابن عبد ربه الوزير

ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ، ابن الشيخ الأجل أبى الحسن بن عبد ربه ، وهو من حفداء صاحب كتاب « العقد » المشهور .

حدث الشيخ الأجل أبو عبدالله محمد بن على اليحصبى القرَمُونى[3] رفيقه قال : اصطحبت معه فى المركب من المغرب إلى الإسكندرية ، فلما قربنا منها هاج علينا البحر ، وأشفينا على الغرق ، فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الإسكندرية ، فسررنا برؤيته ، وطمعنا فى السلامة ، فقال لى : لابد أن أعمل فى المنار شيئاً ، فقلت له : أعلى مثل هذه الحال التى نحن فيها ؟ فقال : نعم ، فقلت : فاصنع ، فأطرق ثم عمل بديهاً :

لله دَرُّ مَنَار اسكندرية كم يَسْمُو إليه على بُعْدٍ من الحدق

من شامخ الأنف فى عِرْنينه شَمَم كأنه باهت فى دارة الأفق

---

(١) فى ابن خلكان « برسم الشيخ »

(٢) فى ابن خلكان « فى كتابه الذى سماه دلائل الأحكام »

(٣) فى نسخة عند ا « القرومى »

يكسر الموج منه جانبى رجـل مُشَمِّرِ الذيل لايخشى من الغرق
لايبرح الدهر من ورد على سُفُنٍ مابين مصطبح منها ومغتبق
للمنشآت الجوارى عند رؤيتـه كموقع النوم من أجفان ذى أرق

وتقدمت ترجمة الكاتب أبى عبد الله بن عبد ربه ، وأظنه هذا ، فليتنبه له ، بل أعتقد أنه هو لاغيره ، والله تعالى أعلم .

أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبى

ومنهم أبو عبدالله محمد بن الصفار ، القرطبى .

قال فى القدح المعلى : بيتهم مشهور بقرطبة ، لم يزل يتوارث فى العلم والجاه وعلو المرتبة ، ونشأ أبو عبد الله هذا حافظاً للآداب ، إماما فى علم الحساب ، مع أنه كان أعمى مقعدا مشوه الخلقة ، ولـكنه إذا نطق علم كل منصف حقه ، ومن عجائبه أنه سافر على تلك الحالة ، حتى غدت بغداد له هالة(١) ، اجتمعتُ به بحضرة تونس فرأيت بحرا زاخرا ، وروضاً ناضرا ، إلا أنه حاطبُ ليلٍ(٢) ، وساحب ذيل ، لايبالى ما أورده ، ولا يلتفت إلى ما أنشـده ، جامعاً بين السمين والغث ، حافظاً للمتين والرث ، وكان يقرىء الأدب بمراكش وفاس وتونس وغيرها .

ومن مشهور حكاياته أنه لما قال أبو زيد الفازاذى(٣) فى أبى على المستنصر قصيدته التى مطلعها :

* الحزم والعزم منسوبان للعرب *

عارضه بقصيدة ، ثم قال فيه وفى ابن أخيه يحيى بن الناصر الذى نازعه فى ذلك الأوان:

وإن يُنازعْك فى المنصور ذو نسب فنَجْلُ نوح ثوَى فى قسمة العَطَبِ
وإن يقل أنا عَمٌّ فالجـــواب له عم النبى بلا شـــك أبو لهب

(١) أصل الهالة دارة القمر ، شبه بها بغداد لـكونها منزله ، ويلزمه تشبيهه بالقمر

(٢) يقال « فلان حاطب ليل » إذا كان لا يبالى بما جمعه ، غثا كان أو سمينا ، أو كان لايبالى بما قاله ، جيدا كان أو رديئا ، شبهوه بمن يجمع الحطب بالليل ، فربما أخذ الحطب وأخذ معه الأفعى

(٣) فى نسخة « الفازازى » وفى أخرى « الفازارى »

وشاعت القصيدة فبلغت أبا العلاء[١] ، فحرض على قتله[٢] ، وسلمه الله تعالى منه ، ومات سنة ٦٣٩ .

ومن شعره قوله :

لاتحسب الناس سَــوَاءً متى تشــابهوا فالناس أطــوار[٣]

وانظر إلى الأحجار ، فى بعضها ماء ، و بعضٌ ضمنها نار[٤]

وقوله :

ياطالعاً فى جفــونى وغائبا فى ضــلوعى

بالغت فى السُّخْطِ ظلماً ومارحمت خَضُــوعى

إذا نويْتَ انقطاعا فاحْسِبْ حساب الرجوع

انتهى باختصار يسير .

أبو الوليد ابن الجنان الكنانى ، الشاطبى

ومنهم أبو الوليد بن الجْنَّانِ محمد بن المشرف[٥] أبى عمرو بن الكاتب أبى بكر ابن العالم الجليل أبى العلاءِ بن الجنَّان ، الكنانى ، الشاطبى .

قال ابن سعيد . توارثوا بشاطبةِ ، مراتِبَ تحسُدُها النجوم الثاقبة ، وأبو الوليد أشعرهم ، وقد تجدَّد به فى أقطار المشرق مَفْخَرُهم ، وهو معروف هناك بفخر الدين ، ومتصدر فى أئمة النحويين ، ومرتب فى شعراء الملك الناصر صاحب الشام ، ومُقَطّعاته الغرامية قلائد أهل الغرام ، صحبته بمصر ودمشق وحلب ، وجريتُ معه طلق الجموح فى ميادين الأدب ، وأنشدنى بدمشق :

أنا من سُكْرِ هواهُمْ ثَمِـلُ لا أبالى هَجَــرُوا أم وَصَلوا

فبِشعْرى وحــديثى فيهمُ زَمْزَمَ الحادى وسار المثــلُ

(١) فى أصل ا « أبا العلى » (٢) فى أصل ا « فخرص على قتله » بالصاد مهملة

(٣) فى أصل ا « اشتهبوا » محرفا عن « اشتبهوا »

(٤) فى أصل ا « وبعض ضمنها النار » (٥) فى ب « ابن الشرف »

إن عُشاق الحمَى تعرفنى والحمى يَعْرِفُنى والطَّلَلُ
رَحلُوا عن رَبْع عينى فلذا أدْمُعِى عن مُقْلتى ترتحل
مالها قد فارقت أوْطانَها وهى ليست لحماهم تَصِلُ
لاتَظُنُّوا أننى أسلو فما مذهبى عن حبكم ينتقل

وقوله رحمه الله تعالى :

بالله يابَانَةَ الوادى إذا خطَرَتْ تلك المعاطف حيث الشيحُ والغار(١)
فعانِقِيها عن الصَّبِّ الكئيب فما على معانقة الأغصان إنكارُ
وعَرِّفيها بأنى فيك مكتئب فبعض هذى لها بالحبِّ إخبارُ(٢)
وأنتمُ جيرة الجرعاء من إضَمٍ لى فى حماكم أحاديث وأسمار
وأنتمُ أنتمُ فى كل آونة وإنما حبكم فى الكون أطوار
ويانسيما سرى تحدو ركائبه لى بالغوير لُبانَات وأوطار

و[قو]له :

يارَعَى الله أُنْسَنَا بين رَوْضٍ حيث ماء السرور فيه يَجُولُ
تحسَبُ الزهر عنده يتثنى وتخال الغُصُونَ فيه تميل

وله :

هاتِ المدام فقد ناح الحمام على فَقْدِ الظلام وجيشُ الصبح فى غلَب
وأعين الزهر من طول البكار مِدَتْ فكحَّلتها يمينُ الشمس بالذهب
والكأس حُلَّتها حمراء مُذْهَبَةٌ لكن أزِرَّتُهَا من لؤلؤ الحبَبِ
كم قلت للأفق لما أن بدا صَلَفاً بشمسه عند مالاحت من الحجُب
إن تِهْتَ بالشمس ياأفق السماء فلى شمسان وَجْهُ نديمى وابنَةُ العِنبِ

---

(١) الشيح ــ بكسر الشين وبالحاء المهملة ــ نبت طيب الريح ، والغار : شجر له ورق طوال
(٢) فى ا « فبعض هذا لها بالحب إخبار »

قم اسقنيها وثغر الصبح مبتسم — والليل تبكيه عين البدر بالشهبِ
والسحب قد لَبِسَتْ سودَ الثياب وقد — قامت لترثيَهُ الأطيار فى القضُبِ

وله :

عليك من ذاك الحمى يارسول — بشرى علامات الرضا والقبول
جئت وفى عِطْفَيْكَ منهم شَذًى — يسكر من خمر هواه العذول

ومنها :

أحبابنا ودعتم ناظرى — وأنتم بين ضلوعى نُزُولْ
حللتم قلبىَ وَهْوالذى — يقول فى دين الهوى بالحلول
أنا الذى حدث عنى الهوى — بأننى عن حبكم لا أحول
فليزدِ العاذل فى عذله — وليقل الواشى لكم مايقول

انتهى كلام النور بن سعيد .

وقال غيره : ولد المذكور بشاطِبَة منتصف شوال سنة ٦١٥ ، ومات بدمشق ودفن بسفح قاسيون ، وكان عالماً فاضلا ، دمث الأخلاق ، كريم الشمائل ، كثير الاحتمال ، واسع الصدر ، صحب الشيخ كمال الدين بن العديم ، وولده قاضى القضاة مجد الدين ، فاجتذبوه إليهم ، وصار حنفى المذهب ، ودرس بالمدرسة الإقبالية الحنفية بدمشق ، وله مشاركة فى علوم كثيرة ، وله يد فى النظم ، ومن شعره (١) :

لله قوم يعشقون ذوى اللحى — لا يَسْألون عن السواد المقبل (٢)
و بمهجتى قوم و إنى منهم — جُبِلوا على حب الطراز الأول

وله أيضاً :

قم اسقنيها وليل الهم منهزم — والصبح أعلامه محمرة العَذَبِ

---

(١) فى ا « ومنه قوله »

(٢) عجز هذا البيت والذى بعده من قول حسان بن ثابت الأنصارى فى أبناء جفنة :

أبناء جفنة حول قبر أبيهم — قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم — لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم — شم الانوف من الطراز الأول

والسحب قد نثرت فى الأرض لؤلؤها تضمُّهُ الشمس فى ثوب من الذهب (١)

وقد تقدم عن ابن سعيد له مايقارب هذا .

وله ـ رحمه الله تعالى ! ـ فى كاتب :

وبى كاتب أضمرت فى القلب حُبَّه مخافة حُسَّادى عليه وعُذَّالى (٢)

له صنعة فى خط لام عذاره ولكن سها إذ نقط اللام بالخال (٣)

أبو محمد القرطبي

ومنهم أبو محمد القرطبى .

قال ابن سعيد : لقيته بالقاهرة ، وكأنه لاخبر عنده من الآخرة ، وقد طال عمره فى أكل الأعراض ، وفساد الأغراض ، ومما بقى فى أذنى من شعره قوله :

رَحِمَ الله من لقيت قديماً فلقد كان بى رؤفاً رحيما

أتمنى لقاء حُرٍّ وقد أعْوَزَ بختى كما عدمت الكريما (٤)

وتوفى بالقاهرة سنة ٦٤٣ ، انتهى .

علي بن أحمد القادسى الكنانى

ومنهم على بن أحمد (٥) ، القادسى ، الكنانى .

قال ابن سعيد : لقيته ببيت المقدس على زى الفقراء ، وحصلت منه هذه الأبيات ، وندمت بعد ذلك على مافات ، وهى :

ذاك العذار المطلُّ دمى عليه يُطَلُّ

كأنما الخد ماء وقد جرى فيه ظل

عُقود صَبْرى عليه مذ حل قلبى تُحَلُّ

جرت دموعى عليه فقلت آسٌ وطَلُّ

أبو عبد الله ابن العطار القرطبي

ومنهم أبو عبد الله بن العطار ، القرطبى .

قال ابن سعيد : هو حلو المَنَازع ، ظريف المقاطع والمطالع ، مطبوع النوادر ،

---

(١) فى ا « فضمه الشمس » وفى نسخة عندها « فضمت الشمس »

(٢) فى ب « ولى كاتب أضمرت » (٣) فى ا « سها فى نقطه »

(٤) فى ا « كما علمت الكريما » محرفا (٥) فى ا « على بن حمد »

موصوف بالأديب الشاعر ،مازجته بالإسكندرية ، وبهذه الحضرة العلية ، ومازال يدين بالانفراد ، والتجول فى البلاد ، حتى قضى مُناَه ، وألقى بهذه المدينة عَصَاه ، لايخطر الهم له ببال ، ولا يبيت إلا على وعد من وصال ، وله حين سمع ما ارتجلته فى السكين بالإسكندرية حين داعبنى باختلاسها القاضى زين القضاة بن الرِّيغى ، وقال : مالى إليه سبيل ، حتى يحضر مصرى[1] نبيل :

أيا سارقاً ملكا مصوناً ولم يَجِبْ على يده قطع وفيــه نِصَابُ
ستَنْدُبه الأقلام عنـد عثارها ويبكيه إن يَعْدُ الصوابَ كتابُ

فقال :

أحاجيـك ماشىء إذا ماسرقته وفيه نصاب ليس يلزمك القطع
على أن فيـه القطع والحد ثابت ولا حد فيه ، هكذا حَكَمَ الشرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه « القدح المعلى » فيما أظن .

حضرة تونس وأعلامها الأفاضل

ويعنى والله سبحانه وتعالى أعلم بقوله « وبهذه الحضرة العلية » حضرةَ تونس المحروسة ، فإنها كانت محط رحال الأفاضل ، من الأواخر والأوائل ، حتى إن قاضى القضاة ابن خلدون أقام بها مدة ، ومنها ارتحل إلى مصر ، وكذلك الخطيب الجليل سيدى أبو عبد الله بن مرزوق رحمه الله تعالى ، ومنها خاطب الوزير لسان الدين ابن الخطيب وسلطانه فى الشفاعة له عند سلطان المغرب ، فكتب لسان الدين عن سلطانه فى ذلك مانصه : المقام الذى نؤكد إليه ببرسلفه الوداد ، ونغرى بتخليد فخره وأمره القلَمَ والمداد ، ونصل به الاستظهار على عدو الله تعالى والاستعداد[2] ، ونخطب له من الله بهزٍّ أعطافه للخير والتوفيق والسداد ، والإعانة منه والإمداد ، مقامُ محل أخينا الذى اشتهر فضله ودينه ، ووضح سعده متألقةً براهينُه ، وحياه الصنع الجميل

---

(١) فى نسخة عند ا « حتى يحضر مضرى نبيل »

(٢) فى ا « والاعتداد »

وبَيَّاه مشرقا جبينه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله يرعى الذِّمم ، ويسلك من الفضائل المنهج الأَمَم ، ويُغْلى البضائع النافقة عند الله تعالى ويعلى الهمم ، معظم قدره ، وملتزم بره ، الحريص على توفير أجره ، وتخليد فخره ، فلان ، أما بعد[1] حمدِ الله تعالى ناصر الإمرة المطاعة ، المحافظة على السنة والجماعة ، وحافظها من الإضاعة ، إلى قيام الساعة ، الذى جعل المودة فيه أنفع الوسائل النفَّاعة ، والصلاة والسلام على سيدنا [ومولانا] محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة على العموم والإشاعة ، متمم مكارم الأخلاق من الفضل والبذل والحياء والشجاعة ، والرضا عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة ، وزرعوا الخير فى العاجلة ففازوا فى الآجلة بفائدة[2] تلك الزراعة ، والدعاء لمقامكم الأعلى بصنع يَرْوِى فيه عن الأشمط الباتر خبرَ النصر المتواتر لسانُ البراعة ، وتأييد لا ترضى فيه القنا بمقام [تلك] القناعة ، فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لثنائكم العاطر بتخليد المفاخر منشورَ الإذاعة ، فى أيدى النواسم الضوَّاعة ، من حمراء غَرْناطة - حرسها الله تعالى ! - عن خيرٍ هامى السحاب ، وبشر مفتح الأبواب ، وعز للإسلام ، ببركة الاعتداد بملككم المنصور الأعلام ، مقتبل الشباب ، ويمن ضافى الجِلْباب ، والحمد لله على تظافر الأيدى فى ذاته وتوفر الأسباب ، وجانبكم الرفيع الأمل للمنتاب ، إذا حَدَتِ الحداةُ ذواتِ الأقتاب ، ومطمح الوسائل المطرزة المسائل بتصحيح الود اللُّباب ، وإلى هذا وصل الله تعالى سعيكم بسوابغ نعمه[3] وآلائه دائمة الانسكاب ، وجعل ما عجل لكم من نعمه [وآلائه] كفيلة بالزلفى وحسن المتاب ، وألهمكم تقييد شواردها بالشكر قولا وعملا فالشكر مستدعى المزيد كما ورد[4] فى الكتاب ، فإن من المنقول الذى اشتهر ، وراق فضله وبَهَر ، قوله « اشفعوا تؤجروا » وما فى معناه من المعتبر فى الخبر

(١) فى نسخة عند ا « أما بعد رحمة الله » (٢) فى ا « بفائد تلك الزراعة »

(٣) فى ا « وصل الله لكم سوابغ نعمه وآلائه - إلخ »

(٤) فى ا « كما وعد فى الكتاب » والإشارة إلى قوله تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم)

وتنفيس كربة عن مسلم ، وسماع شكوى من متظلم ، ولولا أن مقامكم السنى أغنى ، لجلبنا الكثير من هذا المعنى ، ولما تحقق ما أنتم عليه من سلوك سبيل [والدكم الملك الصالح - قدس الله تربته ، وضاعف قربته ! - من يمن الظفر ، وسلوك سبيل](١) الخير و إقامة رسوم الدين ، والاهتداء من هَدْيِهِ بالنور المبين ، خفَّ علينا أن نقصدكم بالشفاعات مع الساعات ، ونتَّجر لكم مع الله بأنفس البضاعات ، فما أثمر من ذلك شكرنا الله تعالى عليه حقيقة وشكرناكم عليه شريعة ، وما تأخر أوسَعْنَاكم فيه عذراً يسد ذريعة ، وعلمنا أن الله تعالى لم يأذن فى تعجيله ، وسألناه فى تيسيره وتسهيله ، سواء لدينا فى ذلك ما عاد ، بإعانة عامة و إمداد ، وساهم فى قصد جهاد ، ومالم يَعُدْ علينا خصوصاً وعلى المسلمين عموما بإعانة ولا إرفاد ، إنما علينا أن نجلب الخير الباقى والأجر الراقى إلى بابكم ، وندلَّ عليه كريم جنابكم ، بمقتضى وداد ، صُبْحه باد ، وجميل ظن فى دينكم المتين واعتقاد ، سَلِم مجمله ومفصَّله من انتقاد ، وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحد [العلامة] سلالة الصالحين ، وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين ، و يالها من مزية دنيا ودين ، أبا عبد الله بن مرزوق جَبَرَ الله تعالى على يدكم البرة حاله(٢) ، وسَنَّى من مقامكم السنى آماله ، جرى عليه من المحن ، وتباريح(٣) الإحَن ، ما يعلم كل ذى مروءة وعقل ، واجتهاد ونقل(٤) ، أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان محسوب ، و إلى مَعَقَّاته منسوب ، ولو كانت ذنوبه رَضْوَى وثَبِيرا(٥) ، لاستدعت إلى تعمدها عفواً كبيرا ، رَعْياً لذلك الإمام الصالح الذى كَبَّر خلفه وأحرم ، وتشهد وسلم ، وأمَّن عقب دعائه ، ونَصَبَ كفه لمواهب الله تعالى وآلائه ، وأنصت لخطبته ووعظه ، وأوجب المزية لسعة حفظه وعذوبة لفظه ، فأحبط ذلك من أحبط الأعمالَ الصالحة ، وعَطَّل المتاجر الرابحة ، وأسِفَ الملك المذكورُ بدم ولده ، و إحراق خزائنه وعدده ، وتغيير رسومه وحُدُودِه

---

(١) ما بين المعقوفين ثابت فى ا وحدها (٢) فى أصل ا «جبر الله على يدكم بالبر حاله»

(٣) فى ا «ونتائج الإحن» (٤) فى ا «واجتهاد وفضل»

(٥) رضوى وثبير : اسما جبلين .

وإسخاطه وإسخاط الله معبوده ، إلى أن طهر سيفكم المُلْك(١) من عاره ، وأخذ منه بثاره ، وتقرب إلى الله وإلى السلف الكريم بمحو آثاره ، والحمد لله على ما خَصَّه من إيثاره ، وتدارك الإسلام بإقالة عثاره ، وإنه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرر من حاله ما يَفُتُّ الفؤاد ، ويوجب الامتعاض له والاجتهاد ، يطلب منا الإعانة بين يديكم والإنجاد ، ويشكو العَيْلة والأولاد ، والغربة التى أحَلّته الأقطار النازحة والبلاد ، والحوادث التى سلبته الطارف والتّلاد ، وأن نذكركم بوَسيلته ، وضعف حيلته ، فبادرنا لذلك عملا بالواجب ، وسلوكا من بره ورَعْى حقه على السَّنَن اللاحب(٢) ، وإن كنا نُطَوقه فى أمرنا عند الحادثة علينا تقصيرا ، ولا نشكر إلا الله وليا ونصيرا ، فحقه علينا أوجب ، فهو الذى لا يُجْحَد ولا يُحْجَب ، ولا يلتبس منه المذهب ، وكيف لا يشفع فيمن جعله السلف إلى الله تعالى شفيعا ، وأحلّه محلا مَنِيعاً رفيعا ، إلى وليه الذى جبر ملكه سريعا ، وصير جنابه بعد المُحْول مَرِيعا ، وجدد رسومه تأصيلا لها وتفريعا ، ومثلكم من اغتنم بره فى نصر مظلوم ، وسبر مكلوم ، وإعداء كَرَم على لوم ، وهى منا ذكرى تنفع ، وحرصٌ على أجرِ مَنْ يشفع ، وإسعاف لمن سأل ما يُعْلى من قدركم ويرفع ، وتأدية لحق سلفكم الذى توفرت حقوقه ، وإبلاغ نصيحة دينية إلى مجدكم الذى لا يمنعه عن المجد مانع ولا يعوقه ، ومطلبه فى جنب ملككم الكبير حقير ، وهو(٣) إلى ما يفتح الله تعالى به على يد صدقتكم فقير ، ومنهلكم الأرْوَى ، وباعكم فى الخير أطول وساعدكم أقوى ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، والله عز وجل يسلك بكم المسالك التى تخلد بالجميل ذكركم ، وتعظم عند الله أجركم ،

---

(١) فى ا ، ب « إلى أن ظهر سيفكم المليك من عاره » محرفا

(٢) السنن ــ بفتح السين ــ الطريق ، واللاحب : الواضح البين الظاهر المستقيم.

(٣) فى ب « وهو به إلى ما يفتح الله ــ إلخ » وكلمة « به » ساقطة من ا ولا معنى لها هنا .

فما عند الله خير للأبرار ، والدنيا دار الغرور والآخرة دار القرار ، وهو سبحانه يَصِل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته ، انتهى .

والسلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبى الحسن المَرِينى ، وكان ابن مرزوق غالبا على دولة السلطان أبى سالم أخى أبى فارس المذكور ، فقتله الوزير عمر بن عبد الله الفُودُودِى[1] ، وتغلب على الملك ، ونصب أخا لأبى سالم مَعْتُوها ، وسجن ابنَ مرزوق ، ورام قتله ، فخلصه الله تعالى منه ، ثم إن السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلب وقتله ، واستقل بالملك ، فخوطب فى شأن ابن مرزوق بما ذكر .

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر الراحلين من أعلام الأندلسيين إلى البلاد المشرقية المحروسة بالله سبحانه وتعالى ، فنقول :

أبو الوليد عبد الله بن محمد (ابن الفرضى) الأزدى القرطبى

ومنهم أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نَصْر ، الأزدى ، القرطبى ، المعروف بابن الفَرَضى ، الحافظ المشهور .

كان فقيها عالما ، عارفا بعلم الحديث ورجاله ، بارعا فى الأدب وغيره ، وله من التصانيف «تاريخ علماء الأندلس» ، وقفت عليه بالمغرب ، وهو بديع فى بابه وهو الذى ذيل عليه ابن بَشْكُوال بكتاب « الصلة » وله كتاب حسن فى المؤتلف والمختلف وفى مشتبه النسبة ، وكتاب فى أخبار شعراء الأندلس ، وغير ذلك ، ورحل من الأندلس إلى المشرق سنة ٣٨٢ ، فحج وسمع من العلماء وأخذ منهم وكتب من أماليهم ، وروى عن شيوخ عدّة[2] من أهل المشرق .

ومن شعره :

أسِيرُ الخطايا عند بابك واقفُ ⁂ على وَجَل مما به أنت عارفُ

(١) فى أصل ا « الفردودى » وفى نسخة عندها « الغودودى » .

(٢) فى ا « وروى عن عدة شيوخ » .

يخافُ ذنوباً لم يغِبْ عنك غيبُها ويرجوك فيها فهو راج وخائف

ومن ذا الذى يرجى سواك ويُتَّقَى ومالك فى فصل القضاء مُخَالِفُ

فياسَيِّدى لاتُخْزنى فى صحيفتى إذانُشِرت يوم الحساب الصحائف

وكن مؤنسى فى ظلمة القبرعندما يَصُد ذوو القربى ويجفو المؤالف

لئن ضاق عنى عَفْوُك الواسعُ الذى أرجِّى لإسرافى فإنى لَتَالِفُ

وكان ــ رحمه الله تعالى ! ــ حَسَن الشعر والبلاغة .

ومن شعره أيضاً رحمه الله تعالى :

إن الذى أصبحت طَوْعَ يمينه إن لم يكن قمرا فليس بدونه

ذُلى له فى الحب من سلطانه وسَقَامُ جسمى من سَقَامِ جُفونه

وله شعر كثير ، ومولده فى ذى القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١ ، وتولى القضاء بمدينة بَلَنْسية فى دولة محمد المهدى المروانى ، وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الإثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣ ، و بقى فى داره ثلاثة أيام ، ودفن متغيرا من غير غسل ولا كفن ولاصلاة ، رحمه الله تعالى ! .

وروى عنه أنه قال : تعلقت بأستار الكعبة ، وسألت الله تعالى الشهادة ، ثم انحرفت وفكرت فى هَوْل القتل ، فندمت وهممت أن أرجع فأستقيل الله سبحانه وتعالى فاستحييت .

وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف : لا يُكْلَمُ أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَبُ دما[1] اللونُ لونُ الدم والريح ريح المسك ، كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد فى ذلك ، قال : ثم قَضَى على إثر ذلك .

---

(١) يثعب : مضارع ثعب الدم والماء ونحوهما ــ من باب منع وفتح ــ إذا سال وانفجر ، وهو بالعين المهملة ، ووقع في ا « يثغب دما » بالغين معجمة

وهذا الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه .

وقد ساق فى المطمح حكايته فقال : كان حافظاً عالما كلفاً بالرواية ، رحل فى طلبها ، وتبحر فى المعارف بسببها ، مع حظ من الأدب كثير ، واختصاص بنظيم [منه] ونثير ، حج و برع ، فى الزهادة والورع ، فتعلق بأستار الكعبة يسأل الله الشهادة ثم فكر فى القتل ومرارته ، والسيف وحرارته ، فأراد أن يرجع ويستقيل الله تعالى فاستحيا ، وآثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا ، فأصيب فى تلك الفتن مكلوما ، وقتل مظلوما ، ثم ذكر مثل مامر .

ومما قال فى طريقه [إلى قرطبة] يتشوق[1] إلى فَرِيقِهِ :

مَضَت لى شهور منذ غبتم ثلاثة ... وما خِلتُنى أبقى إذا غبتم شهرا

ومالى حياة بعدكم أستلذها ... ولو كان هذا لم أكن فى الهوى حُرّا

ولم يُسْلِنى طول التنائى عليكم ... بلى زادنى وجدا وجَدَّد لى ذكرا

يمثلكم لى طولُ شوقى إليكم ... ويدنيكم حتى أناجيكم سرا

سأستعتب الدهر المفرق بيننا ... وهل نافعى أن صرت أستعتب الدهرا

أعلل نفسى بالمُنَى فى لقائكم ... وأستسهل البر الذى جُبْت والبحرا

ويُؤْنِسُنى طىُّ المراحل عنكم ... أروحُ على أرض وأغدو على أخرى

وتالله ما فارقتكم عن قِلًى لكم ... ولكنها الأقدار تجرى كما تجْرَى[2]

رعتكم من الرحمن عين بصيرة ... ولا كَشَفَتْ أيدى النوى عنكم سترا

وقد عرف به ابن حيان فى المقتبس ، وذكر قصة شهادته ، رحمه الله تعالى ! .

أبو بكر محمد ابن أحمد الشريشى

ومنهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، البكرى ، الشريشى ، المالكى .

---

(١) فى ب «يتشوف إلى إفريقية» بالفاء ، والفريق : أراد به صحبه

(٢) أخذ هذا البيت من قول الشاعر :

فوالله ما فارقتكم قاليا لكم ... ولكنما يقضى فسوف يكون

ولد بشَرِيشَ سنة ٦٠١، ورحل إلى العراق ، فسمع به المشايخ كالقطيعى وابن رَوْزَبَة[١] وابن الكثير وغيرهم ، واشتغل وساد أهل زمانه ، واشتهر بين أقرانه ، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية ، ثم انتقل إلى القدس الشريف ، فأقام به شيخ الحرم ، ثم جاء إلى دمشق المحروسة بالله ، وتولى مشيخة الحديث بتربة أم صالح ومشيخة الرباط الناصرى ومشيخة المالكية ، وعرض عليه القضاء فلم يقبل ، وكانت وفاته يوم الإثنين الرابع والعشرين من رجب ، بالرباط الناصرى ، ودفن بسفح قاسيون ، رحمه الله تعالى ! وذلك سنة خمس وثمانين وستمائة ، رحمه الله تعالى ! .

وليس هو بشارح المقامات ، بل هو وغيره ، وقد اشتركا فى البلد ، فبسبب ذلك ربما يقع فى الأذهان الوهم فى أمرهما ، وشارح المقامات أحمد وهذا محمد[٢] ، وقد ترجمنا صاحب شرح المقامات فيما تقدم من هذا الباب ، فليراجع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

أبو محمد عبد العزيز بن أحمد البلنسى القيسى

ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلِّس ، القَيْسى ، الأندلسى ، البَلَنْسى .

كان من أهل العلم باللغة والعربية ، مشارا إليه فيهما ، رحل من الأندلس ، وسكن بمصر واستوطنها ، وقرأ الأدب على أبى العلاء صاعد اللغوى صاحب كتاب الفصوص ، وعلى أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن خُرَّزَاذ النجِّيرَمى[٣] ، ودخل بغداد ، واستفاد وأفاد ، وله شعر حسن ، فمن ذلك قوله :

مريض الجفون بلا علة ولكن قلبى به مُمْرَضُ
أعان السهاد على مقلتى بفيض الدموع فما تَغْمِضِ

(١) فى ا « وابن زروبة » وفى ب «وابن زروية» (٢) فى ا « وهو محمد»

(٣) فى أصل ا « يوسف بن يعقوب البحترى » وفى ب ونسخة عندا « يوسف ابن خرقان» وفى نسخة ثالثة « يوسف بن خرقاد » وكل ذلك تحريف ، تصويبه عن ابن خلكان ، وهو « أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن خرزاذ النجيرمى اللغوى البصرى ، نزيل مصر ، المتوفى فى سنة ٤٢٣ »

وما زار شوقا ولـكن أتى يُعَرِّضُ لى أنَّه معرض

وله أشعار كثيرة ، وتوفى يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة ٤٢٧ ، وقيل : سنة ٤٢٩ ، بمصر ، وكان استوطنها ، وصلى عليه الشيخ أبو الحسن على ابن إبراهيم الحوفى صاحب التفسير فى مصلى الصَّدَفى ، ودفن عند أبى إسحاق[(١)] رحمه الله تعالى .

ومُغَلِّس: بضم الميم، وفتح الغين ، وتشديد اللام المكسورة ، وبعدها سين مهملة .

وكانت بينه و بين أبى الطاهر إسماعيل بن خلف صاحب كتاب «العنوان» معارضات فى قصائد[(٢)] .

ومن شعر ابن المغلِّس أيضا قوله فى حَمَّام :

ومنزلِ أقوامٍ إذا ما اغتدوا به تشابه فيـه وَغْدُه ورئيسه

يخالط فيـه المرء غير خليطه ويضحى عدو المرء وهو جليسه[(٣)]

يفرج كربى إن تزايد كربه ويؤنس قلبى أن يُعَدَّ أنيسـه

إذا ما أعرت الحوضَ ماءً تكاثرت على مائه أقماره وشموسـه[(٤)]

أبو الحكم عبيد الله بن المظفر (المغربى)

ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله ، الحكيم ، الأديب ، المعروف بالمغربى .

وهو من أهل المَرِية ، وانتقل إلى المشرق ، وكان كامل الفضيلة ، وجمع بين الأدب والحكمة ، وله ديوان شعر جيد ، والخلاعة والمجون غالبة عليه ، وذكر العماد فى «الخريدة» أنه كان طبيب المارستان [المستصحب] فى معسكر السلطان السلجوقى حيث [حَلّ وَ] خيَّم ، وكان السديد[(٥)] يحيى بن سعيد المعروف بابن المرخِّم الذى صار أقضى القضاة

(١) الذى فى ابن خلكان « عند بنى إسحاق »

(٢) فى ابن خلكان زيادة « هى موجودة فى ديوانهما »

(٣) كذا فى نسخة عند ا ، وفى أصل ا « يخالط فيه المرء غير خليله »

(٤) فى ب ونسخة عندا « إذا ما أعرت الجو طرفا » (٥) فى ب « وكان السيد » محرفا ، وفى ابن خلكان « وكان السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد »

ببغداد فى أيام المقتفى فاصداً وطبيبا فى المارستان ، وأثنى العماد على أبى الحكم المذكور ، وذكر فضله وما كان عليه ، وأن له كتابا سماه « نهج الوضاعة ، لأولى الخلاعة » ثم إن أبا الحكم انتقل إلى الشام ، وسكن دمشق ، وله فيها أخبار وماجريات[1] ظريفة تدل على خفة روحه .

قال ابن خلكان : رأيت فى ديوانه أن أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسى كان عند الأمراء بنى مُنْقِذ بقلعة شَيْزَر ، وكانوا مقبلين عليه ، وكان بدمشق شاعر يقال له أبوالوحش[2] ، وكانت فيه دُعَابة ، و بينه و بين أبى الحكم المذكور مداعبات ، فسأل منه كتابا إلى ابن منير بالوصية عليه ، فكتب أبو الحكم :

أبا الحسين اُسْتَمِعْ مقال فتى ... عُوجِلَ فيما يقول فارتجلا[3]
هذا أبو الوحش جاء ممتدحا ... للقوم فاهنأ به إذا وَصَلَا
وأُتْلُ عليهم بحسن شرحك ما ... أنقله من حديثه جُمَلَا
وخَبِّر القوم أنه رَجُل ... ما أبصر الناس مثله رجلا
تنوب عن وصفه شمائله ... لا يبتغى عاقل به بدَلا

ومنها :

وهو على خفة به أبداً ... معترفٌ أنه من الثُّقَلا
يَمُتّ بالثلْب والرقاعة والسخف ، وأما بغير ذاك فلا
إن أنت فاتحته لتَخْبُرَ ما ... يَصْدُر عنه فتحت منه خَلَا
فهَبه إن حل خطة الخسف والهون ورَحِّبْ به إذا رَحَلَا
وأسْقِهِ السم إن ظفرت به ... وامزجْ له من لسانك العسلا

---

(١) فى ا « ومجاريات » والذى اشتهر وكثر فى عبارة ابن خلكان هو « ماجريات »

(٢) فى نسخة عندنا وابن خلكان « أبو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن هبة الله الفقعسي ، وكانوا يصغرون كنيته ، فيقولون : وحيش »

(٣) فى ب ونسخة عندنا « اسمع مقال فتى » ولا يتم عليها الوزن ، والأبيات من المنسرح

وله أشياء مستملحة ، منها مقصورة هزلية ، ضاهى بها مقصورة ابن دريد ، من جملتها :

وكلٌّ ملمـــوم فلا بد له من فرقة لو ألْزَقُوهُ بالغِرا

وله مرثية فى عمادالدين زنكى[1] بن آق سنقر الأتابكى ، شاب فيها الجد بالهزل ، والغالبُ على شعره الانطباع .

وتوفى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة سنة ٥٤٩ ، وقيل : فى السنة التى قبلها ، بدمشق ، رحمه الله تعالى !.

والقاضى ابن المرخِّم المذكور هو الذى يقول فيه أبو القاسم هبة الله ابن الفضل[2] الشاعر المعروف بابن القطان :

يا ابن المرخِّم صرت فينا قاضياً خرف الزمان تراه أم جُنَّ الفلك

إن كنت تحكم بالنجوم فربما أما بشرع محمد من أين لك

وكان أبو الحكم المذكور فاضلا فى العلوم الحكمية ، متقنا للصناعة الطبية ، حسن النادرة ، كثير المداعبة ، محبا للهو والخَلاعة والشراب ، وكان يعرف صنعة الموسيقى ويلعب بالعود ، ويجلس فى دكان بجيرون[3] للطب ، وسكناه باللبادين ، وأتى فى ديوانه « نهج الوضاعة » بكل غريب ، يدل على أنه أريب ، سامحه الله تعالى وغفر له !.

عثمان بن سعيد (أبو عمرو الدانى) الأموى ، القرطبي

ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق : من هو الأحق[4] بالتقديم والسبق ، الشهير عند أهل الغرب والشرق ، الحافظ المقرى الإمام الربانى ، أبو عمرو الدَّانِى ، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر ، الأموى ، مولاهم ، القرطبى ، صاحب التصانيف التى منها المقنع والتيسير .

---

(١) هكذا فى ابن خلكان ، ووقع فى ا ، ب « عمادالدين بن يحيى » وليس بشىء

(٢) فى ب « بن فضل » ولابن القطان ترجمة فى ابن خلكان (٥/١٠٤ بتحقيقنا)

(٣) جيرون : اسم باب من أبواب دمشق ، وقد يطلق على دمشق كلها ، واللبادين : اسم لشارع من شوارع دمشق عند جيرون

(٤) فى ا « من هو لاحق » .

وعرف بالدانى لسكناه دَانِيَة ، وولد سنة ٣٧١ ، وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل إلى المشرق سنة ٣٩٧ ، فمكث بالْقَيْرَوَان أربعة أشهر ، ودخل مصر فى شوّالها ، فمكث بها سنة ، وحج ، ورجع إلى الأندلس فى ذى القعدة سنة ٣٩٩ ، وقرأ بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسى وغيره بقرطبة ، وعلى أبى الحسن بن غَلْبُون وخلف بن خاقان المصرى وأبى الفتح فارس بن أحمد ، وسمع من أبى مسلم الكاتب ، وهو أكبر شيخ له ، ومن عبد الرحمن بن عثمان القُشَيْرى ، وحاتم بن عبد الله البزار[١]، وغير واحد من أهل مصر وسواها ، وسمع من الإمام أبى الحسن القابسى ، وخلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس ، وتلا عليه خلق منهم مفرج الأقفالى وأبو داود بن نجاح[٢] صاحب التنزيل فى الرسم ، وهو من أشهر تلامذته ، وحدث عنه خلق كثير ، منهم خلف بن إبراهيم الطُّلَيْطلى .

قال أبو محمد عبيد الله الحَجَرِى : ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن فى عصر الحافظ أبى عمرو الدانى ولا بعد عصره أحد [يدانيه ولا][٣] يضاهيه فى حفظه وتحقيقه، وكان يقول : ما رأيت شيئاً قط إلا كتبته ، ولا كتبته إلا حفظته ، ولا حفظته فنسيته .

قال ابن بشكوال : كان أبو عمرو أحد الأئمة فى علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه و إعرابه ، وجمع فى ذلك كله تواليف حِسَانا ، وله معرفة بالحديث وطرقه [و إعرابه][٣] وأسماء رجاله ، وكان حسن الخط والضبط ، من أهل الحفظ والذكاء واليقين ، وكان دينا فاضلا ورعا سَنِيا .

وقال بعضهم، وأظنه المَغَامى[٤]: كان أبو عمرو مُجَابَ الدعوة ، مالكى المذهب ،

(١) فى نسخة عند ا «البزاز» (٢) فى نسخة عند ا «بن حجاج» (٣) زيادة عما فى ا

(٤) المغامى : نسبة إلى مغام – ويقال : مغامة – بلد بالأندلس ، ذكرها ياقوت، وذكر من نسب إليها « محمد بن عتيق بن فرج ، التجيبى ، المغامى ، المقرى ، الطليطلى» وقال عنه « لقى أبا عمرو الدانى وعليه اعتمد »

وقال بعض أهل مكة : إن أباعمرو الدانى مقرئ متقدّم ، وإليه المنتهى فى علم القراءات وإتقان القرآن ، والقراء خاضعون لتصانيفه ، واثقون بنقله فى القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك ، وله مائة وعشرون مصنفاً ، وروى عنه بالإجازة رجلان : أحمد بن محمد بن عبد الله الخَوْلانى ، وأبو العباس أحمدُ ابن عبد الملك بن أبى حمزة[1] ، وكانت وفاته رحمه الله تعالى بدانية فى نصف شوّال سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

أبو محمد عبد الله بن عيسى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد ابن أبى حبيب ، الأندلسى .

من بيت علم ووزارة ، صرف عمره فى طلب العلم ، وكان غزير العلم فى الفقه والحديث والأدب وولى القضاء بالأندلس مرة[2] ، ثم دخل الإسكندرية ومصر ، وجاور بمكة المشرفة ، ثم قدم العراق ، وأقام ببغداد مدّة ، ثم وافى خراسان فأقام بنيسابور وبلخ ، وكانت ولادته ببلاد الأندلس ، وتوفى بِهَرَاة فى شعبان سنة ٥٤٨[2] ، رحمه الله تعالى ، ورضى عنه ! .

أبو العباس أحمد بن على (ابن شكر)

ومنهم أبو العباس أحمد بن على بن محمد بن على بن شكر ، الأندلسى ، المقرى .

رحل وأخذ القراءات عن أبى الفضل جعفر الهمدانى ، وسمع من أبى القاسم ابن عيسى ، وسكن الفيوم ، واختصر « التيسير » وصنف شرحا للشاطبية ، وتوفى سنة ٦٤٠ ، رحمه الله تعالى ! .

علم الدين القاسم بن أحمد اللورقى

ومنهم العلامة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المرينى ، اللورقى ، المقرى ، النحوى .

ولد سنة ٥٧٥[3] ، وقرأ القراءات ، وأحكم العربية ، وبرع فيها ، واجتمع

---

(١) فى نسخة « ابن أبى جمرة » (٢) فى نسخة عندنا « وولى القضاء بالأندلس مدة »
(٣) فى نسخة « سنة ٥٨٥ »

بالجزولى ، وسأله عن مسألة فى مقدمته ، وقرأ علم الكلام والأصولين[١] والفلسفة ، وكان خبيرا بهذه العلوم ، مقصودا بإقرائها وولى مشيخة قراءة العادلية ، ودرس بالعزيزية نيابة ، وصنف شرحا للشاطبية ، وشرحا للمفصل فى عدة مجلدات ، وشرح الجزولية ، وغيرذلك ، وكان مليح الشكل ، حسن البزة ، وتوفى سنة ٦٦١ رحمه الله تعالى ورضى عنه !.

أبو عبد الله بن أبى الربيع الغرناطى

ومنهم أبو عبد الله بن أبى الربيع ، القيسى[٢] ، الأندلسى ، الغرناطى . قدم مصر سنة ٥١٥ أو بعدها ، فسمع على السِّلَفى ، و بقراءته على جماعة من شيوخ مصر ، وكان لديه فقه وأدب ، ثم سافر إلى باب الأبواب ، وكان حيا سنة ٥٥٦ .

ومن نظمه يمدح كتاب الشهاب :

إن الشهاب له فَضْلٌ على الكتب ... بما حَوَى من كلام المصطفى العربى

كم ضم من حكمة غَرًّا وموعظة ... ومن وعيد ومن وعد ومن أدب

أما القضاعى فالرحمن يرحمه ... كما حباه من التأليف بالعجب

أبو عامر محمد ابن سعدون العبدرى

ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى ، القرشى ، العَبْدَرى . من أهل مَيُورقة من بلاد الأندلس ، سكن بغداد ، وسمع بها من أبى الفضل ابن خيرون وطَرّاد الزينبى وأبى عبد الله الحميدى وجماعة ، ولم يزل يسمع إلى حين وفاته ، وكتب بخطه كثيرا من الكتب والأجزاء ، وجمع وخَرَّج ، وكان صحيح العقل ، معتمد الضبط ، مرجوعا إليه فى الإتقان ، وكفاه فخرا وشرفا أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السِّلَفى وأبو الفضل محمد بن ناصر ، وكان فهامة علامة ذا معرفة بالحديث ، متعففاً مع فقره ، وكان يذهب إلى أن المناولة والعَرْض كالسماع .

وقال السلفى فيه : إنه من أعيان علماء الإسلام ، بمدينة السلام ، متصرف فى

---

(١) الأصولين : أراد بهما : أصول الفقه ، وأصول الدين المعروف بالكلام

(٢) فى نسخة عندنا « الضبى »

فنون من العلم أدباً ونحوا ومعرفة بأنساب العرب والمحدثين ، وكان داودى المذهب ، قرشى النسب ، وقد كتب عنى وكتبت عنه ، وسمعنا معاً كثيرا على شيوخ بغداد ، ومولده بقرطبة من مدن الأندلس ، وقبل اجتماعى به كنت أسمع إسماعيل بن محمد ابن الفضل الحافظ بأصبهان يثنى عليه ، فلما اجتمعنا وجدته فوق ماوصفه ، انتهى .

وقال ابن عساكر : كان أحفظ شيخ لقيته ، وربما حكى عنه بعضهم كابن عساكر أمورا منكرة ، فالله أعلم .

وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٥٢٤ ببغداد ، رحمه الله تعالى ! .

أبو عبد الله محمد ابن سعدون الباجى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعدون ، الباجى .

سمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وابن رشيق ، وبمكة من الآجرى ، وكان صالحا فاضلا زاهدا ورعا ، حدث ، ومات ببَطَلْيَوْسَ فجأة سنة ٣٩٢ ، ومولده سنة ٣٢٢.

أبو بكر محمد ابن سعدون الجزيرى

ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون ، التميمى ، الجزيرى ، المتعبد .

كانت آدابه كثيرة ، وحج غير مرة ، ورابط ببلاد المغرب ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، سمع بمصر من جماعة ، وبمكة ، وصحب الفقراء ، وطاف بالشام ، وغزَا غزوات ، وتعرض للجهاد ، وحرض عليه ، وساح بجبل المقطم ، وذكر أنه صلى بمصر الضحى اثنتى عشرة ركعة ، ثم نام فرأى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله[1] ، إن مالكا والليث اختلفا فى الضحى ، فمالك يقول : ثنتا عشرة ركعة والليث يقول: ثمانيا[2] ، فضرب عليه الصلاة والسلام بين وركى ابن سعدون وقال : رأى مالك هو الصواب ، ثلاث مرات ، قال : وكان فى وركى وجع ، فمن تلك الليلة زال عنى ، وكان له براهين من نور يضىء عليه إذا صلى ونحوه ، وأنشد :

سِجْنُ اللسان هو السلامةُ للفتى من كل نازلة لها استئصال

---

(١) فى أصل ا « يارسول الله ، إلى ، إن مالكا — إلخ »

(٢) فى ب « ثمانية »

إن اللسان إذا حللت عقـــاله ألقاك فى شـــنعاء ليس تُقَالُ

توفى سنة ٣٤٤ .

أبو عبد الله محمد بن سعد الأعرج

ومنهم أبو عبدالله محمد بن سعد الأعرج ، الطُّلَيْطلى الخطيب [١]

وقال فيه ابن سعيد : سمع بمصر ابن الورد وابن السكن ، وحدث ، مولده سنة ٣٠٩ ، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٣٨٤ .

أبو عبد الله محمد بن سعيد الأموى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن إسحاق بن يوسف ، الأموى ، القرطبى .

وأصله من لَبْلَة ، ولكن سكن قرطبة ، وقدم مصر ، وحج ، وسمع فى طريقه من الشيخ أبى محمد بن أبى زيد صاحب الرسالة ، وأخذ عن القابسى وعن جماعة من علماء مصر والحجاز ، ومولده سنة ٣٥٢ ، ورحلته سنة ٤١٨ .

أبو عبد الله محمد بن سعيد القرطبي

ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حسان بن الحكم بن هشام ، القرطبى .

سمع من أبيه ويحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب ، ورحل ، فسمع من أشهب بن عبدالعزيز وعبد الله بن نافع وعبدالله بن عبدالحكم ، وعاد إلى الأندلس وبها توفى سنة ٢٦٠ ، رحمه الله تعالى ! .

أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان ، المَعَافرى ، الشاطبى ، نزيل الإسكندرية ، ويعرف بابن أبى الربيع .

أحد أولياء الله تعالى ، شيخ الصالحين ، صاحب الكرامات المشهورة ، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلى عن الناس والتمسك بطريقة السلف ، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبى عبد الله محمد بن سعادة الشاطبى وغيره ، وقرأ بدمشق على الواسطى ، وسمع عليه الحديث ، ورحل ، فسمع من الزاهد أبى يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قبره ومنبره سنة ٦١٧ ، وسمع بدمشق على أبى القاسم بن صَصْرَى [٢] وأبى المعالى بن

---

(١) فى ب « ويقال فيه ابن سعيد » وكلمة « يقال » محرفة عن « قال » ففسد المقصود

(٢) فى أصل ا « مصرى » بالميم فى أوله — وهو تحريف

خضر وأبى الوفاء بن عبد الحق وغيرهم ، وانقطع لعبادة الله تعالى فى رباط سَوَّار من من الإسكندرية بتربة أبى العباس الراسى ، وتَلْمَذَ للشاطبى تلميذ الراسى ، وصنف كتباً حسنة : منها كتاب « المسلك القريب ، فى ترتيب الغريب » وكتاب « اللمعة الجامعة ، فى العلوم النافعة » فى تفسير القرآن العزيز ، وكتاب « شرف المراتب والمنازل ، فى معرفة العالى من[1] القراءات والنازل » وكتاب « المباحث السنية ، فى شرح الحصرية » وكتاب « الحرقة ، فى إلباس الخرقة[2] » وكتاب « المنهج المفيد ، فيما يلزم الشيخ والمريد » وكتاب « النبذ الجلية ، فى ألفاظ اصطلح عليها الصوفية » وكتاب « زهر العريش ، فى تحريم الحشيش » وكتاب « الزهر المضى ، فى مناقب الشاطبى » وكتاب « الأربعين المضية ، فى الأحاديث النبوية » ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ، ووفاته بالإسكندرية فى رمضان سنة ٦٧٢ ، ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته ، رحمهما الله تعالى ، ونفع بهما !.

أبو عبد الله محمد بن شريح الرعينى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن شُرَيح ، الرُّعَينى ، الإشبيلى .

قدم مصر ، وسمع بها من ابن نفيس وأبى على الحسن البغدادى وأبى جعفر النحوى وأبى القاسم بن الطيب البغدادى الكاتب ، وبمكة من أبى ذر الهروى .

قال ابن بَشْكُوال : كان من جملة المقرئين[3] وخيارهم ، ثقة فى روايته ، وكانت رحلته إلى المشرق سنة ٤٢٣[4] ، وولد سنة ٣٩٢ ، وتوفى سنة ٤٧٦ ، وعمره أربع وثمانون سنة إلا خمسة وخمسين يوماً ، وروى بإشبيلية عن جماعة ، رحمه الله تعالى !

أبو عبد الله محمد بن صالح المالقى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح الأنصارى ، المالَقِى .

قال السلفى : هو شاب من أهل الأدب ، له خاطر ، سمح كان يحضر عندى

---

(١) فى ا « العالى فى القراءات والنازل »

(٢) كذا فى ب ونسخة عندنا ، وفى أصل ا « فى لباس الحرقة »

(٣) فى نسخة « من جملة المقربين »

(٤) فى ا « سنة ٤٣٣ »

بالإسكندرية ، كثير السماع للحديث ، وذكر أنه قرأ الأدب على أبي الحسين ابن الطَّراوة النحوي بالأندلس ، وعلى نظرائه ، وأنشدني لنفسه :

كم ذا تُقَلْقلني النوى وتَسُوقني ... وإلى مَتَى أشْجَى بها وأُسَامُ

أَلِفتْ ركائبيَ الفلا فكأنما ... للبَيْن عَهْدٌ بيننا وذِمَامُ[1]

يا وَيْحَ قلبي من فراق أحِبَّةٍ ... أبدًا تُصَدِّعه به الأيام

أبو عبد الله محمد ابن صالح القحطاني

ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح ، القحطاني ، المَعَافري ، الأندلسي ، المالكي رحل إلى المشرق فسمع بالشام من خَيْثمة بن سليمان ، وبمكة أبا سعيد ابن الأعرابي ، وببغداد إسماعيل بن محمد الصفار[2] ، وسمع بالمغرب بكر بن حماد التَّاهَرْتي ومحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ [وغيرهم][3] وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزني ، روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال : اجتمعنا به بهمذان ، مات ببخاري سنة ٣٨٣ ، وقيل : سنة ثمان ، وقيل : سنة تسع وسبعين ، وقال فيه أبو سعيد الأندلسي[4] : إنه كان من أفاضل الناس ، ومن ثقاتهم ، وقال غُنْجَار : إنه كان فقيهاً حافظاً ، جمع تاريخاً لأهل الأندلس ، وقال السمعاني فيه : كان فقيها حافظاً ، رحل في طلب العلم إلى المشرق والمغرب ، رحمه الله تعالى !.

أبو عبد الله محمد ابن طاهر الداني

ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر[5] بن علي بن عيسى ، الخزرجي ، الداني ، النحوي ، أخو أبي العباس بن عيسى .

سمع بدَانِيَةَ من أبي داود المقري وغيره ، وقدم دمشق سنة ٥٥٤ حين خرج حاجاً ، وأقرأ بدمشق النحو مدّة ، ثم خرج إلى بغداد ، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦١٩ ، وولد سنة ٥١٢ ، وقدم مصر سنة ٥٧٢ ، وله من المصنفات كتاب « تحصيل عين الذهب ، من معدن جوهر الأدب ، في علم مجازات العرب »

(١) في ا في صدره « ألفت ركابي » ولا يستقيم عليها الوزن

(٢) هكذا في ا وهو الصواب ، وفي ب « محمد بن إسماعيل بن محمد الصفار »

(٣) هذه الكلمة لا توجد في ا (٤) كذا في ب ، وفي ا « أبو سعيد الإدريسي »

(٥) في نسخة عند ا « بن ظاهر » وفي ب « محمد بن طاهر علي »

ومن كلامه : ليست هيبة الشيخ لشيبه ولا لسنه ولا لشخصه ، ولكن لكمال عقله ، والعقل هو المُهَاب ، ولو رأيت شخصاً جمع جميع الخصال وعَدِمَ العقل لما هبته ، وقال : من جهل شيئاً عابه ، ومن قصر عن شيء هابه .

محمد بن بشير المعافرى القاضى

ومنهم القاضى الشهير محمد بن بشير، وهو محمد بن سعيد بن بشير بن شَرَاحيل، المَعافرى ، وقيل فى آبائه غير ذلك كما يأتى .

ولما أشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير إلى خطة القضاء بقُرْطبة وَجَّه إليه بباَجَة ، فأقبل ولا يعلم ما دُعِيَ إليه ، ونزل على صديق له من العُبَّاد ، فتحدث فى شأن استدعائه ، وقدّم أنه يعرف فن[1] الكتابة ، فقال له العابد : ما أراه بعث فيك إلا للقضاء ، فإن القاضى بقرطبة مات وهى الآن دون قاض ، فقال ابن بشير : فأنا أستشيرك فى ذلك إن وقع ، فقال : أسألك عن أشياء ثلاثة ، وأعزم عليك أن تصدقنى فيها ، ثم أشير بعد ذلك عليك ، فقال : ما هى ؟ فقال : كيف حُبُّك للأكل الطيب واللباس اللين وركوب الفاره[2] ؟ فقال : والله لا أبالى ما رددتُ به جوعى وسترتُ به عورتى وحملتُ به رحلى ، فقال : هذه واحدة ، فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان والتبطن للكواعب الغيد[3] وما شاكل ذلك من الشهوات ؟ فقال : هذه حال والله ما استشرَفْتُ قط إليها ، ولا خَطَرَتْ ببالى ، ولا اكترثت لفقدها ، فقال : وهذه ثانية ، فكيف حُبُّك لمدح الناس لك وثنَائهم عليك ؟ وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل ؟ فقال : والله ما أبالى فى الحق مَنْ مَدَحنى وذمّنى ، وما أسر للولاية ولا أستوحش للعزل ، فقال : وهذه الثالثة ، أقبل الولاية فلا بأس عليك ، فقدم قرطبة ، فولاه الأمير الحكم القضاء والصلاة .

---

(١) فى ا « وقدم أنه صرف فى الكتابة » ولعله تحريف ما أثبتناه موافقا لما فى ب

(٢) الفاره من الحمر والبراذين : الحاد القوى ذو النشاط.

(٣) الكواعب : جمع كاعب ، وهى الجارية التى نهد ثديها واكتنز ، والغيد : جمع غيداء ، وهي الشابة الناعمة

قال ابن وضاح : أخبرنى مَنْ كان يرى محمد بن بشير القاضى داخلا على باب المسجد [الجامع] يوم الجمعة ، وعليه رداء مُعَصْفَر ، وفى رجله نعل صَرَّارة(١) ، وله جُمَّة مفرقة(٢) ، ثم يقوم فيخطب ويصلى وهو فى هذا الزى ، وبه كان يجلس للقضاء بين الناس ، فإن رام أحد من دينه شيئاً وجده أبْعَدَ من الثريا .

وأتاه رجل لا يعرفه ، فلما رأى ما هو فيه من زى الْحَدَاثة من الجمة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء فى يديه ، توقف وقال : دلونى على القاضى ، فقيل له : هاهو ، وأشير إليه ، فقال : إنى رجل غريب ، وأراكم تستهزئون بى ، أنا أسألكم عن القاضى وأنتم تدلوننى على زامرٍ ، فصححوا له أنه القاضى ، فتقدم إليه واعتذر ، فأدناه وتحدث معه ، فوجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنه ، فكان يحدث بقصته معه .

وعوتب فى إرسال لِمَّتِهِ(٢) ولبسه الخز والمعصفر ، فقال: حدثنى مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر – وكان سيد القراء – كانت له لِمَّةٌ(٢) ، وأن هشام بن عروة فقيه هذا البلد – يعنى المدينة – كان يلبس المعصفر ، وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخز ، ولقد سئل يَحْيَى بن يحيى عن لباس العمائم فقال : هى لباس الناس فى المشرق ، وعليه كان أمرهم فى القديم ، فقيل له : لو لبستها لاتَّبعك الناس فى لباسها ، فقال : قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه ، وكان ابنُ بشير أهلا أن يُقْتَدَى به ، فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير .

وكان أول ما نظر فيه محمد بن بشير – حين ولى القضاء – التسجيل على الخليفة الحكم فى أَرْحِى القنطرة(٣) إذ قِيمَ عليه فيها وثبت عنده حق المدّعى ، وأعذر إلى الحكم فلم يكن عنده مدفع ، فسجل فيها ، وأشهد على نفسه ، فما مضت

---

(١) نعل صرارة : يريد أنه يسمع لها صوت إذا سار ، تقول : صر الجندب ، تعنى أنه صوت ، وقيل للريح الشديدة « صرصر » من ذلك

(٢) الجمة – بضم الجيم – الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن ، واللمة : الشعر دون الجمة

(٣) الأرحى : جمع رحى .

مُدَيْدة حتى ابتاعها الحكم ابتياعاً صحيحاً ، فسر بذلك ، وقال : رحم الله محمد ابن بشير ! فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره منا ، كان فى أيدينا شىء مشتبه فصححه لنا ، وصار حلالا طيب الملك[١] فى أعقابنا ، وحكم على ابن فُطَيْس الوزير ، ولم يُعَرّفه بالشهود ، فرفع الوزير ذلك إلى الحكم ، وتظلم من ابن بشير ، فأومأ الحكم إليه أن الوزير كره[٢] حُكْمَك عليه بشهادة قوم لم تعرّفه بهم ، ولا أعذرت إليه فيهم ، وإن أهل العلم يقولون : إن ذلك له ، فكتب إليه ابن بشير : ليس ابن فُطَيْس ممن يُعَرّف بمن شهد عليه ، لأنه إن لم يجد سبيلا إلى تجريحهم لم يتحرج عن طلب أذاهم فى أنفسهم وأموالهم ، فيَدعون الشهادة هم ومن ائْتَسَى بهم ، وتضيع أموالُ الناس .

وأكثر موسى بنُ سماعة أحدُ خواصّ الأمير الحكم فى ابن بشير الشكاية ، وأنه يجور عليه ، فقال له الحكم : أنا أمتحن قولك الساعة ، فاخرج إليه فوراً ، واستأذن عليه ، فإن أذن لك عزلته ، وصدّقت قولك فيه ، وإن لم يأذن لك دون خصمك ازددتُ بصيرة فيه ، فليس هو عندى بجائر[٣] على حال ، وإنما مقصده الحق فى كل ما يتصرف فيه ، فخرج يؤم دار ابن بشير : وقد أمر الحكم مَنْ يثق به من الفتيان الصَّقالبة أن يَقْفُوا أثره ويعلموا ما يكون منه ، فلم يكن إلا رَيْثما بلغ ، ثم انصرف فحكى للحكم أنه لما خرج الآذن إلى موسى وعلم القاضى بمكانه عاد إليه فقال له : إن كانت لك حاجة فاقصد فيها إذا جلس القاضى مجلس القضاء ، فتبسم الحكم ، وقال : قد أعلمته أن ابن بشير صاحب حق لا هَوَادة فيه عنده لأحد .

وولى القضاء مرتين ، فلما عُزِل المرة الأولى انصرف إلى بلده ، وكان بعض

(١) فى أصل ا « طيب المسلك » محرفا

(٢) فى ا « أن الوزير ذكر حكمك »

(٣) فى ا « فليس هو بجائز على حال » محرفا

إخوانه يعاتبه فى صلاَبته ، و يقول له : أخشى عليك العَزْل ، فيقول له : ليته قدر أن الشقراء ـ يعنى بغلته ـ تقطع الطريق بى جادة نحو[1] باجة ، فما مضى إلا يسير حتى عتب عليه الأمير فى قصة[2] اشتد فيها على بعض خاصته ، فكانت سبباً لعزله، وانصرف كما تمنى ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أتى فيه رَقَّاص من قبل الأمير الحكم، والرقاص عند المغاربة : هو الساعى عند المشارقة ، فعاد إلى قُرْطُبة ، وجَبَره على القعود للقضاء الأمير الحكم ، فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته و بصدقة ما يملك فى سبيل الله تعالى إن حَكَمَ بين اثنين ، فلم يَعْذِره ، وأخرجه من ماله ، وعَوّضه من طيب ما عنده ، ووهب له جارية من جواريه ، فعاد إلى القضاء ثانية .

ومما يحكى عنه فى العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل وَكَّلَ عند ابن بشير وكيلا يخاصم عنه لشىء اضطر إليه ، وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا ، ولم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم وشاهد آخر مبرز ، فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد ، وضُرِبت على وكيله الآجالُ فى شاهد ثانٍ ، وجَدَّ به الخصام ، فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحكم وأراه شهادته[3] فى الوثيقة ، وقد كان كتبها قبل الخلافة فى حياة أبيه ، وعرفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفا من بطلان حقه ، وكان الحكم يعظم سعيد الخير عَمَّه ، ويلتزم مبرته ، فقال له : ياعم ، إنا لسنا من أهل الشهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لاتجهله ، ونخشى أن توقفنا مع القاضى موقف مَخْزاة كنا نفديه بملكنا ، فصِرْ فى خصامك حيث صيرك الحق إليه ، وعلينا خَلَفُ ما انتقصك ، فأبى عليه ، وقال : سبحان الله ! وما عسى أن يقول قاضيك فى شهادتك ؟ وأنت وَلّيته ، وهو حسنة من حسناتك ، وقد لزمتك فى الديانة أن تشهد لى بما علمته ،

(١) كذا فى ب ، وفي ا « حاثة نحو باجة »

(٢) فى نسخة عند ا « فى قضية »

(٣) فى ا « وأراد شهادته فى الوثيقة » وما أثبتناه عن ب أدق

ولا تكتمنى ما أخذ الله عليك ! فقال : بلى ، إن ذلك لمن حقك كما تقول ، ولـكنك تدخل علينا به داخلة ، فإن أعفيتنا منه فهو أحبُّ إلينا ، وإن اضطررتنا لم يمكنا عقوقك ، فعزم عليـه عَزْمَ من لم يشكَّ أنْ قد ظفر بحاجته ، وضايقته الآجال ، فألح عليه ، فأرسل الحـكم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه ، وخط شهادته بيده فى قرطاس ، وختم [عليها][1] بخاتمه ، ودفعها إلى الفقيهين وقال لهما : هذه شهادتى بخطى تحت ختمى ، فأدياها إلى القاضى ، فأتيَاه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود ، فأدياها إليه ، فقال لهما : قد سمعت منكما فقوما راشدين فى حفظ الله تعالى ، وجاء وكيل سعيد الخير ، وتقدم إليه مُدِلاًّ واثقا ، وقال له : أيها القاضى ، قد شهد عندك الأمير ـ أصلحه الله تعالى ! ـ فما تقول ؟ فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه ، ثم قال للوكيل : هذه شهادة لا تعمل عندى[2] ، فجئنى بشاهد عَدْل ، فدُهش الوكيل ، ومضى إلى سـعيد الخير فأعلمه ، فركب من فوره إلى الحكم ، وقال : ذهب سلطاننا ، وأزيل بهاؤنا ، يجترىء هـذا القاضى على رد شهادتك ، والله سبحانه قد استخلفك على عباده ، وجعل الأمر فى دمائهم وأموالهم إليك ؟ هذا ما يجب[3] أن تحمله عليه ، وجعل يُغْريه بالقاضى ويحرضه على الإيقاع به ، فقال له الحـكم : وهل شكـكت أنا فى هذا يا عم ؟ القاضى رجل صالح والله، لا تأخذه فى الله لَوْمَة لائم ، فعل ما يجب عليه ويلزمه، وسَدَّ دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحْسَنَ الله تعالى جزاءه ! فغضب سعيد الخير ، وقال : هذا حسبى منك ، فقال له : نعم قد قضيت الذى كان لك على ، ولست والله أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله .

ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه : يا عاجز ، أما تعلم أنه

---

(١) هذه الـكلمة ساقطة من ا

(٢) فى نسخة « لا تقبل عندى »

(٣) فى أصل ا « هذا ما لا يجب أن تحمله عليه »

لابد من الإعذار فى الشهادات ، فمن كان يجترىء على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها؟ ولو لم أعذر لبَخَسْتُ المشهود عليه حقه .

وتوفى القاضى محمد بن بشير سنة ١٩٨ قبل الشافعى بست سنين كما يأتى قريبا ومحاسنه ـ رحمه الله تعالى! ـ كثيرة ، وقد استوفى ترجمته بقدر الإمكان القاضى عياض فى المدارك ، فليراجعها من أرادها ، فإن عهدى بها فى المغرب(١) .

وقال بعض من عرف به ، ما نصه : القاضى محمد بن بشير بن محمد المعافرى ، أصله من جند بَاجَةَ من عرب مصر ، ولاه الحكم بن هشام قضاء القضاة الذى يعبرون عنه بالمغرب بقضاء الجماعة ، بقرطبة ، بعد المصعب بن عمران ، ثم صرفه وولى مكانه الفرج بن كنانة ، وعن ابن حارث ، قال أحمد بن خالد : طَلَبَ محمد ابن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظ وافر ، ثم كتب لأحد أولاد عبد الملك بن مروان(٢) لمظلمة نالته على وجه الاعتصام به وتصرف معه تصرفا لطيفا ، ثم انقبض عنه ، وخرج حاجا ، قال ابن حارث : وكتب محمد بن بشير فى حَدَاثته للقاضى مُصْعَب بن عمران ، ثم خرج حاجا فلقى مالك بن أنس وجالسه وسمع منه(٣) ، وطلب العلم أيضا بمصر ، ثم انصرف فلزم ضيعته فى بَاجَةَ .

وقال ابن حيان : إنه استقْدِم من باجة للقضاء برأى العباس بن عبد الملك .

وقال ابن شعبان فى الرواة(٤) عن مالك من أهل الأندلس : محمد بن بشير بن سَرَافيل ، ويقال شراحيل ، ولى القضاء ، وكان رجلا صالحا ، وبعدله تضرب الأمثال ، واستوطن قرطبة ، وتوفى بها سنة ثمان وتسعين ومائة ، انتهى ، وبعضه عن غيره .

---

(١) فى أصل ا « فان عهدى بها لمغرب » وما أثبتناه يوافق ما فى ب ونسخة عند ا

(٢) فى أصل ا « عبد الملك بن عمر المرواني »

(٣) فى نسخة عند ا « وسمع معه »

(٤) فى ا « فى الرواية عن مالك من أهل الأندلس »

ومن شعره قوله :

إنما أزرَى بقدرى أننى لست من بابَةِ أهل البلد(١)

ليس منهم غيرذى مَقْلِيَةٍ لِذَوِى الألباب أوذى حَسَدِ

يتحامَوْنَ لقائى مثل ما يتحامَوْنَ لقاء الأسَـدِ

مَطْلَعِى أثقلُ فى أعينهم وعَلَى أنفسِهِم من أُحُـدِ

لو رأونى وَسْطَ بحر لم يكن أحد يأخذ منهم بيـدى

ومنهم محمد بن عيسى بن دينار ، الغافقى .

محمد بن عيسي الغافقى

من أهل قرطبة ، كان فقيها زاهدا ، وحج وحضر افتتاح إقريطش ، واستوطنها ، قاله الرازى .

ومنهم محمد بن يحيي بن يحيي الليثى .

محمد بن يحيي ابن يحيي الليثى

خرج حاجا ، ولقى سُحْنُون بن سعيد بإفريقيـة ، ولقى بمصر رجالا من أصحاب مالك ، فسمع منهم ، وعرف بالفقه والزهد ، وجاور بمكة ، وتوفى هنالك .

ومنهم محمد بن مروان بن خطاب ، المعروف بابن أبى جَمْرَةَ(٢) .

محمد بن مروان (ابن أبي جمرة)

رحل حاجاهووأبناه خطاب وعميرة فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، وسمعوا ثلاثتهم من سُحْنُون بن سعيد المدونة بالقيروان ، وأدركوا أصبغ بن الفرج(٣) ، وأخذوا عنه .

ومنهم محمد بن أبى عِلاَقَةَ(٤) البواب ، من أهل قرطبة .

محمد بن أبى علاقة

كانت له رحلة إلى المشرق ، ولقى فيها جماعة من أهل العلم ، وأخذ عن أبى إسحاق الزجاجى ، وعن أبى بكر بن الأنبارى ، وعن أبى الحسن على بن سليمان الأخفش ، وأبى عبد الله نِفطَويه ، وغيرهم ، وسمع من الأخفش «الكامل» للمبرد

---

(١) فى أصل ا « لست من باجة أهل البلد » محرفا ، ويقال : هذا الشىء من بابة هذا الشىء ، يراد أنه من طريقته ومسلكه .

(٢) كذا فى ا ، وهو الصواب ، وفى ب « المعروف بابن أبى حمزة »

(٣) فى نسخة عند ا « أصبغ بن الفرح » بمهملة آخره ، محرفا

(٤) كذا فى ا ، وفى ب « ابن أبى قلاعة » محرفا

وقال الحكم المستنصر : لم يصح كتاب « الكامل » عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبى علاقة[١] ، وكان ابن جابر الإشبيلى قد رواه قبل بمصر بمدة ، وما علمت أحدا رواه غيرهما ، وكان ابن الأحمر القرشى يذكر أنه رواه ، وكان صدوقا ، ولكن كتابه ضاع ، ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين .

محمد بن حزم التنوخي

ومنهم محمد بن حزم بن بكر ، التَّنُوخى .

من أهل طُلَيْطلة ، وسكن قرطبة ، يعرف بابن المدينى ، سمع من أحمد بن خالد وغيره ، وصحب محمد بن مسرة الجَبَلى[٢] قديما ، واختص بمرافقته فى طريق الحج ، ولازمه بعد انصرافه ، وكان من أهل الورع والانقباض ، وحكى عن ابن مسرة أنه كان فى سكناه المدينة يتتبع آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : ودله بعض أهل المدينة على دار مارية أم إبراهيم سُرِّيَّةِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقصد إليها فإذا [هى] دُوَيْرة لطيفة بين البساتين بشرقى المدينة عرضها وطولها واحد قد شق فى وسطها بحائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى إلى ذلك الفرش على خارج لطيف ، وفى أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبى صلى الله عليه وسلم فى الصيف ، قال : فرأيت أبا عبد الله بعد ما صلى فى البيتين والسقيفة وفى كل ناحية من نواحى تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره ، فكشفته بعد انصرافى وهو ساكن فى الجبل عن ذلك ، فقال : هذا البيت الذى ترانى فيه بنيته على تلك الحالة[٣] فى العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان ، انتهى .

محمد بن يحيى ابن مالك

ومنهم محمد بن يحيى بن مالك بن يحيى بن عائذ[٤] ، ولد[٥] أبى زكريا الراوية .

من أهل طرطوشة ، يكنى أبا بكر ، تأدب بقرطبة ، وسمع بها من قاسم بن أصبغ ، ومحمد بن معاوية القرشى ، وأحمد بن سعيد ، ومنذر بن سعيد ، وأبى على

---

(١) فى ب « ابن أ قلاعة » وفى ا هنا « ابن علاقة » ينقص « أبى »

(٢) كذا فى ا ، وفى ب « محمد بن مرة » مع اتفاقهما على « مسرة » بعد سطر

(٣) فى ب ونسخة عند ا « على تلك الحكاية » وأثبتنا مافى أصل ا

(٤) فى ب « عائذ » (٥) فى ب « والد أبي زكريا »

القالى ، وغيرهم ، وكان حافظاً للنحو واللغة والشعر ، يفوت مَنْ جاراه على حَدَاثة سنه ، شاعرا مجيدا مرسلا بليغاً ، ورحل مع أبيه إلى المشرق سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكنانى وغيرهم ، وسمع أيضاً بالبصرة و بغداد كثيرا ، وخرج إلى أرض فارس فسمع هنالك ، وجمع كتباً عظيمة ، وأقام بها إلى أن توفى بأصبهان معتبطاً[1] مع الستين وثلثمائة ، ومولده بطرطوشة صدر ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، ذكره ابن حيان ، رحمه الله تعالى !.

محمد بن عبدون الجبلى العدوى

ومنهم محمد بن عَبْدُون الْجَبَلى ، العدوى[2] ، من أهل قرطبة .

أدب بالحساب والهندسة ، ورحل فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، فدخل مصر والبصرة ، وعُنى بعلم الطب فمهر فيه ، ودبر فى مارستان الفسطاط ، ثم رجع إلى الأندلس فى سنة ستين وثلثمائة ، فاتصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله ، وله فى التكسير تأليف حسن ، رحمه الله تعالى !.

محمد ابن عبد الرحمن الأزدى الفراء

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، الأزدى ، الفراء ، القرطبى .

صحب أبا بكر بن يحيى بن مجاهد ، واختص به ، ولطف محله منه ، وقرأ عليه القرآن ، ورحل بصحبته لأداء فريضة الحج ، وكان رجلا صالحاً كثير التلاوة للقرآن والخشوع ، إذا قرأ بكى ورَتَّل وَبيَّن فى مهل ، ويقول : أبو بكر علمنى هذه القراءة ، وحكى أنه سردَ الصوم اثنتى عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد مفطرا كلَّ ليلة وقت الإفطار ، ثم تمادى على ذلك بعد موته مفطرا عقب العشاء الآخرة لالتزامه الصلاة

---

(١) معتبطا — بالعين المهملة — من قولهم « مات فلان عبطة » إذا توفى شابا صحيحا لم تصبه علة ولم ينزل به مرض ، وقال أمية بن أبى الصلت :

من لم يمت عبطة يمت هرما ... الموت كأس والمرء ذائقها

ووقع فى ب « مغتبطا » بالغين معجمة — وهو تحريف .

(٢) كذا فى ب وأصل ا ، وفى نسخة « العددي » وفى أخرى « العمددى »

من المغرب إليها ، تَزَيُّدا من الخير ، واجتهادا فى العمل .

أبو عبدالله محمد ابن صالح المعافرى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح ، الْمَعَافرى ، الأندلسى .

رحل إلى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان وأبا سعيد بن الأعرابى و إسماعيل ابن محمد الصفار و بكر بن حماد التاهَرْتِى وغيرهم ، روى عنه أبو عبد الله الحاكم ، وقال : اجتمعنا بهمذان سنة إحدى وأربعين ، يعنى وثلثمائة ، فتوجه منها إلى أصبهان ، وكان قد سمع فى بلاده و بمصر من أصحاب يونس ، و بالحجاز و بالشام و بالجزيرة من أصحاب على بن حرب ، و ببغداد ، وورد نيسابور فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين فسمع الكثير ، ثم خرج إلى مَرْوَ ومنها إلى بُخَارى فتوفى بها فى رجب من سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، وروى عنه أيضا أبو القاسم بن حبيب النيسابورى وغيرهما ، ذكره ابن عساكر ، وأسند إليه قوله :

وَدَّعت قلبى ساعة التوديع ... وأطعْتُ قلبى وهوغير مُطِيعى

إن لم أُشَيِّعْهُم فقد شيعتهم ... بمُشَيِّعَيْن تَنَفُّسِى ودموعى

وذكره ابن الفَرَضى وقال : إنه استوطن بخارى ، وجعل وفاته بها سنة ثمان وسبعين ، والأول قول الحاكم ، وهو أصح .

أبو عبد الله محمد ابن أحمد السرقسطى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ، السَّرَقُسْطِى .

روى عن[1] الباجى وابن عبد البر ، ورحل حاجا فقدم دمشق وحدث بها عن شيوخه الأندلسيين ، وعن أبى حفص عمر بن أبى القاسم بن أبى زيد القفْصِىِّ ، وذكره ابن عساكر ، وقال : سمع عنه أبو محمد الأكفانى ، وحكى عنه تدليساً ضعفه به ، وتوفى سنة ٤٧٧ .

أبو عبد الله محمد ابن عيسى الانصارى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن بَقَاء ، الأنصارى .

من بلاد الثغر الشرقى ، أخذ القراءات عن أبى داود سليمان بن نجاح ، ورحل حاجاً ، فقدم دمشق ، وأقرأ بها القرآن بالسبع ، وأخذ عنه جماعة من أهلها ،

(١) كذا فى ا ، وفى ب « روى عنه الباجى وابن عبد البر »

وكان شيخاً فاضلا حافظاً للحكايات قليل التكلف فى اللباس ، ذكره ابن عساكر وقال : رأيته وسمعته ينشد قصيدة يوم خرج الناس للمصلى للاستسقاء على المنبر ، أولها :

أستغفر الله من ذنبى وإن كَبُرَا   وأستقلّ له شكرى وإن كثرا[1]

وكان يسكن [فى] دار الحجارة ، ويقرئ بالمسجد الجامع .

ولد فى الثانى والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وتوفى يوم الأربعاء عند صلاة العصر ، ودفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثانى من ذى الحجة سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، ودفن فى مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبى الدَّرْدَاء ، رضى الله تعالى عنه ! قال : وشهدت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه ، وذكره السلفى .

أبو عبد الله محمد بن طاهر الأنصارى الخزرجى الدانى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن على بن عيسى ، الأنصارى، الخزرجى . من أهل دانية ، سمع كتاب التفصى[2] لابن عبد البر، ولقى أبا الحسن الحصرى ثم خرج حاجا فقدم دمشق سنة أربع وخمسمائة ، وأقام بها مدة يقرئ العربية ، وكان شديد الوسوسة فى الوضوء .

ذكره ابن عساكر وقال : أنشدنى أخى أبو الحسين هبة الله بن الحسن الفقيه قال : أنشدنا ابن طاهر الأندلسى بدمشق قال : أنشدنى الحصرى لنفسه :

يموتُ من فى الأنام طرًّا   من طيّبٍ كان أو خبيث[3]
فمستريح ومستراح   منه ، كما جاء فى الحديث

قال : وأنشدنى الحصرى لنفسه :

لو كان تحت الأرض أو فوق الذرى   حُرٌّ أتيح له العَدُوُّ ليُوذَى
فاحْذَرْ عدوك وهو أهْوَنُ هين   إن البعوضة أرْدَتِ النمروذا

(١) فى ب « وأستقل له شكراً » وأثبتنا ما فى ا
(٢) فى ب ونسخة عند ا « التفصى » بالفاء ، وفى أصل ا « التقصى » بالقاف
(٣) فى ب « من طيب كان ومن خبيث » ولا يستقيم الوزن معه، وأثبتنا ما فى ا

محمد ابن فرج البزاز السرقسطى

ومنهم محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد الله ، البزاز[١] .

من أهل سَرَقُسْطة ، لقى بدانية الُحصْرى ، وسمع منه بعض منظومه ، ورحل حاجا فأدى الفريضة ، ودخل العراق فسمع من جماعه وأجازوا له : منهم ابن خَيْرون ، والُحمَيدى ، وأبو زكريا التبريزى ، والمبارك بن عبد الجبار ، وثابت ابن بُنْدَار ، وهبة الله بن الأكفانى ، وغيرهم ، ونزل الإسكندرية ، وحدث بها ، وأخذ الناس عنه ، وتوفى هنالك ، وأنشد للحصرى :

النَّاسُ كالأرض ، ومنها هُمُ من خَشِنِ اللَّمْسِ ومن لَيِّنِ
صَلْدٌ تَشَكَّى الرِّجْلُ مِنْهُ الوَجَى وإثمد يجعل فى الأعين[٢]

وروى عنه ابن الحضرمى وابن جارة ، وغيرهما .

أبو بكر محمد ابن الحسين الميورقى الغرناطى

ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين ، الشهير بالمَيُورَقى لأن أصله منها . وسكن غَرْنَاطة .

وروى عن أبى على الصَّدَفى ، ورحل حاجا فسمع بمكة من أبى الفتح عبد الله ابن محمد البيضاوى[٣] ، وأبى نصر عبد الملك بن أبى مسلم النهاوَنْدِى ، فى شوّال وذى القعدة من سنة ٥١٧ ، وبالإسكندرية من أبى عبد الله الرازى وأبى الحسن ابن مُشَرَّف وأبى بكر الطُّرْطوشى وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس بعد مدة طويلة فحدث فى غير ما بلد لتجوُّله ، وكان فقيها ظاهريا ، عارفا بالحديث وأسماء الرجال ، متقنا لما رواه ، يغلب عليه الزهد والصلاح ، روى عنه أبو عبد الله النميرى الحافظ . ويقول فيه « الأزدى » تدليسا ، لأن الأنصار من الأزد ، وأبو بكر بن رزق ، وأبو عبد الله بن عبد الرحيم ، وابنه عبد المنعم ، وسواهم ، وصار أخيرا إلى بجاية

(١) في أصل ا « البزار » براء مهملة فى آخره

(٢) صدر هذا البيت فى ب « وتشتكى الأرجل منها الوجى »

(٣) هكذا فى ا وهو الصواب ، وفى ب « البياضى »

هاربا من صاحب المغرب حينئذ بعد أن حمل إليه هو وأبو العباس بن العريف وأبو الحكم بن بَرَّجان[١] ، وحدث هنالك ، وسمع منه فى سنة ٥٣٧ ، رحمه الله تعالى !.

أبو الحسن محمد ابن عبد الرحمن العبدى الإشبيلى

ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطُّفَيل[٢] ، العبدى ، الإشبيلى . ويعرف بابن عَظيمة ، أخذ القراءات عن أبى عبد الله السرَقُسْطى ، وروى عن أبى عبد الله الخَوْلانى ، وأبى عبد الله بن فرج ، وأبى على الغسانى ، وأبى داود المقرى ، وأبى جعفر بن عبد الحق ، وأبى الوليد بن طريف ، ورحل حاجا فروى بمكة عن رَزِين بن معاوية ، ثم بالإسكندرية عن ابن الحضرمى أبى عبد الله محمد بن منصور ، وأبى الحسن بن مُشَرَّف الأنماطى ، وبالمهدية عن المازرىّ ، وكانت رحلته مع أبى على منصور بن الخير الأحدب للقاء أبى معشر الطبرى ، فبلغهما نعْيه بمصر ، فلما قفَلا من حجهما قعد منصور يقول: قرأت على أبى معشر ، واقتصر أبو الحسن فى تصدره للإقراء على التحديث عمن لقى ، فعُرِف مكانه من الصدق والعدالة ، وولى الصلاة ببلده ، وتقدَّم فى صناعته ، واشتهر بها ، وتلاه أهل بيته فيها ، فأخذ عنهم الناس ، وله أرجوزة فى القراءات السبع ، وأخرى فى مخارج الحروف ، وشرح قصيدة الشُّقْراطسى[٣] ، وله أيضاً كتاب «الفريدة الحمصية فى شرح القصيدة الحصرية » وإليه وإلى بنيه بعده كانت الرياسة فى هذا الشأن ، ومن[٤] جلة الرواة عنه أبو بكر [محمد] بن خير ، قرأ عليه «الشهابَ» للقضاعى[٥] ، وأجاز له جميع رواياته وتواليفه فى رجب سنة ٥٣٦ ، وتوفى فى حدود الأربعين وخمسمائة ، وروى عنه أبو الضحاك الفزارى .

(١) فى ا « بن برحان » بحاء مهملة ، محرفا

(٢) فى ا « بن الطفيلي » بياء نسبة في آخره .

(٣) فى أصل ا « الشقراطيسى » .

(٤) فى ا « ومن جملة الرواة عنه أبو بكر بن خير »

(٥) فى ب « قرأ عليه الشهاب القضاعى » محرفا ، وكتاب الشهاب لأبى عبد الله محمد بن سلامة القضاعى معروف مشهور وقد تقدم ذكره مرارا (وانظر ص ٣٣٨ من هذا الجزء)

أبو عبد الله محمد بن أحمد الخزرجى الجيانى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عيسى بن هشام بن جراح ، الخزرجى .

من أهل جَيَّان ، و يعرف بالبغدادى لطول سكناه إياها ، روى عن أبى على الغَسَّانى ، وأبى محمد بن عتاب ، ورحل حاجًّا فلقى أبا الحسن الطبرى المعروف بالـكَيَا[1] ، وأباطالب الزينبى ، وأبا بكر الشاشى ، وغيرهم . وكان فقيهاً مشاوَرًا ، حدث عنه أبو عبد الله النميرى ، وأبو محمد بن عبيد الله ، وأبو عبد الله بن حميد ، وأبوالقاسم عبدالرحيم بن الملجوم ، وغير واحد ، وتوفى بفاس سنة ٥٤٧[2] .

أبو عبد الله محمد بن على الأنصارى الجيانى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على بن ياسر ، الأنصارى ، الجَيَّانى ، ونزل حلب يكنى أبا بكر .

رحل إلى المشرق ، وأدَّى الفريضة ، وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة ، وسكن قنطرة سنان[3] منها ، وكان يعلم القرآن ، و يتردد إلى أبى عبدالله نصر الله ابن محمد يسمع الحديث منه ، ثم رحل صحبة أبى القاسم بن عساكر صاحب تاريخ الشام إلى بغداد سنة عشرين ، وكان زميله ، فسمع بها معه من هبة الله بن الحصين وغيره ، ثم خرج إلى خُراسان فسمع بها من حمزة الحسينى وأبى عبد الله الفراوى وأبى القاسم الشَّحَّامى[4] وغيرهم ، وسمع ببَلْخ جماعة منهم أبو محمدالحسن بن على الحسينى وأبو النجم مصباح بن محمدالمكى[5] وغيرهما ، و بلغ الموصل فأقام بها مدة يُسْمَع منه و يؤخذ عنه ، ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها ، وسُلِّمت إليه خزانة الكتب النورية ، وأجريت عليه جراية ، وكان فيه عُسْر فى الرواية والإعارة معاً ، ووقف كتبه على أصحاب الحديث ، وله عَوَالٍ مخرَّجة من حديثه ساوى بعض شيوخه البخارى ومسلما وأبا داود والترمذى والنسائى ، روى عنه أبو حَفْص

---

(١) هو كما فى ابن خلكان مشهور بالكيا الهراسى

(٢) فى أصل ا « سنة ٥٤٦ » وما أثبتناه موافق لما فى ب

(٣) فى ا « قنطرة سنتين » محرفا ، وقنطرة سنان بدمشق منسوبة إلى سنان بن يحيى

(٤) فى نسخة عند ا « السخامى »

(٥) فى أصل ا « المسكى »

المَيَّانشى[١] وأبو المنصور مظفر بن سوار اللخمى وأبو محمد عبدالله بن على بن سويدة وابن أبى السنان وغيرهم .

ذكره ابن عساكر فى تاريخه وقال : سمعت منه ، ومات فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة على ما بلغنى .

وقال ابن نقطة : حدث عن جماعة منهم أبو القاسم سهل بن إبراهيم النيسابورى وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الهَمَذانى ، حدثنا عنه أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الحلبى وأخوه أبو العباس أحمد ، وحكى عن الحسن بن هبة الله ابن صَصْرَى أنه توفى بحلب فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة كما تقدم ، وقد بلغ السبعين ، قاله ابن الأبار .

أبو عبد الله محمد بن يوسف المرسى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سَعَادة .

مُرْسِىّ سكن شاطِبَة ، ودار سلفه بَلَنْسية ، سمع أبا على الصَّدَفى واختص به ، وأكثر عنه[٢] ، وإليه صارت دواوينه[٣] وأصوله العِتَاق وأمهات كتبه الصحاح ، لصهر كان بينهما ، وسمع أيضاً أبا محمد بن أبى جعفر ، ولازم حضور مجلسه للتفقه به ، وحمل ما كان يرويه ، ورحل إلى غرب الأندلس فسمع محمد[٤] بن عتاب وأبا بحر الأسدى وأبا الوليد [بن رشيد ، وأبا عبد الله الخَوْلانى ، وأبا الوليد][٥] ابن رُشْد وأبا عبد الله بن الحاج وأبا بكر العربى وغيرهم ، وكتب إليه أبو عبد الله الخَوْلانى وأبو الوليد بن طريف وأبو الحسن بن عفيف وأبو القاسم بن صواب وأبو محمد بن السِّيد وغيرهم ، ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين وخمسمائة ، فلقى بالإسكندرية أبا الحجاج بن نادر المَيُورَقى ، وصحبه وسمع

---

(١) فى نسخة عند ا « الميانسى » ويظن ناشر ا أنها محرفة عن « الميانجى » والميانشى : نسبة إلى قرية بإفريقية قريبة من المهدية اسمها ميانش

(٢) فى نسخة عند ا « وأكثر عليه » (٣) فى نسخة « سارت روايته » محرفا

(٤) فى ا « أبا محمد بن عتاب » (٥) ما بين المعقوفين ساقط من ب ونسخة عند ا

منه ، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام ، وأدى فريضة الحج فى سنة إحدى وعشرين، ولقى بمكة أبا الحسن رَزِين بن معاوية العَبْدَرى إمام المالكية بها ، وأبا محمد ابن صدقة المعروف بابن غَزَال من أصحاب كريمة المروزية[1] فسمع منهما وأخذ عنهما، وروى عن أبى الحسن على بن سند بن عياش الغسانى ما حمل عن أبى حامد الغزالى من تصانيفه ، ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية ، ولقى أبا طاهر بن عوف وأبا عبد الله بن مسلم القرشى وأبا طاهر السِّلفى وأبا زكريا الزناتى وغيرهم ، فأخذ عنهم ، وكان قد كتب إليه منها أبو بكر الطُّرْطُوشى وأبو الحسن بن مُشَرَّف الأنماطى ، ولقى فى صَدَره بالمهدية أبا عبد الله المازِرِى[2] فسمع منه بعض كتاب المعلم ، وأجاز له باقيه ، وعاد إلى مُرْسية فى سنة ست وعشرين ، وقد حصل فى رحلته علوماً جمة ورواية فسيحة ، وكان عارفاً بالسنن والآثار ، مشاركا فى علم القرآن وتفسيره ، حافظاً للفروع ، بصيراً باللغة والغريب ، ذاحظ من علم الكلام ، مائلا إلى التصوف ، مؤثراً له ، أديباً بليغاً خطيباً فصيحاً ، ينشىء الخطب مع الهَدْى والسَّمْت والوقار والحلم ، جميل الشارة ، محافظاً على التلاوة بالخشوع ، راتباً على الصوم ، وولى خطة الشورى بمُرْسِيَة مضافة إلى الخطبة بجامعها ،وأخذ فى إسماع الحديث وتدريس الفقه ،ثم ولى القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمين ، ونقل إلى قضاء شاطِبَة فاتخذها وطنا ، وكان يسمع الحديث بها وبمُرْسية وبَلَنْسية ، ويقيم الخطب أيام الجمع فى جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقباً عليها ، وقد حدث بالمَرِية وهناك أبو الحسن بن موهب وأبو محمد الرُّشَاطى وغيرهما ، وسمع منه أبو الحسن بن هُذَيل جامع الترمذى ، وألف كتابه « شجرة الوهم ، المترقية إلى ذِرْوة الفهم » ولم يسبق إلى مثله ، وليس له غيره ، وجمع فهرسة حافلة .

---

(١) فى ا ، ب « المروية »

(٢) فى نسخة عندنا « المازنى » محرفا

ووصفه غيرُ واحد بالتَّفَنُّن فى العلوم والمعارف ، والرسوخ فى الفقه وأصوله ، والمشاركة فى علم الحديث والأدب .

وقال ابن عياد فى حقه : إنه كان صَليباً فى الأحكام ، مقتفياً للعدل ، حسن الخَلْق والخُلُق ، جميل المعاملة ، لين الجانب ، فَكِه المجالسة ، ثبتاً ، حسن الخط ، من أهل الإتقان والضبط .

وحكى أنه كانت عنده أصول حِسَان بخط عمه ، مع الصحيحين بخط الصَّدَفى[1] فى سفرين ، قال : ولم يكن عند[2] شيوخنا مثل كتبه فى صحتها وإتقانها وجودتها ، ولا كان فيهم من رُزِق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر مارزقه .

وذكره أبو سفيان أيضاً وأبو عمر بن عاتٍ ، ورفعوا جميعاً بذكره .

وتوفى بشاطبة مصروفاً عن قضائها آخر ذى الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة[3] ودفن أول يوم من سنة ست وخمسين وخمسمائة[4] ، [ودفن] بالروضة المنسوبة إلى أبى عمر بن عبد البر ، ومولده فى رمضان سنة ٤٩٦ .

محمد بن إبراهيم ابن وضاح اللخمى

ومنهم محمد بن إبراهيم بن وضاح ، اللخمى .

من أهل غَرْناطة ، ونزل جزيرة شُقْر ، يكنى أبا القاسم ، وأخذ القراءة عن أبى الحسن بن هُذَيل وسمع منه كثيرا ، ورحل حاجا فأدى الفريضة ، وأخذ القراءات بمكة عن أبى على بن العَرْجَاء فى سنة ست وأربعين وخمسمائة وسنة سبع بعدها ، وحج ثلاث حجات ، ودخل بغداد ، وأقام فى رحلته نحوا من تسعة أعوام ، وقَفَل إلى الأندلس ، فنزل جزيرة شُقْر من أعمال بَلَنْسِية ، وأقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرا ، ولاقبل هدية ، وولى الصلاة والخطبة بجامعها ، وكان

---

(١) فى نسخة « بخط السلفى » (٢) فى نسخة « ولم يكن عندنا »

(٣) فى نسخة عندنا « سنة ٥٥٦ »

(٤) فى ب « سنة ست وستين وخمسمائة » وهو تحريف ظاهر

رجلا صالحاً، زاهداً [مشاوِراً] (١) يشار إليه بإجابة الدعوة ، معروفاً بالورع والانقباض، وتوفى فى صفر سنة ٥٨٧ .

أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن التجيبي

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، التجيبى ، نزيل تلمسان .

من أهل لَقَنْت عمل مُرْسِية ، وسكن أبوه أُرْيُولَه ، رحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وأطال الإقامة هنالك ، واستوسع فى الرواية ، وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين ، من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر (٢) السِّلَفى ، صحبه واختص به وأكثر عنه ، وحكى [عنه] (١) أنه لما ودعه فى قفوله إلى المغرب سأله عما كتب عنه ، فأخبره أنه كتب كثيراً من الأسفار ومئين من الأجزاء ، فسُرَّ بذلك ، وقال له : تكون محدِّث المغرب إن شاء الله تعالى ، قد حصلت خيراً كثيراً ، قال : ودعا لى بطول العمر حتى يؤخذ عنى ما أخذتُ عنه ، وقد جمع فى أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفاً مفيداً أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار ، وقَفَلَ من رحلته ، وله أربعون حديثاً فى المواعظ ، وأخرى فى الفقر ، وفضله ، وثالثة فى الحب فى الله تعالى ، ورابعة فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومسلسلاته فى جزء ، وكتاب « فضائل الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان » وكتاب « فضل عشر ذى الحجة » وكتاب « مناقب السبطين » وكتاب « الفوائد الكبرى » مجلد ، و« الفوائد الصغرى » جزء ، وكتاب « الترغيب فى الجهاد» خمسون باباً فى مجلد ، وكتاب « المواعظ والرقائق » أربعون مجلساً ، سفران ، وكتاب « مشيخة السِّلَفى » وغير ذلك .

ومولده بِلَقَنْتَ الصغرى فى نحو الأربعين وخمسمائة ، وتوفى سنة عشر وستمائة، رحمه الله تعالى !

---

(١) هذه الكلمة لا توجد فى ا

(٢) فى نسخة « أبو الطاهر السلفى »

الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربى ، قدس سره !

ومنهم الشيخ الأكبر ، ذو المحاسن التى تَبْهَر ، سيدى محيي الدين بن عربى محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، الحاتمى ، من ولد عبد الله بن حاتم أخى عَدِىّ بن حاتم ، الصوفى ، الفقيه ، المشهور ، الظاهرى .

ولد بمُرْسِية يوم الإثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ ، قرأ القرآن على أبى بكر بن خلف بإشْبِيلية بالسبع و بكتاب الكافى ، وحدّثه به عن ابن المؤلف أبى الحسن (١) شريح بن محمد بن شريح الرعَيْنى عن أبيه ، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبى القاسم الشرّاط القرطبى ، وحدّثه به عن ابن المؤلف ، وسمع على أبى بكر محمد بن أبى جَمْرة كتاب « التيسير » للدانى عن أبيه عن المؤلف ، وسمع على ابن زَرْقُون وأبى محمد عبد الحق الإشبيلى الأزدى وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم .

وكان انتقاله من مُرْسِية لإشبيلية سنة ٥٦٨ ، فأقام بها إلى سنة ٥٩٨ ، ثم ارتحل إلى المشرق ، وأجازه جماعة منهم الحافظ السِّلفى وابنُ عساكر وأبو الفرج ابن الجوزى ، ودخل مصر ، وأقام بالحجاز مدّة ، ودخل بغداد والموصِلَ و بلاد الروم ، ومات بدمشق سنة ٦٣٨(٢) ، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ، ودفن بسفح قاسِيُون ، وأنشدنى لنفسه مؤرخا وفاته الشيخُ محمد بن سعد الكلشنى سنة ١٠٣٧(٣)، حفظه الله تعالى :

إنما الحاتمىُّ فى الكون فَرْدٌ　　　وهو غَوْث وسَيِّد و إمامُ
كم علومٍ أتى بها من غيوب　　　من بحار التوحيد يا مُسْتَهَامُ
إن سألتم متى توفى حَميداً　　　قلت أرختُ : مات قطب هُمَامُ

وقال ابن الأبار : هو من أهل المَرِيَّة ، وقال ابن النجار : أقام بإشبيلية إلى سنة

(١) في نسخة عندا « أبى الحسين شريح » وانظر (ص ٣٦٣ الآتية)
(٢) فى نسخة عندا « سنة ٦٣٧ »
(٣) فى نسخة عندا « سنة ١٠٣٨ »

٥٩٨ ، ثم دخل بلاد المشرق ، وقال ابن الأبار : إنه أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الآداب ، وكتب لبعض الوُلاَة ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً ، ولم يعد بعدها إلى الأندلس ، وقال المنذرى : ذكر أنه سمع بقُرْطُبة من أبى القاسم بن بَشْكُوال وجماعة سواه ، وطاف البلاد ، وسكن بلاد الروم مدّة ، وجمع مجاميع فى الطريقة ، وقال ابن الأبار : إنه لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين ، وأخذوا عنه ، وقال غيره : إنه قدم بغداد سنة ٦٠٨ ، وكان يُومَأ إليه بالفضل والمعرفة ، والغالبُ عليه طرق أهل الحقيقة ، وله قدم فى الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوّف ، ووصَفَه غيرُ واحد بالتقدّم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز ، وله أصحاب وأتباع .

ومن تأليفه مجموع ضمنه مَنَامات رأى فيها النبى صلى الله عليه وسلم وما سمع منه ومنامات قد حدث بها عمن رآه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن النجار : وكان قد صحب الصوفية ، وأرباب القلوب ، وسلك طريق الفقر ، وحج وجاور ، وكتب فى علم القوم ، وفى أخبار مشايخ المغرب[1] وزهادهم ، وله أشعار حسنة ، وكلام مليح ، اجتمعت به فى دمشق فى رحلتى إليها ، وكتبت عنه شيئاً من شعره ، ونِعْمَ الشيخ هو ، ذكر لى أنه دخل بغداد سنة ٦٠١ ، فأقام بها اثنى عشر يوماً ، ثم دخلها ثانياً حاجاً مع الركب سنة ٦٠٨ ، وأنشدنى لنفسه :

أيَا حَائِرًا ما بين علم وشَهْوَة ليتَّصلا ، مابين ضدّين من وَصْلِ
ومَنْ لم يكن يَسْتَنْشِقُ الريحَ لم يكن يرَى الفضلَ للمِسْكِ الفَتيقِ على الزِّبْلِ

وسألته عن مولده فقال : ليلة الإثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمُرْسِية من بلاد الأندلس ، انتهى .

---

(١) فى نسخة عند ا « وفى أخيار مشايخ المغرب »

وقال ابن مُسْدِى : إنه كان جميل الجملة والتفصيل ، محصلا لفنون العلم أخص تحصيل ، وله فى الأدب الشأو الذى لا يُلْحَق ، والتقدم الذى لا يُسْبَق ، سمع ببلاده من ابن زَرْقون والحافظ ابن الجد وأبى الوليد الحضرمى ، و بسَبْتة من أبى محمد بن عبد الله ، وقدم عليه إشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجى فسمع منه ، وأبو جعفر بن مُصَلِّى ، وذكر أنه لقى عبد الحق الإشبيلى ، وفى ذلك عندى نظر ، انتهى .

قلت : لا نظر فى ذلك ، فإن سيدى الشيخ محيى الدين ذكر فى إجازته للملك المظفر غازى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب مامعناه أو نصه : ومن شيوخنا الأندلسيين أبو محمد عبدالحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلى ، رحمه الله تعالى ! حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث ، وعين لى من أسمائها تلقين المهتدى ، والأحكام الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ، وكتاب التهجد ، وكتاب العاقبة ، ونظمه ونثره ، وحدثنى بكتب الإمام أبى محمد على بن أحمد بن حزم عن أبى الحسن[1] شُرَيح بن محمد بن شريح عنه ، انتهى .

وقال : إن الحافظ السِّلَفى أجاز له ، انتهى .

قال بعض الحفاظ : وأحسبها الإجازة العامة ، وكان ظاهرى المذهب فى العبادات ، باطنى النظر فى الاعتقادات ، وكان دَفْنه يوم الجمعة بجبل قاسيون ، واتفق أنه لما أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملكُ فقال : هذا تذلُّ له الأسود ، أو كلاما هذا معناه ، فسُئِل عن ذلك ، فقال : خدمت بمكة بعض الصلحاء ، فقال لى يوما : الله يُذِلُّ لك أعز خلقه ، وأمر له ملك الروم مرة بدارٍ تساوى مائة ألف درهم ، فلما نزلها وأقام بها مَرَّ به فى بعض[2] الأيام سائل ، فقال له : شىء لله ،

---

(١) انظر ص ٣٦١ السابقة (٢) فى ا «مربه بعض الليالى سائل»

فقال : مالى غير هذا الدار ، خذها لك ، فتسلمها السائل وصارت له(١).

وقال الذهبى فى حقه : إن له توسعاً فى الكلام ، وذكاء ، وقوة خاطر ، وحافظة ، وتدقيقاً فى التصوف ، وتواليف جمة فى العرفان ، لولا شَطْحُه فى كلامه وشعره(٢) ، ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته ، فيرجى له الخير ، انتهى .

وقال القطب اليونينى فى ذيل « مرآة الزمان » : عن سيدى الشيخ محيي الدين ـ رضى الله تعالى عنه ونفعنا به ! ـ أنه كان يقول : إنى أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيمياء ، انتهى .

وقال ابن شَوْدَكِين عنه : إنه كان يقول : ينبغى للعبد أن يستعمل همته فى الحضور فى مناماته ، بحيث يكون حاكما عَلى خياله يصرفه بعقله نوما ، كما كان يحكم عليه يقظة ، فإذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خُلُقاً له وجد ثمرة ذلك فى البرزخ وانتفع به جدا ، فليهتم العبد بتحصيل هذا القدر ، فإنه عظيم الفائدة بإذن الله تعالى .

وقال : إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عَزْمَه بذلك .

وقال : ينبغى للسالك أنه متى حضرله أنه يعقد على أمرٍ و يعاهد الله تعالى عليه أن يترك ذلك الأمر إلى أن يجىء وقته ، فإن يسر الله تعالى فعله فعله ، و إن لم ييسر الله فعله يكون مخلَصاً من نكث العهد ، ولا يكون متصفاً بنقض الميثاق .

ومن نظم الشيخ محيي الدين ـ رحمه الله تعالى ! ـ [قوله] :

بين التَّذَلُّلِ وَالتَّدَلُّلِ نُقْطَةٌ   فيها يتيهُ العالم النِّحريرُ
هى نقطة الأكوان إن جاوزْتَها   كنتَ الحكيمَ وعلمُك الإكسير

وقوله أيضاً رحمه الله :

(١) فى نسخة عند ا «وصارت إليه»

(٢) للصوفية مصطلحات فى ألفاظهم وإشارات خفية وتلويحات ، فمن حاول حمل كلامهم على أوضاع اللغة وعرف الشرع كان كمن حمل كلام لغة على لغة أخرى ، وأنى يستقيم ؟! (وانظر ص ٣٦٧ الآتية)

يادُرَّةً بيضاء لاهُوتِيَّـــةً ‏ ‏ قد ركبت صَدَفاً من الناسوت

جهل البسيطةُ قدرها لشقائهم ‏ ‏ وتنافســـوا فى الدر والياقوت[١]

وحكى العماد بن النحاس الأطروش[٢] أنه كان فى سَفْح جبل قاسِيُون على مستشرف ، وعنده الشيخ محيي الدين ، والغيث والسحاب عليهم ، ودمشق ليس عليها شيء ، قال : فقلت للشيخ : أما ترى هـذه الحال ؟ فقال : كنت بمراكش وعندى ابن خروف الشاعر ، يعنى أبا الحسن على بن محمد القرطبى القبْذَاقى[٣] ، وقد اتفق الحال مثل هذه ، فقلت له مثل هذه[٤] المقالة ، فأنشدنى :

يطوفُ السحابُ بمَرَّاكشٍ ‏ ‏ طواف الحجيج ببيت الْحَرَم

يروم نزولا فلا يســتطيع ‏ ‏ لسفك الدماء وهتـك الْحُرَمْ

وحكى المقريزى فى ترجمة سيدى عمر بن الفارض ـ أفاض الله علينا من أنواره ! ـ أن الشيخ محيي الدين بن العربى بعث إلى سيدى عمر يستأذنه فى شرح التائية ، فقال : كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها ، انتهى .

وقال بعض مَنْ عَرَّف به : إنه لما صنف « الفتوحات المكية » كان يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان ، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة ، فما ادَّخَرَ منها شيئاً ، وقيل : إن صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم ، وابن الزكى كل يوم ثلاثين درهما ، فكان يتصدق بالجميع ، واشتغل الناس بمصنفاته ، ولها[٥] ببلاد اليمن والروم صيت عظيم ، وهو من عجائب الزمان ، وكان يقول : أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب .

ومن نظمه رضى الله تعالى عنه :

---

(١) فى أصل ا « جهل البرية قدرها » وما أثبتناه يوافق ما فى ب ونسخة عند ا

(٢) فى ا « الأطروشى » ‏ ‏ (٣) فى ب ونسخة عند ا « القيداقى »

(٤) فى نسخة عند ا « فقلت له مثل ما قلت » ‏ ‏ (٥) في ا « وله »

حقيقتى هِمْتُ بها   وما رآها بصَرِى
ولو رآها لغـدا   قتيل ذاك الحَوَر
فعندما أبْصَرْتُها   صِرْتُ بحكم النظر
فبت مسحوراً بها   أهيم حتى السحر
ياحذرى من حذرى   لوكان يغنى حذرى
والله ماهَيَّـمَنى   جمالُ ذاك الخَفَرِ
فى حُسْنها من ظبية   ترعى بذات الخَمَرِ (١)
إذا رَنَتْ أو عَطَفَت   تَسْبِى عقول البشر
كأنما أنفاسُهَا   أعْرافُ مسك عَطِرِ
كأنها شمسُ الضحى   فى النور أو كالقمر
إن أسْفَرَتْ أبْرَزَها   نورصباح مسفر
أو سَدَلت غَيَّبَها   سواد ذاك الشعر(٢)
ياقمرا تحت دُجًى   خذى فؤادى وذَرِى
عينى لكى أُبْصِرُكم   إذ كان حظى نظرى

وقال الخُوَيِّىُّ(٣) : قال الشيخ سيدى محيي الدين بن عربى رضى الله تعالى عنه : رأيت بعض الفقهاء فى النوم فى رؤيا طويلة ، فسألنى : كيف حالك مع أهلك ؟ فقلت(٤) :

إذا رأت أهلُ بيتى الكيس ممتلئاً   تبَسَّمَتْ ودَنَتْ مِنِّى تمازِحُنِى
وإن رأته خليا من دراهمه   تجهَّمَتْ وانثنت عـنى تقابحنى

---

(١) فى ا ، ب « ترعى بذات الحمر » بالحاء مهملة ، والخمر — بفتح الخاء والميم جميعا — كل ما واراك وحجبك من شجر ونحوه   (٢) فى ا « ظلام ذاك الشعر »
(٣) كذا فى ا ، وفى ب ونسخة عند ا « الخوبى »   (٤) فى ا « فأنشدته »

فقال لى : صدقت ، كلنا ذلك الرجل .

وذكر الإمام العالم بالله تعالى لسان الحقيقة ، وشيخ الطريقة ، صفى الدين حسين بن الإمام العلامة جمال الدين أبى الحسن على[١] ، ابن الإمام مفتى الأنام كمال الدين أبى منصور ظافر الأزدى الأنصارى رضى الله تعالى عنه فى رسالته الفريدة المحتوية على مَنْ رأى من سادات مشايخ عصره ، بعد كلام ، ماصورته : ورأيت بدمشق الشيخَ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربى[٢] ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية ، وما وقر[٣] له من العلوم الوهبية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيدُ علماً وخلقاً وحالاً ، لايكترث بالوجود ، مقبلا كان أو معرضاً ، وله علماء أتباع أرباب مَوَاجيد ، وتصانيف ، وكان بينه و بين سيدى الأستاذ الحرّار[٤] إخاء ورفقة فى السياحات ، رضى الله تعالى عنهما فى الآصال والبكرات ، ومن نظم سيدى الشيخ محيي الدين رضى الله تعالى عنه قوله :

يا مَنْ يَرَانى ولا أراه كَمْ ذَا أراه ولا يَرَانِى

قال رحمه الله تعالى : قال لى بعض إخوانى لما سمع هذا البيت : كيف تقول : إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟ فقلت له مرتجلا :

يا من يَرَانِى مُجْرِماً ولا أراه آخِذَا
كم ذا أراه مُنْعِماً ولا يرانى لائِذَا

قلت : من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤوّل ، وأنه لا يقصد ظاهره ، وإنما له محامل تليق به ، وكفاك شاهداً هذه الجزئية الواحدة ، فأحسِنِ الظن به ولا تنتقد ، بل اعتقد ، وللناس فى هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أسلم ،

---

(١) فى ا « حسين الإمام العلامة جمال الدين بن الحسن على — إلخ »
(٢) فى ا « بن العربى » (٣) فى ا « وفر » بالفاء ، وماأثبتناه يوافق مافى ب ونسخة عند ا
(٤) كذا فى ا بالمهملات ، وفى ب « الحراز » وفى نسخة « الخزاز »

والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم .

ومن النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدى محيي الدين رضى الله تعالى عنه فى ضابط ليلة القدر :

وإنا جميعاً إن نَصُمْ يومَ جمعةٍ ... ففى تاسع العشرين خذ لَيْلَةَ القَدْرِ
وإن كان يومُ السبت أوّلَ صومِنَا ... فحادى وعشرين اعْتَمِدْهُ بلا عُسْرِ
وإن كان صوم الشهر فى أحدٍ فخذ ... ففى سابع العشرين ماشئت فاسْتَقْرِى (١)
وإن هَلَّ بالإثنين فاعلم بأنه ... يُوَاتيك نَيْلُ المجد فى تاسع العشر (٢)
ويوم الثلاثا إن بدا الشهرُ فاعتمد ... على خامسِ العشرين فاعْمَلْ بهاتدرى
وفى الأربعا إن هَلَّ يا من يَرُومُهَا ... فدُونَك فاطلبْ وصلها سابِعَ العشر (٣)
ويوم خميس إن بدا الشهر فاجتهد ... ففى ثالث العشرين تظفر بالنصر (٤)
وضابِطُهَا بالقول ليلَةُ جمعة ... توافيك بعد النصف فى ليلة الوتر

قلت : لستُ على يقين من نسبة هذا النظم إلى الشيخ رحمه الله تعالى ! فإن نفسه أعلى من هذا النظم ، ولكنى ذكرته لما فيه من الفائدة ، ولأن بعض الناس نسبه إليه ، فالله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

ومما نسبه إليه رحمه الله تعالى غيرُ واحد قوله :

قلبيَ قطبى ، وقالبى أجفانى ... سرِّيَ خضرى، وعينه عرفانى (٥)
روحى هرون وكليمى موسى ... نفسى فرعون، والهوى هامانى

وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يكتبان لمن به القُولَنْجُ فى كفه ويلحسهما، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى ، قال : وهو من المجرّبات .

وقد تأوّل بعضُ العلماء قول الشيخ رحمه الله تعالى بإيمان فرعون أن مراده

(١) فى ا « وإن كان يوم الشهر فى أحد »
(٢) فى أصل ا « يواتيك ليل الوعد » وفى نسخة عندها « ليل الوجد »
(٣) فى ا « إن حل يامن يرومها » (٤) فى ا «ويوم الخميس إن بدا الشهر»
(٥) فى ا « قلبي قطبي وقالبى أجنانى »

بفرعون النفس بدليل ما سبق ، وحكى فى ذلك حكاية عن بعض الأولياء ممن كان ينتصر للشيخ ، رحمه الله تعالى !.

وولد للشيخ محيي الدين - رحمه الله تعالى ! - ابنهُ محمدٌ المدعوّ سعد الدين بملطية فى رمضان سنة ٦١٨ ، وسمع الحديث ، ودرس ، وقال الشعر الجيد ، وله ديوان شعر مشهور ، وتوفى بدمشق سنة ٦٥٦ سنة دخل هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم ، ودفن المذكور عند والده بسفح قاسِيُون ، وكان قدم القاهرة ، وسكن حلبا ، ومن شعره :

لما تبدّى عارضاه فى نمَط ... قيل ظلامٌ بضياء اختلط

وقِيل سَطْرُ الحسن فى خدَّيه خط ... وقيل نمل فوق عاج انبسط

وقيل مِسْك فوق وَرْدٍ قد نقط ... وقال قوم : إنها اللام فقط [1]

قلت : تذكرت بهذا ما قاله الكاتب أبو عبد الله بن جُزَىٍّ الأندلسى كاتبُ سلطان المغرب أبى عنان حين تنازع الكتابُ أربابُ الأقلام والرؤساء أصحابُ السيوف فى تشبيه العِذَار ، وقالت كل فرقة : لا نشبهه إلا بما هو مناسب لصنعتنا ، فلما فرغوا قال ابن جُزى :

أتى أولو الكتْب والسيفِ الأولى عَزَمُوا ... من بَعْدِ سِلمِى على حربى و إسلامى

بكُلِّ معنًى بديعٍ فى العذار عَلَى ... ما تقتضى منهمُ أفكار أحلامى

فقال ذو الكتب : لا أرضى المحارب فى ... تشبيهه لا وأنْقَاسِى وأقلامى [2]

وقال ذو الحرب : لا أرضى الكتائب فى ... تشبيهه ومِظَلَّاتى وأعلامى

فقلت : أجْمَعُ بين المذهبين معاً ... باللام ، فاسْتَحْسَنُوا التَّشبيه باللام [1]

وهذه الغاية التى لا تدرك مع البديهة ولزوم ما لا يلزم .

---

(١) اللام : حرف من حروف الهجاء معروف ، وهو مما جرت عادة الشعراء أن يشبهوا به العذار ، ووجه الشبه الانعطاف والالتواء ، وكما شبهوا العذار باللام شبهوه بالواو ، واللام أيضاً : مخفف لأم جمع لأمة ، وهي أداة الحرب كلها.

(٢) الأنقاس : جمع نقس - بكسر النون وسكون القاف - وهو المداد الذى يكتب به

رجع - ومن نظم سعد الدين قوله :

سَهَرِى من المحبوب أصْبَحَ مُرْسَلاً وأراه متصِلاً بفَيْضِ مدامع
قال الحبيب : بأنَّ رِيقِى نافعٌ فاسْمَعْ رواية مالِكٍ عن نافع

ومن نظمه أيضاً قوله :

وقالوا : قصيرٌ شَعْرُ مَنْ قد هَوِيتَهُ، فقلت : دَعُونى لا أرى منه مَخلصاً
مُحَيَّاه شمسٌ قد عَلَتْ غُصْنَ قدِّهِ فلا عجبٌ للظل أن يتقلَّصا(١)

وقوله :

ورُبَّ قاضٍ لنا مَلِيح يُعْرِبُ عن مَنْطق لَذِيذِ
إذا رمانا بسَهْمِ لحظٍ قلنا له دائم النفوذ

وقوله :

لك والله مَنْظَرٌ قَلَّ فيه المُشارِكُ
إن يومًا نَرَاكَ فيه ليَوْمٌ مبارك(٢)

ومن نظمه أيضاً ما كتب به إلى أخيه عماد الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربى أفاض الله تعالى علينا من فتوحاته [قوله] :

ما للنَّوَى رقَّة ترثى لمكتئب حَرَّان فى قَلْبه والدمْعُ فى حَلَبِ
قد أصْبَحَتْ حَلَبٌ ذاتَ العماد بكم وجِلَّق إرَمٌ هذا من العجب

وتوفى الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧ ، ودفن بسفح قاسِيُون عند والده بتربة القاضى ابن الزكى ، رحم الله تعالى الجميع ! .

[وابن الزكىّ أيضا محيي الدين](٣)

ومن نظم سعد الدين المذكور فى وَسيم رآه بالزيادة فى دمشق :

يا خَلِيلَىَّ فى الزيادة ظَبْىٌ سَلَبَتْ مُقْلَتَاه جفنى رقاده

---

(١) تقلص الظل : تضام أو ارتفع (٢) فى ا « إن يوما تكون فيه - إلخ»
(٣) هذه العبارة لاتوجد فى ب

كيف أرْجُو السُّلُوَّ عنه وطَرْفى ناظر حُسْنَ وجهه فى الزياده

وله :

علقتُ صُوفِيا كبدر الدجى لكنه فى وَصْلى الزاهدُ
يَشْهَدُ وَجْدِى بغَرامى له فَدَيْتُ صوفيا له شاهِدُ

وله أيضا :

صبوت إلى حَرِيرِىٍّ مَلِيح تكرر نحو منزله مَسِيرِى
أقولُ له : ألا ترْثِى لصَبٍّ عديم للمُسَاعد والنصِير
أقام ببَابِكُمْ خَمْسِينَ شَهْراً فقالَ : كذا مَقَامَاتُ الحريرى(١)

وله :

وغزال من اليَهُود أتانى زَائراً من كَنِيسِهِ أو كِنَاسِهْ(٢)
بتُّ أجْنى الشقيقَ من وَجْنَتَيْهِ وأشَمُّ العَبِيرَ من أنْفَاسِهْ(٣)
واعْتَنَقْنَا إذ لم نَخَفْ من رقيب وأمِنَّا الوُشَاةَ من حُرَّاسِهْ
مَنْ رآنى يظُنُّنِى لنحولى واصْفِرارِى عَلَامَة فوق رَاسِهْ

وله :

لى حبيبٌ بالنحو أصْبَحَ مُغْرَى فهْوَ منى بما أعانيه أدْرَى
قلت : ماذا تقولُ حين تُنَادى يا حَبيبى المضافَ نحوَكَ جَهْرًا
قال لى : يا غلامُ ، أو يا غلامِى ، قلتُ : لَبَّيْك ثم لَبَّيْك عَشْرًا

وله أيضاً :

ساءلْتَنِى عن لفظة لُغَوِيَّةٍ فأجبْتُ مبتدئاً بغير تفكر
خاطَبْتَنِى متبسِّماً فرأيتُهَا من نظم ثغرك فى صحاح الجوهرى

(١) المقامات : جمع مقامة ، وهى فى الأصل موضع القيام ، وورى بمقامات الحريري المعروفة ، وهى خمسون مقامة .

(٢) الكناس ـ بكسر الكاف ، بزنة الكتاب ـ المكان الذى يستتر فيه الظباء

(٣) الشقيق : ورد أحمر ، ويقال له « شقائق النعمان »

وله :

وعَلِمْتُ أن من الحديد فؤَادَهُ لما انْتَضَى من مُقْلَتَيْهِ مُهَنَّدَا

آنسْتُ من وَجْدِى بجانب خَدِّه نارًا ولكن ماوَجَدْتُ بها هُدَى

وقال الشيخ محيي الدين ـ أفاض الله تعالى علينا من أنواره ، وكسانا بعض حلل أسراره ! ـ إنه بلغنى فى مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت فىّ بأمور عظيمة ، فقلت : هذه قدجعلها الله تعالى سبباً لخير وصل إلى فلأ كافِئَنَّهَا[1] ، وعقدت فى نفسى أن أجعل جميع ما اعتمرت فى رجب لها [وعنها][2] ، ففعلت ذلك ، فلما كان الموسم استدلّ على رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده ، فقال : رأيت بالينبع فى الليلة التى بتّ فيها كأن آلافاً من الإبل أوْقارُهَا المسك والعنبر والجوهر ، فعجبت من كثرته ، ثم سألت : لمن هو؟ فقيل : هو لمحمد بن عربى يهديه إلى فلانة ، وسمى تلك المرأة ، ثم قال : وهذا[3] بعض ماتستحق ، قال سيدى ابن عربى : فلما سمعت الرؤيا واسم المرأة ، ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم منى ذلك ، علمت أنه تعريف من جانب الحق ، وفهمت من قوله إن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ، فقصدت المرأة وقلت : أصدقينى ، وذكرت لها ما كان من ذلك ، فقالت : كنت قاعدة قبالة البيت ، وأنت تطوف ، فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت فى نفسى : اللهم إنى أشهدك أنى قد وهبت له ثواب ما أعمله[4] فى يوم الإثنين وفى يوم الخميس ، وكنت أصومهما وأتصدق فيهما ، قال : فعلمت أن الذى وصل منى إليها بعض ما تستحق فإنها سبقت بالجميل ، والفضل للمتقدّم .

ومن نظم الشيخ محيي الدين بن عربى رحمه الله تعالى :

ياغاية السؤل والمأمول ياسندى شوقى إليك شديدٌ لا إلى أحد

---

(١) فى ا « فلا كفيتها » محرفا (٢) هذه الكلمة لاتوجد فى أصل ا

(٣) فى ا « وهو بعض ماتستحق ياسيدى ابن عربى »

(٤) فى ا « ما أعلمه محرفا »

ذُبْتُ اشتياقاً وَوَجْـدًا فى محبتكم فآه من طُول شوقى آه من كَمَدى

يَدِي وضَعْتُ على قلبى مخافَةَ أن يَنْشَقَّ صَدْرِىَ لمّا خاننى جَلَدِى

ما زال يرفعُهَا طورًا ويخفضها حتى وضعت يدى الأخرى تَشُدُّ يدى

وحكى سِبْطُ ابن الجوزى عن الشيخ محيى الدين أنه كان يقول : إنه يحفظ الاسم الأعظم ، ويقول : إنه يعرف السيميا بطريق التنزل ، لا بطريق التكسب ، انتهى والله تعالى أعلم ، والتسليم أسلم .

ومن نظم الشيخ محيى الدين قوله :

ما فاز بالتَّوْبَةِ إلا الذى قَدْ تابَ قِدْمًا والورى نُوَّمُ

فمن يَتُبْ أدْرَكَ مَطْلُوبَهُ من توبة الناس ولا يعلم

وله رحمه الله تعالى من المحاسن مالا يستوفى .

وأنشدنى لنفسه بدمشق صاحبُنا الصوفى الشيخ محمد بن سعد الكُلْشَنى ــ حفظه الله تعالى ! ــ قوله [1] :

أمَوْلاَىَ محيى الدين أنتَ الذى بَدَتْ علومُكَ فى الآفاق كالغيث مُذْهَمى

كشفْتَ معانى كل علْمٍ مُكَتَّمٍ وأوضَحْتَ بالتحقيق ما كان مُبْهَمَا

و بالجملة فهو حجة الله الظاهرة ، وآيته الباهرة ، ولا يلتفت إلى كلام من تكلم فيه ، ولله در السيوطى الحافظ ! فإنه ألف « تنبيه الغبى ، على تنزيه ابن عربى » ومقامُ هذا الشيخ معلوم ، والتعريف به يستدعى طولا ، وهو أظهر من نار على عَلَمَ [2] .

وكان بالمغرب يُعْرَف بابن العربى بالألف واللام ، واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام ، فرقاً بينه و بين القاضى أبى بكر بن العربى .

وقال ابن خاتمة فى كتابه « مزية المرية » مانصه : محمد بن على بن محمد الطائى

---

(١) فى ا هنا ذكر ثلاثة الأبيات التى سبق ذكرها فى (ص ٣٦١) والتى أولها قوله:

شيخنا الحاتمى فى الكون فرد وهو غوث وسيد وإمام

ثم ذكر بعد ذلك « وأنشدنى لنفسه » ثم ذكر هذين البيتين

(٢) فى ا « من نور على علم »

الصوفى ، من أهل إشْبِيلية ، وأصله من مُرْسِية ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن العربى ، وبالحاتمى أيضاً ، أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الآداب ، وكتب لبعض الولاة بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق حاجًّا فأدّى الفريضة ، ولم يعد بعدها إلى الأندلس ، وسمع الحديث من أبى القاسم الْخَرَستانى (١) ومن غيره ، وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبى الحسن بن أبى نصر فى شوّال سنة ٦٠٦ ، وكان يحدّث بالإجازة العامّة عن أبى طاهر (٢) السِّلَفى ، ويقول بها ، وبَرَع فى علم التصوف ، وله فى ذلك تواليف كثيرة : منها « الجمع والتفصيل ، فى حقائق التنزيل » و « الجذوة المقتبسة ، والخطرة المختلسة » وكتاب « كشف المعنى ، فى تفسير الأسماء الحسنى » وكتاب « المعارف الإلٰهية » وكتاب « الإسْرَا إلى المقام الأسْرَى » (٣) وكتاب « مواقع النجوم ، ومطالع أهلة أسرار العلوم » وكتاب « عَنْقَاء مُغْرب ، فى صفة ختم الأولياء وشمس المغرب » وكتاب فى فضائل مشيخة عبد العزيز بن أبى بكر القرشى المهدوى ، والرسالة الملقبة « بمشاهد الأسرار القدسية ، ومطالع الأنوار الإلٰهية » فى كتب أخر عديدة ، وقدم على المَرِيَّة من مُرْسِية مُسْتَهَلَّ شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وبها ألف كتابه الموسوم بـ« مواقع النجوم » انتهى .

ولا خفاء أن مقام الشيخ عظم بعد انتقاله من المغرب ، وقد ذكر رحمه الله تعالى فى بعض كتبه أن مولده بمُرْسِية .

وفى الكتاب المسمى بـ« الاغتباط ، بمعالجة ابن الخياط » تأليف شيخ الإسلام

(١) فى ب ونسخة عند ا « الخرستانى » بخاء معجمة ، محرف ، والنسبة إلى « حرستا » بفتح الحاء والراء المهملتين — وهو اسم قرية كبيرة عامرة فى وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نحو ميل ، على طريق حمص . ووقع فى أصل ا على الصواب .

(٢) فى نسخة عند ا « أبي الطاهر » وفى أخرى « أبى ظاهر »

(٣) الأسرى : أفعل تفضيل من السرو ، وهو الفضل والشرف ، ووقع فى أصل ا « إلى المقام الأسمي » .

قاضى القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروزابادى الصديقى صاحب القاموس ، قدس الله تعالى روحه ! الذى ألفه بسبب سؤال سئل فيه عن الشيخ [سيدى] محيي الدين بن عربى الطائى قدس الله تعالى سره العزيز فى كتبه المنسوبة إليه ، ماصورته :

ما تقول السادة العلماء شَدَّ الله تعالى بهم أزر الدين ، ولَمَّ بهم شَعَثَ المسلمين ، فى الشيخ محيي الدين بن عربى فى كتبه المنسوبة إليه كالفتوحات والفصوص ، هل تحل قراءتها و إقراؤها ومطالعتها ؟ وهل هى الكتب المسموعة المقروءة أم لا ؟ أفتونا مأجورين جواباً شافياً لتحوزوا جميل الثواب ، من الله الكريم الوهاب ، والحمد لله وحده .

فأجابه بماصورته(١) : الحمد لله ، اللهم أنطقنا بما فيه رضاك ، الذى أعتقده فى حال المسؤل عنه وأدين الله تعالى به ، أنه كان شيخ الطريقة حالا وعلماً ، و إمام الحقيقة حقيقة ورسماً ، ومحيي رسوم المعارف فعلا واسماً :

إذا تَغَلْغَلَ فِكْرُ المرْءِ فى طَرَف ... من بحره غرقت فيه خواطره

وهو عُبَاب لاتكدره الدِّلاء ، وسحاب لاتتقاصر عنه الأنواء ، وكانت دعواته تخترق السبع الطِّباق ، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق ، و إنى أصفه وهو يقيناً فوق ماوصفته ، وناطق بما كتبته ، وغالب ظنى أنى ما أنصفته :

وما عَلَىَّ إذا ماقلت مُعْتَقَدِى ... دع الجهولَ يظنُّ العدلَ عُدْوَانا
والله والله والله العظيم وَمَنْ ... أقامَهُ حُجَّةً للدين بُرْهَانا
بأنَّ ماقلتُ بعضٌ من مَنَاقبه ... مازدت إلا لعلِّى زدت نقصانا

وأما كتبه ومصنفاته فالبحار الزواخر ، التى لجواهرها وكثرتها لايعرف لها أول ولا آخر ، ماوضع الواضعون مثلها ، و إنما خص الله سبحانه بمعرفة قدرها أهْلَهَا ، ومن خواص كتبه أن مَنْ واظب على مطالعتها والنظر فيها ، وتأمل مافى مبانيها ،

---

(١) فى ا «فأجابه ماصورته»

انشرح صدره لحل المشكلات ، وفك المعضلات ، وهذا الشأن لا يكون إلا لأنفاس مَنْ خصه الله تعالى بالعلوم اللدنية الربانية ، ووقفت على إجازة كَتَبَهَا للملك المعظم فقال فى آخرها : وأجزته أيضاً أن يروى عنى مصنفاتى ، ومن جملتها كذا وكذا ، حتى عد نيفاً وأربعمائة مصنف ، منها التفسير الكبير الذى بلغ فيه إلى [تفسير] سورة الكهف عند قوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) وتوفى ولم يكمل ، وهذا التفسير كتاب عظيم ، كل سفر بحر لا ساحل له ، ولا غرو فإنه صاحب الولاية العظمى ، والصديقية الكبرى ، فيما نعتقد وندين الله تعالى به ، وثم طائفة ، فى الغى[1] حائفة ، يُعْظِمون عليه النكير ، وربما بلغ بهم الجهل إلى حد التكفير، وماذاك إلا لقصور أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها ، ولم تصل أيديهم لقِصَرها إلى اقتطاف مجانيها[2]

عَلَىَّ نَحْتُ القوافى من مَعَادنها وما على إذا لم تفهم البَقَرُ[3]

هذا الذى نعلم ونعتقد ، وندين الله تعالى به فى حقه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصورة استشهاده : كتبه محمد الصديقى الملتجئ إلى حرم الله تعالى، عفا الله عنه! .

وأما احتجاجه بقول شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية فغير صحيح ، بل كذب وزور، فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائى عن جماعة من المشايخ كلهم عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه قال : كنا فى مجلس الدرس بين يدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فجاء فى باب الردة ذكر لفظة الزنديق ، فقال بعضهم : هل هى عربية أو عجمية ؟ فقال بعض الفضلاء : إنما هى فارسية معربة ، أصلها زن دين ، أى على دين المرأة ، وهو الذى

(١) حائفة — بالحاء المهملة — اسم الفاعل المؤنث من « حاف يحيف حيفا» إذا مال عن قصده ، أو جار فى حكمه .

(٢) المجانى : جمع مجنى ، وأصله موضع الجنى ، ويراد به الثمرة .

(٣) البيت للبحترى .

يضمر الكفر ويظهر الإيمان ، فقال بعضهم : مثل مَنْ ؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ : مثل ابن عربى بدمشق ، فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه ، قال الخادم : وكنت صائما ذلك اليوم ، فاتفق أن الشيخ دعانى للإفطار معه ، فحضرت ووجدت منه إقبالا ولطفاً ، فقلت له : ياسيدى ، هل تعرف القطب الغوث الفرد فى زماننا ؟ فقال : مالك ولهذا ؟ كُلْ ، فعرفت أنه يعرفه ، فتركت الأكل وقلت له : لوجه الله تعالى عرِّفنى به ، مَنْ هو ؟ فتبسم رحمه الله تعالى وقال لى : الشيخ محيي الدين ابن عربى ، فأطرقت ساكتاً متحيراً ، فقال : مالك ؟ فقلت : ياسيدى ، قد حِرْتُ ، قال : لم ؟ قلت : أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال فى ابن عربى وأنت ساكت ؟ ! فقال : أُسكت ذلك مجلس الفقهاء ، هذا الذى روى لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام .

وأما قول غيره من أضراب الشيخ عز الدين فكثير ، كان الشيخ كمال الدين[1] الزملكانى من أجَلِّ مشايخ الشام أيضاً يقول : ما أجهل هؤلاء ! ينكرون على الشيخ محيي الدين بن عربى لأجل كلمات وألفاظ وقعت فى كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها ، فليأتونى لأحُلَّ لهم مشكله ، وأبين لهم مقاصده ، بحيث يظهر لهم الحق ، ويزول عنهم الوهم .

وهذا القطب سعد الدين الحموى سُئل عن الشيخ محيي الدين بن عربى لما رجع من الشام إلى بلاده : كيف وجدت ابن عربى ؟ فقال : وجدته بحراً زخاراً[2] لا ساحل له .

وهذا الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِى له كتاب جليل وضعه فى تاريخ علماء العالم فى مجلدات كثيرة ، وهى موجودة فى خزانة السلطان ، تنظر فى باب الميم ترجمة

---

(١) فى نسخة عند ا «جمال الدين الزملكانى»

(٢) فى أصل ا «بحراً زاخراً»

محمد بن عربى لتعرف مذاهب أهل العلم الذين بابُ صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية .

وقوله فى شىء من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره : إنه صنفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية ، وأمره بإخراجه إلى الناس .

قال الشيخ محيي الدين[1] الذهبى حافظ الشام : ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلا ، وهو من أعظم المنكرين وأشدهم على طائفة الصوفية .

ثم إن الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى كان مسكنه ومظهره بدمشق ، وأخرج هذه العلوم إليهم ، ولم ينكر عليه أحد شيئاً من ذلك ، وكان قاضى القضاة الشافعية فى عصره شمس الدين أحمد الْخُوَيِّيّ[2] يخدمه خدمة العبيد ، وقاضى القضاة المالكية زوجه بابنته ، وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ .

وأما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات ، وقول المنكرين فى حق مثله غُثَاء[3] وهَبَاء لا يعبأ به ، والحمد لله تعالى ، انتهى مانقلته من كلام العارف بالله تعالى سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، رضى الله تعالى عنه !

وقد حكى الشيخ رضى الله تعالى عنه عن نفسه فى كتبه مايبهر الألباب ، وكفى بذلك دليلا على مامنحه الله الذى يفتح لمن شاء الباب ، وقد اعتنى بتربته بصالحية دمشق سلاطينُ بنى عثمان ، نصرهم الله تعالى على توالى الأزمان ! و بنى عليه[4] السلطانُ المرحومُ سليم خان المدرسة العظيمة ، ورتب له الأوقاف ، وقد زرت قبره وتبركت به مرارا ، ورأيت لوائح الأنوار عليه ظاهرة ، ولا يجد منصف محيدا

---

(١) هو صاحب تاريخ الإسلام وغيره من المؤلفات البارعة ، واسمه محمد بن أحمد ابن عثمان ، والمعروف من لقبه « شمس الدين » لا محيى الدين

(٢) فى نسخة عند ا « الخوبي » وتقدم ذكره فى ص ٣٦٦ من هذا الجزء

(٣) الغثاء ــ بضم أوله ، بزنة الغراب ــ الزبد ، والهالك من ورق الشجر ، هذا أصله ، ثم قالوا لرذال الناس : غثاء ، على التشبيه

(٤) فى أصل ا « وبنى عليها » بعود الضمير على التربة .

إلى إنكار مايشاهد عند قبره من الأحوال الباهرة ، وكانت زيارتى له بشعبان ورمضان وأول شوال سنة ١٠٣٧ .

وقال فى « عنوان الدراية » : إن الشيخ محيي الدين كان يعرف بالأندلس بابن سُرَاقة ، وهوفصيح اللسان ، بارع فهم الجنان ، قوى على الإيراد ، كلما طلب الزيادة يزاد ، رحل إلى العُدْوة ، ودخل بِجَايَةَ فى رمضان سنة ٥٩٧ ، وبها لقى أباعبدالله العربى (١) وجماعةً من الأفاضل ، ولمادخل بجَايَةَ فى التاريخ المذكور قال : رأيت ليلة أنى نكحت (٢) نجوم السماء كلها، فما بقى منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت (٣) الحروف فنكحتها ، ثم عرضت رؤياى هذه على مَنْ قَصَّها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ، وقلت للذى عرضتها عليه : لا تذكرنى ، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال : هذا هو البحر الذى لا يُدْرَك قعره ، صاحبُ هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب مالا يكون فيه أحد من أهل زمانه ، ثم سكت ساعة وقال : إن كان صاحب هذه الرؤيا فى هذه المدينة فهو ذاك الشاب الأندلسى الذى وصل إليها ،

ثم قال صاحب العنوان ما ملخصه : إن الشيخ محيي الدين رحل إلى المشرق ، واستقرت به الدار ، وألف تواليفه ، وفيها ما فيها إن قيَّض الله تعالى مَنْ يسامح ويتأول سَهُلَ المرام ، وإن كان ممن ينظر بالظاهر فالأمر صعب ، وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسَعَوْا فى إراقة دمه ، فخلصه الله تعالى على يد الشيخ أبى الحسن البجائى ، فإنه سعى فى خلاصه وتأول كلامه ، ولما وصل إليه بعد خلاصه قال له الشيخ رحمه الله تعالى : كيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت ؟ فقال له : ياسيدى ، تلك شطحات فى محل سكر ولا عتب على سكران

---

(١) فى نسخة عند ا « الغربى » بغين معجمة .

(٢) فى ا « أنى أنكحت نجوم السماء » .

(٣) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « أعطيت البدور »

وتوفى الشيخ محيي الدين فى نحو الأربعين وستمائة ، وكان يحدث بالإجازة العامة عن السِّلفى ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

ومن موشحات الشيخ محيي الدين رضى الله تعالى عنه [قوله] :

مطلع

سَرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاشق الغَيْرانَ من ذاك فى حرَّان يُبْدِى الأنين

دور

يقول والوَجْدُ أضناه والبُعْدُ قد حَيَّرَهْ
لما دنا البعدُ لم أدر من بَعْدُ من غَيَّرَهْ
وهُيِّم العَبْدُ والواحدُ الفَرْدُ قد خَيَّرَهْ
فى البَوْحِ والكِتْمَانَ والسرِّ والإعْلَانَ فى العالمين
أما هُوَ الديان (١) يا عابدَ الأوثان أنتَ الضَّنين

دور

كلٌّ الهوى صَعْبُ على الذى يَشْكُو ذُلَّ الحجابْ
يا مَنْ له قَلْبُ لو أنه يَذْكُو عند الشبابْ
قد قرّب الرَّبُّ (٢) لكنه إفْكُ فانوِ المَتَابْ
وناد يا رَحْمن يارَبِّ يا منّانْ (٣) إنى حزين
أضنانىَ الهِجْرَان ولاحَبِيب دان ولا مُعِين

دور

فَنيتُ بالله عَمَّا تراه الْعِينْ مِنْ كونه

(١) فى أصل ا « أنا هو الديان » (٢) فى ا « قربه الرب »
(٣) فى ا « يار يامنان »

فى موقف الجاه وصحتُ أينَ الأين[1] فى بَيْنِهِ
فقال : يا ساهى عايَنْتَ قط عَيْنْ بعينه
أما تَرَى غَيْلان وقيْسَ أومَنْ كان فى الغابرين
قالواالهوَى سُلْطَانْ إن حل بالإنسان أفناه دِينْ

دور

كَمْ مرَّةٍ قالا أنا الذى أهْوَى من هو أنا
فلا أرى حالا ولا أرى شكوى إلا الْفَنَا
لَسْتُ كمَنْ مَالاَ عن الذى يَهْوَى بعْدَ الجنَا
ودَانَ بالسُّلْوَانْ هـذا هو البُهْتَان للعارفين
سَلُوهُمْ ما كانْ عن حضرة الرحمن والآفكين

دور

دَخلْتُ فى بُسْتان الأنسِ والقُرْبِ كمَكْنِسِهْ
فقام لى الرَّيْحان يَخْتالُ بالْعُجْبِ[2] فى سُنْدُسِهْ
أنا هو الإنسان مطيب الصَّبِّ فى مجلسه
جَنَّان يا جنان[3] أُجْنِ من البُسْتان الياسمين
وحلل الريحان بحرمة الرحمن[4] للعاشقين

وقال الإمام الصفى بن ظافر الأزدى فى رسالته : رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربى ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان

---

(١) فى ا «وصحت أين البين»

(٢) فى ا « يختال من عجب » (٣) فى ب «ياجنان ياجنان» والجنان : البستانى

(٤) فى نسخة عند ا روى هذا على الوجه الآتى :

وخل لى الريحان لحرمة الرحمن للعاشقين

غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالا ، لايكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضاً ، وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف ، وكان بينه و بين سيدى الأستاذ الحراز[1] إخاء ورفقة فى السياحات ، رضى الله تعالى عنهما ! انتهى .

وذكر الإمام سيدى عبد الله بن سعد اليافعى اليمنى فى « الإرشاد » أنه اجتمع مع الشهاب السُّهْرَوَرْدِى ، فأطرق كل واحد منهما ساعة ، ثم افترقا من غير كلام ، فقيل للشيخ ابن عربى : ماتقول فى السهروردى ؟ فقال : مملوء سُنَّةً من قرنه إلى قدمه ، وقيل للسهروردى : ماتقول فى الشيخ محيى الدين ؟ فقال : بحر الحقائق .

ثم قال اليافعى ماملخصه : إن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه ، فلما حضرته الوفاة نَهَى عن مطالعته ، وقال : إنكم لاتفهمون معانى كلامه ، ثم قال اليافعى : وسمعت أن العز بن عبد السلام كان يطعن عليه ويقول : هو زنديق ، فقال له بعض أصحابه : أريد أن ترينى القطب ، أو قال وليا ، فأشار إلى ابن عربى ، فقال له : فأنت تطعن فيه ، فقال : أصون ظاهر الشرع ، أو كما قال .

وأخبرنى بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر والشام ، ثم قال : وقد مدحه وعظمه طائفة كالنجم الأصبهانى والتاج بن عطاء الله وغيرهما ، وتوقف فيه طائفة ، وطعن فيه آخرون ، وليس الطاعن فيه بأعلم من الخضر عليه السلام ، إذ هو أحد شيوخه ، وله معه اجتماع كثير .

ثم قال : وما ينسب إلى المشايخ له محامل : الأول أنه لم تصح نسبته إليهم ، الثانى بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق ، فإن لم يوجد له تأويل فى الظاهر فله تأويل فى الباطن لم نعلمه ، وإنما يعلمه العارفون ، الثالث : أن يكون ذلك صدر منهم فى حال السكر والغيبة ، والسكران سكرا مباحاً غير مؤاخذ ولا مكلف ، انتهى ملخصاً .

---

(١) فى نسخة « الخزاز » وفى أخرى « الحرار »

وممن ذكر الشيخ محيي الدين الإمام شمس الدين محمد بن مُسْدِى[١] فى معجمه البديع المحتوى على ثلاث مجلدات ، وترجمه ترجمة عظيمة مطولة أذكر منها أنه قال : إنه كان ظاهرى المذهب فى العبادات ، باطنى النظر فى الاعتقادات ، خاض[٢] بحار تلك العبارات ، وتحقق بمُحَيَّا تلك الإشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولى البصر بالتقدم والإقدام ، ومواقف النهايات فى مزالق الأقدام ، ولهذا ما ارتبت فى أمره ، والله تعالى أعلم بسره ، انتهى .

ونقلت من خط ابن عُلْوَان التونسى رحمه الله تعالى ، قال الشيخ محيي الدين :

بالمال يَنْقادُ كلُّ صَعْب ... من عالم الأرض والسماء
يحسبه عالم حجابا ... لم يعرفوا لذة العطَاء
لولا الذى فى النفوس منه ... لم يُجِب الله فى الدعاء
لاتحسب المالَ ماتراه ... من عَسْجَد مُشْرق الضياء[٣]
بل هو ما كنت يا بني ... به غنيا عن السواء
فكن بربِّ العلا غنيا ... وعامِلِ الخلق بالوفاء

وقال :

نَبِّهْ على السرِّ ولا تُفْشِه ... فالبَوْحُ بالسرِّ له مَقْتُ
على الذى يبديه فاصبر له ... واكتمه حتى يصل الوقت

وقال :

قد ثاب غلماننا علينا ... فما لنا فى الوجود قَدْرُ
أذنابنا صُيِّرَتْ رؤساً ... مالى على ما أراه صَبْرُ
هذا هو الدهر يا خليلى ... فمن يقاسيه فهو قهر

---

(١) ضبط قلم فى ا بضم الميم وفتح السين وتشديد الدال مكسورة ، وفى نسخة عندها بسكون السين وكسر الدال

(٢) فى ا « خاض بحر تلك العبارات »

(٣) فى ا « من عسجد مشرق لراء »

ونظم الشيخ محيي الدين هو البحر الذى لاساحل له .

ولنختم ما أوردنا منه بقوله :

يا حَبَّذا المسجد من مَسْجِدِ وحبـذا الروضَةُ من مَشْهَدِ

وحبـــذا طَيْبَة من بلدة فيها ضريح المصطفى أحمد

صَلَّى عليه الله من سَيِّدٍ لولاه لم نفلح ولم نهتـــد

قد قَرَنَ الله به ذكره فى كل يوم فاعتبر ترشـــد[1]

عَشْرٌ خَفِيَّاتٌ وعشر إذا أُعلِنَ بالتأذين فى المسـجد

فهـــذه عشرون مقرونة بأفضل الذكر إلى الموعد

أبو الحسن على ابن عبد الله الششترى النميرى

ومنهم الصوفى الشهير أبو الحسن [على] الشُّشْتُرِى[2]، وهو على بن عبد الله النميرى.

عروس الفقهاء ، وإمام المتجردين[3] ، وبركة لابسى الخرقة ، وهو من قرية شُشْتُر من عمل وادى آش ، وزقاق الششترى معلوم بها ، وكان مجودا للقرآن ، قائماً عليه ، عارفا بمعانيه ، من أهل العلم والعمل ، جال فى الآفاق[4] ، ولقى المشايخ ، وحج حجات ، وآثر التجرد والعبادات[5] .

وذكرهُ القاضى أبو العباس الغبرينى فى «عنوان الدراية» فقال : الفقيه الصوفى، من الطلبة المحصلين ، والفقراء المنقطعين ، له علم بالحكمة ، ومعرفة بطريق الصوفية، وتقدم فى النظم والنثر على طريقة التحقيق ، وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية فى الانطباع .

أخذ عن القاضى محيى الدين محمد بن إبراهيم بن الحسن بن سُرَاقة الأنصارى الشاطبى وغيره من أصحاب السُّهْرَوردى صاحب « عوارف المعارف» واجتمع بالنجم ابن إبراهيم[6] الدمشقى سنة ٦٥٠ ، وخدم أبا محمد بن سبعين ، وتَلْمَذَ له ، وكان ابن

(١) فى نسخة عند ا « فى كل يوم فاعترف ترشد »

(٢) سقطت هذه الكلمة من ب ، وهى مذكورة فى الأصلين بعد

(٣) فى ا « وأمير المتجردين » (٤) فى ا « جال الآفاق»

(٥) فى ا « وآثر التجرد والعبادة» (٦) فى ا « ابن إسرائيل الدمشقى »

سبعين دونه فى السن ، لكن اشتهر باتباعه ، وعول على ماللديه ، حتى صار يعبر عن نفسه فى منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين ، وقال له لما لقيه — يريد المشايخ — : إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبى مدين[1] ، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلى ، ولما مات أبو محمد انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء المتجردين ، فكان يتبعه فى أسفاره ماينيف على أربعمائة فقير فيقتسمهم[2] الترتيب فى وظائف خدمته .

صنف كتباً : منها كتاب «العروة الوثقى ، فى بيان السنن و إحصاء العلوم ، وما يجب على المسلم أن يعمله و يعتقده إلى وفاته » وله كتاب « المقاليد الوجودية ، فى أسرار الصوفية » و « الرسالة القدسية ، فى توحيد العامة والخاصة » و « المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية » و « الرسالة العلمية » وغير ذلك .

وله ديوان شعر مشهور ، ومن نظمه قوله رحمه الله تعالى :

لقد تِهْتُ عُجْباً بالتجرد والفقر ... فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر
وجاءت لقلبى نَفْحة قُدُسية ... فغبت بها عن عالم الخلق والأمر
طويت بساط الكون والطى نشره ... وما القصد إلا الترك للطى والنشر
وغمضت عين القلب غير مطلق ... فألفيتنى ذاك الملقب بالغير
وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة ... ونزهت من أعنى عن الوصل والهجر[3]
وما الوصف إلا دونه غير أننى ... أريد به التشبيب عن بعض ماأدرى
وذلك مثل الصوت أيقظ نائما ... فأبصر أمرا جل عن ضابط الحصر
فقلت له الأسماء تبغى بيانه ... فكانت له الألفاظ سترا على ستر

وقال :

من لامنى لو أنه قد أبصرا ... ماذُقتُهُ أضحى به متحيرا

---

(١) وقع فى ا هنا « فسر إلى ابن مدين » محرفا (٢) فى ا « فيتقسمهم »
(٣) فى ا « ونزهت من أغنى عن الوصل والهجر »

وغدا يقولُ لصَحْبه إن أنتم أنكرتُمُ ما بى أتيتُمْ منكراً
شذت أمورُ القومِ عن عاداتهم فلأجل ذاك يقال سِحْرٌ مُفْتَرَى

وقال ، وهى من أشهر ما قال :

أرى طالبا منا الزيادة لا الْحُسْنَى بفكر رَمَي سَهْماً فعدّى به عدنا
وطالِبَنا مطلوبُنَا من وُجودنا تغيبُ به عنا لدى الصَّعْق إن عَنَّا[1]

وهى طويلة مشهورة بالشرق والغرب ، وقد شرحها شيخ شيوخنا العارف بالله تعالى سيدى أحمد زَرُّوق نفعنا الله تعالى ببركاته ! وأشار ابن الخطيب فى «الإحاطة» إلى أنها لا تخلو[2] عن شذوذ من جهة اللسان ، وضعف فى العربية ، قال : ومع ذلك فهى غريبة المنزع[3] ، أشار فيها إلى مراتب [الأعيان] الأعلام من أهل هذه الطريقة ، وكأنها مبنية على كلام شيخه الذى خاطبه به عند لقائه حسبما قدّمنا [ه] ، إذ الحسنى : الجنة ، والزيادة : مقام النظر ، وقوله فيها :

وأظهر منها الغافقى لنَا جَنًى وكَشَّفَ عن أطواره الغَيْمَ والدَّجْنا[4]

هو شيخه أبو محمد بن سبعين لأنه مُرْسِيُّ الأصل غافِقِيُّه .

ولما وصل الششترى من الشام إلى ساحل دمياط وهو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومى فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقيل : الطينة ، فقال: حنت الطينة إلى الطينة ، وأوصى أن يدفن بمقبرة دمياط ، إذ الطينة بمفازة ، وأقرب المدن إليها دمياط ، فحمله الفقراء على أعناقهم إلى دمياط .

وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٦٨ ، فدفن بدمياط ، رحمه الله تعالى ، ورضى عنه !

---

(١) كذا فى ب ونسخة عندا ، وفى أصل ا « تغيب به عنا » بنون المعظم نفسه
(٢) فى ا « لم تخل عن شذوذ »
(٣) فى ا « عربية المنزع »
(٤) فى ب ونسخة عند ا « لماجنى »

ومنهم سيدى أبو الحسن على بن أحمد الْحَرَالى الأندلسى .

أبو الحسن على ابن أحمد الحرالى

وحرالة : قرية من أعمال مُرْسِية ، غير أنه ولد بمراكش ، وأخذ بالأندلس عن أبى الحسن بن خروف وغير واحد ، ورحل إلى المشرق فأخذ عن أبى عبد الله القرطبى إمام الحرم وغيره ، ولقى جملة[1] من المشايخ شرقاً وغرباً .

وهو إمام ، ورع ، صالح ، زاهد ، كان بقية السلف ، وقدوة الخلف ، وقد زهد فى الدنيا وتخلى عنها ، وأقام فى تفسير الفاتحة نحواً من ستة أشهر يُلْقى فى التعليل قوانين تتنزل فى علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام ، حتى منّ الله تعالى ببركات ومواهب لا تحصى ، وعلى أحكام تلك القوانين وضع كتابه « مفتاح اللب المقفل ، على فهم القرآن المنزل » وهو ممن جمع العلم والعمل ، وصنف فى كثير من الفنون كالأصول[2] والمنطق والطبيعيات والإلهيات ، وكان يقرىء « النجاة » لابن سينا فينقضه عُرْوَة عروة ، وكان من أعلم الناس بمذهب مالك ، ولما ظن فقهاء عصره أنه لا يحسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات قرأ « التهذيب[3] » وأبدى فيه الغرائب ، و بين مخالفته للمدونة فى بعض المواضع ، ووقع بينه و بين الشيخ عز الدين بن عبد السلام شىء ، وطلب عز الدين أن يقف على تفسيره ، فلما وقف عليه قال . أين قول مجاهد ؟ أين قول فلان وفلان ؟ وكثر القول فى هذا المعنى ، ثم قال : يخرج من بلادنا إلى وطنه ، يعنى الشام ، فلما بلغ كلامه الشيخ قال : هو يخرج وأقيم أنا ، فكان كذلك ، وله عدة مؤلفات فى الفنون ، وقال رحمه الله تعالى : أقمت ملازماً لمجاهدة النفس سبعة أعوام ، حتى استوى عندى مَنْ يعطينى ديناراً ومن يزدرينى ، وأصبح ـ رحمه الله تعالى ! ـ ذات يوم ولا شىء لأهله يقيمون[4] به أَوَدَهم ، وكانت أم ولده جارية تسمى كريمة ، وكانت سيئة الخلق ، فاشتدّت عليه فى الطلب ، وقالت له : إن الأصاغر لا شىء لهم ،

---

(١) فى ا « ولقى جلة من المشايخ » (٢) فى ا « كالأصلين »

(٣) فى ا « أقرأ التهذيب » (٤) كذا فى ا ، وفى ب « يقيم به أودهم »

فقال [لها] : الآن يأتى من قبل الوكيل ما نتقوّت به ، فبينما هم كذلك و إذا بالحمّال يضرب الباب ومعه قمح ، فقال لها : يا كريمة ، ما أعْجَلَكَ(١) ! هذا الوكيل بعث بالقمح ، فقالت : ومن يصنعه ؟ فأمر فتصدق به ، ثم قال لها : يأتيك ما هو أحسن [منه] ، فانتظرت يسيراً ، و بَدَا لها فتكلمت بما لا يليق ، فبينما هم كذلك ، و إذا بحمال سميذ ، فقال لها : هذا السميذ أيسر وأسهل من القمح ، فلم يقنعها ذلك ، فأمر أيضاً بصَدَقته ، فلما تصدق به زادت فى المَقَال ، و إذا برجل على رأسه طعام ، فقال لها : يا كريمة ، قد كُفيتِ المؤنة ، هذا الوكيل قد لطف بحالك(٢) .

ومن كراماته أن بعض طلبته اجتمعوا فى نزهة ، وأخذوا حلياً من زينة النساء ، فزينوا به بعض أصحابهم ، فلما انقضى ذلك واجتمعوا بمجلس الشيخ صار الذى كان فى يده الحلى يتحدث ويشير بيده ، فقال الشيخ : يد يجعل فيها الحلى لا يشار بها فى الميعاد .

ومنها أنه أصاب الناسَ جَدْبٌ ببجَايَة ، فأرسل إلى داره مَنْ يَسُوق ماء إلى الفقراء ، فامتنعت كريمة ، ونَهَرَتْ رُسله ، فسمع كلامها ، فقال للرسول : قل لها يا كريمة ، والله لأشرَبَنَّ من ماء المطر الساعة ، فرمَقَ السماء بطرفه ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، ورفع يده به ، وشرع المؤذن فى الأذان ، ولم يختم المؤذن أذانه حتى كان المطر كأفواه القِرَب .

وتوفى رحمه الله تعالى بحَمَاة من بلاد الشام سنة سبع وثلاثين وستمائة ، انتهى ملخصاً من « عنوان الدراية » للغبرينى .

ووقع للذهبى فى حقه كلام على عادته فى الحط على هذه الطائفة ، ثم قال : ورأيت شيخنا المجد التونسى يتغالى فى تفسيره ، ورأيت غير واحد معظما له [وموقرا]

---

(١) فى ب « ما أعجبك »

(٢) فى ا « قد علم بحالك »

وقوما تكلموا فى عقيدته ، وكان نازلا عند قاضى حَماه البارزى وقال لنا شرف الدين البارزى : تزوج بحَمَاة ، وكانت زوجته تشتمه وتؤذيه ، وهو يتبسم ، وإن رجلا راهَنَ جماعةً على أن يُحْرجه ، فقالوا : لاتقدر ، فأتى[1] وهو يعظ وصاح ، وقال له : أنت أبوك كان يهوديا وأسلم ، فنزل من الكرسى ، فاعتقد الرجل أنه غضب وأنه تم له ما رامه حتى وصل إليه فخلع مرطيه[2] عليه ، وأعطاه إياهما ، وقال له : بَشَّرك الله بالخير ! لأنك شهدت لأبى أنه كان مسلما ، انتهى .

وظاهر كلام الغبرينى أن تفسير الشيخ الحرالى كامل ، وقال بعضهم : إنه لم يكمل ، وهو تفسير حسن ، وعليه نسَجَ البقاعىُّ مناسباته ، وذكر أن الذى وقف عليه منه من أول القرآن إلى قوله فى سورة آل عمران (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) .

وكلام الذهبى فى الشيخ يرده كلام الغبرينى ، إذ هو أعرف به ، والله تعالى أعلم .

وحكى الغبرينى أنه أنشد بين يديه الزجل المشهور[3] :

جنان يا جنان * أُجْنِ من البستان * الياسمين

واترك الريحان * بحُرْمة الرحمن * للعاشقين

فسأل بعض عن معناه ، فقال بعض الحاضرين : أراد به العذار ، وقال آخر : إنما أشار إلى دَوَام العهد ، لأن الأزهار كلها ينقضى زمانها إلا الريحان فإنه دائم ، فاستحسن الشيخ هذا أو وافق عليه .

أحمد بن عمر أبو العباس المرسى

ومنهم ولى الله العارف به الشيخ الشهيرُ الكرامات ، الكبير[4] المقامات ، سيدى أبو العباس المُرْسِى ، نفعنا الله تعالى به !.

---

(١) فى ا « وقال لاتقدر فأتاه وهو يعظ » (٢) فى ا « فخلع قرطيه »

(٣) تقدم هذا الزجل فى أواخر ترجمة الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي (ص ٣٨٠)

(٤) فى نسخة عند ا « الكثير المقامات »

وهو من أكابر الأولياء ، صحب سيدى الشيخ - الفَرْدَ القطب الغوث الجامع سيدى أبا الحسن الشاذلى ، أعاد الله تعالى علينا من بركاته ! وخلفه بعده ، وكان قدم من الأندلس من مُرْسية ، وقبره بالإسكندرية مشهور بإجابة الدعوات وقد زرته مرارا كثيرة ، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله .

وقد عرّف به الشيخ العارفُ بالله ابنُ عَطَاء الله فى كتابه « لطائف المنن فى مناقب الشيخ سيدى أبى العباس وشيخه سيدى أبى الحسن ، رضى الله تعالى عنهما » .

وقال الصفدى فى الوافى : أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس ، الأنصارى المُرْسِى ، وارث شيخه الشاذلى تصوفا الأشعرى معتقدا ، توفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦ ، ولأهل مصر ولأهل الثغر فيه عقيدة كبيرة ، وقد زرته لما كنت بالإسكندرية سنة ٧٣٨ ، قال ابن عَرّام سبط الشاذلى : ولولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة ، كان من الشهود بالثغر ، انتهى .

وكان سيدى أبو العباس يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله تعالى ، حتى إنه ربما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به[١] ، وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثِّر بعمله[٢] ناظر لفعله ، وذلك العاصى دخل بكسر معصيته وذل[٣] مخالفته ، وكان شديدَ الكراهة للوَسْوَاس فى الصلاة والطهارة ، ويثقل عليه شهود مَنْ كان على صفته ، وذكر عنده يوما شخصٌ بأنه صاحب علم وصلاح ، إلا أنه كثير الوسوسة ، فقال : وأين العلم ؟ العلم هو الذى ينطبع فى القلب كالبياض فى الأبيض والسواد فى الأسود .

---

(١) فى ا « فلا يهتبل به »

(٢) فى ا « متكثر لعمله » وفى نسخة عندها « متكبر بعمله »

(٣) فى ا « وذلة مخالفته »

وله كلام بديع فى تفسير القرآن العزيز : فمن ذلك أنه قال : قال الله سبحانه وتعالى (الحمد لله رب العالمين) علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه فى أزله ، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده ، فقال (الحمد لله رب العالمين) أى : الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له ، لاينبغى أن يكون لغيره ، فعلى هذا تكون الألف واللام للعهد . وقال فى قوله تعالى : (إياك نعبد و إياك نستعين) : إياك نعبد شريعة ، و إياك نستعين حقيقة ، إياك نعبد إسلام ، و إياك نستعين إحسان ، إياك نعبدعبادة ، و إياك نستعين‌عبودية ، إياك نعبد فرق ، و إياك نستعين جمع ، وله فى هذا المعنى وغيره كلام نفيس يدل على عظيم ما منحه الله سبحانه من العلوم اللدنية . وقال رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى (اُهدنا الصراط المستقيم): بالتثبيت[١] فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل[٢] ، وهذا الجواب ذكره ابن عطية فى تفسيره ، و بسطه الشيخ رضى الله تعالى عنه ، فقال : عمومُ المؤمنين يقولون (اُهدنا الصراط المستقيم) معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم التوحيد ، وفاتهم درجات الصالحين ، والصالحون يقولون (اُهدنا الصراط المستقيم) معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل ، لأنهم حصل لهم الصلاح ، وفاتهم درجاتُ الشهداء ، والشهداء[٣] يقولون (اُهدنا الصراط المستقيم) أى بالتثبيت فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصلت لهم درجة الشهادة ، وفاتهم درجة الصديقية ، والصديق كذلك يقول (اُهدنا الصراط المستقيم) إذ حصلت له درجة الصديقية ، وفاتته درجة القطبانية[٤] ، والقطب كذلك يقول (اُهدنا الصراط المستقيم) فإنه حصلت له رتبة القطبانية ، وفاته علم إذا شاء الله تعالى أن

---

(١) فى نسخة عند ا « بالتثبت » (٢) فى ا « ليس بحامل » محرفا
(٣) فى ا « والشهيديقول » (٤) فى ا «وفاتته درجةالقطب»

يطلعه عليه أطلعه . وقال رضى الله تعالى عنه : الفتوّة الإيمان ، قال الله سبحانه وتعالى (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) . وقال رضى الله تعالى عنه فى قوله سبحانه وتعالى حاكيا عن الشيطان (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ـ الآية) ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لأن فوقهم التوحيد وتحتهم الإسلام . وقال رضى الله تعالى عنه : التقوى فى كتاب الله عز وجل على أقسام : تقوى النار قال الله سبحانه وتعالى (واتقوا النار) وتقوى اليوم ، قال الله تعالى (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) وتقوى الربوبية ، قال الله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم) وتقوى الألوهية (واتقوا الله)[1] وتقوى الإنيّة (واتقونِ يا أولى الألباب) وقال رضى الله تعالى عنه فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أى : لا أفتخر بالسيادة ، وإنما الفخر لى بالعبودية لله ، وكان كثيرا ما ينشد :

يا عمرو ناد عبد زهراء   يعرفه السامع والرائى
لاتَدْعُنِى إلا بياعَبْدَها   فإنه أشرف أسمائى

وقال رضى الله تعالى عنه فى قول سَمْنُون المحب[2] :

وليس لى فى سواك حظ   فكيفما شئت فاختبرنى

الأولى أن يقول : فكيفما شئت فاعف عنى ، إذ طلب[3] العفو أولى من طلب الاختبار . وقال رضى الله تعالى عنه : الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا . وقال رضى الله تعالى : العارف لادنيا له ، لأن دنياه لآخرته ، وآخرته لربه . وقال : الزاهد غريب فى[4] الدنيا، لأن الآخرة وطنه ، والعارف غريب فى الآخرة . قال بعض العارفين : معنى الغربة فى كلام الشيخ رضى الله تعالى عنه أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن

(١) فى ب « وتقوى الألوهية ، وتقوى الله ، وتقوى الإنية »
(٢) فى نسخة عند ا « شمنون المحب »   (٣) في ا « لأن طلب العفو »
(٤) كذا فى ا ، وفى ب « غريب من الدنيا »

قلبه ومُعَشَّش َروحه ، فيكون غريبا فى الدنيا ، إذ ليست وطنا لقلبه[(١)] ، عاين الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها ، وفيما شهد من عقوبتها ونكالها ، فتغرب فى هذه الدار . وأما العارف فإنه غريب فى الآخرة إذ كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك ، فصار غريبا فى الآخرة ، لأن سره مع الله تعالى بلا أَيْن ، فهؤلاء العباد تصير الحضرة مُعَشَّش قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون ، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق ، أو أرض الخصوص[(٢)] ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، فلم ينزلوا إلى الخصوص لشهوة ، ولم يصعدوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، بل كانوا فى ذلك كله بآداب الله تعالى وآداب رسله وأنبيائه متأدبين ، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين ، رضى الله تعالى عنهم ، ونفعنا بهم آمين !.

وكلام سيدى الشيخ أبى العباس رضى الله تعالى عنه بحر لا ساحل له ، وكراماته كذلك ، وليُرَاجع كتاب تلميذه ابن عطاء الله ، فإن فيه من ذلك ما يشفى ويكفى ، وما بقى أكثر .

ومن كراماته رضى الله تعالى عنه أنه عزم عليه إنسان وقدم إليه طعاما يختبره به ، فأعرض عنه ولم يأكله ، ثم التفت إلى صاحب الطعام وقال له : إن الحارث[(٣)] المحاسبى رضى الله تعالى عنه كان فى أصبعه عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه ، وأنا فى يدى سبعون عرقا تتحرك على إذا كان مثل ذلك ، فاسْتَغْفَرَ صاحب الطعام ، واعتذر إلى الشيخ ، رضى الله تعالى عنه ونفعنا به !.

أبو إسحاق الساحلى (الطويجن)

ومنهم أبو إسحاق الساحلى ، المعروف بالطُّوَيْجِن ــ بضم الطاء المهملة ، وفتح الواو ، وسكون الياء التحتية ، وكسر الجيم ، وقيل بفتحها ــ العالم المشهور ، والصالح المشكور ، والشاعر المذكور ، من أهل غَرْنَاطة من بيت صلاح وثروة وأمانة ،

---

(١) فى ا « إذ ليست بوطن لقلبه » (٢) فى نسخة عندنا « أو أرض الحضوض » ولعلها بمعنى أرض الحظوظ ، فإن الضاد والظاء يتقارضان ، أو محرفة عن « أرض الحضور »

(٣) فى ب « إن الحافظ المحاسبي » محرفا

وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة ، وكان مع أمانته من أهل العلم فقيهاً [متقناً](١) متفنناً ، وله الباع المديد فى الفرائض .

وأبو إسحاق هذا كان فى صغره مُوَثِّقاً(٢) بسماط شهود غرناطة ، وارتحل عن الأندلس إلى المشرق ، فحج ، ثم سار إلى بلاد السودان فاستوطنها ، ونال جاهاً مكيناً من سلطانها ، وبها توفى ، رحمه الله تعالى ! انتهى ملخصاً من كلام الأمير ابن الأحمر فى كتابه « نثير الجُمَان ، فيمن نظمنى و إياه الزمان » .

وقال أبو المكارم منديل بن آجُرُّوم : حدثنى من يوثق بقوله أن أبا إسحاق الطوَيْجِن كانت وفاته يوم الإثنين ٢٧ جمادى الأخيرة سنة ٧٤٧(٣) بِتَنْبُكْتُو موضع بالصحراء من عمالة مالى(٤) ، رحمه الله تعالى ! ثم ضبط الطويجن بكسر الجيم ، قال : و بذلك ضبطه بخط يده رحمه الله تعالى ، قال : ومن نسبه للساحلى فإنه نسبه لجده للأم ، انتهى .

أبو الحسن على ابن محمد (بن عفيف) الخزرجى

ومنهم الشيخ الأديب الفاضل المعمر ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد بن يوسف بن عفيف ، الخزرجى ، الساعدى .

من أهل غَرْنَاطة ، ويشهر بالخزرجى ، مولده ببِيغَة ، رحل عن الأندلس قديما واستقر أخيراً بالإسكندرية ، وبها لقيه الحافظ ابن رَشِيد غير مرة ، وقد أطال فى رحلته فى ترجمته ، إلى أن قال : وذكره صاحبنا أبو حيان ، وهو أحد من أخذ عنه ولقيه ، فقال : تلا القرآن بالأندلس على أبى الوليد هشام بن واقف المقرى ، وسمع بها من أبى زيد الفازازى العشرينيات ، وسمع بمكة من شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِى صاحب « عوارف المعارف » وتلا بالإسكندرية على أبى القاسم بن عيسى ، ولا يعرف له نظم فى أحد من العالم إلا فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) هذه الكلمة لا توجد فى ا (٢) الموثق : الذى يكتب التوثيقات الشرعية

(٣) فى نسخة عند ا « سنة ٧٦٧ »

(٤) مالى : من ممالك السودان المتاخمة لبلاد المغرب

ومن شعره يعارض الحريرى :

أهِنْ لأهل البِدَعِ والهجر والتصنُّع وَدِنْ بترك الطمع
ولذ بأهل الورع

وعَدِّ عن كل بَذِى لم يكترث بالنبَذِ والهج ببرجهبذ
وعالمٍ مُتَّضِع

واندبْ زماناً قد سلَفْ ولم تجد منه خَلَفْ وابْعَثْ بأنواع الأسَفْ
رسائل التَّضَرُّع

وهى طويلة فلتراجع ترجمته فى « ملء العيبة » لابن رَشيد ، رحمه الله تعالى !.

أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم (ابن سبعين)

ومنهم الفقيه الجليل ، العارف النبيل ، الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق ابن إبراهيم بن محمد بن نصر ، الشهير بابن سبعين ، العكى ، المرسى ، الأندلسى ، ويلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين .

قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك : درس العربية والآداب بالأندلس ، ثم انتقل إلى سِبْتة ، وانتحل التصوف ، وعكف برهة على مطالعة كتبه ، والتكلم على معانيها ، فمالت إليه العامة ، ثم رحل إلى المشرق ، وحج حججا ، وشاع ذكره ، وعظم صيته ، وكثر أشياعه ، وصنف أوضاعا كثيرة تلقوها منه ، ونقلوها عنه ، ويرمى بأمور الله تعالى أعلم بها و بحقيقتها ، وكان حسن الأخلاق ، صبورا على الأذى ، آية فى الإيثار ، انتهى .

وقال غير واحد : إن أغراض الناس فيه متباينة ، بعيدة عن الاعتدال ، فمنهم المرهق المكفر ، ومنهم المقلد المعظم الموقر ، وحصل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد ، والنفرة والانتقاد ، مالم يقع لغيره ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره ، ولما ذكر الشريف الغَرْناطى عنه أنه كان يكتب عن نفسه « ابن ه » يعنى الدارة التى هى كالصفر ، وهى فى بعض طرق المغاربة فى حسابهم سبعون ، وشهر لذلك بابن دارة ــ ضمن فيه البيت المشهور :

* محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا *[١]

حسبما ذكره الشريف فى شرح مقصورة حازم ، وقد طال عهدى به فليراجعه من ظفر به .

وقال صاحب « درة الأسلاك » فى سنة ٦٦٩ ، ماصورته : وفيها توفى الشيخ قطب الدين أبو محمد عبدالحق بن سبعين المُرْسِى ، صوفى متفلسف ، متزهد متقشف ، يتكلم على طريق أصحابه ، ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه ، شاع أمره ، واشتهر ذكره ، وله تصانيف وأتباع ، وأقوال يميل إليها بعض القلوب وتملها بعض الأسماع ، وكانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة[٢] ، تغمده الله تعالى برحمته ! انتهى .

وقال بعض الأعلام فى حق ابن سبعين : إنه كان رحمه الله تعالى عزيز النفس ، قليل التصنع ، يتولى خدمة الكثير من الفقراء والسّفارة أصحابِ العبادات والدفافيس[٣] بنفسه ، ويحفون به فى السكك ، ولما توفرت دواعى النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل ، ووجهت لألفاظه المعاريض ، وفُلِيَتْ[٤] موضوعاته ، وتعاورته الوحشة ، وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوب يطول ذكرها .

ووقع فى رسالة لبعض تلامذة ابن سبعين المذكور ، وأظن اسمه يحيى [بن محمد][٥] ابن أحمد بن سليمان ، وسماها « بالوراثة المحمدية ، والفصول الذاتية » ماصورته : فإن قيل : ما الدليل على أن هذا الرجل الذى هو ابن سبعين هو الوارث المشار إليه ؟

---

(١) هذا عجز بيت للكميت بن معروف الفقعسى ، ، وصدره قوله :

* فلا تكثروا فيها الضجاج فانه *

(٢) قال فى هامش ا إنه وجد فى درة الأسلاك « عن خمس وسبعين سنة »

(٣) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى ا « الدنافيس » وفى نسخة « الدقاقيس » ولعل كل ذلك تحريف عن « الدفانيس » جمع دفنس ، وهو فى الأصل الراعى الكسلان الذى يترك إبله ترعى وحدها وينام .

(٤) فى ب « وقلبت » . (٥) سقط هذا الاسم من ا

قلنا : عدم النظير ، واحتياج الوقت إليه ، وظهور الكلمة المشار إليها عليه ، ونصيحته لأهل الملة ، ورحمته المطلقة للعالم المطلق ، ومحبته لأعدائه ، وقصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه ، وعَفْوه عنهم مع قدرته عليهم ، وجذبهم إلى الخير مع كونهم يطلبون هلاكه ، وهذه كلها من علامات الوراثة والتبعية المحضة التى لا يمكن أحدا أن يتصف بها إلا بمجد أزلى وتخصيص إلهى ، وها أنا أصف لك بعض ماخصه الله سبحانه وتعالى به من الأمور التى هى خارقة للعادة ، ونلغى[1] عن الأمور الخفية التى لا نعلمها ، ونقصد الأمور الظاهرة التى نعلمها ، والتى لا يمكن أحدا أن يستريب[2] فيها إلا من أصمه الله تعالى وأعماه ، ولا يجحدها إلا حسود قد أتعب الله تعالى قلبه وأنساه رشده ، ونعوذ بالله ممن عاند مَنِ الله تعالى مُساعده ومؤيده[3] ، وهو معه بنصره وعونه ، فما أتعب معانده ، وما أسعد مواده ، وما أكبت مراده ، فنبدأ بذكر ما وعدنا ، فنقول :

الأول[4] : فى شرفه واستحقاقه لما ذكرنا ، كونه خلقه الله تعالى من أشرف البيوت التى فى بلاد المغرب ، وهم بنو سبعين ، قرشيا ، هاشميا ، علويا ، وأبواه وجدوده يشار إليهم ، ويُعَوّل فى الرياسة والحسب والتعين عليهم.

والثانى: كونه من بلاد المغرب ، والنبى عليه السلام قال « لا يزال [طائفة من] أهل المغرب ظاهرين [على الحق] إلى قيام الساعة » وما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه ، فهو المشار إليه بالحديث ، ثم نقول : أهل المغرب أهل الحق ، وأحق الناس بالحق وأحق المغرب بالحق علماؤه لكونهم القائمين بالقسط ، وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم الذى يدور الكل عليه ويعول فى مسائلهم ونوازلهم السهلة والعويصة عليه فهو حق المغرب ، والمغرب حق الله تعالى ، والملة[5] حق العالم ، فهو المشار إليه

---

(١) فى ا « ولا نلغى من الأمور » وليس بشىء ، وفى نسخة عندها « ونلقى عن الأمور » . (٢) فى ا « أن يتريب » وفى نسخة عندها « يترتب » وما أثبتناه موافقا لما فى ب أدق (٣) فى ب « من الله ساعده وأيده »

(٤) فى ا « أول ما ذكر فى شرفه — إلخ » (٥) فى ب « والمسألة »

بالوراثة ، ثم نقول : أهل المغرب ظاهرون على الحق ، أى على الدين ، والحق سر الدين ، والمحقق سر الحق ، فالمحقق سر الدين ، فهو المشار إليه بالوراثة . ثم نقول : أهل الله خير العالم ، وأهل الحق هم خير أهل الله ، والمحقق خير أهل الحق ، فالمحقق خير العالم ، فهو المشار إليه ، ثم نقول : انظر فى بدايته وحفظ الله سبحانه[١] له فى صغره ، وضبطه له من اللهو واللعب ، و إخراجه من اللذة الطبيعية التى هى فى جِبِلَّة البشرية ، وتركه للرياسة العرضية المعول عليها عند العالم ، مع كونه وجدها فى آبائه ، وهى الآن فى إخوته ، وخروجه عن الأهل والوطن الذى قَرَنه الحق مع قتل الإنسان نفسه ، وانقطاعه إلى الحق انقطاعا صحيحا تعلم تخصيصه وخرقه للعادة ، ثم انظر فى تأيده وفتحه من الصغر ، وتأليف كتاب بدء العارف وهو ابن خمس عشرة سنة ، وفى جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوى على جميع الصنائع العلمية والعملية ، وجميع الأمور السُّنية [والسَّنية] ، تجده خارقا للعادة ، وفى نشأته فى بلاد الأندلس ولم يعلم له كثرة نظر وظهوره فيها بالعلوم التى لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة ، وفى تواليفه واشتمالها على العلوم كلها ، ثم انفرادها وغرابتها وخصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أفهام الخلق تعلم أنه[٢] مؤيد بروح القدس ، وفى شجاعته وقوة عزمه ونصره[٣] لصنائعه وظهور حجته على خصمائه و إقامة حقه و برهانه وفصاحة كلامه و بيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوة إلٰهية وعناية ربانية ، وفى امتحان أهل المغرب له ، واجتماعهم عليه فى كل بلد معتبر للمناظرة ، و يظهر الله تعالى حجته ، و يقمع خصمه ، ويَكْبت عدوه ، و يعجز مُعَارضه ، و يُفْحم معترضه ، وفى غيرة الحق عليه ، وهلاك من تعرض بالأذى إليه ـ يعلم[٤] العاقل المخصوص ، أنه عند الله مخصوص ، وفى خلقه وقهره لقواه النزوعية والغضبية

---

(١) فى ا « وحفظ القديم سبحانه له »

(٢) فى ا « تعلم بأنه مؤيد »

(٣) فى ا « وقوة توكله فى عزمه ونصره لصنائعه »

(٤) فى ا « ويعلم العاقل »

وإسلام قرينه وجلالة قوته الحافظة التى لاتنسى شيئاً والمفكرة التى تتصور الذوات المجردة والمعلومة سر عين الطيف (١) ، وكذلك الذاكرة وسرعة ظهوره وانتشار رايته واستجلاب ثنائه فى الجهات كلها ، وبالجملة جميع ما ذكرت فيه هو خارق (٢) للعادة البشرية ، ومعجز لمعارضه من كل الجهات ، ولولا خوف التطويل لكنت أفصّل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعى ، ونقيم الأدلة القطعية على تعجيزها ، ولكن أعطيت الأنموذج ، وعرفت أن النبيه يمعن فكره ، ويجد ذلك [كله] كما قلته ، وبالجملة جميع جزئياته إذا تؤملت توجد خارقة للعادة ، وتشهد لها ماهية الوجود بالتخصيص ، فصح أنه هو المشار إليه ، والمعول فى جملة الأمور عليه ، وإنما أعطيت الأمر المشهور ، وتركت مايعلم منه من خرق العوائد فى ظهور الطعام والشراب والسمن والتمر وأخذ الدراهم من الكون ، وإخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة وظهرت كما أخبر ، فصح أنه هو المذكور ، انتهى ما تعلق به الغرض مما فى الرسالة فى شأن الشيخ ابن سبعين .

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين ـ ومنهم لسان الدين بن الخطيب فى « الإحاطة » كما سيأتى قريبا ـ أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها ، فعظم عليه بذلك الحمل ، وقبحت الأحدوثة عنه ، انتهى .

لكن قال شهاب الدين بن أبى حَجَلة التلمسانى الأديب الشهير ، وهو صاحب كتاب السكردان وديوان الصبابة ومنطق الطير والاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض ، ما معناه : أخبرنى الشيخ الصالح أبو الحسن بن بُرْغوش التلمسانى شيخ المجاورين بمكة وكانت له معرفة تامة بهذا الرجل ، أنه صده عن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد

---

(١) هكذا فى ب ، وفى ا « أسر عين الطبق » وفى نسخة « أشر عين الطيف » ولعل كل ذلك محرف عن « أسرع من الطيف »

(٢) فى ا « جميع ماذكرت هو فيه خارق للعادة »

المدينة على ساكنها الصلاة والسلام يُهرَاق منه دم كدم الحيض ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره ، انتهى .

وقال غيره : نعم زار النبى صلى الله عليه وسلم مستخفيا على طريق المشاة ، حدّث بذلك أصهاره بمكة ، انتهى .

وقال لسان الدين : أما شهرته ومحله من الإدراك والآراء والأوضاع والأسماء والوقوف على الأقوال والتعمق فى الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلمين فما يقضى[1] منه بالعجب .

وقال الشيخ أبو البركات بن الحاج البَلْفِيقى رحمه الله تعالى : حدثنى بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير أبا عبد الله بن هُودٍ سَالَمَ طاغيةَ النصارى ، فنكث به ، ولم يَفِ بشرطه ، فاضطره ذلك إلى مخاطبة القس الأعظم برومية ، فوكل أبا طالب بن سبعين أخا أبى محمد عبد الحق بن سبعين فى التكلم عنه[2] ، والاستظهار بين يديه ، قال : فلما بلغ ذلك الشخص رومية ، وهو بلد لا يصل إليه المسلمون ، ونظر إلى ما بيده ، وسئل عن نفسه ، فأخبر بما ينبغى ، كَلَّمَ ذلك القس من دنا منه بكلام معجم ترجم لأبى طالب بما معناه : أعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه ، انتهى .

وقال غير واحد : إنه [ظهر منه و][3] اشتهرت عنه أشياء كثيرة الله تعالى أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه منها: فمنها قوله ــ فيما زعموا ــ وقد جرى ذكر الشيخ ولى الله سيدى أبى مَدْين نفعنا الله تعالى ببركاته : « شُعَيْبٌ عبدُ عَمَلٍ ، ونحن عبيد حضرة » وممن حكى هذا لسانُ الدين فى الإحاطة .

---

(١) فى ا « فمما يقضى منه العجب »
(٢) فى نسخة « فى الكلام عنه »
(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ا

وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان المستنصر بالله تعالى أبي عبد الله محمد ابن السلطان زكريا[1] بن عبدالواحد بن أبي حَفْص ملك إفريقية وما إليها : أن أهل مكة بايعوه ، وخطبوا له بعَرَفَةَ ، وأرسلوا له بيعتهم ، وهي من إنشاء ابن سبعين ، وسردها ابن خلدون بجملتها ، وهي طويلة ، وفيها من البلاغة والتلاعب بأطراف الكلام مالا مطمح وراءه ، غير أنه يشير فيها إلى أن المستنصر هو المهدي المبشَّر به في الأحاديث الذي يَحْثُو المال ولا يَعُدُّه ، وحمل حديث مسلم وغيره عليه ، وذلك مالا يخفى ما فيه ، فليراجع كلام ابن خلدون في محله .

ولابن سبعين من رسالة : سلام عليك ورحمة الله ، سلام عليك ثم سلام مناجاتك ، سلام الله ورحمة الله الممتدة على عوالمك كلها ، السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتك ، وكصلاة أعز ملائكتك من حيث حقيقتك ، وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته السلام عليك ياحبيب الله ، السلام عليك ياقياس الكمال ، ومقدمة العلم[2] ، ونتيجة الحمد ، وبرهان المحمود ، ومن إذا نظر الذهن إليه قرأ نعم العبد ، السلام عليك يامن هو الشرط في كمال الأولياء ، وأسرار مشروطات الأذكياء الأتقياء ، السلام عليك يامن جاوز في السموات مقام الرسل والأنبياء ، وزادك رفعة واستعلاء على ذوات الملأ الأعلى ، وذكر قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) .

وقال بعضهم عند إيراده جملة من رسائله التي منها هذه : إنها تشتمل على مايشهد له بتعظيم النبوة وإيثار الورع ، انتهى .

وقال بعض العلماء الأكابر ، عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به ، مانصه ببعض اختصار : هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم ، وتعدد المعارف ،

---

(١) في ا « أبي زكريا » .

(٢) في ا « مقدمة العدو » .

وكثرة التصانيف ، ولد سنة ٦١٤ ، ودرس العربية والأدب بالأندلس ، ونظر فى العلوم العقلية ، وأخذ عن أبى إسحاق بن دهاق ، وبرع فى طريقه ، وجال فى البلاد ، وقدم القاهرة ، ثم حج واستوطن مكة ، وطار صيته ، وعظم أمره ، وكثر أتباعه ، حتى إنه تَلْمَذَ[١] له أمير مكة ، فبلغ من التعظيم الغاية ، وله كتاب «الدرج» وكتاب «السفر» وكتاب «الأبوبة اليمنية» وكتاب «الكد» وكتاب «الإحاطة» ورسائل كثيرة فى الأذكار وترتيب السلوك والوصايا والمواعظ والغنائم .

ومن شعره :

كم ذا تموه بالشعبين والعلم والأمر أوضح من نار على علم
وكم تعبر عن سَلْع وكاظمة وعن زَرُود وجيران بذى سَلَمَ
ظللت تسأل عن نجد وأنت بها وعن تهامة ، هذا فعل متهم
فى الحى حى سوى ليلى فتسأله عنها ؟ سؤالُكَ وهم جر للعدم

ونشأ رحمه الله تعالى تَرِفًا مبجلا فى ظل جاه ونعمة ، لم تفارق معها نفسه البأو[٢] ، وكان وسيما ، جميلا ، ملوكى البزة ، عزيز النفس ، قليل التصنع ، وكان آية من الآيات فى الإيثار والجود بما فى يده ، رحمه الله تعالى !

وقال فى الإحاطة: للناس فى أمره اختلاف بين الولاية وضدها[٣] ، ولما وجه إلى كلامه سهام الناقدين[٤] قصر أكثرهم عن مَدَاه فى الإدراك ، والخوض فى تلك البحار والاطلاع ، وساءت منهم فى الممازجة له السيرة[٥] ، فانصرفوا عنه مكلومين[٦] ، يبذرون عنه فى الآفاق من سوء القالة مالا شىء فوقه ، وجرت بينه وبين أعلام المشرق خطوب [ثم نزل مكة][٧] ، وعاقه الخوف من أمير المدينة [النبوية][٧] عن الدخول إليها إلى أن

(١) فى ب «ترجم له» . (٢) البأو : عزة النفس ، والفخر
(٣) فى نسخة عند ا «وأغراض الناس فى هذا الرجل متباينة بعيدة عن الاعتدال»
(٤) فى نسخة «ولما توفرت دواعى النقد عليه»
(٥) فى نسخة «الملاطفة» وفى ا «فى السيرة»
(٦) فى ا «مكظومين» (٧) هذه الجملة فى ا وحدها

توفى فعظم بذلك الحمل عليه ، وقبحت الأحدوثة عنه ، ولما وردت على سبتة المسائل الصقلية - وكانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبكيتاً للمسلمين - انتدب للجواب المقنع عنها ، على فتاء من سنه[1] ، وبديهة من فكرته ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

وقال بعض من عرف به : إنه من أهل مُرْسِية ، وله علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وفصاحة وبلاغة .

وقال فى « عنوان الدراية » : رحل إلى العدوة ، وسكن ببجاية مدة ، ولقى من أصحابنا ناساً ، وأخذوا عنه ، وانتفعوا به فى فنون خاصة ، له مشاركة فى معقول العلوم ومنقولها ، وله فصاحة لسان ، وطلاقة قلم ، وفهم جَنَان ، وهو أحد [العلماء] الفضلاء ، وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامة الناس ، وله موضوعات كثيرة هى موجودة بأيدى أصحابه ، وله فيها ألغاز و إشارات بحروف أبجد ، وله تسميات مخصوصة فى كتبه هى نوع من الرموز ، وله تسميات ظاهرة هى كالأسامى المعهودة ، وله شعر فى التحقيق ، وفى مَرَاقى أهل الطريق ، وكتابته مستحسنة فى طريق الأدباء ، وله من الفضل والمزية ملازمته لبيت الله الحرام ، والتزامُه الاعتمارَ على الدوام ، وحجهُ مع الحجاج فى كل عام ، وهذه مزية لا يعْرَف قدرُها ولا يُرام ، ولقد مشى به للمغاربة فى الحرم الشريف حظ[2] لم يكن لهم فى غير مدّته ، وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله ، ويهتدون بأفعاله .

توفى رحمه الله تعالى يوم الخميس تاسع شوّال سنة ٦٦٩ ، انتهى ببعض اختصار .

وذكر رحمه الله تعالى فى ترجمة تلميذه الشيخ أبى الحسن الشُشْتُرى السابق الذكر أن أكثر الطلبة يُرَجِّحونه على شيخه أبى محمد بن سبعين ، وإذا ذكر له هذا يقول : إنما ذلك لعدم أطلاعهم على حال الشيخ وقصور باعهم[3] .

---

(١) الفتاء - بفتح الفاء - الحداثة والشباب

(٢) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « لحظ لم يكن لهم »

(٣) فى او « قصور طباعهم »

ومن تأليف ابن سبعين « الفتح المشترك » ومما حكاه صاحب « عنوان الدراية » فى ترجمة الششترى ـ مما لم نذكره فى ترجمته الماضية ، ورأينا ذكره هنا تبركا أن الششترى كان فى بعض أسفاره فى البرية ، وكان رجل من أصحابه قد أُسِر فسمعه الفقراء يقول : إلينا يا أحمد ، فقيل له : مَنْ أحمد الذى ناديته يا سيدى فى هذه البرية ؟ فقال لهم : مَنْ تسرون به غداً إن شاء الله تعالى ، فلما كان من الغد ورد الشيخ وأصحابُه بلد قابِس ، فعند دخولهم إذا بالرجل المأسور ، فقال الشيخ للفقراء [وأصحابه] : هنيئاً لنا باقتحام العَقَبة ، صافحوا أخاكم ، المنادِى به .

ومن مناقبه ـ نفع الله تعالى به ! ـ أنه لما نزل بلدة قابِسَ[1] برباط البحر المعروف بالصهريج جاءه الشيخ الصالح أبو إسحاق الزرنانِىُّ[2] نفع الله تعالى به بجميع أصحابه برسم الزيارة ، فوافق وصوله وصول الشيخ الصالح الفاضل الولى أبى عبد الله الصِّنهاجى ـ نفع الله تعالى به ! ـ مع جملة أصحابه للزيارة ، فوجدوا الشيخ أبا الحسن قد خرج إلى موضع بخارج المدينة برسم الخلوة ، فجلسوا لانتظاره ، فلم يكن إلا قليل إذ أقبل الشيخ على هيئة معتبر متفكر ، فلما دخل الرباط سلم على الواصلين برسم الزيارة ، وحَيَّا المسجد ، وأقبل على الفقراء ، وأثر العَبْرة على وَجْنته ، فقال : ائتونى بمداد ، فلما أحضر بين يديه تأوّه تأوُّهًا شديداً كاد أن يحرق بنَفَسه جليسه ، وجعل يكتب على لوح[3] هذه الأبيات :

لا تلتفت بالله يا ناظرى ... لأهْيَفٍ كالغُصُنِ الناضِرِ
يا قلب واصرف عنك وَهْمَ البقا ... وخل عن سِرْبِ حمى حاجر
ما السرب والبان وما لَعْلَع ... ما الْخَيْفُ ما ظبى بنى عامر؟

---

(١) فى ا « لما نزل ببلدة قابس »

(٢) كذا فى أصل ا ، وفى ب « الزرناتى » بالتاء قبل ياء النسبة ، وفى نسخة عند ا « الزنانى » بدون راء

(٣) فى ا « يكتب فى اللوح »

جمال من سميته داثر ما حاجة العاقل بالداثر
وإنما مطلبه فى الذى هام الورى من حسنه الباهر(١)
أفاد للشمس سَنًى كالذى أعاره للقمر الزاهر
أصبحت فيه مغرماً حائراً لله در المغرم الحائر

وكانوا يوماً ببلد مالَقَةَ ، وكثيراً ما يجوّد عليه القرآن العزيز ، فقرأ طالب قوله تعالى (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) فقال معجلا رضى الله تعالى عنه ، وفهم من الآية مالم يفهم ، وعلم منها ما لم يعلم :

انظُرْ للفظ أنَا يا مُغْرَمًا فيه من حيث نَظْرَتُنا لعلّ تدريه
خَلِّ ادِّخارك لا تفخر بعارية لا يستعير فقيرٌ من مواليه
جسوم أحرفه للسر حاملة إن شئت تعرفه جَرِّبْ معانيه

ودخل عليه شخص ببجايَةَ من أهلها يُعْرَف بأبى الحسن بن علال ، من أهل الأمانة والديانة ، فوجده يذاكر بعض أهل العلم ، فاستحسن منه إيراده للعلم ، واستعماله لمحاضرة الفهم ، فاعتقد شياخته وتقديمه ، ثم نوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين ديناراً شكرا لله تعالى ، ويأتيهم بمأكول ، فلما يسر جميع ما اهتم به أراد أن يقسمه فيعطيه شطره ويدع الشطر الثانى إلى حين انصراف الشيخ ، ليكون للفقراء زاداً ، فلما كان فى الليل رأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلى رضى الله تعالى عنهما ، قال الرجل : فنهضت إليه بسرور رؤية النبى صلى الله عليه وسلم ، وقلت : يا رسول الله أُدْعُ الله تعالى لى ، فالتفت لأبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وقال : يا أبا بكر ، أعطه ، فإذا به رضى الله عنه قَسَم رغيفاً كان بيده وأعطانى نصفه ، ثم أفاق الرجل من منامه ، وأخذه وَجْدٌ من هذه الرؤيا المباركة ، فأيقظ أهله ، واستعمل نفسه فى العبادة ، فلما كان من

(١) فى ب « هام الورى فى حسنه الباهر »

الغد سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدراهم المحتسب بها ، فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ : يا على ، أقرب ، فلما قرب قال له : يا على ، لو أتيت بالكل[١] لأخذت منه الرغيف بكماله ، انتهى .

أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم (ابن غصن) الإشبيلى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، الشهير بابن غصن ، الإشبيلى .

من ولد شدّاد بن أوس الأنصارى ، الجزيرى ، نسبة إلى الجزيرة الخضراء ، الإمام ، المقرى ، الزاهد ، عرض على الأستاذ ابن أبى الربيع الموطأ من حفظه ، وأخذ عنه النحو ، وكان من أولياء الله تعالى الصالحين ، وعباده الناصحين ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، قوّالاً بالحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، عارفاً بمُتُون الحديث وأحكامه ، فقيهاً [عارفاً] متقناً لمذاهب الأئمة الأربعة والصحابة والتابعين ، لا يقبل من أحد شيئاً ، مخلصاً لله تعالى ، يتكلم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية ، وأقرأ القرآن بمكة مدّةً بالقراءآت و بالمدينة و بيت المقدس ، وممن قرأ عليه خليل إمام المالكية بالحرم ، والشهاب الطبرى إمام الحنفية بالحرم ، وله مصنفات فى القراءآت : منها « مختصر الكافى » وكتاب فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولده سنة ٦٣١ تخميناً ، وتوفى ببيت المقدس آخر سنة ٧٢٣[٢] ، رحمه الله تعالى !

أبو جعفر أحمد ابن يوسف اللبلى النحوى

ومنهم الشيخ الفقيه ، الأستاذ ، النحوى ، التاريخى ، اللغوى ، أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى ، اللَّبْلى ، يكنى أبا العباس وأبا جعفر .

قرأ بالأندلس على مشايخ من أفضلهم الأستاذ أبو على عمر الشَّلَوْبين ، ثم ارتحل إلى العُدْوة ، وسكن بجايَةَ ، وأقرأ بها مدّة ، وارتحل إلى المشرق فحج ، ثم رجع إلى حضرة تونس واتخذها وطناً ، واشتغل بها بالإقراء إلى أن مات ، كان

(١) فى ا « لو أتيت بالأكل » محرفا

(٢) فى نسخة عند ا « سنة ٧٢٢ »

يتبسط لإقراء سائر كتب العربية ، وله علم جليل باللغة ، وله تواليف كثيرة : منها على الجمل ، و « شرح الفصيح » لثعلب ، ولم يشذ فيه شىء من فصيح كلام العرب .

قال الغبرينى رحمه الله تعالى : ورأيت له تأليفا فى الأذكار ، وله عقيدة فى علم الكلام ، ورأيت له مجموعا سماه « الإعلام ، بحدود قواعد الكلام » تكلم فيه على الكلم الثلاث ، الاسم والفعل والحرف ، وله تواليف أخر ، وكان من أساتيذ إفريقية فى وقته ، وممن أخذ عنه ، واستفيد منه ، انتهى .

وذكر الشيخ أبو الطيب بن علوان التونسى عن والده أحمد التونسى الشهير بالمصرى أن للمذكور تأليفا سماه « التجنيس » وله شرح أبيات الجمل ، سماه « وشى الحلل » رفعه للملك المستنصر الحَفْصى بتونس ، فدفعه المستنصر للأستاذ أبى الحسن حازم ، وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وَجَدَه ، فحكى أبو عبد الله القطان المسفر - وكان يخدم حازما - قال : كنت يوما بدار أبى الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب ، فسمعت نقر الباب ، فخرجت فإذا بالفقيه أبى جعفر ، فرجعت وأخبرت أبا الحسن ، فقام مبادرا حتى أدخله وبالغ فى بره وإكرامه ، فرأى الكتاب بين يديه ، فقال له : يا أبا الحسن ، قال الشاعر :

* وعَيْنُ الرضا عن كل عيب كليلَة *[1]

فقال له : يا فقيه أباجعفر ، أنت سيدى وأخى ، ولكن هذا أمر الملك لايمكن فيه إلا قول الحق ، والعلم لايحتمل المُدَاهنة ، فقال له : فأخبرنى بماعثرت عليه ، قال له : نعم ، فأظهر له مواضع ، فسلّمها أبو جعفر و بشرَها وأصلحها بخطه.

وأصل هذا اللَّبلى من لَبْلَة [قرية] بالأندلس ، اجتمع فى رحلته للمشرق بالقاضى

---

(١) هذا صدر بيت ، وعجزه قوله :

* كما أن عين السخط تبدى المساويا *

ووقع فى نسخة عندا « وعين الرضا عن عيب مثلى كليلة »

ابن دقيق العيد ، وكان نحويا ، فلما دخل عليه اللّبْلِي قال له القاضى : خَيْرَ مَقْدَمٍ ، ثم سأله بعد حين : بم انتصب خير مقدم ؟ فقال له اللبلى : على المصدر ، وهو من المصادر التى لا تظهر أفعالها ، وقد ذكره سيبويه ، ثم سرد عليه الباب من أوله[1] إلى آخره ، فإنه كان يحفظ أكثره ، فأكرمه القاضى وعظمه .

ثم قال ابن علوان : وذكر والدى أيضا رحمه الله تعالى ، ومن خطه المبارك نقلت ، أن الأستاذ أبا جعفر اللبلى المذكور رحمه الله تعالى قرئ عليه يوما قول امرئ القيس :

حَيِّ الحمولَ بجانب العزل إذ لا يلائم شكلها شكلى

فقال لطلبته : ما العامل فى هذا الظرف يعنى « إذ » ؟ فتنازعوا القول ، فقال : حسبكم ، قرىء هذا البيت على أستاذنا أبى على الشّلَوْبين ، فسألنا هذا السؤال ، وكان أبو الحسن بن عصفور قد برع واستقل وجلس للتدريس ، وكان الشلوبين يَغُض منه ، فقال لنا : إذا خرجتم فاسألوا ذلك الجاهل ، يعنى ابن عصفور ، فلما خرجنا سرنا إليه بجمعنا ، ودخلنا المسجد ، فرأيناه قد دارت به حلقة كبيرة ، وهو يتكلم بغرائب النحو ، فلم نجسر على سؤاله لهيبته ، وانصرفنا ، ثم جئنا بعد على عادتنا لأبى على ، فنسى حتى قرىء عليه قول النابغة :

* فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إذْ لا ارْتِجَاعَ لَهُ *[2]

فتذكر ، وقال : ما فعلتم فى سؤال ابن عصفور ؟ فصدقنا له الحديث ، فأقسم ألاّ يخبرنا ما العامل فيه ، ثم قال اللّبْلِي لطلبته : وأنا أقول لكم مثل ذلك ، فانظروا لأنفسكم ، قالوا : فنظرنا فإذا المسألة مسألة فحص ونظر ، كلما حكمنا بحكم صدّتنا عنه قوانين نحوية ، حتى مضت مدة طويلة ، فوفد علينا بتونس المحروسة

---

(١) فى ا « ثم سرد عليه الباب من سيبويه إلى آخره »

(٢) هذا صدر بيت من قصيدة طويلة مدح فيها النعمان بن المنذر ، وعجزه قوله :

* وانم القتود على عيرانة أجد *

أحدُ طلبة ابن أبى الربيع ، وكان ابن أبى الربيع هذا ساكنا بِسَبْتَة ، وهو أحد طلبة الشلوبين أيضا ، ومن كبار هذه الطبقة التى نشأت بعده ، قالوا : فتذا كرنا مع هذا الطالب فى مسائل نحوية ، فمرت هذه المسألة فى قوله تعالى (إذ نسويكم برب العالمين) فقال هذا الطالب : إن هذا الظرف وقع موقع لام العلة ، فعلمنا أن هذا هو الذى أراد الأستاذ أبو على ، ثم ناقشنا الطالب وقلنا له : إذا جعلته ظرفا فلا بد من العامل ، وإذا جعلته واقعا موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيين ، والذى يجوز عكسه على مذهب الجميع ، وإنما الأولى أن يقال : إذ حرف معناه التعليل تشترك فيه الأسماء والحروف كما اشتركت فى عن ، والله أعلم بغيبه ، انتهى .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح [1] القرطبى .

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المفسر

قال الحافظ المقريزى : وفَرْح بسكون الراء ، وقال الحافظ عبد الكريم فى حقه : إنه كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين الورعين ، الزاهدين فى الدنيا ، المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة ، فيما بين توجه وعبادة وتصنيف ، جمع فى تفسير القرآن كتابا خمسة عشر مجلدا ، وشرح أسماء الله الحسنى فى مجلدين ، وله كتاب « التذكرة ، فى أمور الآخرة » فى مجلدين ، وشرح « التفصى [2] » وله تآليف غير ذلك مفيدة ، وكان مطرح التكلف [3] ، يمشى بثوب واحد ، وعلى رأسه طاقية ، سمع من الشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبى صاحب « المفهم ، فى شرح مسلم » بعضَ هذا الشرح ، وحدث عن أبى الحسن على بن محمد بن على ابن حفص اليَحْصُبى ، وعن الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد البكرى ،

---

(١) فى « بن فرج » بجيم آخره

(٢) فى ا « التقصى » بالقاف

(٣) فى ا « مطرح التكليف »

وغيرهما ، وتوفى بمنية ابن خصيب[١] ليلة الإثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ ، ودفن بها ، رحمه الله تعالى ! .

وفى تاريخ الكتبى فى حقه ما نصه : كان شيخا فاضلا ، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه ، منها « تفسير القرآن » مليح إلى الغاية اثنا عشر مجلدا ، انتهى .

وكتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته : قد أجحف المصنف فى ترجمته جدا ، وكان متقنا[٢] متبحرا فى العلم ، انتهى .

وكتب بعض بأثر هذا الكلام ما نصه : قال الذهبى : رحل وكتب وسمع ، وكان يقظا ، فهما ، حسن الحفظ ، مليح النظم ، حسن المذاكرة ، ثقة ، حافظا ، انتهى .

وكتب آخر أثر ذلك الكلام ما صورته : مشاحة شيخنا للمصنف فى هذه العبارة مالها فائدة ، فإن الذهبى قال فى تاريخ الإسلام : العلامة أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح ، الإمام ، القرطبى ، إمام متفنن ، متبحر فى العلم ، له تصانيف مفيدة ، تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله ، ثم ذكر موته ، وقال بعده : وقد سارت بتفسيره العظيم الشأنِ الركبانُ ، وله « الأسنى ، فى شرح الأسماء الحسنى » و « التذكرة » وأشياء تدل على إمامته وذكائه وكثرة اطلاعه ، انتهى .

وكتب آخر بأثر هذا الكلام ما نصه : غفر الله لك ! إذا كان الذهبى ترجمه بما ذكرت ، وهو والله فوق ذلك ، فكيف تقول : إن مشاحة شيخك لافائدة

(١) فى ا « بمنية بنى خصيب »
(٢) فى ا « متفننا »

فيها ، وتسىء الأدب معه ، وتقول إن كلامه لافائدة فيه ؟ فالله يستر عليك ! انتهى .

أبو القاسم محمد بن أحمد (ابن حاضر) الخزرجى

ومنهم أبو القاسم بن حاضر ، الجزيرى ، الخزرجى ، محمد بن أحمد .

من جزيرة شقْر ، قدم مصر ، وسكن قُوصَ بعد ما كان من عدول بَلَنْسِية ، وكان فصيحا ، عالما بصناعة[1] التوريق ، وله نظم لم يحضرنى الآن شىء منه ، ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة ، رحمه الله تعالى !.

أبو القاسم محمد بن أحمد التجيبى

ومنهم أبو القاسم التُّجِيبى ، محمد بن أحمد التُّجِيبى .

من أهل بَلّشَ ، قرأ على ابن مُفَرِّج وابن أبى الأحوص ، ورحل فاستوطن القاهرة ، وكان شيخا فاضلا خيرا ، له أدب وشعر ، منه قوله من أبيات :

أحوى الجفون له رقيبٌ أحولُ ... الشىء فى إدراكه شيْآن

يا ليتــه ترك الذى أنا مُبْصِر ... وهو المخــير فى الغزال الثانى

ولد ببَلّشَ سنة ٦٢٣ ، وتوفى بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥[2] ، وممن روى عنه نحوىُّ الزمان أثير الدين أبو حَيَّان وغيره ، رَحم الله تعالى الجميع !.

أبو بكر محمد ابن أحمد المالقى الخزرجى

ومنهم أبو بكر الخزرجى ، محمد بن أحمد بن حسن ، وقيل : محمد بن عيسى ، المالَقِىُّ ، المالكى .

قال الشريف أبو القاسم : إنه كان أحد الزهاد الورعين ، وعباد الله المتقين ، مشتغلا بنفسه ، متخليا[3] عما فى أيدى الناس ، يأكل من كَسْب يده ، ولا يقبل لأحد شيئا ، مع وَجْد [وعلم] وعمل وفضل وأدب ، ولم يكن فى زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له .

---

(١) كلمة « بصناعة » ساقطة من ا

(٢) كذا فى ب ونسخة عند ا ، وفى أصل ا « سنة ٦٩٢ »

(٣) فى ا « مستخليا »

وقال الحافظ عبد الكريم : إنه دخل إشبيلية ، واشتغل بالعربية على الشَّلَوْبين وقرأ القراءات السبع ، ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك ، وكان والده نجاراً ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، يخيط الثياب ، فازدحم الناس عليه تبركا به ، فترك ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل عنه ، وكان شديد الزهد ، كثير العبادة ، لا يسلم يده إلى أحد ليقبلها ، وجاءه شخص قد زيد عليه فى أجرة مسكنه ليشفع إلى صاحب الدار أن لا يقبل الزائد ، فمضى إلى صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر ، فعلم بذلك الساكن بعد مدة ، فقال له : ياسيدى ماسألت إلا شفاعة ، وأنت تزن عنى[(١)] ، فقال له : رجل له دار يأخذ أجرتها يجىء إليه الخزرجى يقطع عليه حقه ؟ والله مايدفع هذا إلا أنا ، فلم يزل يدفع الزائد إلى أن انتقل الساكن إلى غيرها ، ومات ليلة [الإثنين] الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥١ ، عن خمس وأربعين سنة ، ودفن بالقرافة ، رحمه الله تعالى ، ونفعنا به !.

أبو بكر محمد ابن أحمد الهاشمي القرطبى

ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمى ، مولاهم ، لأن ولاءه لبنى العباس من أهل قرطبة .

ولد فى شهر رمضان سنة ٣٢٢ ، بقرطبة ، وسمع بها من وهب بن مسرة[(٢)] ، وخالد بن سعيد وغيره ، ورحل فحج وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق ، وأبا على ابن السكن[(٣)] ونظراءهم فى سنة ٣٤٩ ، وعاد إلى بلده ، وبها مات فى شهر رمضان سنة ست وأربعمائة .

قال ابن بَشْكُوال : كان رجلا صالحا فاضلا ، من أهل الاجتهاد فى العبادات[(٤)] مائلا إلى التقشف والزهادة ، قديم الطلب ، حسن المذهب ، متبعاً للسنن .

---

(١) فى ا « وأنت تنقد عنى »
(٢) فى نسخة عند ا « وهب بن ميسرة »
(٣) فى أصل ا « ابن السكين »
(٤) فى ا « الاجتهاد فى العبادة »

بو عبد الله محمد بن سليمان الزهرى لإشبيلى

ومنهم أبو عبدالله محمد بن [أحمد بن] سلمان[1] بن أحمد بن إبراهيم ، الزهرى ، الأندلسى ، الإشبيلى .

ولد بمالقة ، وطاف الأندلس ، وطلب العلم ، وحصل طرفا صالحاً من علم الأدب ، ودخل مصر قبل التسعين وخمسمائة ، فسمع الحديث بها ، ودخل الشام وبلاد الجزيرة ، وقدم بغداد سنة ٥٩٠ ، وعمره ثلاثون سنة ، وأقام بهامدة ، وسمع من شيوخها كأبى الفرج بن كليب ونحوه ، وقرأ ونسخ بخطه ، وسافر إلى أصبهان وبلاد الجبل ، وكان فاضلا حسن المعرفة بالأدب ، يقول الشعر ، وينشئ المقامات وصنف كتاب « البيان والتبيين ، فى أنساب المحدثين » ستة أجزاء ، وكتاب « البيان ، فيما أبهم من الأسماء فى القرآن » مجلد ، وكتاب « أقسام البلاغة ، وأحكام الصناعة » فى مجلدين ، وكتاب « شرح الإيضاح ، لأبى على الفارسى » فى خمسة عشر مجلدا ، وكتاب « شرح المقامات » مجلد ، وكتاب « شرح اليمينى[2] » فى مجلد ، قال المنذرى : توفى شهيدا ، قتله التتار فى رجب ، وقال ابن النجار : فى سابع عشر رجب سنة ٦١٧ ، رحمه الله تعالى ! .

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى (الورشي)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم ، القرطبى ، المقرى المعروف بالورشى ، نسبة إلى قراءة وَرْش لاشتهاره بها .

وهو أحد القراء المعروفين ، قال الحاكم : هو من الصالحين المذكورين بالتقدم فى علم القراءات[3] ، سمع بمصر والشام والحجاز والعراقين والجبل وأصبهان ، وورد نيسابور ، ودخل خراسان فسمع على بن المرزبان بأصبهان وبالأهواز عبد الواحد ابن خلف الجنديسابورى ، و بفارس أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقى ، وقال

---

(١) فى نسخة عند ا « سليمان »

(٢) اليمينى : هو التاريخ المعروف بتاريخ العتبى ، وهو تاريخ ليمين الدولة محمود بن سبكتكين

(٣) فى ا « في علم القرآن »

ابن النجار : قدم بغداد ، وحدث بها ، توفى بسجستان فى ربيع الأول سنة ٣٩٣ .

أبو عبدالله محمد بن أحمد الباجى اللخمى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الباجى ، اللخمى .

قال ابن بشكوال : مولده فى صفر سنة ٣٥٦ ، وسمع عن جده ، ورحل إلى المشرق .

وقال ابن غَلْبُون فى مشيخته : إنه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل ، قائما بها ، واقفاً عليها ، قاعداً للشروط ، محسناً لها ، عارفا ، و بيتهم بيت علم ، ونشأفيه[1] هو وأبوه وجده ، وكان جميعهم فى الفضل والتقدم على درجاتهم فى السن[2] ، وعلى منازلهم فى السبق ، وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة ، وشاركه فى السماع والرواية عن جده ، وسمع بمصر من أبى الحسن[3] أحمد ابن عبد الله بن حميد بن زريق المخزومى .

وقال ابن بشكوال : كان من أجل الفقهاء عندنا دراية ورواية ، بصيرا بالعقود ، ومتقدما على أهل الوثائق ، عارفا بعللها ، وألف فيها كتابا حسنا ، وكتابا فى السجلات إلى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخرين ، مع ما كان عليه من الطريقة المثلى ، وتوفية العلم حقه من الوفاء والتصون[4] ، توفى فى المحرم سنة ٤٣٣ لعشرين بقين منه .

أبو عبدالله محمد ابن أحمد العتبى القرطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز ، العُتْبى ، الأندلسى ، القرطبى الفقيه المالكى المشهور ، صاحب العُتْبِيّة .

سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما ، ورحل إلى المشرق فسمع من سُحْنُون وأصبغ بن الفرج وغيرهما ، وكان حافظاً للمسائل ، جامعاً لها ، عالما بالنوازل ، وهو الذى جمع المستخرجة من الأسمعة المسموعة غالباً من مالك

---

(١) فى ا « ونشأ فيهم » (٢) فى نسخة « درجاتهم فى السن »

(٣) فى ا « وسمع بمصر على أبى الحسن »

(٤) فى نسخة « والصون »

ابن نس ، وتعرف بالعتبية ، وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة ، وكان يؤتى بالمسألة الغريبة الشاذة فإذا سمعها قال : أدخلوها فى المستخرجة ، ولذا روى عن ابن وضاح أنه كان يقول : المستخرجة فيها خطأ كثير ، كذا قال ، ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من علماء المالكية[1] كابن رشد وغيره .

قال ابن يونس : توفى بالأندلس سنة ٢٥٥ .

والعتبى : نسبة إلى عُتْبَةَ بن أبى سفيان بن حرب ، وقيل : إلى جد للمذكور يسمى عتبة ، وقيل إلى ولاء عتبة بن [أبى] يعيش[2] .

أبو عبد الله محمد بن أحمد المعافرى الفرضى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن [محمد بن] زكريا المَعافرى ، المقرى ، الفَرَضى ، الأديب .

ولد بالأندلس سنة ٥٩١ ، ونشأ ببلنسية ، وأقام بالإسكندرية ، وقرأ القرآن على أصحاب ابن هُذَيل ، ونظم قصيدة فى القراءات على وزن الشاطبية ، لكن أكثر أبياتاً ، وصرح فيها بأسماء القراء ، ولم يرمز كما فعل الشاطبى ، وكانت له يد فى الفرائض والعروض ، مع معرفة القراءات والأدب .

ومن شعره :

إذا ما اشْتَرَتْ بنتٌ أباها فَعِتْقُهُ	بنفس الشرا شرعاً عليها تأصّلا
وميراثُه إن مات من غير عاصب	ومن غير ذى فرض لها قد تأثلا
لها النصف بالميراث والنصف بالولا	فإن وُهِبَ ابناً أو شَرَاه تفضلا
فأعتق شرعا ذلك الابن مالهَا	سوى الثلث ، والثلثان للأخ أصلا
وميراثها فيه إذا مات قبلها	كميراثها فى الأب من قبل يجتلى
ومولى أبيها مالها الدهر فيه من	ولاء ولا إرث مع الأب فاعتلى

---

(١) فى ا « من أعلام المالكية »

(٢) لعله « عتبة بن أبى سفيان » ويكون القول الاول نسبة النسب ، وهذا نسبة الولاء .

وهذه المسألة ذكر الغزالى فى الوسيط أنه قضى فيها أربعمائة قاض ، وغلطوا ، وصورتها ابنة اشترت أباها فعتق عليها ، ثم اشترى الأب ابناً فعتق عليه ، ثم اشترى الأبُ عبداً فأعتقه ، ثم مات الأب ، فورثه الابن والبنت للذكر مثل حظ الأنثيين ، ثم مات العبد المعتق ، فلمن يكون ولاؤه ؟ وفرضها المالكية على غير هذا الوجه وهى مشهورة .

محمد بن أحمد الطليطلي (النقاش)

ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل ، أبو عبد الله ، الأموى ، الأندلسى، الطُّلَيْطلى ، المعروف بالنقاش .

نزل مصر ، وقعد للإقراء بجامع عمرو بن العاص ، وأخذ عنه جماعة ، وتوفى بمصر سنة ٥٢٩ .

محمد بن أحمد القيسى القبرى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد القَيْسى [1] ، القَبْرى ، القُرْطُبى ، المؤدب . رحل من الأندلس سنة ٣٤٢ [2] ، فسمع بمصر من أبى محمد بن الورد وأبى قتيبة سالم بن الفضل [3] البغدادى وغيره ، وكان صالحاً خيراً مؤدباً ، سمع من الناس . وتوفى سنة ٣٦٢ .

والقَبْرى - بفتح القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ثم راء مهملة - نسبة إلى قَبْرَة بلدٍ بالأندلس بقرب قُرْطُبة بنحو ثلاثين ميلا .

جمال الدين محمد بن أحمد الوائلى

ومنهم جمال الدين أبو بكر الوائلى [4] ، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سُجْمَان، الشريشى ، المالكى .

ولد بشَرِيش سنة ٦٠١ ، ورحل فسمع بالإسكندرية من ابن عماد [5] الحرانى ، وبدمشق من مكرم بن أبى الصقر ، وبحلب من أبى البقاء يعيش بن على النحوى، وسمع بإرْبِلَ وبغداد ، وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدّة يفيد الناسَ فتخرّج

---

(١) فى نسخة عند ا « الفيشى » (٢) فى نسخة عند ا « سنة ٣٤٣ »
(٣) فى أصل ا « مسلم بن الفضل » (٤) فى نسخة عند ا « الوابلى »
(٥) فى ا ، ب « من ابن عمار »

به جماعة ، وولى مشيخة المدرسة بالقدس ، ومشيخة الرباط الناصرى بالجبل ، وأقام بدمشق يفتى ويدرس ، وكان من العلماء الزهاد كثير العبادة والورع والزهد ، أحد الأئمة المبرزين المتبحرين فى العربيـة والفقه على مذهب الإمام مالك ، والتفسير ، والأصول ، وصنف كتاباً فى الاشتقاق ، وشرح ألفية ابن معطى ، وأخذ عنه الناس ، وطُلِب للقضاء بدمشق فامتنع منه زهداً وورعاً ، وبقى المنصب لأجله شاغراً إلى أن مات برجب سنة ٦٨٥ ، ودفن بقاسِيُون .

وسُجْمَان : بسين مهملة مضمومة ، ثم جيم ساكنة ، بعدها ميم مفتوحة ، ونون

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمـد بن يحيى بن مُفَرِّج ، القرطبى ، المعروف والده بالقَنْتُورِى .

وكان جد أبيه مفرج صاحب الركاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل ، وكان أبوه أحمد بن يحيى رجلا صالحاً ، وولد هو سنة ٣٢٥ [1] ، وكان سكناه بقُرْطُبة بقرب عين قَنْتأورية [2] ، وسمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ كثيراً ، ومن ابن أبى دَلِيم [3] والخشَنى ، ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكة من ابن الأعرابى ، ولزمه حتى مات ، وسمع بها من جماعة غيره ، وسمع بجدّة ، وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ، ودخل صنعاء وزَبيد وعَدَن ، وسمع بها من جماعة ، وسمع بمصر من البرقى صاحب أحمد البزار [4] ، وسمع من السيرافى وجماعة كثيرة ، وسمع بغزّة وعَسْقَلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وصَيْدَا والرملة وصور وقيسارية والقِلْزِم والفرَمَا والإسكندرية ، فبلغت عدة شيوخه إلى مائتين وثلاثين شيخاً ، وروى عنه أبو عمر الطلمنكى وجماعة ، وكتب تاريخ مصر عن مؤلفه أبى سعيد بن يونس ، وروى عنه ابنُ يونس وهو من أقرانه ، وعاد إلى الأندلس من رحلته سنة ٣٤٥ ،

---

(١) كذا وقع فى الأصول كلها ، وقد ذكر بعد سطرين أنه رحل فى سنة ٣٣٧ ومعنى هذا أن سنه يوم رحل اثنتا عشرة سنة .

(٢) فى نسخة «قتنت» و«أورتة» (٣) فى ا «ابن دليم» وفى نسخة «أبى دليم»

(٤) فى نسخة «البزاز»

واتّصل بالحكم المستنصر ، وصارت له عنده مكانة ، وألف له عدة كتب ، واستقضاه على إسْتِجَةَ ثم على المَرِيَّة ، ومات برجب سنة ٣٤٨ .

قال الحميدى : هو محدّث ، حافظ ، جليل ، صنف كتباً فى فقه الحديث ، وفى فقه التابعين : فمنها «فقه الحسن البصرى» فى سبع مجلدات ، و «فقه الزهرى» فى أجزاء كثيرة ، وسمع مسند ابن الفَرَضى وحديث قاسم بن أصبغ .

قال ابن الفرضى : وكان عالما بالحديث ، بصيراً برجاله ، صحيح النقل ، حافظاً ، جيد الكتابة على كثرة ما جمع .

وقال ابن عفيف فى حقه : إنه كان من أعنى الناس[1] بالعلم ، وأحفظهم للحديث ، وأبصرهم بالرجال ، ما رأيت مثله فى هذا الفن ، من أوثق المحدثين بالأندلس ، وأصحهم كتباً ، وأشدهم تعباً لروايته ، وأجودهم ضبطاً لكتبه ، وأكثرهم تصحيحاً لها ، لم يَدَعْ فيها شبهة[2] ، رحمه الله تعالى !

أبو عبد الله محمد بن أحمد الوضاحى القيسى

ومنهم أبو عبد الله القَيْسى ، الوضاحى ، محمد بن أحمد بن موسى .

رحل إلى المشرق[3] ، وسمع من السِّلفى وغيره جملة صالحة ، ثم عاد إلى الأندلس بعد الحج ، وسكن المَرية مدّة ، وبها مات سنة ٥٣٩ ، وقيل : فى التى بعدها ، وكان من أظرف الناس ، وأحسنهم أدباً ، فقيها ، فاضلا ، ثقة ، ذا فرائد جمة ، عفيفاً ، معتنياً بالعلم .

أبو عبد الله محمد بن أحمد العبدرى البلنسى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هُذَيل ، العَبْدَرى ، البَلَنْسى ولد سنة ٥١٩ ، وسمع من أبيه وجماعة ، ورحل حاجا فسمع من السِّلَفى وابن عوف[4] والحضرمى والتنوخى والعثمانى وغيرهم ، ورجع بعد الحج إلى الأندلس

---

(١) فى نسخة عند ا « أعلى الناس فى العلم » (٢) فى ا « لايدع فيه شبهة »

(٣) فى ا « رحل من المغرب »

(٤) فى ا « وابن عرف » وفى نسخة عندها « وابن عون »

فحدث ، وكان غاية فى الصلاح والورع وأعمال البر ، وله حظ من علم العبارة ، ومشاركة فى اللغة ، وكتب بخطه على ضعفه كثيراً ، رحمه الله تعالى !

أبو عبد الله محمد بن أحمد الإشبيلى

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نوح ، الإشبيلى .

ومولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة بإشبيلِيَةَ ، وجال فى بلاد المغرب والمشرق ، وقرأ على الشيوخ الفضلاء ، وحَصَّل كثيراً فى علم القراءات (١) والأدب ، وله نظم ونثر ، وكان كثير التلاوة للقرآن ، جيد الأداء له ، وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩ ، رحمه الله تعالى !

محمد بن أسباط المخزومى

ومنهم محمد بن أسباط ، المخزومى ، القرطبى .

روى عن يحيى بن يحيى ، وقدم مصر فسمع من الحارث بن مسكين ، وكان حافظاً للفقه ، عالماً ، توفى سنة ٢٧٩ .

أبو بكر محمد ابن إسحاق القاضى

ومنهم أبو بكر محمد بن إسحاق ، الشهير بابن السَّلِيم ، قاضى الجماعة بقُرْطُبة مولده سنة ٣٠٦ ، روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته ، ورحل سنة ٣٣٢ (٢) ، فسمع بمكة من ابن الأعرابى ، و بمصر من الز بيرىّ وابن النحاس وغيرهما، وعاد إلى الأندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم ، وحدث ، فسمع منه الناس ، وكان حافظاً للفقه ، بصيراً بالاختلاف ، حسن الخط والبلاغة متواضعاً ، وتوفى بجمادى الأولى سنة ٣٦٧ .

وسَلِيم بفتح السين مكبراً .

موسى بن بهيج ، الواعظ

ومنهم موسى بن بهيج ، المغربى ، الأندلسى ، الواعظ ، الفقيه العالم .

من أهل المَرِية ، نزل مصر ، يكنى أبا عمران ، كان من أهل العلم والأدب،

---

(١) فى ا « فى علم القرآن »

(٢) فى أصل ا « سنة ٣٣١ »

وله فى الزهد وغيره أشعار حُملت عنه ، وحدث المَرْشَانى عنه بمُخَمَّسة فى الحج وأعماله كلها ، ونقيه بمصر وقرأها عليه .

ولابن بهيج هذا قوله :

إنَّمـا دُنْيَاكَ ساعـه فاجْعَلِ الساعة طَاعَهْ
واحذر التقْصِيرَ فيها واجتَهِدْ،ماقَدْرُساعهْ
وإذا أحْبَبْتَ عـزاً فالتمس عـز القناعهْ

أبو عمران موسى بن سعادة

ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة ، مولى سعيد بن نصر .

من أهل مُرْسِية ، سمع صهره أبا على ابن سُكرة الصَّدَفى ، وكانت بنته عند أبي علي ، ولازمه ، وأكثر عنه ، وروى عن أبى محمد بن مُفَوِّز الشاطبي وأبى الحسن بن شفيع ، قرأ عليهما الموطأ ، ورحل ، وحج ، وسمع السنن من الطرْطُوشى ، وعُنى بالرواية ، وانتسخ صحيحى البخارى ومسلم بخطه ، وسمعهما على صهره أبى على ، وكانا أصلين لايكاد يوجد فى الصحة مثلهما ، حكى الفقيه أبو محمد عاشر بن محمد أنه سمعهما(1) على [أبى على] نحوستين مرة ، وكتب أيضاً الغريبين للهرَوى ، وغيرذلك ، وكان أحد الأفاضل الصلحاء ، والأجواد السُّمحاء ، يؤم الناس فى صلاة الفريضة ، ويتولى القيام بمؤن صهره أبى على وبما يحتاج إليه من دقيق الأشياء وجليلها ، وإليه أوصى عند توجُّهه إلى غزوة كُتَنْدَةَ التى فقد فيهاسنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكانت له مشاركة فى علم اللغة والأدب ، وقد حدث عنه ابنُ أخيه القاضى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة بكتاب « أدب الكتاب(2) » لابن قتيبة ، وبالفصيح لثعلب .

---

(1) فى ا « أنهما سمعا على أبى على نحو ستين مرة »

(2) هكذا اشتهر اسم هذا الكتاب بالأندلس حتى ألف البطليوسى عليه شرحا سماه « الاقتضاب ، في شرح أدب الكتاب » واسمه المعروف به فى المشرق « أدب الكاتب »

أبو محمد عبدالله ابن طاهر الأزدى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن طاهر ، الأزدى .

من أهل وادى آش ، له رحلة إلى المشرق أدى فيها الفريضة ، وسمع بدمشق من أبى طاهر الُخشُوعى مقامات الحريرى وابن عساكر وغيرهما ، ثم قَفَلَ إلى بلده ، انتهى ملخصاً من ابن الأبار .

وحكى الصفدى أن ابن المستكفى اجتمع بالمتنبى بمصر ، وروى عنه شيئاً من شعره ، ومما روى عنه أنه قال : أنشدنى المتنبى لنفسه :

لاعبت بالخاتم إنســانةً كمثل بَدْر فى الدجى الفاحِمِ
وكلما حاولتُ أخــذى له مِنَ البَنَان المطرف الناعم(١)
ألْقَتْهُ فى فيها فقلت : أُنظروا قد خَبَّتِ الخاتَمَ فى الخاتم(٢)

جمال الدين أبو عبدالله محمد ابن عبدالله بن مالك الجيانى

ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد الله بن مالك .

صاحب التسهيل والألفية ، وهو : جمال الدين محمد بن عبد الله [بن عبد الله] ابن مالك ، الإمام ، العلامة ، الأوحد ، الطائى ، الجيَّانى ، المالكى حين كان بالمغرب ، الشافعى حين انتقل إلى المشرق ، النحوى ، نزيل دِمِشْق .

ولد سنة ستمائة أوفى التى بعدها ، وسمع بدمشق من مكرم وأبى صادق الحسن بن صَبَّاح وأبى الحسن السخاوى وغيرهم ، وأخذ العربية عن غير واحد ، فمن أخذ عنه بجَيَّان أبو المظفر ، وقيل : أبو الحسن ، ثابت بن خيار(٣) ، عُرِف بابن الطيلسان ، وأبى رَزِين ، بن ثابت بن محمد يوسف بن خيار الـكُلاَعى من أهل لَبْلة ، وأخذ القراءات عن أبى العباس أحمد بن نوَّار ، وقرأ كتاب سيبويه على أبى عبد الله ابن مالك المرشانى ، وجالس يعيش وتلميذه ابن عَمْرُون وغيره بحلب ، وتصدر بها لإقراء العربية ، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب ، حتى بلغ فيه الغاية ،

---

(١) فى نسخة عند ا « من البنان المشرق الناعم »
(٢) فى ا « قد خبء الخاتم فى الخاتم » وفي نسخة عندها « قد خبأت »
(٣) فى بغية الوعاة للسيوطى « ثابت بن حيان »

وأربى على المتقدمين ، وكان إماماً فى القراءات ، وعالماً بها ، وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة فى قدر الشاطبية ، وأما اللغة فكان إليه المنتهَى فيها .

قال الصفدى : أخبرنى أبو الثناء محمود قال : ذَكرابن مالك يوماً ما انفرد به صاحبُ المحكم عن الأزهرى فى اللغة ، قال الصفدى : وهذا أمر مُعْجز ، لأنه يحتاج إلى معرفة جميع مافى الكتابين ، وأخبرنى عنه أنه كان إذا صلى فى العادلية — لأنه كان إمام المدرسة — يُشَيعه قاضى القضاة [شمس الدين] بن خلكان إلى بيته تعظيما له .

وقد روى عنه الألفية شهابُ الدين محمود المذكور ، ورواها الصفدى خليل عن شهاب الدين محمود قراءة ، ورواها إجازةً عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة [عنهما] عنه .

وأما النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحراً لايُشَق لُجُه ، وأما اطلاعه على أشعار العرب التى يُسْتَشهد بها على النحو واللغة فكان أمرا عجيبا ، وكان الأئمة الأعلام يتحيرون فى أمره ، وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية ، لأنه كان أكثر(١) مايستشهدبالقرآن ، فإن لم يكن فيه شاهد عَدَلَ إلى الحديث ، وإن لم يكن فيه شىء(٢) عدل إلى أشعار العرب ، هذامع ماهوعليه من الدين والعبادة(٣) ، وصدق اللهجة ، وكثرة النوافل ، وحسن السَّمْت ، وكمال العقل ، وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية ، وتخرج به جماعة ، وكان نظم الشعر عليه سهلا رَجَزُه وطَويله وبَسيطه ، وصنف كتاب « تسهيل الفوائد » قال الصفدى : ومدحه سعد الدين محمد بن عربى بأبيات مليحة إلى الغاية ، وهى:

إن الأمام جمالَ الدين جَمَّله ربُّ العُلاَ ولنَشْر العلم أهلَهُ
أملى كتاباً له يُسْمَى « الفوائد » لم يزَل مُفيداً لِذِى لب تأمّله

---

(١) فى ا « لأن أكثر ما يستشهد بالقرآن »

(٢) فى أصل ا « وإن لم يكن فيه شاهد » (٣) فى ا « والعبارة »

وكل مسألة فى النحو يَجْمَعُهَا   إن الفوائد جمع لانظير له

قال : وفى هذه الأبيات مع حسن التورية فيها ما لايخلو من إيراد ذكرته فى كتابى « فص الخاتم » انتهى .

قلت : أجاب العَجِيسى عن ذلك بأن الأبيات ليست فى التسهيل ، وإنما هى فى كتاب له يسمى « الفوائد » وهو الذى لخصه فى « التسهيل » فقوله فى اسم التسهيل « تسهيل الفوائد » معناه تسهيل هذا الكتاب ، وذكر أيضا أنه مثل التسهيل فى القدر على ما ذكره مَنْ وقف عليه ، وقال : وإليه يشير سعد الدين محمد بن عربى بقوله « إن الإمام - إلى آخره » وسعد الدين ابنُ الشيخ محيي الدين صاحب الفُصُوص وغيرها .

ثم قال العجيسى : وذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتابا آخر سماه بالمقاصد ، وضمنها تسهيله ، فسماه لذلك « تسهيل الفوائد ، وتكميل المقاصد » فعلى هذا لايصح قول الصفدى « إن المدح المذكور فى التسهيل » إلا بارتكاب ضرب من التأويل ، انتهى كلام العَجِيسى .

قلت : وذكر غيره أن قوله فى الألفية « مقاصِدُ النحو بها محوية » إشارة لكتاب المقاصد ، وتعقب بقوله « محوية » فإنه لو كان كما ذكر لقال محوىٌّ ، وأجاب بعضهم بأنه من باب الاستخدام ، وفيه تعسف .

رجع - ومن تصانيف ابن مالك « الموصل ، فى نظم المفصل » وقد حل هذا النظم فسماه « سبك المنظوم ، وفك المختوم » ومن قال « إن اسمه فك المنظوم وسبك المختوم » فقد خالف النقل والعقل ، ومن كتب ابن مالك كتاب « الكافية الشافية » ثلاثة آلاف بيت ، وشَرْحُها ، والخلاصة[1] ، وهى مختصر الشافية ،

(١) « الخلاصة » هذا الكتاب هو الذى عرف بالألفية ، وابن مالك يقول فى أوله :

وأستعين الله فى ألفيــة   مقاصد النحو بها محوية

ويقول فى آخره :

حوى من الكافية الخلاصة   كما اقتضى رضا بلا خصاصة

و « إكمال الإعلام ، بمثلث الكلام » وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم ، و « لامية الأفعال » وشرحها ، و « فَعَلَ وأفعل » و « المقدمة الأسدية » وضعها باسم ولده الأسد ، و « عُدَّة اللافظ ، وعمدة الحافظ » و « النظم الأوجز ، فيما يهمز » و « الاعتضاد ، فى الظاء والضاد » مجلد ، و « إعراب مشكل البخارى » و « تحفة المودود ، فى المقصور والممدود » وغير ذلك كشرح التسهيل .

وروى عنه ولده بدر الدين محمد ، ومحب الدين[١] بن جعوان ، وشمس الدين بن أبى الفتح ، وابن العطار ، وزين الدين أبو بكر المِزِّى[٢] ، والشيخ أبو الحسين اليونينى ، وأبو عبد الله الصيرفى ، وقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، وشهاب الدين محمود وشهاب الدين بن غانم ، وناصر الدين بن شافع ، وخلق كثير سواهم .

ومن نظمه فى الحَلْبة :

خَيْلُ السباق المجلِّى يقتفيه مُصَـلٍّ والمُسَلِّى وتالٍ قبل مرتاح
وعاطف وحَظِىّ والمؤمَّل واللطيم والفِسْكل السُّكَّيْتُ يا صاحِ

وله من هذه الضوابط شىء كثير .

وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب : إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل ، وصاحب المفصل نحوىٌّ صغير[٣] ، وناهيك بمن يقول هذا فى حق الزمخشرى .

وكان الشيخ ركن الدين بن القَوْبع[٤] يقول : إن ابن مالك ما خَلَّى للنحو حرمة .

وحكى عنه أنه كان يوما فى الحمام وقد اعتزل فى مكان يستعمل فيه الموسى ، فهجم عليه فتى فقال : ماتصنع ؟ فقال : أكنس لك الموضع للقعود ، قال بعضهم :

(١) فى ا « وشمس الدين بن جعوان » (٢) فى نسخة عند ا « المزنى » محرفا

(٣) فى ب « وصاحب المفصل ونحوه صغيران » وفى ا « وصاحب المفصل نحوه صغيرات »

(٤) فى نسخة « القريع » وفى أخرى « القويع »

وهذا مما يستبعد على دين ابن مالك ، والعُهْدَة[1] على ناقله ، قال الصفدى : ولا يستبعد ذلك من لُطْف النحاة وطباع أهل الأندلس .

وتوفى ابن مالك بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة .

وقال بعضهم : من أحسن شعر ابن مالك قوله :

إذا رَمِدَتْ عينى تداوَيْتُ منكم ... بنظرة حسن أو بسَمْعِ كلام
فإن لم أجد ماء تيمَّمْتُ باسمكم ... وصَلَّيْتُ فرضى والديار أمامى
وأخلصت تكبيرى عن الغير معرضا ... وقابلت أعلام السوى بسلام[2]
ولم أر إلا نور ذاتك لأنحاً ... فهلى تَدَعُ الشمسُ امتدادَ ظلام

وقدم ــ رحمه الله تعالى ! ــ القاهرة ، ثم رحل إلى دمشق ، وبها مات كما علم .

وقال الشرف الحصنى يرثيه :

يا شَتَاتَ الأسماء والأفعال ... بَعْدَ موت ابن مالكٍ المفضال
وانحرافَ الحروف من بَعْدِ ضَبْطٍ ... منه فى الِانْفِصَالِ والاتِّصَالِ
مَصْدَراً كان للعلوم بإذن الله ... من غير شُبْهَةٍ ومحال
عدم النحو والتعطف والتو ... كيد مُسْتَبْدلا من الأَبْدال
ألم إعتراه أسكن منه ... حركات كانت بغير اعتلال
يالها سكتة لهمز قضاء ... أورَثَتْ طول مدة الانفصال
رَفَعُوه فى نَعْشِهِ فانتصبنا ... نصبَ تمييز، كيفَ سَيْرُ الجبال؟
فخموه عند الصلاة بدلٍّ ... فأُمِيلَتْ أسراره للدلال
صرفوه يا عُظْمَ ما فَعَلوه ... وهْوَ عدْلٌ معرف بالجَمَال
أدْغَمُوه فى الترب من غير مثل ... سالما من تغير الانتقال

(1) فى نسخة « والعمدة على ناقله » محرفا

(2) فى ا « أعلام السرى بسلام » محرفا عما أثبتناه عن ب

وَقَفُوا عند قبره ساعة الدفن وُقوفاً ضرورة الإمتثال
ومددنا الأكفَّ نطلبُ قَصْراً مسكنا للنزيل من ذى الجلال
آخر الآى من سبأ الحظ منه حظه جاء أول الأنفال
يا بيَانَ الإعراب يا جامع الإغراب يا مُفهِماً لكل مقال(١)
يا فريد الزمان فى النظم والنثر وفى نقلَ مُسْنَدَات العوالى
كم علوم بَثَثْتَهَا فى أناس علموا ما بثثت عند الزوال(٢)

انتهت ملخصة .

قال الصفدى : وما رأيت مَرْثية فى نحوى أحسن منها على طولها ، انتهى .

ودفن ابن مالك بسفح قاسيون ، بتربة القاضى عز الدين بن الصائغ ، وقال العَجيسى : بتربة ابن جعوان .

ورثاه الشيخ بهاء الدين بن النحاس بقوله :

قل لابن مالك أن جرَتْ بك أدمعى حُمْراً يُحَاكيها النَّجِيعُ القَانِى
فلقد جرحْتَ القلب حين نُعِيتَ لى وتدفقت بدمائه أجفانى
لكن يهوّن ما أجِنُّ من الأسى علمى بنُقْلَته إلى رضوان
فسقى ضريحاً ضمَّه صَوْبُ الحيا يَهْمِى به بالرَّوْحِ والرَّيْحَانِ(٣)

وابنُ النحاس المذكور أحد تلامذة ابن مالك ، وهو القائل يخاطب رضى الدين الشاطبى الأندلسىّ ، وقد كلفه أن يشترى له قِطْراً(٤) :

أيها الأوحد الرضىُّ الذى طا ل علاء وطاب فى الناس نشرا
أنت بَحْرٌ لا غرو إن نحن وافيـ ناك رَاجينَ من نداك القِطْرَا

---

(١) فى ا « يالسان الأعراب »
(٢) فى ا «علموا لأثنيت عندالزوال»
(٣) فى ا « بالريح والريحان »
(٤) القطر : النحاس ، أو هو نوع حاص منه .

وابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس ، وهو : بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، الحلبى الأصل ، المعروف بابن النحاس ، وهو شيخ أبى حَيَّان ، ولم يأخذ أبو حَيَّان عن ابن مالك وإن عاصره بنحو ثلاثين سنة .

وقال بعض من عَرَّف بابن مالك : إنه تصدر بحلب مدة ، وأم بالسلطانية ، ثم تحول إلى دمشق ، وتكاثر عليه الطلبة ، وحاز قَصَبَ السبق ، وصار يضرب به المثل فى دقائق النحو ، وغوامض الصرف ، وغريب اللغات ، وأشعار العرب ، مع الحفظ والذكاء والورع والديانة وحسن السَّمْت والصيانة والتحرى لما ينقله والتحرير فيه ، وكان ذا عقل راجح ، حسن الأخلاق ، مهذبا ، ذا رَزَانة وحياء ووقار ، وانتصاب للافادة ، وصبر على المطالعة الكثيرة ، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجى وغيره ، وسارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لها العلماء الأعيان ، وكان حريصاً على العلم ، حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد .

وقال بعض الحفاظ حين عرف بابن مالك : يقال إن عبد الله فى نسبه مذكور مرتين متواليتين ، و بعض يقول : مرة واحدة ، وهو الموجود بخطه أول شرحه لعمدته ، وهو الذى اعتمده الصفدى وابن خطيب دَارَيَّا محمد بن أحمد بن سليمان الأنصارى ، وعلى كل حال فهو مشهور بجَدِّه فى المشرق والمغرب .

وحكى بعضهم أن ولادته سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وعليه عَوَّل شيخ شيوخ شيوخنا ابن غازى فى قوله :

قد خَبَعَ ابن مالك فى خبعا وهو ابنُ عه كذا وَعَى من قدْ وَعَى [1]

وقيل ، كما تقدم : إن مولده سنة ستمائة أو بعدها بجَيَّان الحرير مدينة من مدن الأندلس جبر الله كسرها ، وهى مفتوحة الجيم و ياؤها مشددة تحتانية ، وتصدَّر ابن مالك

(١) فى نسخة عند ا « كذا حكى من قد وعي » وخبع فى أول البيت بمعنى أقام ، ومجموع حروف «خبعا» بحساب الجمل ٦٧٣ وهى سنة وفاته عنده ، ومجموع حروف « عه » ٧٥ وهو مقدار سنه

بحَمَاة مدة ، وانتقد بعضهم على ابن خلكان إسقاطه من تاريخه ، مع كونه كان يعظِّمه إلى الغاية ، وقدم رحمه الله تعالى لصاحب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه : إنه أعلم الناس بالعربية والحديث ، ويكفيه شرفا أن من تلامذته الشيخ النووى (١) ، والعَلَم الفارقى ، والشمس البعلى ، والزين المِزِّى (٢) ، وغيرهم ممن لا يحصى .

وكان رحمه الله تعالى كثير المطالعة ، سريع المراجعة ، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه فى محله ، وهذه حالة المشايخ الثقات ، والعلماء الأثبات ، ولا يُرَى إلا وهو يصلى أو يتلو أو يصنف أو يقرئ ، وكذا كان الشيخ أبو حَيَّان ، ولكن كان جِدُّه فى التصنيف والإقراء .

وحكى أنه توجه يوما مع أصحابه للفرجة بدمشق ، فلما بلغوا الموضع الذى أرادوه غَفَلوا عنه سويعة (٣) ، فطلبوه فلم يجدوه ، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبا على أوراق .

وأغرب من هذا فى اعتنائه بالعلم ما مر أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حَدَّها بعضهم بثمانية ، وفى عبارة بعض «أو نحوها» لقنه ابنه إياها ، وهذا مما يصدق ما قيل بقدر ما تتعَنَّى ، تنال ما تتمنى ، فجزاه الله خيراً عن هذه الهمة العلية ! .

وذكر أبو حيان فى الجوازم من تذييله وتكميله ، أنه لم يصحب مَنْ له البراعة فى علم اللسان ، ولذا تَضْعُفُ استنباطاته وتعقُّباته على أهل هذا الشان ، وينفر من المنازعة ، والمباحثة والمراجعة ، قال : وهذا شأن من يقرأ بنفسه ، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه ، ولقد طال فَحْصِى وتنقيرى عمن قرأ عليه ، واستند فى العلم إليه ، فلم أجد مَنْ يذكر لى شيئاً من ذلك ، ولقد جرى يوما مع صاحبنا تلميذه علم الدين سليمان بن أبى حرب الفارقى الحنفى فقال : ذكر لنا أنه قرأ على ثابت بن خيار (٤) من

(١) وقع فى ا «الشيخ النورى» (٢) فى نسخة عند ا «المزنى» وانظر ص ٤٢٤
(٣) فى ا « بسويعة » (٤) فى ا « ثابت بن الخيار »

أهل بلدهِ جيان ، وأنه جلس فى حلقة الأستاذ أبى على الشلوبين نحوا من ثلاثة عشر يوما ، وثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة فى هذا الشأن ، وإنما جلالته وشهرته فى إقراء القرآن ، هذا حاصل ماذكره أبوحيان .

قال بعض المحققين ، وهو العلامة يحيى العُجيسى : وليس ذلك منه بإنصاف ، ولا يحمل على مثله إلا هوى النفس وسرعة الانحراف ، فنفيه المسندَ عنه والمتبعَ ، شهادةُ نفى فلا تنفع ولا تسمع ، ويكفى ماسطر فى حقه قوله فى أثنائه : نظم فى هذا العلم كثيراً ونثر ، وجمع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول السن من هذا العلم غرائبَ ، وحوت مصنفاته منها نوادر وعجائب ، وإن منها كثيرا استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة ، إذ هى مرتبة الأكابر النقاد ، وأرباب النظر والاجتهاد ، وقوله فى موضع آخر من تذييله « لا يكون تحت السماء أنحى ممن عَرَفَ مافى تسهيله » وقرنه فى بحره بمصنف سيبويه فما ينبغى له أن يغمصه ، ولا أن يحط عليه ، ولا أن يقع فيما وقع فيه ، فإنه مما يُجرّئ على أمثاله الغبى والنبيه ، والحليم والسفيه ، وما هذا جزاء السلف من الخلف ، والدرر من الصدف ، والجيد من الحشف ، أوَمَا ينظر إلى شيخه أبى عبدالله ابن النحاس ، فإنه لا يذكره إلا بأحسن ذكر كما هو دأب(١) خيار الناس ، ومن كلامه فى نقله عنه ، وهو الثقة فيما ينقل والفاضل حين يقول ، وإلى تلميذه أبى البقاء [الحافظ] المصرى حيث يقول فيه ، أعنى فى أبى حيان :

هو الأوحد الفرد الذى تمّ عِلْمُهُ وسار مَسِيرَ الشمس فى الشرق والغرب

ومن غاية الإحسان مبدأ فضله فلا غرو أن يسمو على العجم والعرب

ومن غاية الإحسان ، فى هذا الشان ، التصانيف التى سارت بها الركبان ، فى جميع

---

(١) فى ا « كما هو أدب خيار الناس »

الأوطان ، واعترف بحسنها الحاضر والبادى، والدانى والقاصى ، والصديق والعدو ، فتلقاها بالقبول والإذعان ، فسامح الله تعالى أبا حيان ! فإن كلامه يحقق قول القائل : كما تدين تدان ، ورحم الله تعالى ابن مالك ! فلقد أحيا من العلم رسوما دارسة ، و بين معالم طامسة ، وجمع من ذلك ما تفرق ، وحقق ما لم يكن تبين منه ولا تحقق ، ورحم شيخه ثابت بن الخيار ، فإنه كان من الثقات الأخيار ! وهو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكُلاَعى ـ بضم الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب فى الإحاطة ـ وأصله من لَبْلَة ، و يعد فى أهل جَيَّان وتوفى بغرناطة سنة ٦٢٨، وكان أبو حَيَّان يغض من هذا الكتاب و يقول: ما فيه من الضوابط والقواعد حائد عن مَهْيَع الصواب[١] والسداد ،وكثيرا ما يشير إلى ذلك فى شرحه المسمى بمنهج[٢] السالك ، ومن غَضِّه منه بالنظم فى ملأ من الناس من جملتهم شيخه بهاء الدين بن النحاس والأقسرانى بجاريه مقتفياً له ومتأسياً فى تسويد القرطاس :

ألفيـة ابن مالك مطموسة المسالك

وكم بهـا مشتغل أوقع فى المهـالك

ولا تغتر أنت بهذا الغرر ، فإنه ما كل سحاب أبرق ممطر[٣]، ولا كل عود أورق مثمر ، وقيل معارضة للقوم ، وتنبيهاً لهم مما هم فيه من النوم :

ألفيـة ابن مالك مشرقة المسـالك

وكم بهـا مشتغل عَلاَ على الأرائِكِ

وما أحسن قول ابن الوردى فى هذا المعنى :

ياعائباً ألفيَّـةَ ابنِ مالك وغائباً عن حفظها وفهمها

أما تَرَاها قد حَوَتْ فضائلا كثيرة فـلا تجُرْ فى ظلمها

---

(١) فى ا « حائد عن بيع » وفى نسخة عندها « حائد عن مبيع »

(٢) كذا فى ا ، وفى ب « المسمى بنهج السالك »

(٣) فى ا « ما كل سحاب أبرق مطر ، ولا كل عود أورق ثمر »

وازْجُرْ لمن جادل مَنْ يَحْفَظُها   برابع وخامس مِنَ اسمها

يعنى « صه » فإنه عند الاستقلال بمعنى اسكت ، انتهى ملخصاً .

وقال أيضاً عند ذكره مصنفات ابن مالك : وهى كما قيل غزيرة المسائل(١)، ولكنها على الناظر بعيدة الوسائل ، وهى مع ذلك كثيرة الإفادة ، موسومة بالإجادة ، وليست [هى] لمن هو فى هذا الفن فى درجة ابتدائه ، بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه ، انتهى .

واعلم أن الألفية مختصرة الكافية كما تقدم ، وكثير من أبياتها فيها بلفظها ، ومَتبُوعُه فيها ابنُ مُعْطِى، ونظمه أجمع وأوْعَب ، ونظم ابن معطى أسلس وأعذب ، وذكر الصفدى عن الذهبى أن ابن مالك صنف الألفية لولده تقى الدين محمد المدعو بالأسد ، واعترضه العلامة العَجِيسى بأن الذى صنفه له عن تحقيق « المقدمة الأسدية» قال : وأما هذه ـ يعنى الألفية ـ فذكر لى مَنْ أثِقُ بقوله أنه صنفها برسم القاضى شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين بن إبراهيم ابن عفيف الدين بن هبة الله بن مسلم بن هبة الله بن حسان الجهنى الحموى الشافعى الشهير بابن البارِزِى ، ويقال : إن هذه النسبة إلى باب أبرز أحد أبواب بغداد ، ولكن خفف لكثرة دَوْرِهِ على الألسنة ، انتهى مختصراً .

وقال بعض مَنْ عرّف بابن مالك : هو مقيم أَوَد ، وقاطع لدَد ، ومزين سماء موّهت الأصائلُ ديباجتها ، وشعشعت البُكَرُ زجاجتها ، وجاءت أيامه صافية من الكدر ، ولياليه وما بها شائبة من الكبر ، قد خَلّقها العشى بِرَدْعِه ، وخلفها الصباح بِرَبْعه ، فكان كل متعين حول مسجده ، وكل عين فاخرة بعَسْجَده ، هذا وزُمَرُ الطلاب ، وطلبة الأجلاب ، لا تزال تُزْجِى إليه القِلَاص ، وتكثر

(١) فى ا « عزيزة المسائل »

من سِرْبِهِ الاقتناص ، كان أوحد وقته فى علم النحو واللغة مع كثرة الديانة والصلاح ، انتهى .

وقال بعض المغاربة :

لقد مَزَّقَتْ قلبى سِهَامُ جفونها كما مَزَّقَ اللخمىُّ مذهَبَ مالك
وَصَالَ على الأوصال بالقد قدُّها فأضحَتْ كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت إذ ذاك الهوى لمرادها كتقليد أعلام النحاة ابنَ مالكِ
ومَلَّكْتُها رِقِّى لرقة لفظها و إن كنت لاأرضاه ملكا لمالك
ونادَيْتُها يا مُنْيَتى بَذْلُ مهجتى ومالى قليلٌ فى بديع جمالك

و يعنى بقوله « بتقطيع مالك » مالك بن المرحَّل السَّبْتى رحمه الله تعالى ! .

ولما سئل ابن مالك عن قول النبى صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من الْحَوْرِ بعد الكَوْرِ » هل هو بالراء أو بالنون ؟ أنكر النون ، فقيل له : إن فى الغريبين للهروى رواية بالنون ، فرجع عن قوله الأول ، وقال : إنما هو بالنون ، انتهى .

وقد ذكر فى المشارق النون والراء ، فقال « الحور بعد الكور » بالراء رواه العذرى وابن الحذاء ، وللباقين بالنون ، معناه النقصان بعد الزيادة ، وقيل : من الشذوذ بعد الجماعة ، وقيل : من الفساد بعد الصلاح ، وقيل : من القلة بعد الكثرة ، كَارَ عمامَتَه إذا لفها على رأسه واجتمعت ، وحارها إذا نقضها فافترقت ، و يقال : حار إذا رجع عن أمر كان عليه ، ووهَّم بعضهم رواية النون ، وقيل : معناها رجع إلى الفساد بعد أن كان على خير مما رجع إليه ، وقال عياض فى موضع آخر بعد : الحور بعد الكور ، كذا للعذرى ، والكون للفارسى والسجزى[1] وابن ماهان ، وقول عاصم فى تفسيره « حار بعد ما كار » وهى روايته ، و يقال : إن عاصماً وهم فيه ، انتهى .

(١) فى ا « والشجري » وفى نسخة عندها « السخرى »

والسائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خَلِّـكَان ، لأن ابن الأثير سأل ابنَ خلكان عنها ، فسأل هو ابن مالك ، رحم الله تعالى الجميع !

وقد عرّف الحافظ الذهبى بابن مالك فى تاريخ الإسلام ، وذكر فيه ترجمة لولده بَدْر الدين محمد ، وأنه كان حادَّ الذهن ، ذكياً ، إماماً فى النحو وعلم المعانى والمنطق ، جيد المشاركة فى الفقه والتدريس ، وأنه تَصَدَّر بعد والده للتدريس ، ومات شاباً قبل الكهولة سنة ٦٨٦ ، ومن أجلّ تصانيفه شرحُه على ألفية والده ، وهو كتاب فى غاية الإغلاق[1] ، ويقال : إنه نظير الرضى فى شرح الكافية ، وللناس عليه حواشٍ كثيرة ، رحمهم الله تعالى أجمعين !

تم - بعَوْن الله وتوفيقه - طبع الجزء الثانى من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » ويليه الجزء الثالث ، وأوله « ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القيسى التُّدْميرى » نسأل الله أن يعين على إكماله ، إنه ولى ذلك وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) فى نسخة عند ا « فى غاية الانغلاق »

فهرس الجزء الثانى من كتاب

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

فهرست الموضوعات

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

تمت فهرست الجزء الثانى من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »
والحمد لله أولا وآخراً ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه

